من كنوز القرآن
٩

القصص القرآني

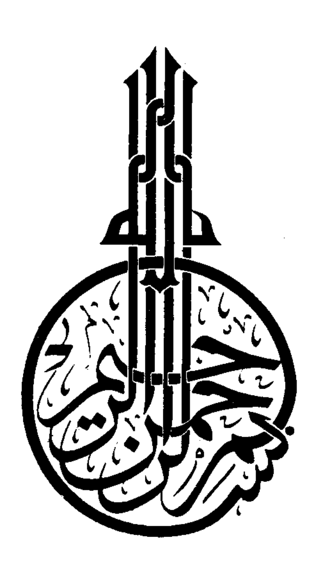
عرض وقائع وتحليل أحداث

تأليف
الدكتور صلاح الخالدي

الجزء الأول

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت


بسم الله الرحمن الرحيم


القصص القرآني

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١].

وقال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١٢٠].

وقال رسول الله ﷺ: «لا تصدّقوا أهل الكتاب، ولا تكذّبوهم، وقولوا: آمنا بالله، وما أنزل إلينا» [صحيح البخاري].





مقدّمة

إن الحمدَ لله، نحمدُه ونستعينهُ، ونتوب إليه ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا، وسيئاتِ أعمالنا، مَن يهدِ اللّهُ فلا مضلَّ له، ومَنْ يُضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه، صلواتُ الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ قد قصَّ علينا في القرآن الكريم قَصصَ أقوام سابقين، وعرضَ لنا بعضَ ما جرى لأنبياء ومرسلين عليهم الصلاةَ والسلام.

وأخبرَنا اللّهُ أنَّ قصصَ هؤلاء في القرآن هو أحسنُ القَصص، وهو القصصُ الحق، لأنه هو الذي تفضَّلَ بقَصِّه وذِكْره، وأخبرَنا أن القَصصَ القرآنيَّ في القرآن ليس لمجرّدِ التّسلية والاستمتاع، وإنما هو معروضٌ لتحقيقِ أهدافِ علمية وفكرية، وتربويةِ ودعوية.

إنَّ السّامعين يتفكَّرون عندما يسمعون قَصص القرآن: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وإنّ أولي الألباب يَعتبرون من قصص القرآن: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

وإنَّ الدعاةَ يزدادون ثَباتاً على الحق، وإصراراً على مواجهةِ الباطل، عندما يطَّلعون على مواقفِ الأنبياء والمرسلين من أقوامهم:

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾ [هود: ١٢٠].

ولذلكَ وردَ القَصصُ القرآني في آيات عديدة من سور القرآن، وأخذَ مساحةً عريضة من القرآن، وكان من أهمِّ موضوعاته وأوَّلياته.

وقد أقبلِ علماءُ المسلمين على القَصصِ القرآني دارسين وباحثين، ومتدبرين محلِّلين، سواء كانوا من المفسرين أو المؤرخين، أو من غيرهم من العلماء والمؤلفين.

فما من مؤرخٍ من المسلمين إلا وقد وقفَ أمام قَصص القرآن أثناء حديثِهِ عن حلقاتَ التاريخ البشري الماضي، وما من مفسرٍ إلا وقد وقفَ أمام قصص القرآن، وهو يُفسرُ الآياتِ التي تتحدث عنه.

وقد خصَّ بعضُ المؤلفين قَصص القرآن بمؤلَّفٍ خاص، وكتاب مستقل، وتحدث فيه عن تلك القَصَص.

ووقفَ الكاتبون المعاصرون أَمام قَصص القرآن، جامعين محللين، ودارسين متدبرين، وظهرتْ عدةُ مؤلَّفات في هذا العصر، تتحدثُ عن قصص القرآن، وتحللُ أحداثَه ووقائعَه.

منها: قصصُ الأنبياء في القرآن لعبد الوهاب النجار، وقصصُ القرآن لمحمد أحمد جاد المولى، وتاريخُ الأنبياء في القرآن لمحمد الطيب النجار.

ومِن أكثرِ الكتبِ انتشاراً كتاب «قصص الأنبياء» للإِمام ابن كثير، الذي كان أولَ مَن أصدره هو الدكتور مصطفى عبد الواحد.

وفي الحقيقة: إن الإِمامَ ابن كثير لم يؤلّف كتاباً خاصاً في قصص الأنبياء، وإنما تحدثَ عنهم في بدايةِ تاريخه الذي سماه «البداية والنهاية» فقام الدكتور مصطفى عبد الواحد ـ سامحه الله ـ بأخْذِ كلام ابن كثير عن الأنبياء من تاريخه، وإِصدارِه في كتاب، دونَ أنْ يشيرَ إلى أنَّ هذا الكلام مأخوذٌ من تاريخ ابن كثير «البداية والنهاية»، فظنَّ القراءُ أنَّ عبد الواحد قد حققَ كتاباً خاصاً أفرده ابن كثير لقصص الأنبياء.

ولدى مقارنةٍ سريعة بين «قصص الأنبياء» وتاريخ «البداية والنهاية»، نرى أنَّ الكلامَ في الموضعيْن واحد، لا يزيد ولا ينقص. وكان على عبد الواحد أنْ ينصَّ على غلافِ الكتاب أنه مُسْتَلٌّ من تاريخ ابن كثير بالنص، لئلا يوقع القراءَ في هذا اللَّبس!.

ومن الكتبِ المعاصرة في قصص الأنبياء كتاب عفيف عبد الفتاح طبارة: «مع الأنبياء في القرآن»، الذي قدَّمَ فيه تحليلاتٍ جيدة في قصصهم، لكنه لا يخلو من بعضِ المؤاخذات، منها قَبولُه لبعض الروايات غير الموثوقة في أَحداث القصص، التي استمدَّها من كُتب التاريخ والإسرائيليات.

ومن الكتب المعاصرة أيضاً كتاب «القصص القرآني: إيحاؤه ونفحاته» للدكتور فضل عباس، وقد أَدارَ الدكتورُ كتابَه على موضوع واحد، وهو نفيُ التكرار عن القرآن، وهو يوردُ القصص في سوره، وقد بيَّنَ الدكتور ما أضافَتْه كلُّ سورة من إضافات، فيما عرضَتْه من لقطاتِ ومشاهدِ القصة.

ومن آخرِ ما نشر حول القصص القرآني، كتاب «نظرات في أحسن القصص» للدكتور محمد السيد الوكيل، الذي نشرتْه له دار القلم عام ١٩٩٤ في مجلّديْن. وسجّلَ الدكتورُ الوكيل نظراتٍ طيبة، وتحليلاتٍ رائعة، لكن مما يؤخَذُ عليه أنه لم يلتزمْ بالمصادرِ والموارد اليقينية الصحيحة، المحصورةِ في آيات القرآن، وما صحّ من أحاديث رسول الله ﷺ، وإنما أخذ بعضَ المعلوماتِ والتفصيلات عن بعضِ العلماء السابقين، الذين أَخذوها بدورهم عن الإِسرائيليات.

وكم كنا نتمنى لو بقيَ الدكتورُ الوكيل مع الآيات والأحاديث الصحيحة، وهو يثبتُ أحداثَ ووقائعَ القصص، إذنْ لكان كتابه من أجودِ ما كُتب في موضوعه.

ورغمَ كثرةِ ما ظهرَ من كتبٍ ودراسات قديمة ومعاصرة عن

قصص القرآن، فإنني أعتقدُ أن الساحةَ العلميةَ والثقافيةَ الإِسلامية تتسعُ للمزيد، وأنَّ قصص القرآن تُعطي الجديدَ المفيد من الفوائد والدروس للناظرين والدارسين والباحثين.

وقد سبقَ أنْ أَصْدَرْتُ دراسةً عن بعض جوانبِ القصص القرآني، وهي «مع قصص السابقين في القرآن» بحلقاتها الثلاث، التي صدرتْ قبل أكثر من خمسِ سنوات.

وقد خصصتُ تلك الدارسةَ لتدُّبر وتحليل قصصِ غيرِ الأنبياء في القرآن، كقصةِ ابنَيْ آدم، وقصة هاروت وماروت، وقصة الذي مر على قرية، وقصة الذي انسلخ من آيات الله، وقصة مؤمن آل فرعون، وقصة قارون، وقصة لقمان، وقصة سبأ، وقصة أصحاب الكهف، وقصة ذي القرنين، وهكذا.

وقد درَّسْتُ مادةَ «القصص القرآني» في كليةِ الشريعة في الجامعة الأردنية، وفي كليةِ الدعوة وأصول الدين، أكثرَ من مرة، كما أَلقيتُ دروساً دوريةً في تحليلات القصص القرآني في أكثر من مسجد، ولله الحمد.

وكنتُ وما زلتُ أُطالبُ بالاكتفاءِ بالمصادرِ اليقينية الصحيحة، التي نأخذُ منها القصصَ القرآني، وهذه المصادرُ محصورةٌ في الآياتِ الصريحة والأحاديثِ النبوية الصحيحة، ولا أُجيزُ أَخْذَ وقائع وأحداثِ القصصِ القرآني من الإِسرائيليات، أو غيرِها من المصادرِ غيرِ الموثوقة الأخرى.

وإنَّ مما يؤسَفُ له أن الكتبَ القديمةَ والمعاصرة، التي تتحدثُ عن وقائع القصص القرآني لم تسلَمْ من وجود إسرائيلياتٍ فيها، على تفاوتٍ في الكميةِ الموجودة فيها من تلك الإِسرائيليات! وفسَّرَ أصحابُ تلك الكتب آياتِ القرآن بتلك الأقاويلِ والإِسرائيليات.

وكثيراً ما كنتُ أُسْأَلُ من قِبَلِ الطلبة أو المتابعين، عن أجودِ كتابٍ يتحدثُ عن أحداث القصص القرآني بطريقةٍ موضوعية، وليس فيه إسرائيليات، فلا أجدُ كِتَاباً شاملاً لذلك وخالياً من الإِسرائيليات، وكنتُ أقول لهم: أجودُ كتابٍ قديم هو كتابُ قصص الأنبياء لابن كثير، وأجودُ كتاب معاصرٍ هو «مع الأنبياء في القرآن» لعفيف طبارة، مع ما عليهما من مآخذَ منهجية بسبب اعتمادهما على الإِسرائيليات أحياناً، لكنهما أجودُ الكتب الموجودة، حتى إشعارٍ آخر!

وكانوا يستحثّونني على إِصدارِ كتاب يتّصفُ بما كنتُ أقرّرُه وأوضّحُه من منهجِ إثباتِ وقائع القصص القرآني، والاكتفاءِ في ذلك بالقرآن والحديث الصحيح، فكنتُ أَعِدُ خيراً، وأَكِلُ هذا إلى إرادةِ الله وقَدره ومشيئته سبحانه، ولا ندري ما يقدِّره لنا، ومتى يشاءُ ذلك!

وأَبديتُ رغبةً لأخي الأستاذ الشيخِ إبراهيم العلي بضرورةِ قيام أحد العلماء بجمْعِ ما صحَّ من أحاديث رسول الله ﷺ، حول وقائعِ وأحداثِ القصص القرآني، جَمْعُها مِن كُتُب الحديث المتفرقة، وتخريجها، وتحقيقها، وتقديمُها للقارئ، ليستغنيَ ويكتفيَ بها عن الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وعن الإِسرائيلياتِ والأساطير، التي تسلَّلَتْ إلى كلِّ الكتبِ المؤلفة في القصص القرآني.

وسرعانَ ما لبّى أخي الشيخ إبراهيم العلي الرغبة، وقامَ بجمْعِ الأحاديثِ الصحيحة، وهو من أهلِ هذا الفنِّ والعلم الحديثي النابهين، وسجَّلها في رسالته «الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء».

وقد أَكرمني بإعطائي نسخةً من هذه الرسالة قبل طباعتِه لها، حيث استفدتُ منها كثيراً في هذه الدراسة، واعتمدتُ عليها في أخذ الأحاديثِ الصحيحة المتعلقة بالقصص القرآني، واعتمدتُ تخريجه لتلك الأحاديث وحكْمَه عليها، وأثبتُّ ذلك في هوامش الصفحات، فجزاه الله عني وعن العلم وأهلِه وعن حديثِ رسول الله ﷺ خيرَ الجزاء!!.

إنني أعتقدُ أن الحاجةَ ماسةٌ لإصدارِ عدةِ دراساتٍ حول القصص القرآني، وهي:

١ ـ **القصص القرآني**: عرض وقائع وتحليل أحداث: يكونُ جهدُ الباحثِ فيه محصوراً في إثباتِ تفصيلات وأحداثِ القصص القرآني، ويجبُ أن يكونَ استمداده لها من المصادر الصحيحة، المتمثلةِ في القرآن والحديث الصحيح.

٢ ـ **القصص القرآني**: توجيه مواقف وحل إشكالات:

يجمعُ الباحثُ فيه الآيات القرآنية التي تسجلُ بعضَ المواقف لبعض الأنبياء، والتي اختلفَ الناسُ في فهمها وتوجيهها، وذَهبوا إلى الإسرائيليات في حلِّ إشكالاتِها، فوقعوا في إشكالاتٍ أشدّ.

فيتولّى الباحثُ توجيهَ تلك المواقف، وحلَّ تلك الإشكالات، انطلاقاً من المنهج العلمي في استمدادِ ذلك من الكتاب والسنة.

من تلك الإشكالاتِ على سبيل المثال: التوفيقُ بين نبوةِ آدم ومعصيته، وكيفَ وسوسَ إبليسُ لآدم مع طرده من الجنة؟ وكيف سأل نوحٌ ربه عن ابنه الكافر؟ وتوجيهُ قتلِ موسى للقبطي، وتوجيهُ قصة داود مع الخصمين والمئة نعجة، وتوجيهُ قصة سليمان مع الجسدِ على كرسيه، وتوجيهُ رفع عيسى للسماء مع توفيةِ الله له، وتوجيهُ قصةِ الرسول ﷺ مع زينب بنت جحش وزيد بن حارثة. . .

٣ ـ **القصص القرآني**: أصولٌ جوامع وقواعدُ مشتركات:

ينظرُ فيه الباحث في القصص القرآني، من خلالِ جمعِ القِصص كلِّها، واستخراجِ أصولٍ عامة جامعة، وقواعدَ مطردة مشتركَة، وسننٍ ربانية ثابتة، ومواقفَ دعوية مؤثرة، وتقديمِ دروسٍ جامعة من القِصص كلِّها، في الإيمانِ والدعوة، وفي المواجهةِ والتحدي، وفي الجهادِ والثبات، وفي مواقفِ الأعداء وحربهم للأنبياء، وتوظيف الأدلة على كل مسألةٍ من مشاهِد ووقائعِ القصص القرآني المبثوثةِ في السور والآيات.

٤ ـ **القصص القرآني**: ظواهرُ عامة وسماتُ شخصيات:

يقومُ فيه الباحثُ بتدبُّرِ الآيات التي تتحدثُ عن أشخاصِ القصصِ، سواء كانوا أنبياء وأتباعاً مؤمنين، أو كانوا أعداءً لهم محاربين، ويحلّلُ الباحثُ نفسياتِ وحركات وبواعث ومواقف كل نموذج، سواء كان سلبياً أو إيجابياً ويبينُ الباحثُ الصفات العامة الجامعة لهم على اختلاف الزمان والمكان، ويوردُ الشواهدَ على هذا من النماذج المعروضة أمامه في القرآن.

هناك ما يسمّى بالظواهرِ العامة للشخصيات القرآنية، المعروضةِ في القصص القرآني.

هناك ظواهرُ فاضلة في الجانبِ الإِيجابي، مثل: الظاهرة الآدمية، والظاهرة الإِبراهيمية، والظاهرة اليوسفية، والظاهرة الموسوية، فما هي أهمُّ ملامحِ وسمات كل ظاهرة، باعتبارِها ظاهرةً إيمانية ـ بغض النظر عن كون صاحبها نبي ـ تتكررُ في أيِّ زمان مكان، وتتمثلُ بصورة أبطالِ روادٍ هنا أو هناك.

وهناك ظواهرُ سلبيةٌ معقدة في القصص القرآني، مثل: الظاهرة الإِبليسية، والظاهرة الفرعونية، والظاهرة القارونية، والظاهرة اليهودية، والظاهرة النصرانية. فما هي أهمُّ سماتِ وملامح كل ظاهرة، وكيف يُنزلُ هذه الظاهرةَ على أشخاص أو أقوام، يوجَدون في أي زمان ومكان، وكيف يُحذِّرُ من الاتصافِ بتلك الملامح والسمات!

نرى أن هذه الدراسات لا بدَّ من إعدادِها وإصدارها، لتغطيةِ هذه الجوانب في القصص القرآني، وتقديم خدمةٍ ضرورية لمسلمي هذا الزمان، وبالذات العلماء والدعاة وأهلِ الإِصلاح منهم.

ونعتقدُ أنَّ كلَّ هذه الدراسات تعتمدُ على الدراسة الأولى: «القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث»، لأنَّ هذه الدراسةَ

تضعُ بين أَيدي الباحثين المادةَ الأوليةَ لأحداثِ القصص القرآني، مستمدةً من القرآن والحديث الصحيح، وعليهم هم بعد ذلك أنْ يَستنبطوا منها ما يَفتحُ الله به عليهم من نتائجَ وتحليلات!

وها قد بدأتُ بإعدادِ الدراسة الأولى: «**القصص القرآني**: عرض وقائع وتحليل أحداث» ولله الحمد. ولا أَدري ما يقدرهُ اللّهُ لي في المستقبل! فإنْ يَسَّرَ اللّهُ اللطيفُ بلطفه، وأعانني على إصدار تلك الدراسات الثلاث الأخرى المتعلقة بالقصص القرآني، فهذا فضلٌ وكرمٌ وإِنعامٌ منه سبحانه، وأرجو أنْ يعينني بعون منه على ذلك.

وإنْ لم يقدّر اللّهُ لي ذلك، وقدَّره لغيري ممن هو أفضلُ مني من الباحثين، فأنا راضٍ بما يقدره ويريده سبحانه، وأعتقدُ أنه عليمٌ حكيم خبير في كل ما يُقَدِّر. وله الحمد والشكر.

ولقد جاءت هذه الدراسة «القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث» في أربعة أجزاء.

الجزء الأول: بدأتُه بتقرير المنهجِ المعتمدِ في إثباتِ وقائع وأحداث القصص القرآني، ذلك المنهجُ المستمدُّ من الآياتِ والأحاديث الصحيحة، وأوضحتُ كلَّ ذلك في «كلمة في المنهج» في مطلعِ هذا القسم.

ثم تحدثتُ عن وقائعِ وأحداث وتفصيلات قصص الأنبياء الكرام: آدم، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ولوط، عليهم الصلاة والسلام.

وعرضتُ وقائعَ قصص هؤلاء الأنبياء الثمانية عليهم الصلاة والسلام، من خلال الآياتِ القرآنية، وما صحَّ من أحاديثِ رسول الله ﷺ، واعتمدتُ في الأحاديث على رسالةِ أخي الأستاذ الشيخ إبراهيم العلي «الأحاديث الصحيحة في قصص الأنبياء» جزاه الله خيراً.

وقدمْتُ هذه الوقائعَ بدونِ تحليلاتٍ أو استنتاجات، لأنَّ هدفي هو

تقديمُ تصوُّرٍ كاملٍ لقصة كلِّ نبي منهم مع قومه، كما هي في الكتابِ والسنة، أما النتائجُ والدروسُ والعبرُ والعظات، فنتركُها لدراسةٍ قادمة، إنْ قدَّرَ اللّهُ وأنسأَ في الأجل، ومنحَ الصحةَ والعافيةَ والقدرةَ على العمل!!

الجزء الثاني: عرضت فيه قصة شعيب، وقصة يعقوب، وقصة يوسف، والقسم الأول من قصة موسى، عليهم الصلاة والسلام.

الجزء الثالث: استكملت فيه قصة موسى عليه السلام مع فرعون، ثم مع بني إسرائيل، ثم عرضت قصة داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام.

الجزء الرابع: عرضت فيه قصص أنبياء آخرين بعد داود وسليمان. وهم: أيوب، ويونس، وإدريس، وإلياس، واليسع، وذو الكفل، وزكريا، ويحيى، وعيسى ابن مريم، عليهم الصلاة والسلام.

إنني قد تعهَّدْتُ في هذه الدراسة أَنْ أُنَزِّهها عن إيرادِ أيٍّ من الإسرائيلياتِ والأخبارِ والروايات غير الصحيحة، والتزمْتُ بأن لا أزيدَ على ما في الآياتِ والأحاديثِ الصحيحة من وقائع وتفصيلات، وألزمتُ نفسي أثناءَ إعداد الدراسة أنْ أبقى مع الآيات والأحاديث، فقلتُ بما قالَتْ به، وتوقفْتُ عند ما توقفَتْ عنده، وسكَتُّ عما سكتَتْ عنه تلكَ النصوص.

وإنني أقدمُ هذه الدراسة للإِخوة الدارسين والباحثين، راجياً منهم التَكَرّم بالدعاءِ لي بظهر الغيب، طالبين من اللّهِ الأجرَ والثوابَ وحسنَ الجزاء لي إنْ راقَ لهم بعضُ كلامي، وطالبين من اللّهِ العفوَ والتجاوزَ عني، إنْ رأَوْا خطأً وَقَعْتُ فيه، وأرجو إكرامي بإخباري عن ذلك، لأَتلافاهُ فيما بعد.

وإلى الله أتوجه بهذا العمل، راجياً منه حسن القبول، وجزيل الجزاء، وكريم الثناء.

والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي
الأردن - صويلح

الإثنين ١/٨/١٤١٨هـ
١/١٢/١٩٩٧م

«كلمة في المنهج»

القصص القرآني
بين
صادق المعلومات وادعاءات الإسرائيليات



القَصصُ في اللغة

معنى القصص في اللغة:

مادةُ «قَصَص» واردةٌ في اللغة.

قال الإمامُ ابنُ فارس في «معجم مقاييس اللغة» عن القَصص: «القَصّ: يدلُّ على تَتَبُّعِ الشيء. مأخوذٌ من قولك: اقتصَصْتُ الأَثَر: إذا تتبَّعْتُه.

ومن ذلك اشتقاقُ «القِصاص» في الجِراح. وذلك أَنه يُفْعَلُ به مثلُ فعْلِه بالأَول، فكأنه اقتصَّ أَثَره.

ومن الباب: القِصةُ والقَصص: حيثُ يُتَتَبَّعُ فَيُذْكَر.

والصدرُ هو القَصّ، وهو عندنا قياسُ الباب، لأنه متساوي العظام، كأنَّ كلَّ عظمٍ منها يَتْبعُ الآخَر.

ومن الباب: قصُّ الشعْر. وذلك أنكَ إذا قصَصْتَه فقد سَوَّيْتَ بين كلِّ شعرةٍ وأختها، فصارت الواحدةُ كأنها تابعةٌ للأخرى مساويةٌ لها في طريقها»[(١)].

وقال الإمامُ الراغب الأصفهاني في كتاب «المفردات» عن القَصص: «القص: تتبع الأثر. يقال: قصصت أثره. والقصص: الأثر.

(١) معجم مقاييس اللغة ٥: ١١.

والقَصص: الأخبار المتَتَبَّعَة. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢]»[١].

وقال الإمامُ أبو البقاءِ الكَفَوي في كتاب «الكليات» عن القَصص: «القصةُ هي: الأمر، والخبر.

وقَصَصْتُ الحديث: رَوَيتُه على وجهه.

ومعنى قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]: نحن نبينُ لك أحسنَ البيان.

وقَصَّ عليه الخبر قَصَصاً. بفتح القاف.

والقِصَص: بكسرِ القاف: جمعُ قِصة»[٢].

والخلاصةُ من الأقوالِ السابقة أنَّ مادة «قصص» تقومُ على التَّتَبُّع، سواء كانَ التتبعُ مادياً كقصِّ العِظام، وقصِّ الشعر، وقص الأثر، أو كان التتبعُ معنوياً كِقصِّ الأخبار، وقصِّ الكلام.

شرطان للقصص:

وهذا التتبعُ والقَصُّ لا بدَّ فيه من أمرين:

الأول: تَتَبُّعُ الشيء أو الخبر كما هو، وعلى وجهِه الصحيح الذي حدثَ عليه.

والثاني: التساوي عند التتبع، والحرصُ على المساواة أثناءَ المتابعة، ففي القصِّ المادي تكونُ المساواةُ ماديةً ملحوظة، فقصُّ الشعر والحجر والعظم، يكونُ بوضعِ الجميع على قَصٍّ ومقاسٍ واحد، لا يطولُ ولا يقصر.

وفي القصِّ المعنويِّ للروايات والأخبار: لا بدَّ من المساواة عند

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن: ٦٧١.

(٢) الكليات لأبي البقاء: ٧٣٤.

التتبع والمتابعة، بأنْ يكونَ الخبرُ مروياً ومقصوصاً كما هو، لا يزيدُ القاصُّ شيئاً من الأحداثِ والإضافاتِ على الأصل، فعليه أنْ يكونَ كلامُه مساوياً للخبرِ الواقع من قبل، بدون زيادةٍ ولا نقصان.

ولهذا قال أبو البقاء: قصصتُ الحديث: رويتُه على وجهه. أي: رويتهُ كما هو بحسنِ التتبع، ودقةِ التساوي، بأن لا يزيدَ عليه ولا يُنقصَ منه.

ولا بدَّ من تحقيقِ الأمريْن في كل روايةٍ أو قصٍّ أو إخبارٍ عن أحداث السابقين ووقائعهم، التي وردتْ في القرآن: حُسْنُ التتبعِ والجمع لهذه القصص، وحُسْنُ التساوي بين الروايةِ والحدثِ السابق.

ونقدم هذيْن الشرطيْن للذين يتعاملون مع القَصص القرآني، وذلك ليلتزموا بهما، بدونِ زيادةٍ ولا نقصان.

ونُذَكِّرُ بالفرقِ بين القَصص ـ بالفتح ـ وبين القِصص ـ بالكسر ـ فالقِصص ـ بكسر القاف ـ هي جمعُ قصة. تقول: فلانٌ يكتبُ القِصَصَ ويرويها.

أما القَصص ـ بفتح القاف ـ فهو الأخبارُ والرواياتُ التي يتتبعها القاصُّ ويرويها. كما أنه يَرِدُ بمعنى المصدر، تقول: قَصَّ قَصّاً وقصصاً.



القَصصُ في القرآن

وردتْ مادةُ «قَصص» على اختلافِ اشتقاقاتِها وتصريفاتها في القرآنِ ثلاثينَ مرة:

في صورةِ الفعل الماضي، أربعَ مرات.

وفي صورةِ الفعل المضارع، أربعَ عشرة مرة.

وفي صورةِ فِعْل الأمر، مرتان.

وفي صيغة «القصص»، ست مرات.

وفي صيغة «القِصاص»، أربع مرات.

وفيما يلي وقفةٌ سريعة مع هذه المادة في القرآن.

وقفة سريعة مع القصص في القرآن:

١ ـ القِصاص: وهو حكمٌ جنائي، يقوم على الاقتصاص من الجاني، سواء كانت جنايتهُ قتلاً أو إفساداً، أو جرحاً وإتلافاً. والقِصاصُ يقوم على تتبعِ الشيء والفعل، فيُفعلُ بالجاني كما فَعل هو بالمجنيِّ عليه.

٢ ـ قَصَصاً: منصوبة منونة نكرة. وردتْ مرةً واحدة في القرآن.

في الإِخبارِ عن موسى عليه السلام وفتاه، وذلك في قولِه تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤].

فعندما أَضاعَ فتاه الحوت، وسارا مسافةً طويلة، شعرا فيها بالنصَبِ والتعب، تذكّر الفتى فقدان الحوت، واقترحَ على موسى العودةَ إلى الصخرة، فاتفقا على ذلك، وعادا إلى الصخرة، يسيران على آثارِ أقدامهما، ويقصّانِ آثارَ سيرهما، كاقتصاص الأثر.

و«قَصصاً»: مصدرٌ وقعَ حالاً، ويُرادُ به اسمُ الفاعل. أي: ارتدّا على آثارهما، مقتَصّين أَثَر الأَقدام اقتصاصاً.

وهي واردةٌ بمعنى القَصّ والاقتصاصِ المادي، الذي يقومُ على تتبعِ الأثر.

إسناد القصص إلى الله:

٣ ـ أُسندَ القَصصُ إلى الله تعالى في القرآن أحياناً، فاللّهُ بذاته العلية سبحانه، يقومُ بالقصّ على رسولهِ ﷺ قصص السابقين، وذلك عن طريقِ تتبع أَحداثهم ورواياتها، وقَصّها على الرسولِ عليه الصلاة والسلام، في آيات القرآن.

من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٧٨].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

ومنها قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف: ٣].

ومنها قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الأعراف: ١٠١].

ومنها قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

إسناد القصص إلى الرسل والقرآن:

٤ ـ وأُسندَ القَصصُ إلى الرسلِ أحياناً، لأنهم هم الذين يقصون آياتِ الله على الناس.

وهذا الإسنادُ في قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠].

٥ ـ وأُسندَ القصصُ إلى القرآن نفسه، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

٦ ـ وأَخبرَ القرآنُ عن ما جرى لموسى عليه السلام، عندما غادرَ مصر إلى أرضِ مدين، والتقى هناكَ مع الرجلِ الصالح، وقصَّ عليه ما جرى له، فطمأنه الرجلُ الصالح.

قال تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

٧ ـ ولما وضعتْ أمُ موسى ابنَها في اليم، كما أمرها الله، أَمرتْ أختَه أنْ تتابعَ سيرَ التابوت الذي فيه موسى، لتعرفَ أينَ يستقر. قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ١١].

٨ ـ وأمرَ اللّهُ رسولَه ﷺ أنْ يقصَّ القصص الذي أخبره الله به، لعلَّ الناسَ يتفكَّرون ويتعظون، وجاءَ الأمر بهذا في التعقيبِ على قصة الذي آتاه الله آياتِه فانسلخَ منها، كما أوردَتْها آياتُ سورة الأعراف.

وقد وردَ، التعقيب في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

٩ ـ وأخبَر اللّهُ أنَّ مَنْ يسمعُ قصصَ السابقين المذكورَة في القرآن، فإنه يعتبرُ ويتعظ. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١].

١٠ ـ وجاءَ وصفُ القصص القرآني بأنه القصصُ الحق، وكان هذا الوصف في سياقِ جدالِ الرسول ﷺ مع النصارى بشأن عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [آل عمران: ٦٢ ـ ٦٣].





القَصَصُ القرآني
صفاته وأهدافه

قصَّ اللّٰهُ سبحانه وتعالى علينا في القرآن قصصَ كثيرٍ من السابقين، وأخبرَنا عما جرى للأنبياءِ مع أقوامهم، قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣].

وقد شملَ القصَصُ مساحةً كبيرة في القرآن، بحيث لا تكادُ تخلو منه سورة، وبعضُ السور استغرقَ القصصُ آياتِها، كسورةِ القصص وسورة يوسف.

ذكرَ اللّٰهُ لنا قصصَ بعض الأنبياء، ولم يذكُرْ لنا قَصصهم كلِّهم، وعلى هذا وردَ قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤].

ومَنْ لم يَذكر اللّٰهُ قَصصهم من الأنبياء أضعافُ مَن ذكرهم، والأنبياءُ المذكورون في القرآن، لم تُذكر قصصُهم مفصَّلة، بل المذكورُ جزءٌ يسير من قصصهم، ومشاهدُ ولقطاتٌ مختارة منها، تحققُ الهدفَ والعبرة.

وسُميث بعضُ السورِ بأسماءِ بعضِ الأنبياء، الذين وردتْ قصتُهم في القرآن، وهي سور: يونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، ومحمد، ونوح، عليهم الصلاة والسلام.

وقصصُ بعضِ الأنبياء مطولة، كقصةِ إبراهيم وقصة موسى، وقصة يوسف عليهم الصلاة والسلام.

وقصصُ بعضِ الأنبياء متوسطة في الطول، لا هي قصيرة ولا هي مطولة، كقصةِ يونس، وقصة سليمان، وقصة لوط، عليهم الصلاة والسلام.

وقصصُ بعض الأنبياء قصيرة، كقصةِ إسماعيل، وقصة إسحاق.

وهناك بعضُ الأنبياء لا نعرفُ عنه إلا اسمه، مثل إلياس، واليسع، وذي الكفل، عليهم الصلاة والسلام.

تقسيم القصص القرآني:

والقصص القرآني نوعان:

الأول: قَصص الأنبياء: والأنبياءُ الذين وردت قصصهم في القرآن ـ مع التفاوتِ في المادة المعروضة ـ هم: آدم، نوح، هود، صالح، إبراهيم، إسماعيل، إسحاق، لوط، شعيب، يعقوب، يوسف، موسى، هارون، داود، سليمان، يونس، إلياس، إدريس، زكريا، يحيى، عيسى، ثم مُحمد، عليهم الصلاة والسلام.

الثاني: قَصصُ غيرِ الأنبياء: وهي: قصةُ ابنَيْ آدم، وقصة هاروت وماروت، وقصة الذي مر على القرية، وقصة الذي انسلخ من آيات الله، وقصة أصحاب السبت، وقصة أصحاب القرية، وقصة أصحاب الأخدود، وقصة أهل الكهف، وقصة صاحب الجنتين، وقصة ذي القرنين.

وهناك قَصصٌ لا نجزمُ أنَّ أصحابَها أنبياء، لعدمِ ورودِ حديثٍ صحيح معتمد، يُثبتُ لهم النبوة، كقصة لقمان.

وهناك قَصصٌ متصلةٌ مع قصص الأنبياء، فقصة أُمِّ موسى متصلةٌ بقصة موسى، ومما يتصل بقصة موسى أيضاً، قصةُ قارون، وقصةُ مؤمن آل فرعون، وقصةُ بقرة بني إسرائيل، وقصةُ تيه بني إسرائيل، وقصةُ رحلة موسى مع الخضر.

وقصةُ ملكة سبأ متصلةٌ مع قصة سليمان، وقصةُ مريم متصلة مع قصة عيسى، وقصة المائدة متصلة مع قصة عيسى، وقصة طالوت وجالوت متصلة مع قصة داود.

هو أحسن القصص:

وقد وردتْ آياتٌ في القرآن، تشيرُ إلى طبيعةِ القصص القرآني، وتتحدثُ عن صفاته، وتخبرُ عن أهدافه.

من هذه الآيات قولُه تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف: ٣].

تخبرُ الآيةُ أن اللّهَ بذاته العلية سبحانه هو الذي تولّى القصَّ على رسولِه ﷺ، وهذا كرمٌ منه وفضل، وهذا يدلُّ على أهميةِ القصص في التوجيه والدعوة، وهذا يدعو إلى الثقةِ بكلٍّ ما قصه الله علينا وتصديقِه، والجزمِ بأنه وقعَ كما أخبر الله، والاكتفاءِ بما ذكره الله، وعدمِ خلطه بما لم يصح في الإِسرائيليات والأساطير.

ووَصفت الآيةُ قصصَ القرآن بأنه أحسنُ القصص، أي أنه أحسنُ من القصص البشري، مهما كانَ أسلوبُ القاص من البشر، ومهما كانت بلاغتُه وموهبتُه.

وحُسنُ القصص القرآني يتجلّى في: الحُسْنِ الفني، فهو معروضٌ في القرآن بأسلوبِ التصوير الفني، والجمال البياني المؤثر المعجز.

ويتجلّى في الحسن الموضوعي، حيث يَعرضُ لنا أخباراً أو معلوماتٍ عن ذلك التاريخ الماضي وأحداثه.

ويتجلّى في الحُسْنِ الأخلاقي، لأن كلَّ ما فيه حق وصدق، لا كذبَ فيه ولا تصرفَ بزيادةٍ أو نقصان.

ويقدمُ القصصُ القرآني الدروسَ والعبر والعظاتِ والدلالات المختلفة، سواء كانت دلالاتٍ عقيدية أو علمية أو دعوية أو جهادية أو تاريخية أو أدبية أو فنية.

وقد جعلَ القرآنُ ورودَ القصص فيه دليلاً على نبوة مُحمد ﷺ، فهنا في الآية يقولُ اللّهُ لرسوله ﷺ: ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾. أي: لم تكن تعرف أنت هذا القصص، لأنك أمي وسط قوم أميين، والله هو الذي أعلمك بها في القرآن، لأن القرآن كلامه، وأنت رسول له سبحانه.

وبعد سردِ قصةِ يوسف عليه السلام، نصت الآياتُ على هذا الأمر مرةً أخرى، وذلك في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف: ١٠٢].

هو القصص الحق:

وقد وُصفَ القصصُ القرآنيُّ بصفةٍ أخرى، وهي الحقُّ والصدق، ووردَ هذا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ [آل عمران: ٦٢].

قصصُ القرآن هو القصصُ الحق، والحقُّ هنا معناه الصدق والصحة والصواب، من حيثُ المعنى والمضمون والمحتوى، فكلُّ ما وردَ في القرآن من القصص فهو حق، سواء كان موضوعُه عقيدةً أو دعوة، أو تشريعاً أو توجيهاً.

ولا ننسى أن هذه الآية واردةٌ في سياقِ آياتِ أخرى، نزلتْ في جدالِ ونقاشِ الرسول ﷺ مع نصارى نجران، بشأن عيسى بن مريم عليه السلام، فمن المعلوم أنَّ النصارى كانوا يؤلِّهون عيسى عليه السلام، ويجعلونَه إلهاً أو ابناً لله، وأكد لهم رسولُ الله ﷺ أن عيسى هو عبدُ الله ورسوله.

وأنزلَ اللّهُ آياتٍ من سورة آل عمران، تتحدثُ عن ولادةِ مريم أولاً، ثم عن حملِها بعيسى بأمر الله، وولادتِها له، وكلامِ عيسى في المهد، وتقريرِه أنه عبد الله، وليس ابناً له.

وختمت الآياتُ قصةَ عيسى عليه السلام بقولها: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾. وهذا يدلُّ على تكذيبِ النصارى في مزاعمهم حول عيسى، وعلى تقريره أن كلَّ ما خالف وناقض قصص القرآن الحقِّ الصادق، فهو كذبٌ وزور وباطل!.

إنَّ الوصفيْن الوارديْن للقصص القرآني في القرآن وصفان دالآن كاشفان، ويُشيران إلى طبيعةِ هذا القصص: إنه أحسن القصص، وإنه القصصُ الحق، الذي تولّى اللّهُ قصَّه على رسوله ﷺ، وأخبرنا به في القرآن، كرماً منه وفضلاً.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ [هود: ١٠٠ ـ ١٠١].

أهمية القصص القرآني:

ونظراً لأهميةِ القصص القرآني، بحيث تولّى الله قصَّه على رسوله، فقد جاء الأمْرُ صريحاً من الله إلى رسوله ﷺ بأن يقصَّ القصصَ القرآني على الناس.

جاء هذا الأمْرُ الإلهيُّ الصريحُ في التعقيبِ على قصة الذي انسلخ من آيات الله، في سورة الأعراف.

قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ

ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٧].

وإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام مأموراً بقصِّ القصص على الأَتْباع وعلى المخالفين، فإنَّ هذا الأمرَ ينسحبُ على مَن بعدَه مِن العلماءِ والخطباء، والدعاةِ والمصلحين، والمتحدثين والكاتبين. وعلى هؤلاء أن يستخدموا في وسائلِهم وأساليبهم مادةَ «القصص القرآني»، وأن يستمدّوها من القرآنِ والحديث الصحيح، وأنْ لا يَزيدوا على هذين المصدريْن، وأنْ يجعلوا هذا القصصَ القرآنيَّ وسيلةً من وسائل التأثير والتوجيه والتقرير والتعليم، لما فيه من دروسٍ ودلالات، وعِبر وعظات.

وهذا يتطلبُ منهم حُسْنَ تعلمٍ وإدراكٍ واستيعابٍ للقصص القرآني، من خلال دراستِه وتعلمِه، وفهمِه وتدبره، والوقوفَ طويلاً أمامه، والالتفاتَ إلى عبره ودلالاته، واستخراجَ حقائقه ولطائفه، وحسنَ عرض ذلك على الآخرين، وأن لا يكتفوا بمجردِ السرد القصصي، بدون وقفاتٍ أو استنتاجات أو تحليلات وتوجيهات.

القصص القرآني والتفكر:

أَما أهدافُ القصصِ القرآني المنصوص عليها في القرآن، فإننا نذكر ثلاثةً منها:

الهدف الأول: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وهذا الهدفُ وردَ في التعقيبِ على قصةِ ذلك التعيسِ الذي انسلخَ من آياتِ الله، وسار مع الباطل، وأتبعه الشيطان، وكانَ من الغاوين،

وصارَ يلهثُ لهاثاً دائماً كالكلب، وكان بإمكانه أنْ يرتفعَ ويرتقي، في عالمِ الفضلِ والعزة والكرامة.

يطالبُ اللّهُ رسولَه ﷺ أنْ يقصَّ قصةَ هذا التعيسِ المنسلخ من آياتِ الله، وأمثالِه وأشباهه، وأنْ يقدمَها للناس، لعلَّهم يتفكرون ويتَّعظون، ويستفيدون ويرتدعون.

إذنْ من أهدافِ القصص القرآني تَفَكُّرُ الناس واتِّعاظُهم، لأن الأصلَ أنْ يفتحوا عقولَهم وقلوبهم لما يسمعونَ من حوادثِ القصص القرآني، وأنْ يَعتبروا بما جرى للهالكين، وأنْ يقتدوا بالصالحين.

والتفكيرُ واجبٌ قرآني، وفريضة إسلامية، لا يجوزُ تعطيلُها، ومن لم يتفكَّر ويتَّعظ بما جرى للسابقين فهو أعمى القلب والعقل والبصيرة. قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٥ ـ ٤٦].

القصص القرآني والاعتبار:

الهدف الثاني: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

إنه الاعتبارُ بما جرى للسابقين، والاستفادةُ من ذلك، ولا يَعتبرُ بهذا إلاّ أولو الألباب والأبصار.

وقد وردَ الهدفُ صريحاً في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

هذه هي الآيةُ الأخيرة في سورة يوسف، وهي تعقيبٌ على قصة يوسف في السورة، وتُبينُ الهدفَ من ذكرِ القصة، وهو ليس التسليةَ أو المتعةَ القصصية، أو السردَ التاريخي، وإنما هو العبرةُ والعظة.

ومن لطائفِ العرضِ القرآني لقصةِ يوسف في سورة يوسف، أنه سبقَ العرضَ الحديثُ عن صفةِ وطبيعةِ القصص القرآني، وتقريرُ أنه أحسن القصص، وأنَّ اللّهَ تولى عرضه وقصه، وأنه دليلٌ على النبوة والوحي.

وختم ذلك العرضَ باستخلاصِ الهدف والنتيجة منه، وتأكيدِ تقرير حقيقة دلالته على النبوة والوحي.

كان افتتاحُ قصة يوسف بقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ الْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف: ٣].

وكان اختتامُ قصة يوسف بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى الْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝١١١﴾ [يوسف: ١١١].

قالَ الإمامُ الراغب في معنى «عبرة» واشتقاقِها: «أَصْلُ العَبْر: تجاوُزٌ من حالٍ إلى حال. واشْتُقَّ منه عِبَرُ العين للدمع. والعَبْرَةُ كالدمعة.

والاعتبارُ والعِبْرَة: بالحالةِ التي يُتَوَصَّلُ بها من معرفةِ المشاهَد إلى ما ليس بمشاهَد. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾ [آل عمران: ١٣](1).

ويكونُ الاعتبارُ بقصصِ القرآن لأولي الألباب، وهم أصحابُ العقولِ الواعية، والبصائر المنيرة، الذين يحسنون استخدامَ عقولهم وحواسهم، ويستفيدون مِن كلِّ ما يشاهدون أو يسمعون، أو يقرؤون ويطالعون.

---

(١) المفردات للراغب: ٥٤٣.

هؤلاء المتيقظون عندما يسمعونَ أو يقرؤونَ القصصَ القرآني، وكلامَه عن الأمم السابقة يَعتبرون، حيثُ يقيسون الأحداثَ الماضية على حياتهم وواقعهم، فيستفيدون من ذلك، ويكونُ الجانبُ الإِيجابيُّ في القصص القرآني قدوةً ودرساً لهم، يقتدون فيه بمواقفِ الأنبياء والمرسلين، وأَتْباعهم من الصالحين العاملين. ويكون الجانب السلبيُّ منه المتمثلُ في مواقف الكفار تحذيراً لهم، فيحذرون السيرَ على طريق أولئك، لئلا يصيبهم ما أصابَهم!.

لكنَّ الغافلين اللاهين لا يَعتبرون من القصص القرآني، ويمرونَ على آياتِه وهم معرضون، لأنّ عقولهم معطلة، وبصائرهم مطموسة.

القصص القرآني وتثبيت الفؤاد:

الهدف الثالث: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾.

إنَّ اللَّهَ أرادَ من إيرادِ القصص القرآني تثبيتَ فؤادِ النبي ﷺ، وقلوبِ أصحابه وأَتْباعه، وقلوبِ أمته في أي زمان ومكان.

وجاءَ هذا في صريح قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١٢٠].

وهذه الآيةُ من أواخرِ آيات سورة هود، جاءتْ تعقيباً على ذكْرِ مجموعةٍ من قصص الأنبياء في السورة. والقِصصُ المذكورةُ في هذه السورة هي: قصةُ نوح، وقصةُ هود، وقصة صالح، وقصة إبراهيم، وقصة لوط، وقصة شعيب، وقصة موسى. عليهم الصلاة والسلام.

قبلَ البدء بسرد هذه القصص جاءَ قولُه تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧].

وبعدَ سرد القصص جاء ذكرُ الهدفِ من ذلك: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾.

قصصُ الأنبياءِ في القرآن تثبيتٌ لقلب النبي مُحمد ﷺ، لأنه ليس وحده على طريقِ الدعوة والرسالة، وإنما سبقَه على هذه الطريق إخوةٌ أنبياءُ كِرام، عليه وعليهم الصلاة والسلام، وهو يواجِهُ كما واجَهوا، ويَسمعُ كما سمعوا، ويُؤذىٰ كما أُوذوا، فعليهِ أنْ يصبرَ كما صبروا، لينتصرَ كما انتصروا..

وإنَّ قصصَ الأنبياءَ يزيدُ يقينَ رسول الله ﷺ أنه على حق، وأَن أعداءَه الكفار على باطل، وأنه سيظفرُ وينتصر، وأنّ دينَه سيعلو وينتشر، وأنَّ أعداءه سيهزمون ويخسرون.

والقصصُ القرآنيُّ تثبيتٌ لأفئدةِ أصحابِ رسول الله ﷺ على الحق، وزيادةُ يقينهم وطمأنينتهم، وزيادةُ دعوتهم وتبليغهم، وزيادةُ مواجهتِهم وتحدِّيهم وجهادِهم لأعدائهم.

حاجتنا إلى القصص القرآني:

والقَصصُ القرآنيُّ يحققُ هذا الهدفَ الرائعَ لكلِّ مَنْ سارَ على طريق رسولِ الله ﷺ في التربية والدعوة، وفي الإِصلاحِ والجهادِ والمواجهة.

كلُّ الدعاة والمصلحين تثبتُ أفئدتُهم وقلوبهم على الحق، عندما يقفون مع القصصِ القرآني ويتدبرونه ويفهمونه، ويقدمُ لهم هذا القصصُ الزادَ والعدة، ويقدمُ لهم المعرفةَ والفائدة، ويمنحهم الوعيَ والبصيرة، ويشحذُ هِمَمهم، ويرفعُ معنوياتِهم، ويسمو بنفوسِهم، ويصوبُ مسيرتَهم وحركتهم.

ما أحوجَ دعاةِ هذا العصر للوقوفِ طويلاً أمام القصص القرآني، وذلك لتحقيقِ هذا الهدفِ الإِيمانيِّ الجهادي الدعوي الحركي، كَي تثبت أفئدتُهم وقلوبُهم، لأنهم يعيشون معركةً شديدةً قاسية مع قوى الباطل، حيث تداعَتْ عليهم أممُ وجيوشُ وأحزابُ الكفر والباطل، واتفقَ الجميعُ على حربِ ومواجهة هؤلاء الدعاة، وإنَّ التاريخ يعيدُ نفسه،

وعندما يحققُ الدعاةُ هذا الهدف من القصص القرآني، فإنهم يحسِنون التعاملَ مع هذه المرحلة، والنجاح في هذه المواجهة.

أهدافُ القصص القرآني الثلاثة هي:

- شَحْذُ العقولِ والأفكار: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.
- تقديمُ العبرِ والعظات: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾.
- تثبيتُ القلوبِ على الدعوة: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾.





القَصصُ القرآني
استمداده ومَوارده

القصصُ القرآنيُّ هو القصصُ الحق، وهو أحسنُ القصص، وقد قصَّه اللّهُ على رسولِهِ ﷺ، ليثبتَ به فؤادَه، وأَمَره بقصِّه على الآخرين لعلَّهم يتفكرون، وجعلَه عبرةً لأُولي الألباب.

ولم يذكر اللّهُ في القرآن كلَّ قصص الأنبياء والسابقين، فهناك الكثيرُ من الأنبياء لم نعرفْ عنهم شيئاً، لأن اللّهَ لم يقصَّ علينا قصصَهم: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾.

ومعظمُ الأنبياء الذين ذُكرتْ قِصصهم في القرآن كانوا يقيمون في منطقةِ العراقِ والشام ومصر والجزيرة العربية. ولم يخبرنا القرآنُ شيئاً عن الأنبياء الذين بعثَهم اللّهُ إلى الأَقوام الآخرين، كالفرس والروم والهنود والصينيين، وغيرهم.

والأَنبياءُ والأقوامُ المذكورةُ قصصُهم في القرآن، لم تُذكر كلُّ مشاهدِ ولقطاتِ قِصصهم بالتفصيل، وإنما ذُكرتْ منها المشاهدُ واللقطاتُ التي تحققُ العبرةَ والعظة.

طريقة القرآن في عرض قصصه:

للقرآن طريقةٌ مطردةٌ في عرض قصص السابقين، فلم يكن هدفُه الاستعراضَ الشاملَ الدقيق لأحداث القصة، ولا متابعةَ كلِّ وقائِعها بالتفصيل الدقيق، ولا السردَ التاريخيَّ المتدرج المنظم.

إنَّ هذه هي مهمةُ المؤرخ، المعنيّ بالمتابعةِ المفصَّلة لكل مشهدِ

أو لقطة أو حدث، والذي يهمهُ تسجيلُ كلِّ جزئية أو خبرٍ أو معلومة، ومَن يريدُ هذه الأشياءَ لن يجدَها في القرآن الكريم، وعليه بمراجعةِ كتبِ التاريخ ليأخذها منها.

علماً بأنَّ التاريخَ الدقيقَ، المفصَّل لكلِّ التفاصيل والجزئيات، لا ينطبقُ على الأقوام السابقين، لأنهم وُجدوا وعاشوا وماتوا قبل المؤرخين المعنيّين بالتفاصيل والجزئيات، والتاريخُ مولودٌ حديثُ العهد، وفاتَه كثيرٌ من التفصيلاتِ المتعلقة بالسابقين، ويستحيلُ على المؤرخين معرفتُها والجزمُ بها!!.

الذي يَعني القرآنَ أثناءَ القَصِّ لقصصِه هو المشاهدُ واللقطاتُ التي تحوي الدروسَ والدلالات، وتقدمُ العبرَ والعظات، فتجدُه يوردُها ويسجلُها ويثبتها، لتقدمَ دروسَها.

إننا لن نجدَ في القرآن سَرْداً تاريخياً مفصَّلاً للقصة، ولا عرضاً شاملاً لكلِّ أحداثها ومواقفِ أشخاصها، والباحثون عن هذه التفاصيلِ لن يجدوها في القرآن.

القرآنُ الكريم لم يَعرضْ إلاّ أقلَّ القليل من أحداثِ قَصصه ومشاهدها، وهي التي تحققُ ما يريدُ من عرضها، وما سكَتَ عنه القرآنُ منها أضعافُ أَضعافُ ما ذكره!.

مبهمات في القصص القرآني:

كم في العرضِ القرآني لقصصه من الحلقاتِ المفقودة، والفجواتِ الموجودة، وذلكَ عن قصدٍ لا عن غفلةٍ أو جهل!!.

النبيُّ من الأنبياءِ عاش مع قومه عشرات السنين، وكانت حياتُه معهم حافلةً بالأحداث والوقائع، ومع هذا لم يذكر القرآنُ إلا النزرَ اليسيرَ منها، وقصةُ ذلك النبيِّ في القرآن لا تتجاوزُ بضعَ صفحات، وأحياناً قد لا تزيدُ على صفحة!!.

إنَّ ما عرضَه القرآنُ من قصته هو الذي فيه العبرةُ والعظة، ويكفينا ما في القرآن عنه، ويجبُ أنْ نستغنيَ به، وأنّ نتوقفَ عنده، وأن نسكتَ عما سكتَ عنه!.

ثم إن الجزءَ المذكورَ من قِصَّةِ النبي في القرآن، كان يُذكَرُ أحياناً بدون تحديدٍ أو تعيينٍ لبعضِ التفاصيل غيرِ الضرورية، ونرى فيه إبهاماً مقصوداً لأسماءِ بعض الأشخاص والأماكن، وتفاصيلِ بعضِ الخفايا والمسائل.

في القصصِ القرآني مبهماتٌ مقصودة، تُسمى «مبهمات القرآن» وتتعلقُ بأسماءِ أشخاص أو بلدان، أَو تحديدِ زمانٍ أو مكان. ويجبُ علينا أنْ نُبقِيها على إبهامها، ونتوقفَ عند ما عرضَه القرآنُ منها، ولا نحاولُ تبيينَ أو تحديدَ هذه المبهمات، من مصادر غير يقينية، كالأساطيرِ والإسرائيليات!!.

مصدران للقصص القرآني:

هناكَ مصدرانِ لاستمدادِ القصص القرآني، يمكنُ للناظرِ أو الباحث أو الدارس أنْ يعودَ إليهما، ويستمدَّ منهما أحداثَ القصص.

المصدرُ الأول: ما كان موثوقَ المعلومات، صادقَ الأخبار، يرجعُ الباحثُ إليه ويستمدُّ منه، وهو مطمئنٌ لما يأخذُ من ما فيه.

المصدر الثاني: ما لم يكن كذلك، ولا تتوفرُ في أَخباره ومعلوماتِه تلك الصفات، ومن ثم لا يمكنُ للباحثِ الموضوعيِّ أنْ يجعلَه من مصادره وموارده في القصص القرآني، ولا يستمدُّ منه تفصيلاتِ أحداثِ القصص اليقينية.

فما هما هذان المصدران؟

المصدرُ الأول اليقيني: هو الموجودُ في الكتاب الكريم، وفي ما صحَّ من حديثِ رسولِ الله ﷺ.

إنَّ القرآنَ الكريم كلامُ الله، وكلُّ ما وردَ في القرآن عن قصص السابقين فهو حقٌ وصدق، وصوابٌ وصحيح، يوقنُ الباحثُ المسلمُ بذلك، ويطمئنُّ إليه، فيستمدُّ منه ويأخذ به.

ولا يجوزُ الشكُّ في أيِّ جزئيةٍ أو معلومة أو لقطة تتعلق بقصص السابقين في القرآنَ، لأنها كلامُ الله، واللَّهُ عالم بكل شيء، واللَّهُ كان مع السابقين يعلمُ ماذا يفعلون، وما ذكره في كتابه عنهم فهو صحيحٌ وحق وصواب. ومَن شكَّ فيما وردَ في القرآن من ذلك فكأنما كذَّبَ اللَّهَ سبحانه، ومَن فعلَ ذلك فقد كفرَ وخرجَ من دين الله!.

وجوب اعتماد الأحاديث الصحيحة:

وبالنسبةِ لرسولِ الله مُحمد ﷺ فإن اللَّهَ هو الذي أوحى إليه بالقرآن، باللفظِ والمعنى، لأن القرآنَ كلامُ الله. وهو الذي أَوحى له بالمعلوماتِ والأخبار عن بعضِ وقائعِ وأحداث قصصِ السابقين، الواردةِ في كلامه وحديثه عليه الصلاة والسلام، فالمضمونُ من الله تعالى، والتعبيرُ لرسول الله ﷺ.

وهذا يعني أنْ نأخذَ الأخبارَ والمعلوماتِ حول قصص السابقين، الواردةَ في الأحاديث الصحيحةِ لرسول الله ﷺ، نأخذَها باليقين والثقة والطمأنينة، وأنْ لا نشكَّ فيها.

واجبنا تجاهَ أحاديثِ رسول الله ﷺ التي تَعرضُ معلوماتٍ عن قصص السابقين أنْ نبحثَ في صحةِ الحديث النبوي وثبوته، وذلك في كُتُبِ الرجال والتخريج. فإذا كان الحديثُ ضَعِيفاً، ولم تَثبت صحتُه عند علماء الحديث، وجب علينا ردُّه، وعدمُ أخذِ المعلومات المتعلقة بقصص السابقين منه.

وإذا صحَّ الحديثُ عند علماء الحديث وجب علينا قبولُه وأَخذه، واعتمادُه مصدراً لقصصِ السابقين، والاستفادةُ مما فيه من معلومات.

إن المصدرَ اليقينيَّ الموثوق المضمون الذي نرجعُ إليه، ونجعله مورداً لقصص السابقين، هو آياتُ القرآن الصريحة، والأحاديثُ النبوية الصحيحة.

وأيُّ مؤرخٍ أو عالم أو متكلم أو كاتب من المسلمين، يوردُ معلومات وأخباراً عن قصص السابقين فلا بدَّ أنْ نسأله عن مرجعِه الذي استمدَّ منه، ومصدرِه الذي أخذَ منه، فإنْ أظهرَ لنا دليلَه من القرآن الصريح أو الحديث الصحيح، قَبِلْنا كلامَه.

وإن اعتمدَ على غير ذلك، وأخذَ من أخبار التاريخ وأقوالِ أهل الكتاب، رددْنا كلامَه، ولم نأخذ منه شيئاً.

الإسرائيليات مصدر غير صحيح:

المصدرُ الثاني الذي أَشرنا له من قبل: هو الرواياتُ والأقوالُ والأخبار المتعلقةُ بالسابقين، والتي لم تردْ في القرآن والحديثِ الصحيح، وإنما أُخذت من كتب السابقين وأقوالِ أهل الكتاب، وهي المسماة عند العلماء بالإِسرائيليات.

إنَّ المذكورَ في الإِسرائيليات عن قصصِ القرآن، هو معلوماتٌ غيرُ موثوقة، ولا يقينية، لأنها مستمدَّةٌ من بني إسرائيل، وبنو إسرائيل غيرُ مؤتمنين على توراتهم ولا على دينهم، فكيف يؤتمنون على أخبارِ ورواياتِ التاريخ؟ إن الذي يتجرأُ على تحريفِ الكتاب السماوي التوراة، يَهونُ عليه تحريفُ أخبار التاريخ!!.

وبما أنَّ هذه هي صفةُ الأخبار المذكورة في الإِسرائيليات، فلا يجوزُ أنْ نجعلَها مصدراً من مصادر القصص القرآني، ولا مورداً من موارده، ولا أنْ نستمدَّ منها معلوماتِ أو تفاصيلَ أحداث ذلك القصص، ولا يجوزُ أنْ نفسرَ كلامَ الله الصادقَ الصحيحَ في القرآن، المتعلقَ بذلك القصص، بهذه المعلوماتِ والروايات الإِسرائيلية المكذوبة المحرفة!!.

توجيهات قرآنية حول فهم قصصه:

إننا نجدُ في القرآن الكريم توجيهات معبرة بشأن القصص القرآني وفهمِ وقائعه وأَحداثه، تطالبُ بالاعتماد على الموارد اليقينية الموثوقة، المُتمَثلةِ في القرآن الكريم، والحديثِ الصحيح، وتنهى عن العودةِ إلى بني إسرائيل وغيرِهم من الكافرين، غيرِ المؤتمنين على أحداث التاريخ.

من هذه التوجيهات القرآنية:

١ ـ أحداثُ القصص غيبٌ لا يعلمه إلا الله:

أشارَ القرآنُ إلى أنَّ أحداثَ القصص القرآني غيب، من غيب الماضي، وهذا الغيبُ أعلمَ اللَّهُ به رسولَه مُحمداً ﷺ، ولولا ذلك لما علمه رسولُ الله ﷺ.

قال تعالى في التعقيب على قصة مريم في سورة آل عمران: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٤].

وقال تعالى في التعقيب على قصة يوسف عليه السلام: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف: ١٠٢].

وقال تعالى في التعقيب على قصة نوح عليه السلام: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

وإذا كانتْ أحداثُ ووقائع القصص القرآني من أنباءِ الغيب، فلا يجوزُ أنْ نأخذَ هذه الأنباءَ الغيبية من الإِسرائيليات وما شابهها من المصادر والموارد غير الموثوقة، لأنها لا تُستمدُّ إلا من المصادرِ الصحيحة.

٢ ـ ما كان المتوسعون في قصصهم عندهم:

عندما نقفُ متدبرين لجملةٍ وردتْ في الآيتين السابقتين عن أنباء الغيب في القصصِ القرآني، وهي قوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾، فإننا نأخذُ من هذه الجملة توجيهاً قرآنياً مقصوداً.

إنَّ اللَّهَ يقولُ لرسوله ﷺ عن تآمُرِ إخوة يوسف ضد أخيهم: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾. [يوسف: ١٠٢].

ويقولُ له عن اختلاف العابدين في كفالةِ الطفلةِ الصغيرة مريم: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾. [آل عمران: ٤٤].

صحيحٌ أن هذه الجملةَ الواردة في الآيتين تقررُ نبوةَ مُحمد ﷺ، وتثبتُ مصدرَ القرآن الرباني، حيث تعتبرُ ذكرَ هذه التفاصيل الدقيقةِ الجزئية في قصة يوسف وقصة مريم دليلاً على النبوة، وأن القرآنَ كلامُ الله، ولو لم يكن القرآنُ كلامَ الله، ولو لم يكن مُحمدٌ رسولَ الله ﷺ فمن أدراه بهذه التفاصيل؟ ومن أين أخذها؟.

صحيحٌ أنَّ هذا مرادٌ من الجملة، لكن نرى أنَّ الجملةَ تقدم لنا توجيهاً تاريخياً، وهو أننا لم نكنْ مع السابقين وهم يعيشون أحداثَ قصصهم، فمن أينَ نعرفُ هذه التفاصيل، واليهودُ الكاتبون المحرفون لم يكونوا لدى من سبقهم من الأقوام، فكيف يَفترضون أحداثَهم ووقائعَهم؟.

نقولُ لكلِّ مَن أوردَ تفاصيلَ لأحداث القصص القرآني، غيرَ مذكورة في الآياتِ والأحاديث الصحيحة: مَن أدراك بهذا؟ وكيفَ عَرَفْتَها؟ وأنتَ لم تكن لديهم وهم يعيشونها؟ فمن أينَ أخذْتَها؟ إن أخذتَها من الإسرائيليات فمن أين أخذَها كتبةُ الإسرائيليات؟ هل كانوا لديهم وهم يعيشونها؟

إنَّ قولَه تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ دعوةٌ لكلِّ باحثٍ ودارسٍ للقصص القرآني، أنْ يقفَ عند المصادرِ اليقينية الصحيحة في ذلك، وهي الآياتُ والأحاديث الصحيحة!.

٣ ـ لا يعلم كل تفاصيلهم إلا الله:

أَخبرَنا اللَّهُ عزَّ وجلَّ في القرآن، أنَّ البشرَ يعلمونَ بعض أحداثِ قصص السابقين، لكنهم لا يعلمونَها كلَّها، بكامل تفاصيلها وجزئياتها، إن العلمَ الكاملَ الشامل لكلِّ التفاصيل والفقرات والأحداث خاصٌّ بالله عزَّ وجلَّ.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ [إبراهيم: ٩].

تشيرُ هذه الآيةُ إلى أنَّ بني إسرائيل جاءهم في التوراة نبأ بعض الأقوام الذين من قبلهم، كقومِ نوح، وعاد، وثمود، وعَرفوا بعضَ أنباء هؤلاء الكفار.

لكن هناك أقوامٌ من بعد ثمود، لم تأتهم أنباؤهم ولا أخبارهم، فلم يعلموا بها، لأنَّ اللَّهَ لم يُخبرهم بها، إن الله وحده هو الذي يعلم ما جرى لهؤلاء الأقوام.

لقد حصرت الآيةُ علمَ ما جرى لهؤلاء بالله، ونفتْ علمَ ذلك عن أحدٍ من البشر: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩].

إن هذه الجملةَ تدلُّ على أن التاريخَ البشري لم يسجل كلَّ أحداثِ السابقين، وإنما فاتَه تسجيلُ كثيرٍ من تلك الأحداث والتفاصيل، وهناك ما يُسمى بالحلقاتِ المفقودة في التاريخ، هذه الحلقاتُ اختصَّ اللَّهُ بعلمها، ونفى عن أحدٍ من البشر إمكانيةَ علمه بها.

وهذا معناه أنَّ كلَّ من ادّعى علْمَه بها فهو مُتقَوِّلٌ مُدَّعٍ كاذب!!.

وقد وعى الصحابةُ رضوانُ الله عليهم هذه الحقيقة القرآنية، فتوقفوا في أحداثِ السابقين عند القرآن والحديث الصحيح، ولم يحاولوا العودةَ إلى المصادر غير اليقينية كالإسرائيليات وغيرها.

كما أنهم لم يأخذوا ممن يدّعي علمه بذلك.

فعبدُ الله بن عباس رضي الله عنهما، كان إذا نُقلَ له كلامُ السابقين من النّسّابين يقول: كذبَ النّسّابون.

وكان عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه يحتجُّ على تكذيبِ النّسّابين بهذه الآية، ويقول: كذب النّسّابون.

وجاءَ رجلٌ إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال له: أنا أَنْسَبُ الناس!

فقال له علي رضي الله عنه: أرأيتَ قول الله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ۝٣٨﴾ [الفرقان: ٣٨].

فقال له الرجل: أنا أَنسِبُ ذلك الكثير!

فقال له علي: أرأيت قول الله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؟

فسكتَ الرجل، ولم يَحِرْ جواباً(١).

٤ ـ النهي عن سؤال أهل الكتاب:

نهى القرآنُ نهياً صريحاً عن سؤالِ أهل الكتاب، أو استفتاءِ أحدٍ منهم، فيما يتعلقُ بأخبارِ وتفصيلاتِ قصص السابقين.

---

(١) كتابنا: مع قصص السابقين في القرآن ١: ٣٦ ـ ٣٨.

وقد وردَ هذا النهي في قصةِ أصحاب الكهف، أثناءَ ذكرِ الأقوال الخلافية في عددِ أصحابِ الكهف.

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الكهف: ٢٢].

الشاهدُ في الآية هو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾، والضميرُ الذي في ﴿فِيهِمْ﴾ يعودُ على أصحابِ الكهف. والضميرُ الذي في ﴿مِّنْهُمْ﴾ يعود على أهل الكتاب.

﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾:

والخطاب في ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ﴾ موجَّهٌ للرسول ﷺ في المقام الأول، لكنه يشملُ كلَّ مسلم من بعده، وبخاصة إذا كان من العلماء أو الباحثين أو المؤرخين.

والاستفتاءُ هو السؤالُ والاستعلام.

ومعنى النهي: لا تسألْ أحداً من أهلِ الكتاب يهوداً أو نصارى، أو غيرهم ممن لا يملكون علماً يقينياً، لا تسألْه عن وقائعِ وأحداثِ وعدد أصحاب الكهف، لأنهم لا علم لهم بذلك.

وهذا النهيُ ليس خاصاً بقصةِ أصحاب الكهف، وإنما هو شاملٌ لكلِّ تفصيلات القصص القرآني، بحيث إنه ينهانا عن العودةِ إلى مصادرِ أهل الكتاب من الإسرائيليات وغيرها، لأَخْذِ بعضِ المعلومات عن أحداث السابقين.

كلام صحابة وتابعين حول ذلك:

وقد فهمَ الصحابةُ والتابعون والعلماءُ المنصفون هذا النهي، فلم يعودوا إلى أهل الكتاب بشأنِ قصص القرآن، ولم يستفيدوا منهم، ولم يسألوهم.

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾: يعني: حَسْبُكَ ما قصصتُ عليك، فلا تمار فيهم.

وقال قتادة: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ معناه: حسبك ما قصصنا عليك من شأنهم.

وقال ابن عباس: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ هم أهلُ الكتاب.

وقال ابنُ زيد: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾: لا تستفْتِ في عددِ الفتية من أهل الكهف أحداً من أهل الكتاب، لأنهم لا يعلمون عدّتهم، وإنما يقولون فيهم رجماً بالغيب، لا يقيناً من القول.

وقال مجاهد: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾: من يهود. أي: لا تسألْ يهودَ عن أمرِ أصحاب الكهف، وحسبُكَ ما أخبرتُكَ من أمرهم»[1].

٥ ـ ترك القول فيهم بدون علم:

آيةٌ من كتابِ الله تدلُّنا على المنهجِ العلمي في البحث والمعرفة، وتصلحُ توجيهاً لنا عندَ البحث عن وقائعِ وأحداث وتفصيلات القصص القرآني.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

﴿وَلَا تَقْفُ﴾: لا تَتْبَعْ. يقال: قفا، يَقْفو: تَبع، يتبع.

تنهى الآيةُ المسلمَ عن اتباعِ ما ليس له به علم يقيني، من الأخبار والمعلومات، وتحذرهُ من تصديقِ الإشاعات، أو قبول الأكاذيب من الأقوال والروايات.

---

(١) انظر هذه الأقوال وغيرها في كتابنا «مع قصص السابقين في القرآن»: ١/٣٨ ـ ٤٠.

وتخبرهُ أن الله منحه منافذ الإِدراك ووسائلَ المعرفة، من السمع والبصر والفؤاد، ليأخذَ ما صح ويدعَ ما لم يصح، وليستخدمَ هذه الوسائلَ والحواس في التحري والتمحيص.

فإذا أغفلَ ذلك، وعطلَ وظيفةَ هذه الوسائل والمنافذ، فإن اللَّهَ يسألهُ عنها، ويحاسبه لتصديقِ الأكاذيب، واتباع الأساطير.

وتشيرُ هذه الآيةُ إلى ما يتعلق بموضوعِنا حول «منهج التعامل مع القصص القرآني وفهمه». فنستفيدُ منها عدمَ اتباع ما ليس لنا به علمٌ يقيني جازم، من أحداثِ ووقائع ذلك القصص، فلا نذهبُ إلى مصادرَ ومواردَ غير علمية ولا موثوقة، نستمدُّ منها ذلك القصص، فإنْ فعلْنا ذلك نكون قد قَفَوْنا واتبعْنا ما ليس لنا به علم، ووقعْنا في ما تنهانا عنه الآية.

٦ ـ التبين من أخبار الفاسقين:

وهذه آيةٌ أخرى من كتاب الله، توجهُنا إلى المنهجِ العلمي في البحث والمعرفة وتشيرُ إلى الطريقةِ الموثوقة في معرفةِ أحداثِ القصص القرآني.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات: ٦].

توجهُ الآيةُ المسلمين إلى وجوبِ التوقفِ أمامَ الأنباءِ التي يأتيهم بها الفاسقون، وتدعوهم إلى حُسْنِ التثبت من صحتها، وإلى التبينِ والتمحيص لها، وتحذّرهم من قبولِها وتصديقها بدون تبيُّنٍ أو توقّف أو تثبّت، لأنهم قد يَبْنون عليها أفعالاً وتصرفاتٍ خاطئة، ونتائجَ خطيرة، وقد يصيبونَ آخرين بجهالة، ثم يندمون على تسرُّعهم بعد ذلك.

ووجوب التبيّن والتثبّت من أخبارِ الفاسقين، لأنهم مجروحون،

وليسوا عدولاً ولا موثوقين، أي: هم متهمون في ما يوردونَه من أَنباءٍ وأخبار، فلا تُعتمدُ أخبارهم إلا بعدَ التثبّت والتبيّن.

وتقدمُ هذه الآيةُ توجيهاً لنا في موضوعنا «منهج التعامل مع القصص القرآني». إنها تنهانا عن قَبول رواياتِ وأخبارِ وأقوال السابقين من أهل الكتاب، حولَ القصص القرآني، بدون تمحيصٍ أو تثبّت، وتطالبنا بأنْ نكونَ يقظين منتبهين إزاءَ ما يوردونَه من ذلك.

إذا كانت الآيةُ تطالبنا بالتثبّتِ من أنباءِ وأخبارِ الفاسقين من المسلمين، لأنهم متهمون وغيرُ مؤتمنين، فكيفَ بالأنباء والأخبار التي يقدمُها لنا أهلُ الكتاب، وبخاصة اليهود، وهم كافرون مجروحون، وليسوا علميين ولا موضوعيين؟ يجبُ أنْ نكونَ أمامَ أنبائهم أكثرَ حذراً وتثبُّتاً وتمحيصاً.

هذه هي التوجيهاتُ القرآنية الستة، التي ترشُدنا إلى منهجيةِ التعامل مع القصص القرآني، والتي تَقْصر مواردَنا ومصادرَنا التي نستمدُّ منها وقائع ذلك القصص على آياتِ القرآن، وعلى ما صحَّ من حديثِ رسول الله ﷺ، ولا تُجيزُ لنا اعتمادَ أيّ مصدرٍ آخر غيرهما!.

الموقف العلمي في الإسرائيليات

معنى الإسرائيليات:

«الإسرائيليات» جمعُ «إسرائيلية» وهي نسبةٌ إلى إسرائيل، والمرادُ به بنو إِسرائيل.

و «الإِسرائيليات» مصطلحٌ إسلامي، أطلقه العلماءُ المسلمون من المؤرخين والمفسرين والمحدثين، على تلك المعلوماتِ والروايات والأخبار والأقوالِ التي أُخذتْ عن السابقين، من غيرِ المصادر الإِسلامية الموثوقة، وبالذات تلك المأخوذة عن أهل الكتاب، وبشكلٍ أخص عن بني إسرائيل أو اليهود!.

وليس كلُّ تلك الأقوالِ والروايات مأخوذةً عن بني إسرائيل، فقد يكون مصدرُها نصرانياً أو رومانياً أو فارسياً، المهم أنها غيرُ موثوقة ولا معتمدة.

وقد أُطلقَ على كلِّ ذلك «الركام الكبير» من الأخبار والأقوال «إسرائيليات».

وسُميتْ بهذا الاسم من بابِ تغليبِ المصادر الإسرائيلية على غيرِها من المصادر، ولأنَّ الرواياتِ الإسرائيلية أكثرُ من غيرها من الروايات، ولأنَّ اليهودَ هم أحرصُ أصنافِ الكفار على حرب المسلمين وإغوائهم، وعلى صدهم عن دينهم، وعلى تحريفِ معلوماتهم وتصوراتهم!!.

وكلُّ هذه الإسرائيليات غيرِ الثابتة تتحدثُ عن أخبارٍ وأحداثٍ ووقائع، جرتْ للسابقين من الأقوام والأمم، وحدثتْ مع السابقين من الأنبياء والمرسلين، وتُضيفُ هذه الإسرائيلياتُ إضافاتٍ تفصيلية لأحداثِ القصص القرآني، وتفصِّلُ في مشاهدَ سكتَ عنها القرآنُ والحديثُ الصحيح، وتبينُ بعضَ المبهمات المتعلقة بأسماءٍ أو أماكنِ القصص القرآني.

وهذه الإسرائيليات موجودةٌ في العهدِ القديم الذي يؤمنُ به اليهود، وفي العهدِ الجديد الذي يؤمنُ به النصارى، وفي بعضِ الكتبِ التي يتداولُها اليهود والنصارى فيما بينهم، والتي نقلَها عنهم المؤرخون والإخباريون فيما بعد.

الإسرائيليات بين الأخذ والترك:

وقد اطلعَ بعضُ أهل العلم من المسلمين، بعد عهدِ الصحابة، على تلك «الإسرائيليات»، وأُعجبوا بما تقدمُه من تفصيلاتٍ ومعلومات، عن وقائع تاريخِ الماضين وقصص السابقين، فسجَّلوها في تفاسيرهم

وتواريخهم ومؤلفاتهم وكتاباتهم، ووضعوها بجانبِ الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، واعتبروا ذلك كلَّه تأريخاً للماضي، وبياناً لقصص الأنبياء.

ودوَّنوا كتبَهم على هذا الأساس، وخلطوا الحقَّ بالباطل، ومزجوا الثابتَ بغيرِ الثابت، وأقبلَ المسلمون على كتابات هؤلاء المؤرخين والمفسرين، وأخذوا كلَّ ما فيها من رواياتٍ وأخبارٍ ومعلومات، تتعلقُ بقصصِ الأنبياء أو غيرهم، ولم يميزوا صحيحَها من سقيمها، وحقَّها من باطلها!.

إننا مع المحقِّقين من العلماءِ الذين توقَّفوا في «الإِسرائيليات» ولم يأخذوا بها، واكتفوا في إثباتِ أحداث ووقائع القصص القرآني بما ورد في القرآن الصريح والحديث النبوي الصحيح، ولم يذهبوا إلى أيّ مصدرٍ آخر!.

نقفُ الآن وقفةً نتحدثُ فيها عن أقسام الإِسرائيليات وعن الموقفِ الصحيح المقبول منها، وعن أدلةِ منعِ روايتها والأخذ بها.

وقد سبقَ أنْ تحدثْنا عن هذا الموضوع في القسمِ الأول من كتابنا «مع قصص السابقين في القرآن»، أثناءَ حديثنا عن منهج التعامل مع قصص السابقين، ونرى أنَّ كلامَنا هناك يصلحُ أنْ يكونَ في هذا التمهيد المنهجي للتعامل مع وقائع وأحداث القصص القرآني، ولهذا سنلخصُ هنا كلامَنا هناك، مع شيء من الإِضافة والتنقيح[1].

وقد اعتمدنا في كلامنا المشار إلى موضعه أعلاه، على رسالة الدكتور محمد حسين الذهبي «الإِسرائيليات في التفسير والحديث» في تلخيص كلامه عن أقسام الإِسرائيليات.

---

(١) انظر الموضوع في «مع قصص السابقين في القرآن»: ١/٤٦ ـ ٦١.

أقسام الإسرائيليات:

قال الدكتور الذهبي: للإسرائيليات ثلاثةُ تقسيمات بثلاثةِ اعتبارات:

١ ـ أقسامُها باعتبارِ الصحة وعدمها.

٢ ـ أقسامُها باعتبار موافقة ديننا، أو مخالفته.

٣ ـ أقسامُها باعتبار موضوعها.

١ ـ من حيث الصحة وعدمها:

أولاً: الإسرائيليات من حيث الصحة وعدمها قسمان:

القسم الأول: إسرائيلياتٌ صحيحة: وذلك مثلُ ما جاءَ منها مصدِّقاً لآيات القرآن، عن صفاتِ رسول الله ﷺ.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦].

وهذه الصفاتُ مذكورةٌ في التوراة، في نصوصها التي لم تُحرَّفْ.

روى البخاري عن عطاء بن يسار قال: لقيتُ عبدَ الله بن عمرو، فقلت: أَخبِرْني عن صفةِ رسول الله ﷺ في التوراة. قال: أجل. والله إنه لموصوفٌ في التوراة كصفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحِرْزاً للأميّين، أنت عبدي ورسولي، اسمُك المتوكِّل، ليس بفظّ، ولا غليظ، ولن يقبضَه اللَّهُ حتى يقيمَ به الملةَ العوجاء، بأن يقول: لا إله إلا الله، ويفتحَ به قلوباً غلفاً، وآذاناً صماً، وأعيناً عمياً.

قال عطاء: ثم لقيتُ كعبَ الأحبار، فسألْتُه عن ذلك، فما اختلَفَ حرفاً»[1].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٨٣٨.

وهذا القسمُ لا يدخلُ ضمن الإِسرائيليات في الحقيقة، لأنَّ دينَنَا جاءَ موافقاً له، لقد أخذَ طابعَ الإِسلام، وأصبحَ عِلْماً إسلامياً صحيحاً، ولم يبقَ من الإِسرائيليات.

القسم الثاني: إسرائيلياتٌ موضوعة: مثلُ خرافةِ جبلِ «قاف»، الذي تزعمُ الإِسرائيلياتُ أنه جبلٌ خرافي كبيرٌ يحيطُ بالأرض، وقد راجتْ هذه الخرافة على بعض المؤرخين المسلمين، فأوردوها في كتاباتهم معتمدين لها!.

٢ ـ من حيث موافقة الإسلام أو مخالفته:

ثانياً: الإِسرائيلياتُ من حيث موافقة ديننا أو مخالفته: تنقسم إلى ثلاثةِ أقسام:

القسم الأول: إسرائيلياتٌ موافقة لديننا. مثالُه ما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «تكونُ الأرض يومَ القيامة خُبْزَةً واحدة، يتكفَّؤُها الجبار بيده، كما يَكْفَأُ أحدُكم خبزتَه في السفر، نُزُلاً لأهل الجنة.

فأتى رجلٌ من اليهود، فقال: باركَ اللَّهُ عليك يا أبا القاسم، أَلا أخبرك بنُزُلِ أهلِ الجنة يوم القيامة؟

قال: بلى.

قال: تكونُ الأرضُ خُبَزَةً واحدة.. كما قال النبيُّ ﷺ فنظرَ النبيُّ ﷺ إلينا، ثم ضحكَ حتى بدتْ نواجذُه..»[١].

وهذا القسمُ لم يبقَ من الإِسرائيليات في الحقيقة، وإنْ كان وارداً فيها، لكنه يأخذُ طابعَ العلم الإِسلامي اليقيني الصحيح، لوروده في

---

(١) أخرجه البخاري، برقم: ٦٥٢٠.

المصادر الإسلاميةِ الموثوقة، إنه ينتقلُ من الإسرائيليات إلى «الإسلاميات»، ونعتمدُه اعتماداً جازماً لهذا الاعتبار.

القسم الثاني: إسرائيلياتٌ مخالفة لديننا: وهذه نرفضُها رفضاً باتاً، وقد أَجمعَ المسلمون على رفضها.

ومثالُ هذا القسم ما نسبَه اليهودُ إلى هارونَ عليه السلام من أنه هو الذي صنعَ العجلَ من الذهب لبني إسرائيل، وهو الذي دَعاهم إلى عبادتِه.

وهذا كذبٌ مفضوح، يكذبُه صريحُ القرآن، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه: ٩٠ ـ ٩١].

القسم الثالث: إسرائيلياتٌ مسكوتٌ عنها في ديننا، ليس فيه ما يوافقُها، وليس فيه ما يخالفها، وهي الإسرائيلياتُ التي تتحدثُ عن تفصيلاتِ أحداثِ السابقين المسكوت عنها في القرآن، أو تبينُ بعضَ المبهمات في القرآن.

مثل ما رُويَ في الإسرائيليات من تفصيلاتِ قصةِ بقرة بني إسرائيل، التي أشارتْ لها آيات سورة البقرة. حيث ذكرت الإسرائيلياتُ تفاصيلَ حادث القتل، ومطالبةَ القاتل لآخرين بدم عمه، وتفاصيل شراء البقرة، وممن اشتُريت، وثمنها بوزنها ذهباً، وتفاصيلَ ذبحها، والجزءَ الذي ضُربَ به القتيلُ منها.

وكلُّ هذه التفاصيلِ الإسرائيلية، لم تَرِدْ في القرآن الكريم، ولا في أحاديثِ رسول الله ﷺ.

وهذا القسمُ الثالث كثيرٌ من حيثُ الكمّ والحجم والمقدار، يمكنُ

أنْ يملأَ صفحاتٍ عديدة، وأنْ يُكتبَ فيه كتاب.

وهذا الذي اختلفَ العلماءُ المسلمون فيه، فجمهورُهم على جوازِ ذكْرِه وروايته، لأن القرآنَ والحديثَ سكَتا عنه، ولا ضررَ في ذكره واعتمادِه وقبوله وأخذه والقولِ به.

ومنهم مَن أجازَ روايتَه مع التوقف فيه، وعدمِ تصديقه أو تكذيبه. ومنهم مَن منعَ روايته، وما أجازَ تفسيرَ كلامِ الله به، وإذا كان لا بدَّ مِن ذكْرِه، فمعَ النصِّ على أنه من الإسرائيليات التي لا تُعتمدُ ولا يُقالُ بها.

ونحنُ مع القول الثالث، الذي سبقَ أنْ تحدثْنا عنه عند كلامنا على مواردِ ومصادر القصص القرآني، وسوف نتحدثُ عنه بعد قليل إن شاء الله، لنوردَ أدلةً قرآنية وحديثية على منعِ روايةِ هذا القسم أيضاً!!.

٣ ـ إسرائيليات من حيث الموضوع:

ثالثاً: الإسرائيلياتُ من حيثُ موضوعها: تنقسمُ إلى ثلاثة أقسام أيضاً.

القسم الأول: إسرائيلياتٌ تتعلقُ بالعقائد الدينية.

مثالُه ما رواه البخاريُّ عن عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاءَ حبرٌ من أحبارِ اليهود إلى رسول الله ﷺ فقال: إنّا نجدُ أن اللّهَ يجعلُ السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجرَ على إصبع، والماءَ والثرى على إصبع، وسائرَ الخلائق على إصبع، فيقول: أنا المَلِك.

فضحكَ رسولُ الله ﷺ حتى بدتْ نواجذُه، تصديقاً لقول الحبر. ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ

ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ [الزمر: ٦٧][1].

فهذا مثالٌ للإسرائيلياتِ الصحيحةِ لأنها موافقةٌ لديننا، وموضوعُها هو العقائد، لكن لا نُبقي هذه المسألةَ في الإسرائيليات، وإنما نعتبرُها من الإسلاميات، لورودِها في القرآنِ والحديث الصحيح.

القسم الثاني: إسرائيلياتٌ تتعلقُ بالأحكام التشريعية.

مثالُه ما رواه البخاريُّ عن عبدِ الله بن عمرو رضي الله عنهما: «أن اليهودَ جاؤوا إلى النبي ﷺ برجلٍ منهم وامرأة قد زنيا، فقال لهم: كيف تفعلون بمن زنا منكم؟.

قالوا: نُحَمِّمُهُما [أي: نُسَوِّدُ وجهيهما بالحَمَمَةِ وهي الفحمة] ونضربهما.

قال: أَلا تجدون في التوراةِ الرجم؟

قالوا: لا نجدُ فيها شيئاً.

قال عبدُ الله بن سلام: كَذَبْتُم فأْتُوا بالتوراة فاتْلوها إن كنتم صادقين.

فوضعَ مِدْراسُها ـ الذي يدرسُها منهم ـ كفَّهُ على آيةِ الرجم، فطفق يقرأُ ما دون يده، وما وراءَها، ولا يقرأُ آيةَ الرجم!.

فنزعَ يده عن آية الرجم. فقال: ما هذه؟

فلما رأَوا ذلك قالوا: هي آيةُ الرجم!

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٨١١.

فأَمَرَ بهما فرُجِما، قريباً من موضعِ الجنائز عند المسجد.

قال ابن عمرو: فرأيتُ صاحبَها يجْنأ عليها [ينحني عليها] يَقيها الحجارة»[1].

في هذا الحديثِ دلالاتٌ عديدة في مجالات مختلفة، لَسْنا في موقفِ استخراجها، ونَدعو إلى حُسْنِ تدبرِ الحديث، والالتفاتِ إليها. ومما يتصلُ بموضوعنا فإن الحديثَ يشيرُ إلى إسرائيلية صحيحة، جاءتْ موافقةَ لديننا، وتتعلقُ بالأحكامِ الشرعية.

ونشيرُ إلى أنّ هذه لم تبقَ ضمنَ الإِسرائيليات، وإنما تحولَتْ إلى إسلاميات، لأنَّ ديننا اعتمدَها وأقرها.

القسم الثالث: إسرائيلياتٌ تتعلق بالمواعظِ والرقائقِ والقصص والتاريخ.

ومثالُه ما روتْه الإِسرائيلياتُ من تفصيلاتِ صنعِ سفينة نوح عليه السلام، وطولِها وعرضِها، وخشبها وكيفيتها، وما جرى فيها من أحداثِ أثناءَ الطوفان.

وهذا القسمُ الثالث يتصلُ بالقسمِ الثالث الذي أورَدْناه في ما سبق، وهو المتعلقُ بتبيينِ مبهماتِ وتفصيلات، سكتَ عنها دينُنا، فلم يوافقْها ولم ينقضْها ويخالفْها.

وهذان القسمان هما موضوعُ الخلافِ بين علماء المسلمين، قبولاً، أو رفضاً، أو توقفاً، أو تحذيراً.

الراجح عدم أخذ الإسرائيليات:

إنَّ ما وردَ في ديننا مُقِرّاً للإِسرائيليات يجعلُها إسلاميات، ونحن

---

(١) أخرجه البخاري، برقم: ٤٥٥٦.

مأمورون أن نأخذَها بهذا الاعتبار الإسلامي العلمي، وإنّ ما وردَ في ديننا مخالفاً للإسرائيليات، مُنكراً لها، يجعلُها من المنكراتِ المرفوضات، ونحن مأمورون بردِّها ورفضِها، وإذا ذكرناها فمن أجلِ أنْ نبينَ زيفَها وكذبَ أصحابها.

أما ما سكتَ عنه ديننا، فيما يتعلقُ بالتاريخ والقصص والمواعظ والرقائق، فهذا ما أجاز الجمهورُ ذكْرَه وروايتَه في كتب التاريخ والتفسير، وما رفضَ فريقٌ من العلماء إيرادَه، وذكره، ومنعوا من روايتِه وتفسيرِ كلامِ الله به.

وإذا كنا مع هذا الفريقِ الثاني، فإننا لا نجيزُ اعتمادَ أو قبولَ هذا النوعِ من الإسرائيليات أيضاً، ونَدعو إلى التوقفِ فيها، فلا نأخذُ بها ونصدِّقُها، لعدم وجودِ أدلةٍ يقينية لاعتمادِها وتصديقها، كما أننا لا نجزمُ بكذبها وافترائها، لعدمِ وجودِ أدلةٍ على التكذيب، ولهذا نتوقفُ فيها، وفي قبولها أو ردها، ونَكِلُ العلمَ بها إلى الله وحده. وعندما نسمعُ أو نقرأ عن واحدةٍ من هذه الإسرائيليات، نتوقَّف، ونسكت، ونقول: اللَّهُ أعلم كيفَ كان، وأعلمُ بمدى صحةِ ذلك!.

أمّا أنْ نذهبَ إلى هذه الإسرائيلياتِ المسكوتِ عنها في ديننا، ونأخذَ بها في تفصيلات القصص القرآني، ونفسرَ بها كلامَ الله الثابتَ الصحيحَ الصادق، مع أنها إسرائيليات لا يمكنُ إقامةُ الدليلِ على صدقها، فهذا ما لا نراه، ولا نأخذُ به، خلافاً لجمهورِ العلماء، واتباعاً للفريقِ الآخر منهم، وأخذاً بالأدلةِ المنهجية العلمية، التي سبقَ أنْ أورَدْناها في فهم القصص القرآني.

ونكملُ استدلالَنا على ما ذهبنا إليه، في عدم اعتمادِ أو أخْذِ الإسرائيليات، وعدمِ القول بها في تفسيرِ القصص القرآني، نكملُ ذلك ببعضِ الأدلة الأخرى، نقدمُها لنزدادَ قناعةً بما ذهبنا إليه، ولنُنَزِّهَ تفسيرَ

آياتِ القصص القرآني من هذا التيه والركام الإسرائيلي الثقيل، فإلى الأدلةِ في مبحثٍ مستقل تالٍ!!.

أدلة عدم اعتماد الإسرائيليات:

نذكُرُ بأنَّ الإسرائيلياتِ المرادةَ في كلامنا هي التفصيلاتُ الكثيرةُ فيما يتعلقُ بأحداثِ ووقائع القصص القرآني، والتي سكتَ عنها القرآنُ والحديثُ الصحيح، فلم يوافِقْها ويؤيدْها ويصدِّقْها، ولم يردْ فيه نقضٌ أو دحضٌ لها.

أما ما وافقَها وصدَّقَها دينُنا فنحن ملزمون بأخذِها لأنها إسلاميات، وما أنكرها دينُنا وخالفَها فنحن ملزمون برفضِها لظهورِ كذبها.

أدلةُ عدمِ اعتماد وقبول الإسرائيليات من النوع الأول، هي:

الأدلة على ذلك من القرآن:

١ ـ يخبرُنا القرآنُ أنَّ اليهودَ ـ صانعي الإسرائيليات ـ محرِّفون للكلمِ عن مواضعه، وهذا يجعلُهم غيرُ أُمناء على التاريخِ وأحداثِه ووقائعه، فكيف نأخذُ رواياتهم حول ذلك التاريخَ؟

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣].

٢ ـ يخبرُنا القرآنُ أن اليهودَ كاذبون في بعض ما يوردون من كلام، ومفترون في بعضِ ما يذكرون من أخبار، حتى فيما يتكلمون عن رسلهم وأنبيائهم، ويتحدثون عن تاريخهم.

وقد أشارَ القرآنُ إلى أكاذيبهم وافتراءاتِهم على مريم وابنها عيسى

عليه السلام. قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾﴾ [النساء: ١٥٦ ـ ١٥٧].

وهذا يعني أنَّ إسرائيلياتهم قد تكونُ من بابِ الكذبِ والافتراءِ الذي مهروا فيه، فكيفَ نأخذُ بها وهي بهذه الصفة؟

٣ ـ يخبرُنا القرآنُ أن اليهودَ حاسدون للمسلمين، شديدو العداوةِ لهم، حريصون على فتنتهم عن دينهم، بمختلفِ الأساليب والوسائل، فهم يودون لو يردّون المسلمين من بعدِ إيمانهم كفاراً، ويودّون لو يوقِعون المسلمين في التيه والضلال.

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ﴾ [البقرة: ١٠٩].

ومن أساليبهم لتحقيقِ هذه الغاية، الإسرائيلياتُ التي يبثونَها بين المسلمين، والتي فسَّر بها بعضُ المسلمين كتابَ الله الكريم!

٤ ـ يخبُرنا القرآنُ أنَّ اليهودَ يكتمون الحق وهم يعلمون، ويحرفونه إلى الباطل وهم يعلمون.

قال تعالى: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥].

وإسرائيلياتُهم مظهرٌ من مظاهر كتمانهم الحق، وتحريفِه إلى

الباطل، ويقدمونها لنا محرفة، فكيف نأخذُها منهم؟.

٥ ـ يخبُرنا القرآنُ أنَّ علمَ اليهود مجردُ أمانيّ وظنونٍ وأوهام، وليس علماً حقيقياً صحيحاً.

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨)﴾ [البقرة: ٧٨].

فإسرائيلياتُهم هي أوهامٌ وظنون وليستْ علماً.

٦ ـ يخبُرنا القرآنُ أن اليهودَ ضالّون عن عمدٍ وقصد، فهم يتركون الحقَّ عامدين، ويتبعون الباطل قاصدين.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠١ ـ ١٠٢].

وهم في إسرائيلياتِهم متبعونَ للباطل، ويتوفرُ فيها ذلك المنكرُ والضلال!.

٧ ـ يخبرُنا القرآنُ أن اليهودَ قومٌ لا يعلمون ولا يفقهون، ويتصرفون تصرُّفَ مَن لا يعلمون، فلو كانوا ممن يعلمون فعْلاً لما نشروا الأباطيلَ والأكاذيب.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢ ـ ١٠٣].

فإسرائيلياتُهم صناعةُ صادرة عنهم، مع أنهم لا يعلمون ولا يفقهون، فكيف نعتبرُها علماً.

٨ ـ إنَّ قصصَ السابقين وتفصيلاتِ وقائعها من غيبِ الماضي، والغيبُ لا يعلمه إلا الله، ويُعْلِمُ به مَن شاءَ مِن رسله وأنبيائه، واليهودُ لم يطَّلعوا على تفاصيلِ قصص مَنْ سبقوهم، وما كانوا معهم، فكيف يوردون تلكَ التفاصيلَ الجزئية الدقيقة؟

إننا نقولُ لهم، ولمن يردّدون إسرائيلياتهم: ما كنتم لديهم وهم يعيشون أحداث حياتهم، فمن أينَ عرفتم تلك التفاصيل؟ هل أخبركم اللَّهُ بها؟ إنْ كان كذلكَ هاتوا دليلكم؟ والعهدُ القديمُ ورواياته ليست موثوقة، لأنكم حرفتم التوراة، وخلطتُم كلامَ الله فيها بكلامِ أحباركم!!.

٩ ـ التاريخُ لم يسجلْ كلَّ تفاصيلِ أحداث السابقين، وهناك «حلقاتٌ مفقودة» في تاريخ السابقين لم يسجلْها المؤرخون، وهذه لا يعلمُها إلا الله، وقد جاءَ هذا في صريحِ القرآن.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩].

فكيف يدّعي اليهودُ في إسرائيلياتهم العلم بتلك الحلقات، والاطلاعَ على تلك التفصيلات؟ وكيف نأخذُ هذه الإِسرائيلياتِ منهم؟.

١٠ ـ القرآنُ ينهانا نَهْياً صريحاً عن العودةِ إلى أهل الكتاب، واستفتائِهم وسؤالهم عن أحداثِ وتفصيلات القصص القرآني، قال تعالى بشأنِ أصحاب الكهف: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢].

وأَخْذُنا لإسرائيلياتهم هو استفتاءٌ لهم، وتعلُّمٌ منهم، وهذا مخالفةٌ لهذا التوجيه القرآني.

١١ ـ علَّمَنا القرآنُ كيفيةَ جدال اليهود فيما يقدمون من معلوماتٍ وأخبار، وفيما يثيرون من شبهاتٍ وإشاعات، وذلك بأن نسألَهم هذا السؤال: أأنتم أعلمُ أم الله؟.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠)﴾ [البقرة: ١٣٩ ـ ١٤٠].

إنهم في إسرائيلياتهم يَدَّعون العلمَ بتفاصيلِ أحداث السابقين، فنقولُ لهم: أأنتم أعلم أم الله؟.

١٢ ـ نهيُ القرآنِ الصريحِ للمسلمين عن القولِ بدون علم، أو اتباعِ ما ليس لهم به علم، وتقرير مسؤوليتِهم عن كلِّ ما يوردون من أقوالٍ أو أخبار.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا (٣٦)﴾ [الإسراء: ٣٦].

والإسرائيليات هي من القولِ بدون علم، وأَخْذُها من باب الاتباع بدون العلم.

١٣ ـ إيجابُ القرآن على المسلمين التثبتَ والتَّبيّن عند سماعِ أخبار الفاسقين، ومطالبتُهم أن لا يأخذوها إلاّ بعدَ عرضها على ميزانهم، وقواعدِهم المتمثلةِ في القرآن والسنة، لأخذِ ما صحَّ منها، وترك ما عداه.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحجرات: ٦].

وأخْذُ الإِسرائيليات من الكافرين اليهود بدون تثبت، مخالفةٌ لهذا التوجيهِ القرآني الكريم.

الأدلة على ذلك من السنة:

١٤ ـ لقد نهانا رسولُ الله ﷺ نهياً صريحاً عن أخذِ شيء من رواياتِ وإسرائيلياتِ اليهود.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كانَ أهلُ الكتاب يقرؤونَ التوراةَ بالعبرية، ويفسرونَها بالعربيةِ لأهلِ الإِسلام، فقال رسولُ الله ﷺ: «لا تصدِّقوا أهلَ الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنّا بالله وما أُنزلَ إلينا»[1].

نحن مأمورون بهذا الحديثِ الصحيح أنْ لا نصدِّقَ أهلَ الكتاب، وأَخْذُ إسرائيلياتهم وتفسيرُ آيات القرآن بها تصديقٌ لهم، ومخالفةٌ لهذا التوجيه النبوي الكريم.

وعندما نتوقفُ في الإِسرائيليات والحكم لها أو عليها، وعندما نترفعُ عن إيرادِها وذكرِها، ليس هذا تكذيباً منّا لها، فالحديثُ ينهانا عن تكذيبها أيضاً، لعدم وجودِ أدلةٍ يقينية نحتكمُ إليها. إنما هذا التوقفُ سكوتٌ عنها، وعدمُ اعتمادٍ لها، واتباع للمنهجيةِ القرآنية في البحث والعلم.

١٥ ـ هديُ الرسولِ ﷺ مع الصحابة، حيث كان ينهاهم عن أخذِ ما عندَ أهلِ الكتاب، لعدم الوثوق به.

---

(١) أخرجه البخاري، برقم: ٤٤٨٥.

روى أحمد عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما: «أنَّ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبيَّ ﷺ بكتاب أصابه من بعضِ أهل الكتاب، فقرأه عليه، فغضبَ عليه الصلاة والسلام. وقال: أَمُتَهَوِّكونَ فيها يا ابنَ الخطاب؟ [والمُتَهَوِّكُ هو: الشّاكّ المتحيّر].

والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاءَ نقية. لا تسألوهم عن شيء، فيخبروكم بحقٍّ فتكذّبوا به، أو بباطلٍ فتصدقوا به.

والذي نفسي بيده، لو أنَّ موسى ﷺ كان حياً، ما وَسِعَه إلاّ أن يتبعني»[1].

لقد غضبَ رسولُ الله ﷺ على عمر لأنه كان يقرأُ بكتابٍ فيه بعضُ رواياتِ أهلِ الكتاب، لئلا يكون ذلك الفعلُ ناتجاً عن التَّهَوُّكِ والشكّ والحيرة، وهو يريدُ للصحابة - والمسلمين من بعدهم - أن يكونوا على يقينٍ كامل أنهم على الحق، وأنَّ مَنْ سواهم على الباطل.

وأخبرَنا أنه عليه الصلاة والسلام قد جاءَنا بالشريعة الإسلامية بيضاءَ نقية صافية، وأنَّ ما في الكتاب والسنة من علمٍ صحيح صادق يكفي المسلمين، فلا يَحتاجون إلى الذهابِ إلى كتبِ أهلِ الكتاب، وأخْذِ ما فيها من إسرائيليات.

ونَهىٰ الرسولُ عليه السلام في هذا الحديث عن تصديق أهل الكتاب أو تكذيبهم، لما في ذلك من خطورة، لعدمِ وجودِ أدلةٍ على التصديق أو التكذيب.

إننا إذا صدقنا الإسرائيليات فقد تكونُ مكذوبةً في الحقيقة، ونكون قد صدَّقْنا بكذب وباطل، وهذه مسؤولية كبيرة.. وإننا إذا كذَّبنا تلك

(١) انظر فتح الباري لابن حجر ١٣/ ٣٣٤.

الإِسرائيليات فقد تكونُ صادقةً في الحقيقة، ونكونُ قد كذَّبنا ما هو حق وصدق، وهذه مسؤوليةٌ كبيرة.

ولذلك قالَ لنا رسولُ الله ﷺ: «لا تسألوهم عن شيء، فقد يخبرونكم بحقٍّ فتكذبوا به، وقد يخبرونكم بباطل فتصدقوا به..».

والموقفُ هو التوقُّفُ فيما عندهم من إسرائيليات. وهذا ما نطالبُ به.

صحابة يحذرون من الإسرائيليات:

١٦ ـ وقد استفادَ الصحابةُ هذا التوجيهَ من رسولِ الله ﷺ، والتزموا به، ولذلك كانوا لا يأخذونَ تلك الإِسرائيليات، وكانوا يُنكرونَ على مَن يذهبُ إِليها ويأخذ منها.

روى البخاريُّ عن عبيدِ الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «يا معشرَ المسلمين: كيف تسألون أهلَ الكتاب؟ وكتابُكم الذي أنزلَه اللّهُ على نبيّه ﷺ أَحدثُ الأخبارِ بالله، تقرؤونه لم يُشَبْ، وقد حدَّثكم اللّهُ أن أهلَ الكتاب بدّلوا ما كتبَ الله، وغيّروا بأيديهم الكتاب. فقالوا: هذا من عندِ الله، ليشتروا به ثمناً قليلاً.

أفلا ينهاكُم ما جاءَكم من العلمِ عن مساءلتهم؟ ولا والله ما رأَينا رجلاً منهم قطّ يسألكم عن الذي أُنزلَ إليكم..»[١].

وقال عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه: لا تسأَلوا أهل الكتاب، فإنهم لن يَهدوكم وقد أَضلّوا أنفسهم، فتكذِّبوا بحق، أو تصدِّقوا بباطل»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري، برقم: ٧٣٦٣.

(٢) فتح الباري ١٣/ ٣٣٤.

إن كلامَ ابنِ مسعود رضي الله عنه موافقٌ ومؤكدٌ لكلامِ رسول الله ﷺ الذي أوردْناه من قبل، وهو يدعونا إلى التوقفِ في الإِسرائيليات.

أما ابنُ عباس رضي الله عنهما فإنه ينكرُ على مَن يذهبُ إلى إسرائيليات أهل الكتاب، لأنَّ عندنا الكلامَ الصادقَ اليقيني، المتمثلَ في كتابِ الله عزَّ وجلَّ.

ومما أخبرَنا اللّهُ به في القرآن الكريم أنَّ أهلَ الكتاب قد حَرّفوا وغيَّروا وبدَّلوا، وهذا يجعلُ كلَّ كلامِهم مشكوكاً فيه، وكلَّ علومهم ورواياتهم مُتَّهمَة، ولذلك لا نأخذُ شيئاً مما عندهم.

ويدعو ابنُ عباس إلى اكتفاءِ المسلمين بما عندهم من العلم، والاستغناءِ به غنى يُغنيهم عن سؤالِ أهل الكتاب، والعودةِ إلى الإِسرائيليات.

ويعيدُ ابنُ عباس المسألةَ إلى وضْعِها الصحيح، فمَنْ هو الأَوْلى أنْ يَذهبَ ليتعلمَ من الآخر؟ هل يتتلمذُ المسلمون على اليهود، أم يتتلمذُ اليهود على المسلمين؟ وهل يتعلمُ العالمُ من الجاهل؟ الأَوْلى أنْ يتعلمَ الجاهلُ من العالم: «ولا والله ما رأينا رجلاً منهم قط يسألكم عن الذي أرسل إليكم»!.

الحديث الصحيح في الحديث عن بني إسرائيل:

أهمُّ الأدلةِ التي اعتمدَ عليها الذين أَوردوا الإِسرائيليات، من المؤرّخين والمفسرين المسلمين، حديثٌ صحيحٌ عن رسول الله ﷺ.

فقد روى البخاريُّ عن عبدِ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن رسولَ الله ﷺ قال: «بَلِّغوا عني ولو آية، وحَدّثوا عن بني

إسرائيل ولا حرج، ومَن كذبَ عليَّ متعمداً، فليتبوأ مقعدَه من النار»[1].

وجهُ الدلالةِ من الحديث عندهم، أن رسولَ الله ﷺ أباحَ وأجازَ التحدثَ عن بني إسرائيل، ورفعَ الحرجَ عن المسلمين في ذلك، وسمحَ للمسلمين الذهابَ إلى كتبِ وروايات وأقوال بني إسرائيل، وأخذَ ما فيها من إسرائيليات.

ولذلك صارَ هؤلاء المسلمون يَملؤون كتبَهم بما أَخذوه من الإسرائيليات، ويفسِّرون بها آياتِ القرآن التي تتحدثُ عن السابقين.

وقبلَ أنْ نقدمَ فهمنا وترجيحَنا لمعنى قوله: **«حدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»** سنتوقفُ لحظةً مع الإمامِ ابن حجر العسقلاني، وهو يشرحُ هذا الحديثَ في فتحِ الباري.

أقوال في معنى الحديث:

أوردَ الإمامُ ابن حجر عدةَ أقوالٍ في معنى: «حَدِّثوا عن بني إسرائيل»:

١ ـ قال بعضهم: المرادُ ببني إسرائيل هنا، هم أولادُ يعقوب نفسه عليه السلام: أي: حَدِّثوا عن أولادِ يعقوب الاثني عشر، وأَخبروا الناسَ عن قصةِ الأَولاد مع أخيهم يوسف عليه السلام.

٢ ـ وقال الإمامُ مالك: المرادُ بالحديث جوازُ التحديثِ عن بني إسرائيل بما كان من أمرٍ حسن. أما ما عُلمَ كَذِبُه منهم فلا يجوزُ التحدثُ به.

(١) أخرجه البخاري، برقم: ٣٤٦١.

٣ ـ وقال الإمامُ الشافعي: من المعلومِ أنَّ رسولَ الله ﷺ لا يُجيزُ التحدثَ بالكذب، فمعنى الحديث: حَدِّثوا عن بني إسرائيل بما لا تعلمون كذبه.

٤ ـ وقال بعضهم: مرادُ الحديث: جوازُ التحدثِ عن بني إسرائيل بمثلِ ما جاء في القرآن والحديث الصحيح.

٥ ـ وقال بعضهم: معنى الحديث: جوازُ التحدثِ والرواية عن بني إسرائيل، بأيِّ صورةٍ وقعت الرواية، سواء كانَ الإسنادُ متصلاً أو منقطعاً، وذلكَ لتعذرِ الاتصال في الإسنادِ بالحديث عنهم.

وهذا بخلافِ العلم في الإسلام، فإنَّ الأصلَ في الرواياتِ والأحاديثِ المروية عن السابقين من المسلمين أنْ تكونَ مسندةً متصلة.

أما معنى قوله: «ولا حرج»، والحكمةُ من نفي الحرج في الحديث عنهم، فقد أوردَ الإمامُ ابنُ حجر عدةَ أقوال أيضاً:

١ ـ أنَّ نفيَ الحرج نفيُ الضيق والتحرجِ في ذلك، لأنه سبقَ أنْ نهىٰ الرسولُ ﷺ عن الحديثِ والأخذِ عن أهل الكتاب، وزجَرَ المسلمين عن الأخذِ من كتبهم، ثم أذنَ لهم في التحدث عنهم، ونفىٰ عن المسلمين الحرجَ والضيقَ بسبب ذلك.

٢ ـ الرسولُ ﷺ يدعو المسلمين إلى عدمِ التضايق بما يسمعون عن بني إسرائيل. وكأنه يقول لهم: لا تَضِقْ صدورُكم، ولا تتحرجوا أو تستغربوا، بسببِ ما تسمعون من أعاجيبِ حوادثهم، فإنَّ ذلك حدثَ منهم فعلاً.

٣ ـ نفيُ الحرج عن المسلمين في عدمِ الحديث عنهم. فإن

قوله: «حَدِّثوا عن بني إسرائيل» أَمْرٌ بالحديث عنهم، لكنَّ الأمْرَ هنا ليسَ على ظاهره، فلا يدلُّ على وجوب ذلك، بحيث يكونُ آثماً مَن لا يتحدثُ عنهم، ولذلك أتبعَ الأمْرَ بالحديث الإِشارة إلى رفْع الحرجِ والإِثم على مَن لم يفعلْ ذلك، وهذا ليعلموا أنَّ الأَمْرَ للإِباحة لَا للوجوب.

فمعنى: «لا حرج»: لا إثمَ على مَنْ تركَ التحدث عنهم.

٤ ـ وذهبَ بعضُ العلماء إلى أنَّ معنى: «ولا حرج»: رفعُ الحرج ونفيُ الإِثم عن مَن تحدّث عنهم، ورَوى ما رَوى من جرائمهم وأخطائهم، لما في بعضِ أخبارهم من الألفاظِ الشنيعة. وذلك قولهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾. وقولهم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾[1].

الراجح في معنى الحديث:

وعندما ننظرُ في الأقوالِ الخمسة التي أوردَها ابنُ حجر في معنى قوله: «حدثوا عن بني إسرائيل» فإننا نرجحُ القولَ الأول منها.

ونرجحُ القولَ الرابع من الأقوال التي أوردها ابن حجر في معنى قوله: «ولا حرج».

وهذا يقودُنا إلى تقديمِ ما نراه من المعنى الراجح لهذا الحديث.

ليس معنى «حَدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» رفعَ الحرجِ وإزالةَ التحرج، والإِقبالَ على أقوال وروايات وأخبار بني إسرائيل، وأَخْذَ ما عندهم من إسرائيليات وأساطير، حولَ بعضِ أحداث السابقين، وروايتها واعتمادها، وتفسيرَ آيات القرآن بها، واعتبارَها معلوماتٍ علمية، يُفَصِّلُ

(١) انظر هذه الأقوال في فتح الباري شرح البخاري لابن حجر العسقلاني: ٦/٤٩٨ ـ ٤٩٩.

بها القصصُ القرآني المجمل في القرآن، كما فعلَ كثيرٌ من المفسرين والمؤرخين المسلمين.

ولو أرادَ الرسولُ ﷺ هذا المعنى، لقال: ارْوُوا عن بني إسرائيل.

فرْقٌ بين قولك: رويْتُ عن فلان، وبين قولك: حَدَّثْتُ عن فلان.

إنَّ معنى قولك: رويْتُ عن فلان: أنك أخذْتَ كلامَه، ونقلْتَه للآخرين. فأنتَ راويةٌ لكلامه.

ولهذا كان رواةُ الحديثِ النبوي ورجالُه يروونه، عن أشياخهم بقولهم: حَدَّثَنا فلانٌ عن فلان.

ولو قالَ الرسولُ عليه الصلاة والسلام: ارْوُوا عن بني إسرائيل، لكان معناه: اذْهبوا إلى بني إسرائيل، وخُذوا ما عندهم من أقوال أو إسرائيليات، وانْقُلوها وارووها وبَلِّغوها للمسلمين.

أما قولك: حدَّثْتُ عن فلان فإنه يحتملُ معنيَيْن:

المعنى الأول: هو الذي يدلُّ عليه قولك: رويتُ عن فلان أي: حدثْتُ عنه، ورويتُ حديثَه، ونقلْتُه للآخرين.

المعنى الثاني: أخبرتُ عنه، بمعنى أنني رويتُ قصتَه للآخرين، وأخبرتُهم بما جرى له من أُمور، وأطلعْتُهم على ما مرَّ به من وقائع وأحداث.

وعلى هذا المعنى يكون المرادُ بقوله عليه الصلاة والسلام: «حَدِّثوا عن بني إسرائيل»: اعْرِضوا على المسلمين قصةَ بني إسرائيل، وأَخبِروهم بما قامَ به بنو إسرائيل من أفعال، وما مَرَّ بهم من أحداث.

مقصود الحديث إخبار المسلمين بتاريخ بني إسرائيل:

إذن: المعنى الراجحُ لِهذا الحديث هو: أَخبروا المسلمين بما جرى لبني إسرائيل من وقائع، وأَطْلِعوا المسلمين على ما عندكم من معلومات، عن قصةِ بني إسرائيل، واكشِفوا هؤلاء للمسلمين، واعرِضوا ما قاموا به من أفعال وجرائم، وما ارتكبوا من فظائع.

تكلّموا عن موقفِ بني إسرائيل من أنبيائهم، وعن كفرِهم بالله، وتحريفِهم لكتبه، وعن صفاتِهم القبيحة وأخلاقِهم المذمومة، وحَذروا المسلمين منهم، بعرضِ مشاهد ولقطات من تاريخهم.

ومما يدلُّ على أنَّ هذا هو المعنى الراجحُ للحديث عن بني إسرائيل، أنَّ الرسولَ ﷺ أَتْبَع ذلك بنفيِ الحرج: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»، فأرادَ أنْ يُزيلَ الحرج مِن إخبارِ المسلمين عن ما جرى لبني إسرائيل.

وقد يكونُ مبعثُ هذا الحرجِ أنْ يظنَّ بعضُ المسلمين أنه يتحدثَ عن أهلِ كتاب، بعثَ الله لهم أنبياء، فيخشىٰ أنْ يكونَ مخطئاً أو آثماً في حديثه عنهم، فأزالَ الرسولُ عليه الصلاة والسلام هذا التحرج.

طبعاً يرتفعُ الحرجُ والإِثم عن من تحدثَ عن بني إسرائيل الكفار، واكتفى بما تحدثَ عنهم القرآنُ والحديث الصحيح، بشرطِ أن لا يُدخلَ معهم أنبياءَهم وصالحيهم ومؤمنيهم في الذمّ والتنقيص، ولا يُشركَ هؤلاء الأنبياءَ والصالحين مع الأغلبيةِ الكافرة من بني إسرائيل، في الرذائلِ التي ارتكبوها.

أثناءَ تحديثِنا عن جرائمِ وانحرافات بني إسرائيل، لا بدّ أن نخصصَ ذلك بكافريهم، وأنْ نَستثنيَ من ذلك أنبياءَهم، لأنهم أنبياء كرامٌ بعثَهم اللَّهُ عزَّ وجلَّ لهم. كما نستثني من ذلك أَتباعَ الأنبياء من

مؤمنِي وصالحي بني إسرائيل في الماضي، وهم قلائلُ جداً أمامَ الأغلبيةِ الكافرة المنحرفة من بني إسرائيل.

هذا ما نفهمهُ من الحديثِ النبوي الصحيح، وهذا ما نرجحه من معناه.

موقفنا هو التوقف في الإسرائيليات:

ولهذا لسنا مع جمهورِ المفسرين والمؤرخين، والذين جعلوا الحديثَ رخصةً مبيحة لهم، لأخذِ ما عند بني إسرائيل من إسرائيليات.

ولهذا لا نجيزُ أنْ نأخذَ هذه الإسرائيليات، ونفسِّر بها كلامَ الله، ونفصِّل بها أحداثَ ووقائعَ القصص القرآني، ونستمدَّ منها العلمَ التاريخي بما سكتَ عنه القرآن الكريم من مشاهد قصص السابقين.

وموقفُنا من هذه الإسرائيليات هو التوقُّف، فلا نصدِّقُها ولا نكذِّبها، كما علَّمنا رسولُ الله ﷺ، فإنْ صدَّقْناها فقد نكونُ صدقْنا بباطل، وإنْ كذبْناها فقد نكون كذبنا بحق.

وتوقُّفُنا في قبول هذه الإسرائيليات في القصص القرآني، لا يعني إيرادَها وذكرَها وتسجيلَها، أثناءَ نظرنا في أحداثِه المعروضة في القرآن والحديث الصحيح، كما فعلَ المفسرون والمؤرخون المنصفون، مثل الإمام ابنِ كثير رحمه الله، حيث كان يوردُ هذه الإسرائيليات في تفسيرهِ وتاريخه، وينصّ أحياناً على توقفِه فيها لأنها إسرائيليات.

إنَّ توقُّفَنا فيها يدعونا إلى عدمِ ذكْرِها أو تسجيلهَا - إلاّ من بابِ النصِّ الصريح على عدم اعتمادها، والتحذيرِ من قبولها وروايتها - وعدم تفسيرِ كلام الله بها. توقُفنا فيها يعني أنْ نتجاوزها، وأَنْ نلغيها من حسابنا، وأنْ نفهمَ آياتِ القرآن بمعزلٍ عنها.

منهجُنا في فهمِ القصص القرآني، ومعرفة أحداثه ووقائعه

وتفصيلاته، الاكتفاءُ بالمصدرِ المأمون الموثوق الصحيح، ذلك المصدرُ المتمثلُ في آياتِ القرآن الصريحة، والأحاديث النبوية الصحيحة، وفهمِ العلماء السابقين الملتزم بالقرآن والحديث الصحيح!!

منهجنا في القصص: الاكتفاء بالآيات والأحاديث الصحيحة:

منهجُنا عدمُ اعتمادِ أية معلومة أو روايةٍ من الإِسرائيليات، مهما قَلَّتْ أو صَغُرَتْ، وَعدمُ إيرادِها وذكرِها.

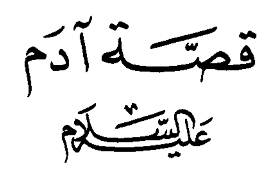
منهجُنا عدمُ أخذِ كلامِ أي عالمٍ من العلماء السابقين، من المفسرين والمؤرخين، كالطبريِ وابن كثير، فيما يتعلقُ بأحداث ووقائع القصص القرآني، إلا إذا استمدّهُ من القرآن والحديث الصحيح.

إننا لم نأخذْ أيَّ كلام لأيِّ عالم مهما كان، إلا إذا أقامَ الدليلَ على كلامِه من الآيات والأحاديث الصحيحة، أو ثبتَ لدينا دليلٌ صحيح على كلامه. فإنْ لم يتوفَّرْ هذا الدليل، تركْنا كلامَ ذلك المفسر أو المؤرخ، مع احترامِنا وإجلالِنا وتقديرِنا له.

إنّ احترامَنا وتقديرَنا لعلمائنا المفسّرين والمؤرّخين لا يعني أنْ نأخَذ كلَّ ما قالوه، فنحن ملزمون بعرضِ رواياتِهم على مصادرِنا اليقينية، فما وافقَ القرآنَ والحديثَ الصحيح قبلْناه وأخذنا به، وما لم يوافقْه تركْناه.

إننا مُطالبَون أنْ نعرفَ الرجالَ بالحق، ولا نعرفَ الحق بالرجال، وكلُّ إنسانٍ يُؤخَذُ من كلامه ويُترك، إلا رسولُ الله المعصومُ عليه الصلاة والسلام!

هذا منهجُنا في التعاملِ مع أحداثِ ووقائع القصص القرآني، ونرجو أن نكونَ ملتزمين به، واللَّهُ المستعانُ المعين، وهو حسبُنا ونعمَ الوكيل.


قصة آدم
عليه السلام



[١]

خلق الكون وتهيئته للإنسان

خلق الله السموات والأرض:

اللَّهُ الخالق. خلق السموات والأرض، وخلقَ ما فيهما من مخلوقات حية، كالملائكةِ والجن والإِنس.

وقد أخبرَنا اللَّهُ في القرآن أنه خلقَ السماوات والأرض وما بينهما في ستةِ أيام، وأنَّ عرشَه ـ سبحانه ـ كان على الماء. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧].

وقد زعمَ اليهودُ الكافرون في أكاذيبهم، أن الله لما خلقَ السماواتِ والأرض في ستة أيام، تعبَ ـ سبحانه ـ فاستراحَ في اليوم السابع، وهو يومُ السبت! فكَذَّبَهم اللَّهُ في صريح القرآن. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

واللُّغوبُ هو: التعب. فينفي اللَّهُ ـ سبحانه ـ عن نفسه أنه مسَّهُ تعبٌ، لمّا خلقَ السموات والأرض.

وأخبرَنا اللَّهُ أن السماواتِ والأرضَ كانتا رَتْقاً ملتصقَتَين، ففتَقَهما وفصَلَ بينهما. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠ ـ ٣١].

كانت الأرضُ ملتصقةً بالسماوات، ففصَلَها الله عنها، كما تصرِّحُ الآية: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾.

قال الإمام الراغب الأصفهاني في كتابه «مفردات ألفاظ القرآن» عن الرَّتْق والفَتْق:

«الرَّتْق: الضَّمُّ والالتحام، خِلْقَةً كان أَمْ صَنعة.

قال تعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ أي: منضمَّتَين»[1].

«الفتق: الفصْلُ بين المتصليْن، وهو ضدُّ الرَّتق. قال تعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾. والفتْقُ والفتيق: الصبح»[2].

لما فصلَ اللّهُ الأرضَ عن السماء، أنزلَ عليها الماء، وهيَّأَها للحياة، وجعَلَها صالحةً للعيش عليها، تمهيداً لخلْقِ الكائنات الحيةِ عليها. ولهذا ذَكرت الآيةُ الماء، وأنه أَصْلُ كلِّ الأحياء، بعد ذِكْرها لفصلِ الأرض عن السماء ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وتدلُّ آياتُ القرآنِ على أنَّ اللّهَ خلقَ السماء أولاً، ثم خلقَ الأرضَ بعد ذلك. قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٣].

هيأ الله الأرض للإنسان:

وهيَّأَ اللّهُ الأرض، وقدَّر فيها خيراتِها، وجعلَ فيها الماءَ الذي هو أساسُ الحياة، وأَرسى فيها الجبال، وأَصلح تربتَها، ورتَّبَ ليلَها ونهارها، وأنبت نباتَها وأشجارَها، كلُّ هذا إِعداداً لها لاستقبال أحيائها، ليعيشوا عليها.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني تحقيق صفوان داوودي: ٣٤١.

(٢) المرجع السابق: ٦٢٣.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢].

خلَقَ اللّهُ السماوات والأرض لحكمةٍ وقصد، ولم يكن لاهياً ولا لاعباً ـ سبحانه ـ وهو يخلُقُهما. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٦ ـ ١٧].

ويبدو أن اللّهَ خلقَ مخلوقاتِ الأرضِ الحيةَ، قبلَ خلْقِ الإنسان، فجعلَ في الأرض بحارَها وأنهارها، وأنزلَ عليها أمطارها، وأنبتَ فيها نباتَها وأشجارَها، ثم خلَقَ فيها حيواناتِها وحشراتها، وزواحفها وطيورَها، وبذلك استقرت الحياةُ عليها، تمهيداً لاستقبالِ الإنسان الخليفة.

وتدلُّ آياتُ القرآن على أنَّ الجنةَ ـ دارَ النعيم ـ كانت مخلوقةً وموجودةً قبل خلْقِ الإنسان، لأنَّ أحداثَ قصةِ آدم عليه السلام في القرآن جرَتْ في الجنة، قبلَ إنزالِه على الأرض.

[٢]
آدم عليه السلام في القرآن

«آدم»: اسمٌ سمّى اللّهُ به أولَ مخلوق من البشر، فهو أبو البشر جميعاً، على اختلافِ أجناسهم وألوانهم ولغاتهم.

وهو اسمُ علم أعجمي، ممنوعٌ من الصرف، للعلميةِ والعُجْمة.

لا نبحثُ عن مادةِ اشتقاق «آدم»، لأنَّ المشتقَّ يجبُ أن يكون اسماً عربياً، و «آدم» اسم، سمّى اللّهُ به أبا البشر، قبلَ أن يخلقَ اللّهُ أولَ عربي، ويتكلمَ لغةً عربية.

وقد وردتْ كلمةُ «آدم» في القرآن خمساً وعشرين مرة.

وفي معظم هذه المراتِ كانتْ خطاباً من الله لآدم نفسه عليه السلام، أو إخباراً عن بعض ما جرى له. وقد وردتْ ست عشرةَ مرة على هذه الصفة.

وفي بعض هذه المراتِ كان الكلامُ عن أبناء آدم وذريته، كأن يقول: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾، أو ﴿نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ﴾، أو ﴿ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾. وقد وردت تسع مرات على هذه الصفة.

وفيما يلي قائمة بالسور التي وردت فيها كلمة آدم، وعدد مرات ورودها:

السور التي ذكر فيها:

١ - سورة البقرة: خمس مرات.

٢ - سورة آل عمران: مرتان.

٣ - سورة المائدة: مرة واحدة.

٤ - سورة الأعراف: سبع مرات.

٥ - سورة الإسراء: مرتان.

٦ - سورة الكهف: مرة واحدة.

٧ - سورة مريم: مرة واحدة.

٨ - سورة طه: خمس مرات.

٩ - سورة يسٓ: مرة واحدة[١].

أما قصةُ «آدم» فقد وردتْ في سبع سور. وهي سور: البقرة، الأعراف، الحجر، الإِسراء، الكهف، طه، صٓ.

---

(١) انظر «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن» لمحمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله: ٢٤.

[٣]

ما عرضته كل سورة من قصته

قصته في سورتي البقرة والأعراف:

نعرضُ فيما يلي عناوينَ الموضوعاتِ التي عرضَتْها آياتُ كل سورة، عن قصة آدم عليه السلام.

١ ـ قصةُ آدم في سورة البقرة: جاءت قصةُ آدم في سورة البقرة في عشرِ آيات: [الآيات: ٣٠ ـ ٣٩].

تحدثت الآياتُ عن الموضوعاتِ التالية:

إِخبارُ اللَّهِ للملائكةِ عن جعلِه خليفةً في الأرض، واستعلامُ الملائكةِ عن الحكمةِ من ذلك، وتعليمُ الله آدمَ الأسماءَ كلَّها، وامتحانُه للملائكة، وعجزهم عن الإجابة، ونجاح آدم في الإجابة، وأمر الله للملائكة بالسجود لآدم، وسجودُهم كلِّهم، ورفْضُ إبليس السجود، وإسكانُ آدم وزوجِه حواء الجنة، ونهيُهما عن الأكل من شجرةٍ واحدةٍ فيها، وإباحةُ كلِّ ما عداها، وتحذيرُهما من عداوةِ الشيطان، وإِغواءُ الشيطان لهما، وأكْلُهما من الشجرة المحظورة، ثم إنزالُ الجميع إلى الأرض.

٢ ـ قصةُ آدم في سورة الأعراف: جاءت قصة آدم في سورة الأعراف في خمسَ عشرةَ آية: [الآيات: ١١ ـ ٢٥].

وتحدثت الآياتُ عن الموضوعات التالية:

أمْرُ الله الملائكة بالسجود لآدم، وتنفيذُهم الأمر، وعدمُ سجود إبليس، وتبريرُه لذلك بزعم أفضليتِه على آدم، وطرْدُ اللَّهِ له من الجنة لكفره وتكبُّره، وإِنظارُه وامتدادُ حياته إلى قربِ قيام الساعة، وتعهُّدهُ بإغواءِ معظم أبناء آدم، وخلودُه مع حزبه الكفارِ في النار، وإسكانُ آدم

وزوجِه الجنة، ونهيُهما عن الأكل من الشجرة، ووسوسةُ الشيطان لهما، وحلفُه اليمين لهما، وأكْلُهما من الشجرة، وظهورُ سوءاتِهما بعد ذلك، وحياؤهما، وسترُهما السوءاتِ بورق الجنة، وعتابُ الله لهما، واعترافُهما بالخطأ، وتوبتُهما، وقَبولُ الله لها، وإِنزالُهما إلى الأرض، مع عدوِّهما إبليس، وحياتُهما على وجه الأرض.

قصته في سور الحجر والإسراء والكهف:

٣ ـ قصة آدم في سورة الحجر: جاءت قصةُ آدم في تسع عشرة آية من آيات سورة الحجر، وهي [الآيات: ٢٦ ـ ٤٤].

وتحدثت الآيات عن الموضوعات التالية:

خلْقُ آدم من صلصال من حمأ مسنون، وخلْقُ الجانِّ قبلَه من نار السموم، وأمْرُ الله الملائكةَ بالسجود لآدم بعد نفخ الروح فيه، ورفْضُ إبليس لذلك، وتبريرُه مخالفتَه بتفضيله على آدم، وطردُ اللَّهِ له من الجنة، وإحلالُ لعنته عليه إلى يوم القيامة، وإِنظارُه وإِمهالُه إلى قربِ قيام الساعة، وتعهُّده بإغواءِ بني آدم الضالين، ومعرفتُه بعجزه عن إغواءِ عباد الله الصالحين، وعهْدُ الله بحفظ عبادِه المؤمنين، وتقريرُه بتخليدِ الكافرين في جهنم.

٤ ـ قصة آدم في سورة الإِسراء: وردتْ قصةُ آدم في خمس آياتٍ من آيات سورة الإِسراء، وهي [الآيات: ٦٠ ـ ٦٥].

وتتحدث الآياتُ عن سجودِ الملائكة لآدم، ورفضِ إِبليس السجود، وتعهدِه بإغواء بني آدم الضالين، وتمكينِ الله له من ذلك امتحاناً للناس، وبعضِ وسائله الشيطانية في هذا الإِغواء، وتقريرِ عدمِ سلطانه على عباد الله الصالحين.

٥ ـ قصة آدم في سورة الكهف: وردت إشارةٌ سريعةٌ إلى لقطةٍ

من لقطات قصة آدم في سورة الكهف، وذلك في آية واحدة من آياتها، وهي [الآية: ٥٠].

وتشير الآيةُ إلى تنفيذِ الملائكة لأمر الله، وسجودِهم لآدم، ورفضِ إبليس، وتصرحُ بأن إبليسَ من الجن، وتحذرُ الناسَ من طاعتِه واتخاذِه ولياً من دون الله.

قصته في سورتي طه وص:

٦ ـ قصة آدم في سورة طه: وردتْ قصةُ آدم في ثلاثَ عشرة آية من آيات سورة طه، [الآيات: ١١٥ ـ ١٢٧].

بدأت الآياتُ بالإشارةِ إلى عهدِ الله لآدم بعدم أكله من الشجرة، ونسيانه العهد، وأكله من الشجرة ناسياً غيرَ عامد.

ثم تحدثت الآياتُ عن سجودِ الملائكة له، ورفضِ إبليس، وتحذيرِ الله لآدم وزوجِهِ من عداوة إبليس، وبيانِ هدفه في إخراجِهما من الجنة، ووسوسةِ الشيطانِ لهما التي أدَّتْ إلى أكلهما من الشجرة، وانكشافِ سوءاتهما، ومعصيةِ آدم لربه، ثم توبته، وإنزالِ الجميع من الجنة إلى الأرض.

٧ ـ قصةُ آدم في سورة ص: وردتْ قصةُ آدم في تسع عشرة آية من آياتِ سورة ص. [الآيات: ٦٧ ـ ٨٥].

بدأت الآياتُ بالإشارةِ إلى توظيفِ قصةِ آدم في القرآن دليلاً على أنه كلامُ الله، وأنَّ محمداً هو رسولُ الله ﷺ، وإلاَّ فمن أدراه ـ وهو الأمي ـ بتفصيلاتِ قصة آدم في الجنة؟

ثم تشيرُ الآيات إلى إخبارِ الله للملائكة عن خلْقِ آدم، وتكليفِهم بالسجود له عند نفخِ الروح فيه، ورفضِ إبليس السجود، وتبريرِه رفْضَه بأنه خيرٌ من آدم، ولعنةِ الله عليه، وإخراجه من الجنة، وإنظارِه وإمهالِه

إلى قرب قيام الساعة، وتعهُّدِ إبليس بإغواء بني آدم الضالين، وعجْزِه عن فعل ذلك مع عباد الله الصالحين.

[٤]

قصة آدم في القرآن دليل على الوحي

نصَّ القرآنُ على أنَّ من أَهدافِ إيرادِ القصص فيه، إِثباتَ الوحي، وتقريرَ نبوةِ محمد ﷺ، وأنَّ القرآنَ كلامُ الله.

ووردَ هذا النصُّ في آياتِ قصةِ آدم عليه السلام، حيث وُظِّفتْ هذه القصةُ في القرآن دليلاً على الوحيِ والنبوة ومصدرِ القرآن.

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ [ص: ٦٧ ـ ٧٠].

توظيف قصة آدم دليلاً على الوحي:

يأمرُ اللّٰهُ نبيَّه محمداً ﷺ في هذه الآيات، أنْ يقولَ للكفار، الذين ينكرونَ نبوَّتَه، ويزعمونَ أن القرآنَ كلامُه هو وليس كلامَ الله: هذا القرآنُ نبأٌ عظيم، وأنتم معرضون عنه، كافرون به، وتزعمون أنه كلامي. ولو كان ما تقولونه صحيحاً، فمَنْ أَدراني وأَعلَمَني باختصامِ الملأ الأعلى في الجنةِ بشأنِ آدم؟

والمرادُ باختصامِ الملأ الأعلى في قوله: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾. الكلامُ الذي صدرَ عن الملائكة، والسؤالُ الذي طرحوه، عندما أخبرهم اللّٰهُ أنه سيجعلُ في الأرض خليفة، ثم ما طلبه اللّٰهُ منهم بإخبارِه بالأسماءِ للمسمَّيات، وعجزُهم عن ذلك.

ثم تمرُّدُ إبليس وعصيانُه وكفرُه عندما رفضَ السجودَ لآدم عليه السلام، وكلامُه بعد هذا وتبريرُه لكفره، وتعهُّدُه بالإِغواء.

إنَّ الحديثَ عن هذه الأمورِ الغيبية في القرآن، دليلٌ على النبوةِ والوحي، لأَنها أحداثٌ وقعتْ في الجنة، قبل أنْ تبدأ حياةُ البشرِ على وجه الأرض.

فإخبارُ الرسولِ ﷺ بهذه الأحداث في القرآن، ونطْقُه بها، دليلٌ على أنه لم يعرفْها من عنده، ولم يخبرْه بها أحدٌ من البشر، وإنما هي وحيٌ من الله له: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

[٥]

مادة خلق الملائكة والجن

أخبرَنا اللّهُ أنَّ المخلوقاتِ الحيةَ العاقلةَ في هذا الوجود ثلاثة: الملائكة، الجن، الإِنس.

أما الملائكةُ والجنُّ فهم من عالَمِ الغيب، غيبِ الحاضر، فنحن لا نراهم بعيوننا، لكنهم أحياءٌ موجودونَ من حولنا.

وطريقُ معرفة عالَمِهم وأحوالِهم هي النصوصُ فقط، وهي محصورةٌ في الآياتِ القرآنية الصريحة، والأحاديثِ النبويةِ الصحيحة.

تخبُرنا هذه النصوص عن وجودِ الملائكةِ والجن قبلَ الإِنسان، وعن المادةِ التي خَلقهم اللّهُ منها.

كان الملائكةُ موجودين قبلَ خلْقِ آدم عليه السلام، كما صَرَّحتْ آياتُ القرآن، حيث أخبرهم اللّهُ عن خلْقِ آدم قبلَ خلقه، وأَمَرهم بالسجودِ له عند نفخِ الروح فيه، وذلك قبلَ نفخِ الروح فيه.

وقد خلقَ اللّهُ الجن قبل الإِنس، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر: ٢٦ ـ ٢٧].

ووجهُ الاستدلالِ أن اللَّهَ قال: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾. أي: خلَقَ اللَّهُ الجنَّ قبل خلْقِه للإنسان.

خلق الملائكة من نور:

وخلَقَ اللَّهُ الملائكةَ من نور، وخلَقَ الجنَّ من نار. ودليلُ ذلك ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قالَ رسولُ الله ﷺ: «خُلقت الملائكةُ من نور، وخُلقَ الجانُّ من مارجٍ من نار، وخُلقَ آدمُ مما وُصفَ لكم»(١).

ولم يُفصِّل الحديثُ كيفيةَ خلْقِ الملائكة من نور، ولم يبيِّنْ لنا ماهيةَ هذا النور، ولذلك لا نتجاوزُ هذا الحديث، ونقول: خلقَ اللَّهُ الملائكةَ من نور.

أما الجنُّ فقد خلَقَهم اللَّهُ من مارجٍ من نار، كما أخبرَ رسولُ الله ﷺ، في الحديثِ السالف الذكر.

ومن الآياتِ التي أَشارتْ إلى مادةِ خلْقِ الجن قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر: ٢٦ ـ ٢٧].

ومنها قولُه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرحمن: ١٤ ـ ١٥].

وقد صرَّحَ إبليس ـ الذي هو من الجن ـ بأنَّ اللَّهَ خلقَه من نار، قال تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦].

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٩٩٦. انظر رسالة: الأحاديث الصحيحة من أخبار قصص الأنبياء، لإبراهيم العلي، رقم: ١.

خلق الجن من مارج من نار السموم:

إذن: خلقَ اللَّهُ الجنَّ من مارجٍ من نار السَّموم.

فما هي نارُ السَّموم؟ وما هو المارجُ الذي أُخذَ منها؟

قال الإِمام الراغب عن معنى «السموم» في المفردات: «والسَّموم: الريحُ الحارة، التي تؤثِّرُ تأثيرَ السّمّ»[1].

فنارُ السَّموم: هي نارٌ حارةٌ شديدةُ الحرارة، خلَقَها الله، ثم خَلقَ منها الجن.

وقال الراغب عن «مارج النار»: في المفردات:

«أصْلُ المرج: الخلط. والمرجُ: الاختلاط. ومُرِجَ الأَمر: اخْتَلَط. والأَمرُ المريج: المختَلِط. ومارجُ النار: لهيبُ النار المختلط»[2].

خلقَ اللَّهُ الجنَّ من مارجِ نارِ السَّموم. ومارجُ النار هو آخرُ جزءٍ حارٌ من لهيبِ النار، وأولُ جزءٍ من الدخانِ الأسودِ المتصاعدِ من النار، فمن اجتماعِ هذين الجزءين، ومزْجِ ذلك وخلْطِه، خلقَ اللَّهُ الجن.

نقول هذا لأن المارجَ من النار، هو لهيبُ النارِ الحارُّ المختلطُ مع الدخانِ الأسود الكثيف، الممزوجُ به.

ولهذا كانت طبيعةُ الجن ناريةً خفية.

هي نارية، بسبب ذلك الجزء من لهيبِ النار الحار. وهي خفيَّةٌ مستترة، بسببِ ذلك الجزء من الدخانِ الأسود، ومعلومٌ أن الدخانَ الأسود، يحجبُ ما وراءَه ويستره.

---

(١) مفردات الراغب: ٤٢٤.

(٢) المرجع السابق: ٧٦٤.

ولذلك نحن لا نرى الجنَّ في الدنيا، بينما هم يروننا، بدليلِ قولِ الله عن الشيطانِ وحزبه: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

[٦]

مراحل خلق آدم عليه السلام

هذا عن خلْقِ الملائكة، وخلْق الجن.

أما خلْقُ الإِنسان، فهناك تفصيلاتٌ في النصوص القرآنية والحديثية عن مراحِله.

معلومٌ أنَّ أبا البشر هو «آدم» عليه السلام،، فهو أولُ مخلوق من البشر، وقد أَخبرَنا اللَّهُ عن بعض التفصيلات في خلْقِه.

لقد مرَّ خلْقُ «آدم» عليه السلام قبلَ نفخِ الروح فيه بخمس مراحل، نأخُذُها من الآيات والأحاديث.

خلقه من حفنة من تراب:

المرحلةُ الأولى: خلْقُه من حفنةٍ من ترابِ الأرض:

قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩].

والهاءُ في «خَلَقَه» تعودُ على آدمَ عليه السلام. أي: خلَقَ اللَّهُ آدمَ من تراب، ثم قال له كن، فكانَ كما أرادَ الله.

وروى أبو داود والترمذيُّ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «أنتم بنو آدم، وآدمُ من تراب»[1].

---

(١) أخرجه أبو داود برقم: ٥١١٦، والترمذي برقم: ٣٩٥٠. الأحاديث الصحيحة. رقم: ٢.

وهناكَ حديثٌ صحيح، فصَّلَ في ذلك الذي خُلقَ منه آدم. فقد روى أبو داود والترمذيُّ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ اللَّهَ تعالى خلقَ آدمَ من قبضة، قبَضَها من جميع الأرض، فجاء بنو آدمَ على قدْرِ الأرض، فجاءَ منهم الأحمرُ، والأبيضُ والأسود، وبين ذلك، والسهلُ والحَزْنُ والخبيثُ والطيب، وبين ذلك»[1].

ويعلِّلُ الحديثُ سِرَّ اختلافِ الناس في ألوانِهم، فهو بسبب اختلافِ ألوانِ تراب الأرض، كما يعلِّلُ سِرَّ اختلاف الناس في نفسياتِهم وطبائِعِهم ومشاعرهم، فهو بسببِ اختلافِ طبيعة ترابِ الأرض.

وهذا يدلُّ على أنَّ القبضةَ الترابية التي خُلِقَ منها آدمُ عليه السلام جَمعتْ ألوانَ التراب المختلفة، وصفاتِه المتعددة.

خلقه من طين لازب:

المرحلةُ الثانية: خلْقُه من الطين:

وذلك بأن مُزجَتْ حفنةُ التراب المأخوذة من الأرض بالماء، فصارت طيناً.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١﴾ [ص: ٧١].

وقال إبليسُ يتباهى بأصلِه الناريِّ على طينِ آدم: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

المرحلة الثالثة: خلْقُه من طينٍ لازب:

---

(١) أخرجه أبو داود برقم: ٤٦٩٣. والترمذي برقم: ٢٩٥٥. وانظر الأحاديث الصحيحة للعلي. رقم: ٣.

قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١].

وقال الإمام الراغب في معنى ﴿لَّازِبٍ﴾: «اللازب: الثابتُ شديدُ الثُّبوت»(١).

وهذه المرحلةُ ناتجةٌ عن تحويلِ الطينِ الرَّخْوِ بسبب الماء، في المرحلة السابقة، إلى ﴿طِينٍ لَّازِبٍ﴾ شديدِ متماسكٍ كثيفٍ غليظ، وذلك تمهيداً لتجميدِه وتيبيسه، ليُصنعَ منه تمثالُ آدم، عليه السلام.

خلقه من صلصال من حمأ مسنون:

المرحلة الرابعة: خلْقُه من صَلْصالٍ من حمأ مسنون: قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الحجر: ٢٨].

ما هو ﴿صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾؟

قال الإمام الراغب في معنى ﴿صَلْصَالٍ﴾: «أصلُ الصَّلْصال: تردُّدُ الصوت من الشيءِ اليابس. قيل: صَلَّ المسمار: إذا أُدخلَ في الشيء اليابس.

وسُمي الطينُ الجافُّ صلصالاً.

وقيل: الصلصال: المنتنُ من الطين، يقال: صَلَّ اللحم: إذا أَنتنَ وتغيَّر»(٢).

فهل الصلصالُ هنا هو صوتُ الطينِ الجافِّ اليابس، أو الطينُ المنتنُ المتغير؟

الراجحُ هو القولُ الأول. لأنَّ تغيُّرَ الطين مستفادٌ من قوله بعده

---

(١) المفردات: ٧٣٩

(٢) المفردات: ٤٨٨ ـ ٤٨٩ باختصار.

﴿مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾. ولو كان معنى ﴿صَلۡصَٰلٖ﴾ هو المنتنُ المتغير، و ﴿مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ هو المنتنُ المتغير، لكان في الآية حشوٌ وتكرار، وهذا ينزَّهُ عنه كلامُ الله.

وقال الراغب في معنى: ﴿حَمَإٖ﴾: «والحَمأة والحمأ: طينٌ أسود منتن. والعينُ الحَمِئَة: ذاتُ الحمأ.

وقد قرأ نافعٌ وابنُ كثير وأبو عمرو ويعقوب، وحفصٌ عن عاصم[1]: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾ [الكهف: ٨٦].

فهي عينٌ ذاتُ طينٍ أسود منتن متغير، يَرى الرائي من بعيدٍ أن الشمسَ تغيبُ فيها، ولعلَّها كانت عند مصبِّ أَحد الأنهارِ في البحر.

وقال الراغب في معنى ﴿مَّسۡنُونٖ﴾: «والمسْنون: المتغيِّر»[2].

فمعنى: ﴿مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾: من طينٍ أسودَ منتنٍ متغيرٍ جافّ.

وهذه المرحلةُ ناتجةٌ عن المرحلة السابقة، فبعدَ أنْ صارَ المائعُ الرخوُ طيناً لازِباً ثابتاً شديداً جامداً، تُرِكَ فترة، فتحوَّلَ إلى أسودَ منتن متغير جاف.

خلقه من صلصال كالفخار:

المرحلة الخامسة: خلْقُه من صلصالٍ كالفخارِ:

قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤﴾ [الرحمن: ١٤].

و ﴿صَلۡصَٰلٖ﴾ هنا هو الطينُ اليابس، سُمِّي صلصالاً لأنك إذا نقرْتَ عليه «يَصِلّ». أي: يُخرجُ الصوت.

---

(١) المرجع السابق: ٢٥٩. وانظر حاشية المحقق صفوان داوودي في قراءات الآية.

(٢) المفردات: ٤٢٩.

وشُبِّه هذا الطينُ اليابس الصلصال بالفَخّار، والفخّار هو الآنيةُ والجرارُ المصنوعة من الطين، والمحروقة بالنار.

وسُميت هذه الجِرارُ فخاراً من «التفاخر».

وللإمام الراغبِ تعليلٌ لطيفٌ لتسميتها «فخّاراً». قال: «والفخّار: الجِرار. وذلك لصوتِه إذا نُقِر، كأنما تُصُوِّرَ بصورةِ مَنْ يكثرُ التفاخر»[1].

وهذه هي المرحلةُ الخامسة ـ والأخيرة ـ التي مرَّ بها خلْقُ آدم عليه السلام، قبلَ أن ينفخَ اللَّهُ فيه الروح، ويصيرَ إِنساناً حياً.

الجمع والتوفيق بين الآيات التي تحدثت عن المراحل الخمس:

ومن خلالِ ترتيبنا المرحليِّ للآياتِ التي تحدثتْ عن خلْقِ آدم عليه السلام، قبلَ نفْخِ الروح فيه، نرى أنه لا تعارُضَ بينها، كما قد يظنُّ بعضُ ذوي النظرِ القاصر.

إنَّ كلَّ آيةٍ من الآيات التي أوردناها تتحدثُ عن مرحلةٍ من هذه المراحل، والجمعُ بينها بهذا الاعتبار.

لقد أُخذتْ حفنةٌ من تراب، كما تقولُ الآياتُ عن المرحلةِ الأولى.

فلما جُبلت بالماء صارتْ طيناً، كما تقولُ الآياتُ عن المرحلةِ الثانية.

فلما زادَ خَلطُ الطين ومَزْجه، وضَرْبُه بعضَه ببعض، صار طيناً لازباً جامداً شديداً، كما تقول الآيةُ عن المرحلةِ الثالثة.

فلما تُركَ هذا الطينُ اللازبُ فترة، جَفَّ ويبس، وصار منتناً متغيِّراً أسود، كما تقولُ الآيةُ عن المرحلةِ الرابعة.

---

(١) المرجع السابق: ٦٢٧.

فلما زادتْ يبوسةُ هذا الطين، صار كالفَخّار، يُخرِجُ صوتاً وصلصلةً إذا نُقِرَ عليه، كما تقولُ الآيةُ عن المرحلةِ الخامسة.

[٧]

آدم جسد بدون روح

آدم قبل نفخ الروح فيه:

المراحلُ الخمسةُ السابقة هي لآدم قبل نفخِ الروح فيه: تراب، ثم طين، ثم طين لازب، ثم صلصال من حمأ مسنون، ثم صلصال كالفخار.

وكان آدمُ في هذه المراحل جسداً، مجرَّدَ جسد، بلا روحٍ ولا حياة.

وكان جسَداً مصوَّراً، وتمثالاً مجسَّماً.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف: ١١].

ونرى أنَّ «التصوير» مرحلة ثانية، بعد الخلق، فبعْدَ أنْ خلَقَه اللَّهُ من الطين، صوَّره وسوَّاه، وجعَلَه تمثالاً مجسَّماً، على صورة الإنسان، وهذا قبلَ أنْ ينفخَ فيه الروح.

ولهذا قال الله للملائكة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ٢٨ ـ ٢٩].

أي: إذا سَوَّيْتُهُ وصوَّرْتُه، قبلَ نفخِ الروح فيه: ﴿سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾.

وقد تَركَ اللَّهُ آدمَ في الجنة، جَسَداً مصوَّراً، وتمثالاً مجسَّماً، بدون روحٍ ولا حياة، مدةً من الزمن لا يعلمها إلا هو، وبعد ذلك نفخَ فيه الروح.

وأخبَرَنا رسولُ الله ﷺ أنَّ أولَ ما يُخْلَقُ من الإنسان هو «عَجْبُ الذَّنَب»، وهو آخرُ فقراتِ العمودِ الفقري، من أَسْفَل الظهر، وهو المعروفُ باسم «العُصْعُص».

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «كلُّ بني آدم يأكُلُه التراب، إلاّ عَجْبُ الذَّنَب، منه خُلِق، ومنه يُرَكَّب».

وفي لفظٍ آخرَ قال: وليسَ من الإنسانِ شيءٌ إلا يَبْلى إلاّ عَظماً واحداً، وهو عَجْبُ الذَّنب، ومنه يُرَكَّب الخلْقُ يومَ القيامة»[١].

فقول الرسول ﷺ عن «عَجْبِ الذَّنب»: «منه خُلِق» دليلٌ على أنَّ أولَ ما رُكِّبَ من جسد آدمٍ وهو تمثال، هو عَجْبُ الذَّنب.

أي: بدأتْ تسويتُه من أولِ وأَصغرِ فقراتِ العمود الفقري، ثم تتابعَ تصويرُه، إلى أنْ صارَ تمثالاً مجسَّماً مصوَّراً.

إبليس يتعجب ويعرف نقطة ضعف آدم:

ولما كان آدمُ جسداً تمثالاً في الجنة، كان إبليسُ ينظرُ إليه ويتعجَّب.

روى مسلم في صحيحه عن أنسِ بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «لما صوَّرَ اللّهُ آدم في الجنة، تَرَكَه، ما شاءَ اللّهُ أن يتركه، فجعلَ إبليسُ يَطيفُ به، ينظرُ إليه، فلما رآه أجوف، عرفَ أنه خَلْقٌ لا يتمالَك»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٨١٤. ومسلم برقم: ٢٩٥٥. وانظر رواته الآخرين في الأحاديث الصحيحة للعلي. رقم: ٤.

(٢) أخرجه مسلم، برقم: ٢٦١١. وانظر رواته الآخرين في الأحاديث الصحيحة رقم: ٥.

أي أنَّ إبليسَ كان يدورُ حول جسدِ آدم، المُلقىٰ على أرضِ الجنة، ينظرُ إليه فاحصاً متعجِّباً.

فلما أمعنَ النظرَ فيه وجدَه أجوف، أي: داخِلُه خالٍ. فعرفَ إبليسُ أنه مخلوقٌ لا يتمالَك.

ومعنى «لا يتمالَك»: لا يملكُ نفسَه عند الغضب، أو عند الشهوة، أو: لا يملكُ دفعَ وسوسةِ الشيطان عنه.

إنَّ فراغَ جوفِ الإنسان، وخُلُوَّ داخِلِه، دليلُ ضعفه. وقد عرفَ إبليسُ نقطة الضعف هذه عند آدم أبي البشر، فدخلَ إليه منها، وهو يدخلُ منها إلى أولادِه وذريته.

إنَّ الناسَ ضعفاء لا يتمالَكون، ولا يملكونَ أنفسَهم عند المفاجآتِ والهزات، ولا يملكون دفعَ عدوِّهم عنهم، إلاّ بصدْقِ اللجوءِ إلى الله والاستعاذة به، والاعتمادِ عليه.

محمد عليه السلام نبي قبل نفخ الروح في آدم:

وقد أَخبرَنا رسولُ الله ﷺ، أنَّ اللَّهَ قدَّرَ جَعْلَه نبياً وخاتمَ النبيين، وفْقَ علمِه وإرادتِه سبحانه، وآدمُ تمثالٌ ملقى على أرضِ الجنة، قبلَ نفخِ الروح فيه.

روى أحمد في مسنده عن العرباضِ بن سارية رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إني عندَ الله، في أمِّ الكتاب، لخاتمُ النبيين، وإنَّ آدمَ لمنْجدِلٌ في طينته»[1].

وروى الترمذيُّ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسولَ الله، متى وجبتْ لك النبوة؟ قال: «وآدمُ بين الروح والجسد»[2].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/١٢٧ ـ ١٢٨. وانظر الأحاديث الصحيحة، رقم: ٦.

(٢) أخرجه الترمذي، برقم: ٣٦٠٩. وانظر الأحاديث الصحيحة، رقم: ٧.

ومعنى الحديثَيْن أنَّ اللَّهَ قدَّرَ كونَ محمدٍ ﷺ آخرَ النبيين، وهذا وفْقَ علمه الأزلي، قبلَ خلقِ الإنسان، وقبلَ نفخِ الروحِ في آدم أبي البشر.

ولا يدلُّ الحديثان على أنَّ اللَّهَ خلَقَ محمداً ﷺ من النور، وأَنه أوجَدَه نوراً حيّاً قبلَ خلْقِ آدم ونفخِ الروح فيه، كما قد يفهمُ بعضُهم خطأً.

فمحمدٌ ﷺ وُلد وعاش فيما بَعد، عندما خلَقَه الله فِعْلاً، وخَتَمَ به النبيين، وبعثَه رحمةً للعالَمين.

[٨]

الله يخبر الملائكة باستخلاف آدم

إخبار الله للملائكة باستخلاف آدم:

في هذه المرحلةِ من خلْقِ آدم ـ عليه السلام ـ مرحلةِ تسويتِه جسداً، وتصويرِه تمثالاً مجسَّماً، أخبرَ اللَّهُ الملائكةَ عن إرادته في جعْلِ هذا المخلوق خليفةً في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠].

أخبرَ اللَّهُ ملائكتَه أنه سيجعلُ خليفةً في الأرض، وهذا القولُ منه لهم من بابِ الإِخبارِ والإِعلام، لا من بابِ الاستشارةِ والحوار، كما قد يظنُّ بعضُهم.

وهو يخبرُهم عن أمرٍ مستقبلي، لأَنَّ آدمَ وقتَها لم تكن قد نُفختْ فيه الروح ـ والله أعلم ـ.

وأخبرَهم عن الأمرِ المستقبليّ باسم الفاعل ﴿جَاعِلٌ﴾، ولم يقل: إني سأجعل، وذلك من بابِ التأكيدِ على وقوعِ الأمر، لأنَّ ما أراده اللّهُ فهو واقعٌ لا محالة.

ولما أخبرهم اللّهُ عن استخلافِ آدم وبنيه في الأرض قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

وصدَرَ كلامُ الملائكة بصيغةِ الاستفهام ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾؟ وهذا الاستفهامُ منهم ليس للإنكار، لأنَّ الملائكةَ لا ينكرونَ على الله شيئاً أَرادَه، ولا يعترضون على شيءٍ فعَلَه، فهم موقِنون بأن اللّهَ عليمٌ حكيم، وأنَّ أفعالَه كلَّها صواب.

وقد وصفَهم اللّهُ بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٧].

واستفهامُهم هذا للاستعلام، فهم يطلبون من الله أن يُعْلِمَهم ويخبِرَهم بحكمتِه من جعل هذا المخلوق خليفةً في الأرض.

وقد أَعلمهم اللّهُ بحكمتِه فيما بعد، وبعدَ أن نفخَ في آدم الروح، وحيث عجزوا عن معرفةِ أسماءِ المسمَّيات، بينما عرفَها آدم الخليفة.

الملائكة يتوقعون إفساد الخليفة وسفكه للدماء:

قال الملائكةُ لله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾؟ وهذا يعني أن الملائكةَ كانوا يتوقَّعون من الإنسان الإفسادَ في الأرض وسفك الدماء!.

ولعلَّهم عرفوا ذلك، أو توقَّعوه، من باب فراستِهم وفطنتِهم، فهم يرونَ مراحلَ تكوين آدم، ويعَرفونَ أنَّ أساسَ ذلك حفنةٌ من تراب الأرض، جُبلتْ بالماء فصارتْ طيناً.

لقد ربطوا بفراستِهم الإيمانيةِ النورانية الحية، بين الإفسادِ وسفكِ الدماء، وبين العنصر الأرضيِّ الترابي، وبما أنَّ عنصرَ هذا المخلوقِ الخليفة ترابيٌّ أرضي، فمن المتوقَّع منه الإفسادُ وسفكُ الدماء.

فَكَلامُهُم من باب التوقّعِ والفراسةِ والبصيرة ـ والله أعلم ـ وقد صدقَتْ فراستُهم، حيث تحقَّق الإفسادُ وسفكُ الدماء في التاريخ البشري على وجْهِ الأرض فيما بعد.

ولكنَّ هذا الإفسادَ وسفكَ الدماء، الذي يقع على أيدي الكفار من الناس، من لوازمِ الخلافة، وسنةِ «التدافع» التي جعَلَها الله بين الناس، أو هو ضريبةٌ حتمية، تدفعها البشريةُ عندما تبتعدُ عن منهج الله.

وإنَّ اللَّهَ لم يُخَطِّئ الملائكةَ في توقّعهم الإفسادَ وسفكَ الدماء، من نسلِ هذا الخليفة، وإنما أَحالَهم على علمه، المحيطِ بكل شيء، وأنَّ علمَهم لا يساوي شيئاً أمامَ علمِه ـ سبحانه ـ: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ولقد عَلِمَ الملائكةُ بعدَ ذلك حكمةَ استخلافِ آدم في الأرض، عندما علَّمَه اللَّهُ الأسماءَ كلها، وطلبَ منهم أن يُنبئوه بها، فاعترفوا بعجْزِهم، لأنهم لا يعلمون إلاّ ما علَّمهم الله، بينما قامَ آدمُ الخليفةُ بإنبائهم بالأَسماء، فقال الله لهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

[٩]

نفخ الروح في آدم

لما أرادَ اللَّهُ بثَّ الحياة في جسدِ آدم المصوَّر، نفخَ فيه من روحه، فصارَ مخلوقاً حياً.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧١ ـ ٧٢].

لقد نفخَ اللّٰهُ في جسدِ آدم من روحه، وهي نفخةٌ غيبية، لا نعرفُ كيف تمَّت، لأن النصوصَ لم تخبرْنا بذلك، فنقول: هي نفخةٌ غيبيةٌ خاصة، تليقُ بجلالِ الله وعظمته.

﴿مِن رُّوحِي﴾ بيانية وليست تبعيضية:

وحرْفُ ﴿من﴾ في قوله ﴿مِن رُّوحِي﴾ ليسَ للتبعيض، وإنما هو للبيان.

ليس للتبعيض، لأنه لا تبعيضَ في روح الله، إنَّ روحَ الله لا تتبعَّضُ ولا تتجزَّأ ولا تنقسم، ليذهبَ جزءٌ منها إلى آدم ـ أو إلى عيسى بن مريم ـ عليهما السلام.

﴿من﴾ في قوله ﴿مِن رُّوحِي﴾ لبيان الجهة. أي: هذه النفخةُ من عند الله، وهذه الروحُ التي جعلها في آدم منه سبحانه، أي: من أَمرِه وإرادتِه ومشيئته.

وإضافةُ الروح إلى الله: ﴿مِن رُّوحِي﴾ لتكريمها وتشريفها، كما أُضيفت الناقةُ إلى الله في قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [سورة الأعراف: ٧٣].

وكما أُضيفَ البيتُ إلى الله: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وقد أخبرنا اللّٰهُ أن «الروح» التي جعلَها في آدم، وفي ذريته من بعده، سِرٌّ من أسرارِه سبحانه، يستحيلُ على البشر ـ مهما تقدَّم علمهم ـ معرفةُ حقيقتها، أو إدراكُ سِرِّها وكنهِها، فهم لا يعرفون إلا مظاهرَها وآثارَها.

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥].

ولما نفخَ اللّهُ الروحَ في جسد آدم عطس، فشمَّتَه الله.

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «لما خلقَ اللّهُ آدم، ونفخَ فيه الروح، عطس، فقال: الحمدُ لله، فحمدَ الله بإذْنِه، فقال له ربه: يرحمك الله يا آدم»[١].

نفخ الروح في آدم بعد عصر يوم الجمعة:

وقد كان خلْقُ آدم - بمعنى نفخ الروح فيه - يوم الجمعة.

روى مسلم عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «وخَلَقَ آدم بعد العصر من يوم الجمعة، في آخرِ الخَلْق، في آخرِ ساعةٍ من ساعاتِ الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل»[٢].

وفي روايةٍ أُخرى عند مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «خيرُ يوم طلعتْ فيه الشمس يومُ الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخِلَ الجنة، وفيه أُخرجَ منها»[٣].

وفي لفظ أبي داود عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «خيرُ يوم طلعَتْ فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خُلق آدم، ، وفيه أُهبط، وفيه تيبَ عليه، وفيه مات، وفيه تقومُ الساعة»[٤].

وتدلّ الأحاديثُ السابقة على أن اللّهَ خلقَ آدم ونفخَ فيه روحه في آخرِ ساعةٍ من يوم الجمعة، فيما بينَ العصر إلى المغرب.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم: ٣٣٦٨. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٢٠.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ٢٧٨٩. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٨.

(٣) أخرجه مسلم برقم: ٨٥٤. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٩.

(٤) أخرجه أبو داود برقم: ١٠٤٦. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٩.

[١٠]

هيئة آدم التي خلقه الله عليها

أَخبَرنا رسولُ الله ﷺ عن شكْلِ وهيئةِ آدم لما خلقه الله.

فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «خلَقَ اللَّهُ آدم على صورته، وطولُه ستون ذراعاً. ثم قال: إِذهبْ، فسلِّمْ على أولئك النفر ـ وهم نفرٌ من الملائكة جلوس ـ فاستمِعْ ما يحيّونك، فإنها تحيتُك وتحيةُ ذريتك.

فذهب فقال: السلام عليكم.

فقالوا: وعليكم السلام ورحمة الله فزادوه: ورحمةُ الله.

فكلُّ منْ يدخلُ الجنةَ على صورة آدم، في طوله، ستون ذراعاً، فَلَمْ تَزل الخلْقُ تنقصُ بعده حتى الآن»[١].

وعندما ننظر في هذا الحديث الصحيح، فإننا نستخرجُ منه هذه الدلالات:

صورة آدم لم تتغير:

١ ـ الهاء في «على صورته» لا تعودُ على الله، كما قد يفهم بعضُهم خطأ، فآدمُ عليه السلام ليس على صورة الله، لأن اللَّهَ سبحانه ليس له صورةٌ مجسَّمة، ولم يَخلقْ على صورته أحداً من الخلق.

تعودُ الهاء على «آدم» نفسه، عليه السلام. ومعنى: «خلق اللَّهُ آدمَ على صورته»: أن اللَّهَ خلقه على صورتِه التي أهبطه اللَّهُ عليها إلى الأرض.

أي: أن اللّه خلقَ آدم في الجنة، على جسْمِه الذي حملَه على

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٢٦. ومسلم برقم: ٢٨٤١. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٧.

الأرض، وهيئتِه وصورتِه التي هو عليها، على وجه الأرض، فهو لم يتطورْ في جسمه، ولم تتغيرْ صورتُه ولم تتبدل. فصورتُه التي رآها أولادُه على الأرض، هي نفسُها صورتُه التي خلقه اللَّهُ عليها في السماء.

٢ ـ كان طولُ آدم ستين ذراعاً، وهو طولُه في الجنة، وطولُه على الأرض، لم يتغير. والسّتون ذراعاً تساوي اثنين وأربعين متراً.

وهذا طولٌ شاهق، وارتفاعٌ سامق، قد لا يستوعبُهُ بعضُ الناس، وقد يستغربونه. لكنَّ الاستغرابَ والإنكار يزولان، عندما نتذكَّرُ أن اللَّهَ هو الذي خلَقَه على هذا الطول، واللَّهُ على كل شيء قدير.

وبما أنَّ الحديثَ الذي أخبر عن ذلك صحيح، فيجب أن نأخذ به، ولا نجيز مخالفته.

الحديث يقرر عكس نظرية دارون:

٣ ـ أنَّ طولَ الناس بعد آدم صار يتناقص، فذريتُه كانوا أَقصرَ منه، ومعدلُ طول الناس في هذا الزمان حوالي مئة وسبعين سنتمتراً، وأينَ هذا من طولِ أبيهم آدم الذي وصل اثنين وأربعين متراً.

وهذا معنى الحديث: «فلم تزل الخلقُ تنقصُ بعده حتى الآن».

إنَّ هذا الحديثَ الصحيح يقرِّرُ عكسَ نظرية «النشوء والارتقاء» الغربية الجاهلية، المعروفة باسم «نظرية دارون».

فيرى «دارون» أنَّ الإِنسانَ تطوَّرَ وارتقى، من الصِّغر إلى الكِبَر، وذلك في الجسم والحجم والهيئة.

والحديثُ الصحيحُ يقررُ أن آدمَ خلقَهَ اللَّهُ طويلاً، وأنَّ ذريتَه أقصرُ منه بكثير.

٤ ـ أنَّ المؤمنين يدخلون الجنةَ على طول أبيهم آدم عليه السلام،

فكلٌّ منهم يكون طولُه في الجنة ستين ذراعاً، لئلا يقعَ بينهم غيرةٌ أو تحاسدٌ أو تباغض.

٥ ـ أنَّ السلامَ تحيةُ المسلمين، منذ أبيهم آدم عليه السلام، فهو تحيةٌ عريقةٌ أصيلة، بدأها آدم عليه السلام في الجنة، منذ الساعاتِ الأولى لخلْقِه فيها.

ومن الفضْلِ أن تُرَدَّ التحيةُ بأحسنَ منها. فلما قال آدم للملائكة: السلامُ عليكم، ردّوا عليه بأحسنَ منها فقالوا: وعليكم السلام ورحمة الله.

ولهذا أرشدَنا اللّهُ إلى حسْنِ التحية، والكرم في الرد، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ [النساء: ٨٦].

[١١]

آدم ينبئ بالأسماء للمسميات

الله بين للملائكة حكمة استخلاف آدم:

خَلَقَ اللّهُ آدم عليه السلام، ونفخَ فيه من روحه، وذهبَ وسلَّمَ على نفرٍ من الملائكة، فردّوا تحيتَه بأحسنَ منها.

وأَرادَ اللّهُ سبحانه أنْ يبيِّنَ للملائكة حكمةَ جعْلِ هذا الإنسان خليفةً في الأرض، وذلك ليجيبَهم على سؤالهم السابق عن حكمةِ استخلافِ هذا الخليفة.

وهذا هو ما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

اللَّهُ العليمُ يَعْلَمُ أن الملائكة لم يخلُقْهم للخلافة في الأرض، ولذلك لم يُزوِّدهم سبحانه بالوسائل لممارسةِ الخلافة، أما آدمُ وذريتُه فقد خلَقَهم ليكونوا خلفاءَ في الأرض، ولذلك زوَّدهم بالوسائلِ لممارسة هذه الخلافة.

وأرادَ اللَّهُ أنْ يُعْلِمَ الملائكةَ بهذه الحكمة، فامتحنَهم وامتحن آدمَ معهم، فنجحَ آدمُ في ذلك الامتحان، وأجابَ عن الذي عجزوا هم عنه.

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: ٣١ ـ ٣٣].

علم الله آدم أسماء كل شيء:

علَّمَ اللَّهُ آدمَ الأسماءَ كلَّها، كما تصرِّحُ الآية، وكما صرحَ بذلك حديثٌ صحيح عن رسول الله ﷺ، وهو حديثُ الشفاعة المعروف.

روى البخاريُّ ومسلم عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «يَجمعُ الله المؤمنين يوم القيامة، فيقولون: لو استشفَعْنا إلى ربِّنا، حتى يريحَنا من مكاننا هذا.

فيأتون آدم، فيقولون: يا آدم، أَما تَرى الناس؟ خلَقَك اللَّهُ بيده، وأسجدَ لك ملائكته، وعلَّمك أسماءَ كل شيء. اشفعْ لنا إلى ربِّك، حتى يُريحَنا من مكانِنا هذا»[1].

ووجْه الدلالةِ من الحديث، أنهم يقولون لآدم: وعلَّمَك أسماءَ كل شيء.

---

(١) أخرجه البخاري برقم؛ ٤٤٧٦. ومسلم برقم: ١٩٣. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢١.

أي: أن اللَّهَ علَّمَ آدمَ أسماءَ الأشياءَ كلَّها.

وتلتقي الآيةُ والحديثُ على تقريرِ هذه الحقيقة.

ولا نملكُ غير هذين النَّصَّين، في تعليم آدم الأسماءَ كلَّها، وهما نصّان مُبْهمان مُجْملان، لا يبيِّنان تفصيلاتِ ذلك التعليم.

لا نعرفُ كيفية تعليمه تلك الأسماء، ولا تفصيلاتِ تلك الأسماء.

فهل حفَّظَه اللَّهُ «قاموس» أسماء الأشياءِ كلِّها؟ أم حفَّظَه أسماءَ الأشياء التي كان يحتاجُها هو؟ أم علَّمه أسماء الأشياء بطريقةٍ أُخرى غير التحفيظ؟ وهل كان تعليمُه باللغة العربية؟ أم بلغةٍ أخرى؟

لا نملكُ نصوصاً للإِجابة على هذه الأسئلة، لذا نعتبرُ هذه الإِجابةَ والتفصيلات من «مبهمات القرآن»، التي لم يَرِدْ عنها بيانٌ في النصوص، فنتجاوزُها، ونَكِلُ العلمَ بها إلى الله وحده.

ولا نقول إلاّ أنّ اللَّهَ علَّمَ آدمَ أسماءَ الأشياء كلِّها، كما صرحتْ بذلك الآية.

عجز الملائكة وعلم آدم:

علَّمَ اللَّهُ آدمَ عليه السلام أسماءَ الأشياءِ كلِّها، ثم عرضَها على الملائكة، ولم يكن للملائكة سابقُ علْم بها، لأن اللَّهَ لم يعلِّمهم إياها.

وطلبَ من الملائكة أن ينبئوه ويخبروه بأسماء تلك الأشياء: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وإنَّ الله يعلمُ أن الملائكةَ لن يعرفوا أسماءَ المسميات، لأنه لم يعلِّمهم إياها، ومع ذلك امتحنَهم، وطلبَ منهم إنباءَه بها، وذلك ليريهم حكمته في جعْلِه آدم خليفة، وليبيِّن شَرفَ آدم عليهم بالعلم الذي وهبه الله إياه.

واعترفَ الملائكةُ بعجزهم عن الإنباءِ بالأسماء: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾.

ويدلُّ جوابُ الملائكة على أنَّ علمَهم من الله، وأنهم لا يعلمون عِلْماً ذاتياً مباشراً، ولذلك لا يعلمون الأشياءَ التي لم يعلِّمْهم اللَّهُ إياها.

عند ذلك طلبَ اللَّهُ من آدم الإِجابةَ على ما عجزَ عنه الملائكة، والإِخبارَ بتلك الأسماء، فقامَ آدمُ بذلك على أحسن وجه: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

نجحَ آدمُ عليه السلام فيما عجزتْ عنه الملائكة، و «رَمَزَ» بالأسماء للمسمَّيات، وأنبأَ الملائكة بتلك الأسماء.

لقد جعلَ اللَّهُ في هذا الإِنسانِ الخليفةِ خاصيةَ النطق والكلام، والتعبيرِ والبيان، والرمزِ بالأسماء للمسميات، لأهميةِ ذلك في تحقيق الخلافة.

ولو لم يجعلِ اللَّهُ في الإِنسانِ الخليفة خاصيةَ النطق والتعبير والبيان فكيف سيحقِّقُ الخلافة؟ وكيف سيقضي حاجاته؟.

ولهذا امتنَّ اللَّهُ على الإِنسان في تعليمِه النطقَ والبيان، فقال: ﴿الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤].

أما الملائكةُ فلا يحتاجون لهذه النوعيةِ من الكلام، ولا الرمز بالأسماء للمسميات، لعدم حاجتهم لها في «عبادتهم» لله.

[١٢]

سجود الملائكة لآدم

بعدما خلقَ اللَّهُ آدم، ونفخَ فيه من روحه، أمرَ الملائكةَ أنْ يسجدوا له. فنفَّذوا الأمرَ، وسجدوا.

وكان الملائكةُ كلُّهم مأمورين بالسجود، ونفَّذوا الأمرَ كلُّهم أجمعون، لأنهم لا يعصونَ الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

ودليلُ شمولِهم جميعاً بالأمر، وتنفيذِهم كلِّهم له، قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [ص: ٧١-٧٣].

وأل التعريف في ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ للاستغراق، أي أنَّ اللَّهَ قال هذا القولَ للملائكة كلِّهم، وأَمَرَهم جميعاً بالسجود.

ولما أخبرَ اللَّهُ عن سجودهم، أكَّدَ على قيامِهم جميعاً بالسجود: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

وفي الآيةِ لفظتان لتأكيد التوكيد، وهما ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾.

وتدلُّ اللفظتان على أَمْرِ الملائكة كلِّهم أَجمعين بالسجود، كما تدلان على قيامِهم كلِّهم أجمعين بالسجود.

سجدوا حقيقة تكريماً له:

أما كيفيةُ السجود الذي أُمِروا به لآدم، فقد نصَّت الآيةُ عليها: ﴿فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾.

إِنَّ هذه الجملة تدلُّ على أنَّ سجودَهم كان كسجودِنا نحن لله في الصلاة، لأنَّ كلمةَ «السجود» عند الإِطلاق، تنصرفُ إِلى السجود الحقيقي على الأرض، ولا تُصْرَفُ عن هذا المعنى الحقيقي إلى غيره إلا لقرينة.

ثم إنَّ فعل الأمر «قَعُوا» يدلُّ على ذلك، لأنّ ماضيه هو «وَقَع». وعندما يقال: وقعَ فلانٌ ساجداً، أو: خَرَّ ساجداً، فمعناه أنه سجدَ على الأرض.

وكان سجودُ الملائكة لآدم سجودَ تكريم وتحية، وليس سجودَ عبادة، لأنَّ العبادةَ لا تكونُ إلاّ لله، وسجودُ العبادة لا يكون إلا لله.

الآمِرُ لهم بالسجود لآدم هو الله، ولما سجدوا له نفَّذوا أمْرَ اللّه، وهذا عبادةٌ منهم لله، فكانوا مخلِصين في عبادتهم لله، عندما سجدوا لآدم.

أي أنهم كانوا ساجدين لله في الحقيقة، عابِدين له، وكان آدمُ الذي سجدوا أمامَه لله بمثابةِ قبلةٍ لهم في السجود، كما أنَّ الكعبةَ قبلةٌ لنا في عبادتِنا وصلاتِنا وسجودِنا لله.

ولعلَّ سجودَهم التكريميَّ لآدم عليه السلام، لتشريفه عليهم بالعلم، الذي علَّمه اللّهُ إياه، وفي هذا إشارةٌ إلى فضيلةِ العلم، وفضْلِ العالم.

وينسحبُ فضلُ آدم على الملائكة إلى المؤمنين الصالحين من ذريته، فالمؤمنُ الصالحُ العابدُ لله، أفضلُ عند الله من الملائكة، لأنَّ عبادتَه لله، وإيمانَه به، يتمُّ بعد تكليفٍ واختيار، ومجاهدة ومشقة، وليس كذلك إيمانُ الملائكة وعبادتهم لله.

[١٣]

إبليس من الجن ولم يسجد لآدم

سجدَ الملائكةُ كلّهم أجمعون لآدم، أما إبليسُ فقد رفضَ السجود. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وكان إبليسُ مأموراً بالسجود لآدم، كما جاءَ في صريح القرآن. حيث قال الله له: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢].

وإبليسُ لم يكن من الملائكة، ولو كانَ منهم لما عصى. وإنما هو من الجن، كما صرَّحَتْ آياتُ القرآن. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾.

هو من الجن بنص القرآن:

ولا أَدري لماذا يختلفُ المفسّرون والإِخباريّون في أصلِ إبليس: هل هو من الملائكة أو من الجن؟ بعد ورودِ هذا التصريح القرآني بأنه كانَ من الجن!!.

ولا يمكنُ أن يكونَ من الملائكة، لأن الملائكةَ خلَقَهم اللَّهُ من نور، وهم مفطورون على الطاعةِ والعبادة، وعلى الالتزام والتنفيذ.

وقد أخبرَ اللَّهُ عنهم أنهم لا يعصونَه، قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وإبليسُ عصى واستكبر، وتمرَّدَ وامتنع، فكيف يكون مَلَكاً من الملائكة؟.

وقد شملَه أمْرُ الله بالسجود، مع أنه لم يكن من الملائكة، لأنه كان معهم، فشملَه الأَمْرُ لهم، وانطبقَ عليه ما ينطبقُ عليهم.

ولم تخبرْنا النصوصُ عن السبب الذي جعل إبليسَ مع الملائكة، ولا عن العملِ الذي كان يعمله في الجنة، ولهذا لا نحاولُ تعيينَ ذلك، حتى لا نذهبَ إلى الخرافات والإِسرائيليات.

وبما أنَّ إبليس من الجن، فإنَّ الاستثناءَ في قوله: ﴿فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ استثناء منفصل، كما يقولُ علماء النحو، أي أنَّ المستثنى ليس من جنسِ المستثنى منه.

وهذا معناه أنَّ إبليسَ ليس من جنسِ الملائكة.

وإبليسُ برفضِه السجود، وعصيانِه لربه، هو أولُ من كفرَ بالله، ورفَضَ أوامرَه، وتمرَّدَ عليه. قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [ص: ٧٤].

وتخبرُنا الآيتانُ عن السببِ الذي دفعَ إبليس إلى الكفر، إنه الاستكبار.

لقد استكبر، واستكبارُه قادَهُ إلى أن يمتنعَ من تنفيذِ أمر الله، وهذا أوصَلَه إلى الكفر، وهو أولُ الكافرين بالله.

«إبليس» اسمه والشيطان صفته:

و «إبليس» اسمٌ له، قبلَ أن يرفضَ السجود لآدم، وهو اسمُ علمٍ أعجمي، فلا نبحثُ عن مادة اشتقاقِه، في اللغة العربية.

لكنه بعد أن تمرَّدَ على الله، أُطلقَ عليه وصفٌ يتفقُ مع التمرد، حيث وصفَه اللّهُ بأنه «شيطان».

قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ﴾ [البقرة: ٣٦].

و «شيطان» صفةٌ مشتَقّة، واشتقاقُه من «شَطَن». ومعنى الشَّطن: الابتعاد.

ووُصفَ إبليسُ بذلك لتشيطُنِه، وابتعادِه بذلك عن رحمة الله وكرامته، واستحقاقِه الاحتراقَ بالنار في جهنم.

إذن: اسمه «إبليس» ووصْفُه «شيطان».

[١٤]

إبليس يبرر عصيانه ويتعهد بالإغواء

عندما قال اللّهُ لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾.

أجابه إبليس قائلاً: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٢ ـ ٣٣].

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ (٧٦)﴾. [ص: ٧٥ ـ ٧٦].

إبليس استكبر واستعلى:

أساسُ مشكلة إبليس وسِرُّ هلاكه، أنه تكبَّرَ واستعلى، ورأى نفسَه خيراً من آدم عليه السلام، واعتَدَّ بالمادة التي خُلق منها. إنه مخلوقٌ من النار، وآدمُ مخلوقٌ من الطين، والنارُ في مقياسِه أشرفُ من الطين، ومَنْ خُلِقَ من النارِ خيرٌ في ـ رأيه ممن خُلِقَ من الطين، فكيف يسجدُ لمن هو دونَه؟ إنه لنْ يفعلَ ذلك، ولو كان الآمرُ بالسّجود هو اللّهَ ربَّ العالمين!!

﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾: هي التي دَفعتْ إبليسَ للقيام بما قام به، وأَوصلَتْه إلى ما وصلَ إليه، إنها تعني التكبُّرَ والاستعلاء، والأنانيةَ والافتخار، والاعتدادَ بالنفس، وهي كلُّها مردياتٌ مهلكات، ومن خلالها يتمكَّنُ إبليس من إغواءِ وإضلالِ حزبه الكافرين، من ذريةِ آدم عليه السلام.

ولما يرى الشيطانُ المؤمنَ الصالح، عابداً ساجداً لله، يندمُ هو على رفضه السجود لآدم، وندمُه هو ندمُ العجز والحسرة، وليس ندمَ التوبة.

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابنُ آدم السجدة فسَجَد، اعتزلَ الشيطانُ يبكي. يقول: ياويْلَه، أُمِرَ ابْنُ آدم بالسجود، فسجد، فله الجنة، وأُمرتُ بالسجود، فعصيتُ، فلي النار»[1].

إبليس يتعهد بإغواء بني آدم:

وقد لجَّ إبليسُ في كفره، واستمرَّ في عصيانه، وواصلَ تمردَه، وتعهَّدَ أنْ يقومَ بإغواءِ بني آدم.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَـَٔاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦ ـ ١٧].

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: ٣٩ ـ ٤٠].

وقال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣].

وإبليسُ في قوله السابق، يتوقَّحُ على الله سبحانه، فينسبُ له أنه هو الذي أغواه، مع أنه هو الذي غوى وتمرَّد، وعصى وكفر.

وقد تعهدَ إبليسُ في قوله السابق بإغواءِ ذريةِ آدم، وإبعادِهم عن صراط الله المستقيم، وأخْذِهم إلى طريقِ الكفر والعصيان.

واعترفَ بأنه لا سلطانَ له على عبادِ الله المؤمنين، وأوليائه المخلصين، لأنهم يعوذون بالله من شره، فيعيذُهم الله بفضله.

---

(١) أخرجه مسلم، برقم: ٨١. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٢٢.

[١٥]

إبليس من أطول الأحياء عمراً

أرادَ إبليس أنْ يكونَ مخلَّداً في الدنيا، وأنْ لا يقعَ عليه الموت، فطلبَ من الله طلباً عجيباً.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾ [ص: ٧٩ ـ ٨١].

لماذا طلبَ إبليسُ من الله أنْ يُنْظِره إلى يوم البعث؟

لقد طلبَ من الله أن يبقى حياً إلى يوم البعث. أي: يبقى حياً طيلةَ الحياة الدنيا، بينما الناسُ يولَدون، ثم يموتون.

ومعنى هذا الطلب من إبليس، أنه يريدُ أن لا يموت، ويطلبُ من الله أن لا يوقِعَ عليه الموت، وهذا هو الخُلْدُ الذي منّى نفسَه به.

لكنَّ الله لم يستجبْ له ذلك الطلب، وإنما قال له: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾.

أخبرَ اللّهُ إبليسَ أنه أخَّرَه إلى يوم الوقت المعلوم. وهذا الوقتُ المعلوم ليس يومَ البعث، ولكنه الوقتُ المحدد، الذي حدَّدَ اللّهُ فيه انتهاءَ عمرِ إبليس، وقدومَ أجله، وعند ذلك سيموت.

وهذا الوقتُ المعلوم يكون قبيلَ قيام الساعة، أي أنَّ إبليسَ لا بد أنْ يموتَ قبل قيام الساعة.

ومع ذلك فهو من أطولِ المخلوقاتِ عمراً، لأنه حيٌّ موجودٌ قبل خلْقِ آدم عليه السلام، وسيبقى حياً حتى قبيلَ قيامِ الساعة. فهو سيعيش مئات آلاف السنين، إن لم يكن ملايين السنين!.

[١٦]

عداوة إبليس لآدم وذريته

لما رفضَ إبليسُ السجودَ لآدم، أوقعَ اللَّهُ عليه لعنَته، واللعنةُ هي الإِبعادُ والطردُ من رحمة الله، والإِخراجُ من الجنة ونعيمها.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ [الحجر: ٣٤ ـ ٣٥].

وأَخرجَ اللَّهُ إبليسَ من الجنة لأنه تكبَّر. والمتكبِّرُ لا مكانَ له في الجنة. قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف: ١٣].

وقد أعلنَ إبليسُ عن عداوتِه لبني آدم، وتعهَّدَ بإِغوائِهم وإضلالِهم، وصَدِّهم عن سبيل الله.

بعض أسلحة إبليس في إغواء بني آدم:

وأشارَ القرآنُ إلى بعضِ أسلحةِ إبليسَ في إغواء بني آدم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٦١ ـ ٦٥].

﴿أَرَءَيْتَكَ﴾: بمعنى: أرأيت. والكافُ فيه حرفُ خطاب، لا محلَّ له من الإِعراب.

يقول إبليس لربه: أرأيت آدم، هذا الذي كَرَّمْتَه وفضَّلْتَه عليَّ، ولعنْتَني بسببه، سلِّطْني على ذريته، ومكِّنِّي منهم حتى أُريكَ ماذا سأفعل بهم: لأُغوِيَنَّهم، وأُضلَّنَّهم، وأَحتنكَنَّهم وأُسيطرنَّ عليهم.

ومعنى ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾: لأسيطرنَّ عليهم.

والكلمةُ مأخوذة من «الحَنَك». وحَنَكُ الدابة هو الذي يوضَعُ فيه لِجامُها ومقودُها لتُقادَ به.

فكأنَّ إبليسَ يَعتبرُ جنودَه وأَتْباعَه من ذرية آدم، من البهائم والدواب، يضعُ في حَنَكِ كلٍّ منهم خطاماً ورَسَناً، يقودُه به، وذاكَ المسكينُ يسيرُ خلْفه مستسلماً منقاداً ذليلاً، كما تسير الدابةُ خلْفَ صاحبها.

وقد سلَّطَ اللَّهُ إبليس على ذريةِ آدم، ومكَّنه منهم، وجعلَ له مجالاً لإِغوائِهم والوسوسةِ لهم، وذلك ابتلاءً وامتحاناً لهم.

ومن أسلحةِ الشيطان في إغواء بني آدم، التي ذكرَتْها الآيات:

١ - ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾. إنَّ إبليسَ يؤثِّرُ في جنودِه بصوته، حيث يزعجُهم ويستفزُّهم به.

قال الراغبُ في الاستفزاز بالصوت: «والاستفزازُ هو الإزعاجُ والتأثير. يقال: استفزَّه بصوته. أي: أزعجَه بالصوت»[1].

وصوتُ الشيطان هو كلُّ الأصوات والعبارات المحرَّمة التي تنتشرُ في حياة الناس، بهدفِ التأثير فيهم، ودعوتِهم إلى التخلّي عن

---

(١) المفردات للراغب: ٦٣٥.

منهاج الله، وارتكابِ ما نهى اللَّهُ عنه. وما أكثرَ هذه الأصواتِ الشيطانيةِ الصاخبةِ المجلجلة في هذا الزمان.

٢ ـ ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾: إبليسُ يُجْلِبُ على أتباعه وجنوده، ويسوقُهم أمامه، ويصيحُ عليهم، كالراعي الذي يُجْلِبُ على غنمه، ويسوقُها أمامهُ.

قال الراغب: «وأصْل الجَلْب: السَّوْق. يقال: جَلَبْتُ الشيء: سُقْتُه. وأجلَبتُ عليه: صِحْتُ عليه»[1].

ويستعينُ إبليسُ على جنوده من ذرية آدم بمجموعاتٍ من «قواته الخاصة»، التي قالت عنها الآية: ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾.

وخيلُ الشيطان: فرسانُه الذين يركبون الخيول، ويسمّون «الخيّالة».

ورَجِلُ الشيطان: جمعُ راجل، وهم المشاةُ الراجلون، الذين يمشون على أقدامهم.

لإبليس قواتٌ كثيرة، منها ما هي قواتٌ «محمولة»، ومنها ما هي قواتٌ «راجلة مشاة»، يقومون بإغواءِ بني آدم.

٣ ـ ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾: إنه يشاركُ حزبه في أموالِهم، وفي أولادِهم.

ومشاركةُ إبليسَ لأتْباعه في أموالهم، بأَنْ يدعوهم إلى جمعِها من الحرام، وإِنفاقِها في الحرام، وتضييعِها بالتبذير والإِسرافِ.

(١) المرجع السابق: ١٩٨.

ومشاركته لهم في الأولاد، بأن لا يراعوا منهجَ الله في الزواج والتناسل، فلا يكون الزوجُ ولا الزوجةُ من الصالحين، ولا يُقيمونَ أُسرتهم على منهاج الله، ومن ثم لا يكونُ أولادهم صالحين، وإنما يكونون فاسدين ضائعين، أَسرى للشيطان.

٤ ـ ﴿وَعِدْهُمْۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾. إنَّ إبليسَ يعِدُ جنودَه الوعودَ الفارغة، ويُمَنّيهم الأمانيَّ الخيالية.

يَعِدُهم خيراً، فلا ينالون إلاّ شراً.

إنه يَضُرُّهم ويَخْدَعُهُم بهذه الوعودِ والأماني، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٩ ـ ١٢٠].

لا سلطان له على عباد الله الصالحين:

ورغم كثرةِ أسلحةِ إبليس في إغواءِ جنده من ذريةِ آدم فإنه عاجزٌ عن إغواءِ عبادِ الله الصالحين. ولهذا قال الله له: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ﴾.

وإبليسُ يعلمُ عجْزَه عن التأثير في عباد الله الصالحين.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٣٩ ـ ٤٢].

وقد حذَّرَنا اللّهُ من عداوةِ إبليس، ونهانا عن الاستجابةِ له، أو اتخاذِه وليّاً.

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦].

[١٧]
خلق الله لحواء

خلَقَ اللَّهُ «حواء»، وجعَلَها زوجاً لآدم، وأسكَنَها معه في الجنة. وقد عرَفْنا لآدمَ زوجاً سكنَ معها الجنة، من خلالِ آياتِ القرآن.

قال تعالى: ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩].

حواء زوج آدم:

وعرَفْنا أنّ اسْمَها «حواء» من الحديثِ الصحيحِ لرسول الله ﷺ. فقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «لولا بنو إسرائيل لم يَخْنَزِ اللحم، ولولا حواء لم تَخُنْ أنثى زوْجَها»[١].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٣٠. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٣١.

ومعنى «خَنَزَ اللحم»: تغيَّرَ وأنْتَنَ وفَسَد.

ويدلُّ الحديثُ على أن بني إسرائيل كانوا أولَ من ادَّخَرَ اللحم، ولعلَّ هذا كان بسبب بخلهم، فالكرماءُ يأكلونَ حاجتهم من اللحم الذي يذبحونه، وما زادَ عن حاجتِهم يُعطونَه لغيرهم.

أما بنو إسرائيل فقد كانوا ـ بسبب بُخلهم ـ يدَّخرون اللحم للأيام القادمة. وبما أنه لم تتوفَّرْ لهم أدواتُ الحفظ والتبريد، المتوفرةُ للناس في هذا العصر، كالثلاجات والمبرِّدات، لذلك كان اللحم الذي يدَّخرونه «يخْنُزُ» ويتلف، ويُنتن ويَفسد.

ومعنى قوله: «لولا حواء لم تخن أنثى زوجها»:

أما قوله: «ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها» فليس المرادُ بالخيانة فيه الخيانةَ في العرض، وارتكابَ فاحشة الزنا، فإن «حواء» رضي الله عنها، كانت منزهةً عن الزنا.

إنما المرادُ بالخيانة هنا الخيانةُ في الدين والطاعة، بمعنى ارتكابِ المعصية والذنب.

ويدلُّ الحديثُ على أنَّ معظم الزوجات يكُنَّ عوناً للشيطان على أزواجهن، ولهنَّ دورٌ كبير في تزيين المعصيةِ لهم، وحمْلِهم على المخالفة والمحظور.

ولا يدلُّ الحديثُ على أن «حواء» هي التي أَعانَتْ إبليسَ على زوجها آدم، وهي التي أَغرَتْ آدمَ بالأكل من الشجرة، وزيَّنتْ له ذلك، فاستجابَ لها. لا يدلُّ الحديثُ على هذا. وإنما يدلُّ على أن جنسَ «حواء» ـ في الغالب ـ لهن دورٌ في إغواء الرجال، وتزيينِ المخالفةِ لهم.

فذكْرُ «حواء» في الحديث، يرادُ به المرأة، أيُّ امرأة، ولا يُرادُ به أمُّهنّ «حواء».

والراجحُ أنْ اسم «حواء» أعجمي، وليس عربياً، فهو جامد، وليس مشتقاً، كما قلْنا في أسماءِ آدمَ وإبليس.

أما عن كيفيةِ خلْقِ حواء، فإن النصوصَ ليست صريحةً في ذلك.

آية وحديث في خلق المرأة:

لقد أخبرَ الله أنه بدأ خلْقَ الناس من نفس واحدة، ثم خلَقَ منها زوجَها. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

والمرادُ بالنفس الواحدة في الآية هو: آدمُ أبو البشر.

والمرادُ بزوجها في ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حواء، زوجُ آدم، أي أنَّ الله خلقَ حواء من نفس آدم.

وأخبرَ رسولُ الله ﷺ أنَّ المرأةَ خلقت من ضلع.

روى البخاريُّ ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «استوْصوا بالنساء خيراً، فإنَّ المرأةَ خلقت من ضلع، وإن أعوجَ شيء في الضلع أعلاه، فإنْ ذهبْتَ تقيمه كسرْتَه، وإنْ تركْتَه لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً»(١).

يصرِّحُ الحديثُ أن المرأةَ خُلقت من ضلع، وأنَّ أعوجَ ما في الضلع أعلاه، ولهذا لا يمكنُ تقويمُ هذا الضلع الأعوج، فليستمتِعْ به الزوج على عِوَجه.

فهل تصرحُ الآيةُ ويصرحُ الحديث بأنَّ اللّهَ خلقَ حواء من ضلع آدم، وأنه كان نائماً في الجنة، فلما استيقظ وجدَ حواءَ بجانبه، فتفقَّدَ أضلاعَه، فوجَدَها ناقصةً ضِلعاً؟.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٣١. ومسلم برقم: ١٤٦٨. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٣٠.

بعضُ العلماء اعتبرَ هذا تصريحاً في الآية والحديث، ونَصّاً على أنَّ حواء خُلقَتْ من ضلعِ آدم.

ولهذا ذَهبوا إلى أن حرف «من»في قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ للتبعيض، أي أنَّ حواءَ مخلوقةٌ من بعضِ جسم آدم.

وأَخذوا الضلعَ الوارد في الحديث على معناه الظاهري، والمرادُ به ضلعُ آدم، و «من» الواردة في الجملة: «فإن المرأة خلقت من ضلع» للتبعيض، أيْ أنَّ حواءَ مخلوقةٌ من بعضِ ضلع آدم.

وهناك علماءُ آخرون لا يرون هذا الرأي، ولا يقولون به، ونحنُ مع هذا الفريق الثاني.

نرى أن معنى قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: أن اللّهَ خلقَ المرأة - أية امرأة - وجَعَلَها زوجاً للرجل، وهذه المرأةُ مخلوقةٌ من نفس الرجل.

وتقرر الآيةُ أن اللّهَ خلقَ الرجل من ﴿نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، وخلقَ المرأةَ من هذه النفسِ الواحدة.

وهذا معناه أَنَّ الرجلَ نفسٌ إنسانيةٌ سوية، له روحٌ إنسانية حية، ومن هذه «النفسِ الإِنسانية» السوية، خلقَ اللّهُ المرأة، فالمرأةُ أيضاً نفسٌ إنسانية، لها روحٌ إنسانيةٌ حية أيضاً. وهذا تكريمٌ وتشريفٌ للمرأة.

الآية تكريم للمرأة وليست تفصيلاً عن خلق حواء:

وهذا هو المعنى التكريميُّ للمرأة، الذي تريدُ الآيةُ تقريرَه، وبخاصةٍ أنها الآيةُ الأُولى من سورة «النساء»، التي عرضَتْ بعضَ الأحكامِ المتعلقةِ بالنساء، وتحدثت كثيراً عن النساء.

أما كيفيةُ خلق «حواء» وتفاصيلُ خلْقِها، فهذا ليس مقصودَ الآية، ولذلك سكتَتْ عنه، ولم تفصّلْ فيه، فهي لا تَنفي ولا تُثبت خلْقَ حواءَ من بعضِ جسم آدم، أو مِنْ ضلِعه على وجه الخصوص.

كما نرى أنَّ الحديث الصحيحَ الذي أوردْناه، لا يتكلم عن خلق حواءَ من ضلع آدم، وإنما يتكلمُ عن طبيعة المرأة ـ أية امرأة ـ ولهذا يوصي الرجالَ بالنساءِ خيراً.

يبينُ الحديثُ الاعوجاجَ الفطريَّ في النساء، وهو اعوجاجٌ معنويٌ نفسي، وليس مادياً محسوساً.

التركيب العاطفي الانفعالي للمرأة:

وهو يشيرُ إلى التركيب «العاطفي الانفعالي» لنفسيةِ المرأة، فقد خلقَ اللّهُ المرأة ـ على الغالب ـ عاطفيةً انفعاليةً مندفعة، وفطرَها على ذلك، لتحقّق وظيفتَها ورسالتها في الحياة، فلعاطفتِها وانفعالِها واندفاعها، دورٌ أساسيٌّ في تحقيقها.

وهي ـ على الغالب ـ ليست متأنيةً في تفكيرها، مثل الرجل الذي يتصف ـ على الغالب ـ بالموضوعية والتأني، لتحقيق رسالتِه في الحياة.

ويصورُ الحديثُ العاطفةَ والاندفاع والانفعال في نفسيةِ وتفكيرِ المرأة، ويَعرضُ هذا في صورةِ «ضلع».

إن الضلعَ أعوج، وأعوجَ ما فيه أعلاه، ويستحيلُ تقويمُ هذا الضلع، وإزالةُ اعوجاجِه، فمن أرادَ إصلاحَه كسرَه.

والنساءُ في تركيبهن النفسيِّ والعاطفي هكذا، فلا يستطيعُ الرجلُ أنْ يجعلَ المرأة موضوعية، أو أن يقضيَ على انفعالِها السريع، وعاطفتِها القوية، ولذلك عليه أنْ يقبلَ بهذا هكذا، وأنْ يَرضاها بهذه الطبيعةِ النفسيةِ العاطفية.

القرآن والحديث ليسا صريحين في خلق حواء من ضلع آدم:

فالضلعُ الواردُ في الحديث - كما نرى ونرجح - ليس ضلعَ آدم، وإنما هو لتصويرِ العاطفية والاندفاع في طبيعة المرأة.

وبهذا نرى أنَّ القرآنَ والحديثَ لا يتحدثان بصراحةِ عن خَلْق حواء من ضلعِ آدم.

ونرى أنَّ موضوعَ خلْقِ حواء، وكيفيةَ خلْقِها، والمادةَ التي خُلقت منها، مسكوتٌ عنه في النصوص، فهو من «مبهمات القرآن» التي لا يجوزُ بيانُها، طالما لم تبينْها النصوص.

[١٨]

نهيهما عن الاقتراب من الشجرة

أسكنَ اللّهُ آدم وحواء الجنة، وأباحَ لهما أن يأكلا رغداً من حيث شاءا، ونهاهما عن الاقتراب - أو الأكل - من شجرةٍ واحدة من أشجار الجنة.

قال تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: ٣٥].

ومعنى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ كُلا أكْلاً واسِعاً هنيئاً من حيثُ شئتُما من ثمارِ الجنة.

نهاهما عن الاقتراب من شجرة معينة:

وقد نهاهما اللّهُ عن شجرةٍ معينة من أشجارها، واعتبرَ الاقترابَ منها ظلماً: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقد يتساءَلُ بعضهم: ما هي الشجرةُ التي نهاهما الله عن الاقتراب منها؟

إنَّ نصوصَ القرآن والحديث الصحيح لا تحدِّدُ لنا تلك الشجرة، ولا تعيِّنُها، ولذلك لا نذهب إلى الأساطيرِ والإِسرائيلياتِ في تحديدِها، ونُبقيها على إِبهامها، ولو كان في تحديدِها فائدةٌ لحدَّدَها اللَّهُ لنا.

كلُّ ما نقوله بشأنها: هي شجرةٌ من أشجار الجنة، عرفَها آدمُ وحواء بعينها، عندما نهاهُما الله عنها، ولا يضرُّنا نحن الجهلُ بها.

ولعلَّ الحكمةَ من نهيهما عن الاقترابِ والأكلِ منها، هي تقويةُ إرادتِهما، وتنميةُ معاني التكليف والالتزام فيهما، تمهيداً لإِنزالِهما على الأرض، وتكليفهما بالالتزام بأحكام الله.

النهي عن الاقتراب أبلغ:

وقد نهاهُما اللَّهُ عن مجردِ الاقتراب من الشجرة: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ ولم ينههما عن الأكلِ منها.

وهذا أبلغُ من مجرد النهي عن الأكل منها، لأنه نهيٌ عن الطريق الذي يؤدي إلى الأكل، فالقُربُ من الشجرة يؤدي إلى الأكل منها، وهو تمهيدٌ له، فالامتناعُ عن الاقتراب منها امتناعٌ من الأكل، من بابِ أولى.

وهذا هو المسمّى في الإِسلام بقاعدةِ «سدِّ الذرائع»، أي: إِغلاقُ الطرق التي توصِلُ للجريمة.

فالإِسلامُ عندما كان يحرمُ الحرام، كان يُغلقُ الطرقَ التي توصِلُ له، فالزنا محرَّمٌ في الإِسلام، باعتباره فاحشةً كبرى، وكلُّ ما يكون سبيلاً له يكون محرَّماً من باب «سدِّ الذرائع»، كالتبرجِ والاختلاط، والنظرةِ والقبلةِ والمصافحة.

[١٩]

إبليس يوسوس لهما ويأكلان من الشجرة

الله يحذر آدم وحواء من عداوة إبليس:

لما نهى اللّهُ آدمَ وحواء عن الاقترابِ من الشجرة، حذَّرهما من عداوةِ إبليس لهما.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه: ١١٦ ـ ١١٩].

قالَ اللّهُ لآدم: إن إبليسَ عدوٌّ لك ولزوجك حواء، فاحذرا منه، وإياكما أن تستجيبا لوساوسِه، فإنه لا يريدُ الخيرَ لكما، وإنما يريدُ إخراجَكُما من الجنة.

وإنك إنْ خرجْتَ من الجنة شقيت وتعبت، لأنَّ كلَّ حاجاتِك في الجنة مؤمَّنة ميسَّرة، فأنت فيها لا تجوعِ، ولا تَعرى، ولا تعطش، ولا يؤذيك حرُّ الشمس في الضحى. فإن استجبتَ لوساوس الشيطان، وأُخرجْتَ بسببِ ذلك من الجنة، فإنك ستخسرُ وتشقى، حيث تجوعُ وتَعرى، وتَظمأ وتعطش، وتَضحىٰ من حرِّ الشمس.

وقد قامَ إبليسُ بالوسوسة لآدم وحواء، وكانا منتبهيْن له، متذكرَيْن لعداوته. واستمرَّ بالوسوسة مراتٍ ومرات، وهما حذران منه. ولكنَّهما نسيا في آخر الأمر، ووقَعا في المحذور.

وقد فصَّلتْ آياتُ سورة الأعراف في وسوسة إبليس، التي أدَّتْ إلى نسيانِهما ومخالفتِهما.

قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن

سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٠ ـ ٢٢].

كلمةُ «وسوس» تدلُّ على استمرارِ محاولاتِ الشيطان في إغوائِهما، وهذا معناه أنهما لم يستجيبا له منذُ أولِ محاولة.

وهدفُ الشيطان من الوسوسةِ هو إظهارُ وكشفُ سوءاتِهما التي ووريتْ عنهما: ﴿لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾.

ورغَّبهما في الأكل من الشجرة قائلاً: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾.

وقال لآدمَ ـ كما وردَ في آيةٍ أخرى ـ: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

لقد خاطبَ فيهما «غريزةً»، جعلها الله أصليةً في النفس الإِنسانية، لتحقيق الخلافةِ في الأرض، وهي: التملك، والرغبةُ في الخلود.

كلُّ إنسان مفطورٌ على حبِّ التملك: ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾.

ومفطورٌ على الرغبة في الخلود: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾.

إبليس يكذب ويتهم الله وهما لا يستجيبان له:

وكان الشيطانُ كاذباً في وسوستِه، وتزيينِه الأكلَ من الشجرة، كما أنه كانَ متَّهِماً لله في ذلك، فاللّهُ نهاهما عن الأكلِ من الشجرة، وإبليسُ يقول لهما: إنَّ اللّهَ لا يريدُ لكما الخير، عندما نهاكما عن الأكل منها، إنه لا يريدُ أن تكونا مَلَكيْن من الملائكة، ولا يريد أن تكونا من الخالدين، فإن أكلْتُما منها كنتما ملكين خالدين.

ومع هذا الإِغراءِ منه لهما، بقيا حذرَيْن منه، ولم يصدِّقاه، ولم يستجيبا له.

وهنا لجأَ إبليس إلى حيلة شيطانية خبيثة، وطريقةٍ إبليسية ماكرة، وهي التي قالت عنها الآية: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾.

ومعنى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾: أقسمَ لهما. أي: حلفَ لهما اليمين، وأقسمَ لهما بالله: إنه لصادقٌ فيما يقول، وإنه لناصحٌ لهما.

وهذا تعليلُ نسيانهما لعهدِ الله، وبيان سببِ أكلهما من الشجرة.

إِنه يمينُ إبليس الذي حلَفَه لهما.

لم يأكلا منها إلا بعد يمين إبليس:

ولعلَّ هذا هو أولُ يمينٍ كَذِب. لأنَّ إبليسَ حلفه لهما في الجنة، ولم يكن لهما أولادٌ ولا نسلٌ هناك.

ولذلك لما سَمِعا يمينَه نسيا العهد، أو أحْسَنا الظن في كلامِه بسبب يمينِه.

فكانا ـ حتى حَلْفه اليمين ـ حذِرَيْن منه، مُنتَبِهَيْن له، أما بعد ما حلفَ اليمين، فقد نسِيا وأَكَلا من الشجرة.

ويبدو أنهما ما كانا يتوقعان أنْ يصلَ المكرُ والعداوةُ بإبليس، إلى أن يحلفَ لهما كاذباً، وما كانا يتصوران أنْ يُقْدمَ إبليسُ على الحلفِ بالله كاذباً.

أَما وقد حلف، فقد توقَّعا أن يكون صادقاً، هذه المرة.

ولهذا علَّقت الآيةُ على يمين إبليس لهما بقولها: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾.

ومعناه: أنه دلاّهما، وأنزلَهما عن المنزلة العالية، التي جعلَهما الله فيها في الجنة، إِلى منزلةٍ أَدنى، حيث أهبطَهما اللّهُ إِلى الأرض.

والباء في قوله: ﴿بِغُرُورٍ﴾ هي «باء السببية». أي أنَّ إبليس أغواهما ودلاّهما وأزلّهما بسبب غرورهِ وخداعِه، وذلك عندما أقسمَ لهما، فصدَّقاه، وجرى لهما ما جرى بعد ذلك.

[٢٠]

بدوّ سوءاتهما لهما

وسوسَ إبليسُ لآدمَ وحواء، وأقسمَ لهما أنه صادقٌ ناصح، فنسيا عهدَ الله، وأكَلا من الشجرة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ١١٥].

أي: عهِدْنا إلى آدم بالأمر، وكلَّفناه بالتكليف، فأمَرْناه أن لا يقتربَ من الشجرة، ولا يأكلَ منها. ولكنه نسيَ هذا العهدَ والأمر والتكليف، فأكلَ من الشجرة ناسياً، ولم نجدْ له عزماً وقصداً وتعمُّداً وتصميماً على المخالفة، والأكلِ من الشجرة، فكان أكْلُه من الشجرة ناسياً، غيرَ عامدٍ ولا عازمٍ ولا ذاكرٍ ولا قاصد.

ولما أكَلا من الشجرة بدت لهما سوءَاتهما.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢].

ولا نعرفُ كيفيةِ أكْلِهما من الشجرة، لأنَّ النصوصَ لم تخبرْنا عن ذلك.

ترتيب ظهور السوءات على الأكل من الشجرة:

ولقد قدَّرَ اللَّهُ الحكيم، أن تبدوَ لهما سوءاتُهما، بمجرّد أكْلِهما من الشجرة: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾.

وهذه السوءاتُ غيرُ محددة في الآية، كما أنَّ ظهورَها لهما ليس مبيَّناً ولا مفصَّلاً.

فما هي هذه السوءات؟ وكيف بدتْ لهما بمجردِ أكْلِهما من الشجرة؟ وأين كانتْ قبلَ أكلهما؟ وهل كانت مغطاةً بالشَّعَر، فتساقطَ الشَّعَرُ بمجرد الأكل فبدتْ؟ أم كانت مغطاةً بشيء آخر فزالَ الغطاء؟ وهل كانت كامنةً في داخل الجسم فبرزتْ وظهرتْ بعد الأكل؟.

لم تُقدم الآياتُ إجاباتٍ على هذه التساؤلات، بينما هناك تفصيلاتٌ وإجابات، في الأساطير والإسرائيليات، ولكننا لا نذهبُ إليها، ولا نتلقى العلمَ عنها.

إنَّ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ يشير إلى أنَّ هذه السوءات كانت موجودةً عندهما قبل أكْلِهما من الشجرة، ولكنهما لم يلتفِتا لها، ولم يفكِّرا فيها. أي: لم يعرفا أنَها سوءات.

فلما ذاقا الشجرة، بدَتْ لهما هذه السوءات، أي: ظهرَتْ لهما باعتبارها سوءات، فصارا يعرفان أَنها سوءات، وأنَّ كشفَها عيب. ولهذا صارا يسترانِها بورقِ الجنة.

نرجحُ أن السوءاتِ كانت موجودةً قبل أكلِهما من الشجرة، لكنهما لم يَعرفا أنها سوءاتٌ إلا بعدَ الأكْل.

وإذا أردْنا أن نقرِّبَ هذه الإِشارةَ من الآية: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ إلى الأذهان، فإننا نستحضرُ حالةَ الطفلِ الصغير.

لماذا لا يخجل الصغير من كشف أعضائه التناسلية؟:

فالطفلُ الصغير في سنواتِ عمره الأُولى، قد يمشي عارياً، بدون غَضاضة، وقد يكشفُ عن سوأته أمامَ غيره بدون تحرُّج، وهو لا يفعلُ

ذلك وقاحةً أو قلةَ حياء. ولكنه لا يعرفُ أَنها سوأة، وأنَّ لها «وظيفةً جنسية» ترتبطُ بالشهوة واللذة، وأنَّ كشفَها عيب.

إنها موجودةٌ في جسمه، لكنها لم تَبْدُ له أنها سوأة، ولم تظهَرْ له باعتبارها عورة.

فإذا ما كبرَ هذا الطفل، وصارَ شاباً، صارَ يعرفُ أنها سوأة وعورة، وأنَّ لها وظيفةً جنسية، وصارَ يفكرُ في الشهوة، وعندها يحرصُ على سترها، وعندها يقال: بَدَتْ له سوأته.

لعلَّ هذا ما جرى لآدم وحواء، بعد أكْلِهما من الشجرة، فسوءاتُهما موجودةٌ قبل الأكل، كوجود سوأةِ الطفل الصغير، لكنْ لم يكونا يعرفان أنها سوءات، كما لم يكن يعرف الطفلُ الصغير.

ويبدو أنَّ «استيقاظ» رغباتِهما ونوازعِهما وشهواتِهما، ترتبَ على أكلِهما من الشجرة، فبدتْ لهما سوءاتُهما، بُدُوّاً نفسياً وجنسيّاً، فعرفا أَنها سوءات، وأنَّ كشفَها عيب!.

هذا ما نفهمُه من قوله: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾.

وهو رأيٌ نسجلُه، وفهم نقدِّمُه، والله تعالى أعلم.

المهمُّ في المسألة: ماذا فعلا بعدما بدَتْ لهما سوءاتُهما؟.

إسراعهما في ستر السوءات:

قال الله: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾.

﴿وَطَفِقَا﴾: شَرَعا وأَخَذا وصارا، وفَعلا مباشرة.

﴿يَخْصِفَانِ﴾: يلزقان ويَصِلان ويجعلان ويغطيان.

أي: لما بدتْ لهما سوءاتُهما مباشرة، صارا يقطعانِ من أوراقِ الجنةِ الطويلة العريضة، فيجعلانها على جسميْهما، ويغطيان بها بدنيْهما،

ويستران بها سوءاتِهما، يفعلان ذلك حياءً وخجلاً، ورغبةً في ستر هذه السوءات.

تصرفهما في ستر السوءات دليل على الحياء الفطري الإنساني:

وهذا التصرُّفُ منهما في تغطية السوءات، تصرفٌ فطريٌّ فوريٌّ سريع، وهو دليلٌ على تأصُّل الحياءِ والسترِ في النفس الإنسانية السوية، وأنَّ كشفَ هذه السوءات، وإظهارَ تلك العورات، تصرفٌ جاهليٌّ شاذ، يخالفُ الفطرة.

وقد روى الحاكمُ في مستدركه عن أُبَيِّ بن كعب، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ آدم كانَ رجلاً طُوالاً، كأنه نخلةٌ سَموق، كثيرَ شعر الرأس. فلما ركبَ الخطيئة، بدَتْ له عورته، وكان لا يراها قبلَ ذلك. فانطلقَ هارباً في الجنة، فتعلقت به شجرة، فقال لَها: أَرْسلِيني! فقالت: لستُ بمرسلَتِك. وناداه ربه: يا آدم، أمنّي تفِرّ؟ قال: ربِّ إني استحيَيْتُك!»[1].

[٢١]
توبة الله على آدم وحواء

آدم وحواء مشتركان في المسؤولية:

تشيرُ آياتُ القرآن إِلى أنَّ آدمَ وحواء كانا مشتركَيْن في كل شيء، وتحمَّلا مسؤوليةَ ما وقع منهما، وما جرى لهما.

فاللَّهُ أَمرهما معاً بالسكنى في الجنة، وأَباحَ لهما معاً الأكلَ من ثمارها، ونهاهُما معاً عن الاقترابِ والأكلِ من الشجرة، والشيطانُ وسوسَ لهما، وأقسمَ لهما، ودلاّهما بغرور. وهما أَكَلا من الشجرة معاً، وبدَتْ لهما سوءاتُهما معاً، وطفِقا معاً يخصفان عليهما من ورق الجنة.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢:٥٤٣ ـ ٥٤٤. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٢٥.

وإننا نرى الآياتِ صريحةً في التعبير عنهما بضمير التثنية، الذي يُسندُ كلَّ ما حدثَ إليهما، وليس إلى واحدٍ منهما.

وهذا ردٌّ قرآنيٌّ على مَنْ يزعمُ أنَّ حواء هي التي جنَتْ على آدم، وأَعانَتْ إبليسَ عليه، وردٌّ على مَنْ يتهمُ آدمَ وحده، ويحمِّلُه وحده مسؤولية ما حدث.

بعدما أكلا من الشجرة، وصارا يغطيان سوءاتِهما بورق الجنةِ لامَهما الله، وعاتَبهما على ذلك، فشعَرا بالندم، وأعلنا توبتَهما.

قال تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٢٣)﴾ [الأعراف: ٢٢ ـ ٢٣].

اعتبرَ القرآنُ مخالفتَهما معصية، استحقّا بها عتابَ الله: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

وهما سارعا بالتوبة والاستغفار:

لكنهما سرعانَ ما رجَعا إلى الله، وتذكَّرا عهدَ الله، واستيقظ الإِيمانُ في قلبيْهما، وأيقنا بأنَّ ما فعلاه يستدعي الندمَ والتوبة، فأعلنا توبتَهما، واعترفا بظلمهما، وطلبا من الله المغفرةَ والرحمة: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٢٣)﴾.

وهذه هي التوبةُ التي أَشارَ لها قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (٣٧)﴾ [البقرة: ٣٧].

إن هذه الآيةَ من سورة البقرة مجملة، تخبرُ أن آدمَ عليه السلام تلقّى كلماتٍ من الله فقالَها معلناً توبتَه، فتابَ الله عليه.

وآيةُ سورةِ الأعراف تفصِّلُ وتبيِّن هذا الإجمال، وتخبرُ أن الكلماتِ التي تلقاها آدم من الله، هي ما قالَه هو وزوجُه حواء: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴿٢٣﴾﴾.

فلما قالاها، وأعلَنا توبتهما، تابَ الله عليهما، وغفر لهما.

[٢٢]

هبوط على الأرض

إنزال آدم وحواء وإبليس إلى الأرض:

قدَّرَ اللَّهُ الحكيم أن يترتبَ على أكْلِ آدم وحواءَ من الشجرة، خروجُهما من الجنة، ونزولُهما إِلى الأرض.

ولهذا أَمرَ اللَّهُ أَطرافَ القصة الثلاثة ـ آدم وحواء وإبليس ـ بالهبوطِ إِلى الأرض.

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٤ ـ ٢٥].

وقال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: ٣٦ ـ ٣٩].

تقررُ هذه الآياتُ أن الشيطانَ هو الذي أزلَّ آدم وحواء، بأكْلهما من الشجرة، وبذلك زلَّتْ أقدامُهما، فأُزيلا من الجنة، وأُخرجا منها.

أَخرجَ اللَّهُ آدم وحواء مما كانا فيه، من نعيم الجنةِ وخيراتها،

وقالَ اللَّهُ لهما وهما في الجنة: ﴿ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

وهذا يقررُ العداوةَ المتأصلةَ بين آدمَ وحواءَ من جهة، وبين عدوِّهما الشيطانِ من جهةٍ أخرى، كما يقررُ العداوةَ بين المؤمنين من بني آدم من جهة، وبين الكافرين منهم الذين اتبعوا الشيطانَ من جهةٍ أخرى.

إنَّ الأرضَ هي مسرحُ العداوة بين الشيطان وحزبه الكافرين، وبين الرسلِ وأَتباعهم المؤمنين. الأرضُ هي مسرح الصراعِ بين الحق والباطل، الحقِّ الذي يمثله الرسلُ والمؤمنون، والباطلِ الذي يمثلُه الشيطانُ والكافرون.

الصراعُ بينهما على الأرض منذ لحظةِ إِنزالِ آدم وحواء وإبليس، واستمرَّ ذلك الصراعُ على مدارِ الأجيال والقرون، وسيبقى حتى قيام الساعة.

ولهذا قالَ اللَّهُ لآدم وحواء لحظةَ إنزالِهما إلى الأرض: ﴿ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

بدأت القصة في الجنة وهي دار النعيم:

وظاهرُ الآيات التي تحدَّثَتْ عن قصةِ آدم، يدلُّ على أنَّ القصةَ بدأَتْ في الجنة، والجنةُ هي الجنةُ المعروفة، دارُ النعيم للمتقين.

لقد كان إبليسُ مع الملائكةِ في الجنة، وخلَقَ اللَّهُ آدمَ في الجنة، ونفخَ فيه من روحه وهو في الجنة، وأسجدَ له الملائكة في الجنة، وعصى إبليسُ وتمردَ في الجنة، وخلقَ اللَّهُ حواءَ لآدم في الجنة، وأباحَ لهما سكنى الجنة، ووسوسَ لهما الشيطانُ في الجنة، وأَكَلا من الشجرة في الجنة، ونَدِما وتابا في الجنة، وتابَ اللَّهُ عليهما في الجنة... ثم أَنزلَ اللَّهُ الثلاثةَ ـ آدم وحواء وإبليس ـ وأَهبطَهم من الجنة إلى الأرض.

الجنةُ التي جرَتْ فيها أحداثُ القصة هي الجنةُ المعروفة، وليستْ أيةَ جنة أخرى، أو بستانٍ آخر، أو حديقةٍ عالية على قمةِ جبلٍ من جبال الأرض العالية.

هذا هو الراجحُ في المرادِ بالجنة، لأنَّ كلمةَ «الجنة» إذا أُطلقتْ في القرآن، تَنصرفُ إلى الجنةِ نفسِها، دارِ النعيم للمؤمنين. والأصْلُ القولُ بهذا، والأخذُ بظاهر اللفظ القرآني، لعدم وجود نصٍّ من القرآن أو الحديث، يصرفُ اللفظ عن هذا المعنى الظاهري.

ثم إنه لا استحالةَ عقلية من جرَيانِ أحداثِ القصة في الجنةِ نفسِها، وليس في القول بذلك تصادمٌ مع العقل.

أَهبطَ اللّهُ آدمَ وحواء وإبليس من الجنة إلى الأرض: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ﴾.

أما البقعةُ من الأرض التي أُهبطوا إليها، والتي كانت بدايةَ الحياةِ الإِنسانية على وجْهِ الأرض، فهي مبهمة، غيرُ محددةٍ ولا معينة في النصوص.

لذا لا نحاولُ تحديدَها أو تعيينَها، ولا نذهبُ من أجلِ ذلك إلى الأساطيرِ والإِسرائيليات، بل نبقى مع ما دلَّتْ عليه الآياتُ الصريحة، والأحاديثُ الصحيحة، نقولُ بما قالت به، ونسكتُ عن ما سكتَتْ عليه.

[٢٣]

معصية آدم واحتجاجه على موسى

كان خروجُ آدم من الجنة بسببِ أكله من الشجرة، كما أَخبرت الآياتُ والأحاديثُ الصحيحة.

قال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه: ١٢١ - ١٢٣].

وتُسنِدُ الآيةُ المعصيةَ إلى آدم: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾.

والمعنى: عصى آدمُ ربَّه عندما أكلَ من الشجرة، فغوى بعد أَكْلِه منها. أي: خالفَ النهي، ووقَعَ في المحظور.

ويعترفُ آدمُ بمعصيتِه، ويُعلنُ توبتَه وندمه، ويستغفرُ ربَّه، ويقولُ مع زوجه حواء: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣].

آدم يبقى خائفاً من معصيته:

ويخبرُنا اللَّهُ أنه قد تابَ على آدم: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٧].

ولكنَّ آدمَ يبقى خائفاً من فعلتِه، معترفاً بمعصيته، ولهذا يَرُدُّ الناسَ الذين يأتونه، ليشفعَ لهم عند الله، وذلك يوم القيامة.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، أنه قال في حديثِ الشفاعةِ الطويل «... يجمعُ اللَّهُ يومَ القيامة الأوَّلين والآخِرين في صعيدٍ واحد، فيسمعُهم الداعي، ويَنْفُذُهم البصر، وتَدنو الشمس، فيبلغُ الناسَ من الغمِّ والكرب ما لا يطيقون، وما لا يحتملون.

فيقولُ بعض الناس لبعض: ألا ترونَ ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا ترونَ منْ يشفعُ لكم إلى ربكم؟

فيقولُ بعضُ الناس لبعض: ائتوا آدم.

فيأتون آدم، فيقولون: يا آدم، أنتَ أبو البشر، خلقكَ اللَّهُ بيده، ونفخَ فيك من روحه، وأَمَرَ الملائكةَ فسجدوا لك، اشفعْ لنا إِلى ربِّك، أَلا ترى ما نحنُ فيه؟ أَلا ترى إلى ما قد بلَغَنا؟

فيقول آدم: إنَّ ربي غضبَ اليومَ غضباً، لم يغضبْ قبلَه مثلَه، ولن يغضبَ بعدَه مثله. وإنه نهاني عن الشجرة، فعصيْتُه.. نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح»[1].

والشاهدُ في الحديث قوله: إنه نَهاني عن الشجرة، فعصيْتُه.

لقد عصى آدمُ ربَّه بنصِّ القرآن، وباعترافِه هو.

آدم عصى ربه ناسياً غير عازم ولا قاصد:

ولكنَّ هذه المعصية لم تكن عن عَمْد، بل كانت عن سهوٍ وغفلةٍ ونسيان. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ١١٥].

عهدَ اللَّهُ له بالتكليف، ونهاه عن الأكْلِ من الشجرة، ولكنه نسيَ عهدَ الله، فأكلَ من الشجرة ناسياً، ولم يأكلْ منها عامِداً قاصِداً، ولم يكن عنده عزمٌ ولا قصدٌ على المخالفة.

إن هذه الآيةَ تبرئُ آدم عليه السلام من تهمةِ تعمُّد المخالفة.

وبما أنه لم يتعمد المخالفة، ولم يعزِمْ على الأكل من الشجرة، لذلك تابَ وأنابَ إلى الله فتابَ اللَّهُ عليه.

وإذا كان اللَّهُ لا يؤاخذُ المسلمَ إذا خالف أمره ناسياً، بل يعفو عنه لنسيانِه، فآدمُ أبو البشر أَوْلى أن لا يؤاخَذَ على ما فعل، لنسيانِه.

وعندما نجدُ للمسلمِ المبررَ والعذر، عندما يخالفُ أمْرَ الله ناسياً، فآدمُ أَولى بالعذرِ والتبرير.

وكان آدمُ عليه السلام نبياً، فهو أَولُ الأنبياء. ودليلُ نبوته ما رواه

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٤. ومسلم برقم: ١٩٤. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٣٦٤.

أحمد والحاكم عن أبي أمامة رضي الله عنه: أنَّ رجلاً قال: يا رسولَ الله، أنبيٌّ كان آدم؟ قال: «نعم. مُعَلَّمٌ مُكَلَّم»[١].

وقد بعثه اللَّهُ نبياً إلى بنيه، حيث بلَّغهم دينَ الله، ودعاهم إلى عبادته، وحذَّرهم من الشيطان.

وأكْلُ آدمَ من الشجرة ناسياً، لا يطعَنُ في نبوته، لأنه أكلَ منها ناسياً، والنبيُّ قد يقعُ في المخالفة ناسياً غيرَ عامد.

حديثان في حجاج آدم وموسى:

وقد أَخبرَنا رسولُ الله ﷺ عن جدالٍ وحجاج بين آدم وموسى - عليهما الصلاة والسلام - انتهتْ بغلبةِ آدم، حيثُ حجَّ موسى.

روى مالك وأبو داود عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ قال: قال موسى: يا رب، أَبونا آدم، أَخْرَجَنا ونفسَه من الجنة!

فأراهُ اللَّهُ آدم. فقال: أنتَ آدم؟. فقال له: نعم.

قال: أنتَ الذي نفخَ الله فيك من روحه، وأسجدَ لك ملائكتَهُ، وعلَّمك الأسماءَ كلَّها؟ قال: نعم.

قال: فما حملَكَ على أن أخرجْتَنا ونفْسَك من الجنة؟

فقال له آدم: مَنْ أنت؟ قال: أنا موسى.

قال أنتَ موسى بني إسرائيل، الذي كلَّمكَ اللَّهُ من وراء الحجاب، فلم يجعلْ بينَك وبينه رسولاً من خَلْقِهِ؟ قال: نعم.

قال: فتلومُني على أمرٍ قد سبقَ من الله القضاءُ قَبْلي؟

---

(١) أخرجه أحمد ٥: ٢٦٦، والحاكم ٢: ٢٦٢. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم ٢٩.

قالَ رسولُ الله ﷺ عند ذلك: فحجَّ آدمُ موسى، فحجَّ آدمُ موسى»[1].

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «حاجَّ موسى آدمَ عليهما السلام».

فقال له: أنتَ الذي أخرجْتَ الناسَ بذنبك من الجنة، وأشقيْتَهم؟

قال آدم: يا موسى: أنتَ الذي اصطفاكَ اللّهُ برسالاتِه وبكلامِهِ، أَتلومُني على أمرٍ قد كتبهُ اللّهُ عليَّ، أو قدَّره عليَّ، قبلَ أنْ يخلُقَني؟

قال رسول الله ﷺ: «فحجَّ آدمُ موسى»[2].

إن رسول الله ﷺ يخبُرنا عن حجاجٍ وجدالٍ بين النبيَّيْن الكريمَيْن، آدمَ وموسى، عليهما السلام.

يلومُ موسى عليه الصلاة والسلام آدمَ على ما فعلَ في الجنة، حيث ترتَّبَ على أكْلِه من الشجرة إخراجُه من الجنة: «أنت الذي أخرجْتَ الناسَ بذنبك من الجنة، وأشقيْتَهم».

على ماذا لام موسى آدم؟:

فلوْمُه له على إخراجِه نفسَه وبنيه من الجنة، هذا الإِخراجُ الذي بُنيَ على أكْلِه من الشجرة.

فردَّ عليه آدم: «أتلومُني على أمرٍ، قد كتبه الله عليَّ قبلَ أنْ يخلُقَني؟».

وقد كانت حجّة آدم أوضح، وردُّه على موسى أَقوى. وقد شهدَ له رسول الله ﷺ بالغَلَبة، في قوله: «فحج آدم موسى».

فما هو السببُ الذي جعلَ آدم يحجُّ موسى ـ عليهما السلام ـ؟.

---

(١) أخرجه أبو داود برقم: ٤٧٠٢، ومالك في الموطأ ٢: ٨٩٨. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٣٥.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٠٩. ومسلم برقم: ٢٦٥٢. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٣٤.

قالَ بعضُ العلماء: حجَّ آدمُ موسى، لأنَّ موسى لامَه على أكْلِه من الشجرة، وهو الذنبُ الذي تابَ منه.

فاحتجَّ آدم، بأن الله قد كتبَ وقدَّرَ عليه أن يأكلَ من الشجرة، قبلَ أن يخلُقَه. فلماذا يلومه موسى على ارتكابِ ذنب، قدَّرَ اللَّهُ عليه أنْ يرتكبَه؟

ولكنْ للإمامِ ابن كثير رحمه الله، تعليلٌ طيب في ذلك.

قال: «إنه لامَهُ على إِخراجه نفسَه وذريَّتَه من الجنة.

فقال له آدم: أنا لم أُخرجْكُم، وإنما أخرجَكُم الله، الذي رتَّبَ الإِخراجَ على أَكْلي من الشجرة، وقد رتَّبَ ذلك وكتبه وقدَّره عليَّ، قبل أَن أُخلق، فأنتَ تلومُني على أمر، ليس له نسبةٌ إليَّ، أكثرَ من أنّي نُهيتُ عن الأكلِ من الشجرة، فأكَلْتُ منها. وكونُ الإِخراجِ من الجنة مترتِّباً على الأكل، ليسَ من فعلي، وإنما هو قَدَرٌ من الله.

فأنا لم أخرجْكُم ولا نفسي من الجنة، لأنَّ هذا الإِخراجَ كان من قَدَرِ الله وصُنْعِه، وله الحكمةُ في ذلك»[1].

[٢٤]
وفاة آدم عليه السلام

عاش آدمُ على الأرض ما شاءَ اللَّهُ له أن يعيش، وأَمضى عمرَه الذي قدَّره وحدَّدَه اللَّهُ له.

ولا تخبُرنا النصوصُ من الآياتِ والأحاديث عن المكانِ الذي

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ـ طبعة دار الخير بدمشق: ٣٦.

أَهبطَ اللَّهُ عليه آدم وحواء، ولا عن البقعةِ من الأرض التي أقامَ عليها مع حواء، والتي أَنجب عليها أولادَه.

كما لا تخبرُنا النصوصُ عن كيفيةِ حياتِه وطعامِه وشرابِه.

وهذه المسائلُ «مبهماتٌ» في قصة آدم، لا نخوضُ فيها، ولا نذهبُ إلى الإسرائيليات، لنأخذَ منها التفاصيلَ والمعلومات.

وقد أخبرَنا رسولُ الله ﷺ عن اللحظةِ الأخيرةِ لحياةِ آدم على وجْهِ الأرض:

اللحظات الآخيرة في حياة أدم:

روى الحاكم عن أبيِّ بنِ كعب رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ آدمَ لما حضره الموتُ قال لبنيه: أي بَنِيَّ، إني أَشْتهي من ثمارِ الجنة. فذَهَبوا يطلبون له.

فاستقبلَتْهم الملائكة، ومعهم أكفانُه وحَنوطُه، ومعهم الفؤوسُ والمساحي والمكاتل. فقالوا لهم: يا بَني آدم: ما تُريدون؟ وما تطلبون؟

قالوا: أَبونا مريض، واشتهى من ثمارِ الجنة.

فقالوا لهم: ازجِعوا، فقد قَضى أبوكم!.

فجاؤوا. فلما رأَتهم حواءُ عرفَتْهم. فلاذَتْ بآدم. فقال لها: إليكِ عنّي، فإنّي إنَّما أُتِيتُ من قِبَلِك، فخلِّ بيني وبين ملائكةِ ربي عزَّ وجلَّ.

فقبَضوه، وغسَّلوه، وكفَّنوه، وحنَّطوه، وحَفروا له، ولَحَدوه، وصلّوا عليه، ثم أَدخلوه قبْرَه، فوضعوه فيه، ثم حَثَوْا عليه.

ثم قالوا: يا بَني آدم: هذه سُنَّتُكم»[1].

وبهذا انتهتْ حياةُ آدم على وجْهِ الأرض، وتوفّاه اللَّهُ لما جاءَ أجلُه.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢: ٥٤٥. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٣٦.

ولا تخبرنا النصوصُ عن العمرِ الذي عاشَه آدم، ولا عن المكانِ الذي توفِّي فيه، ولا البقعةِ التي دُفِنَ فيها. فنتوقفُ عن الخوض في ذلك، أو محاولةِ تعيينِه وتحديده.

لقد عاشَ آدمُ عمره على مرحلتيْن:

المرحلة الأولى: عاشَها في الجنة، ولا نعرفُ مقدارَ سنواتِها.

المرحلة الثانية: عاشَها على الأرض، ولا نعرف سنواتِها أيضاً.

[٢٥]

قصة ابْنَيْ آدم

مما يتصلُ بقصةِ آدم عليه السلام اتصالاً مباشِراً، قصةُ ابْنَيْه.

وقد ذكرتْ آياتُ القرآن مجمَلَها، وعرضَتْ منها ما يحقِّقُ العبرةَ والعظة.

قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة: ٢٧ ـ ٣١].

ولا توجَدُ أحاديثُ نبويةٌ صحيحة، تضيفُ معلوماتٍ على ما أوردَتْه هذه الآيات، بشأنِ قصة ابنَيْ آدم.

بينما تتحدثُ الأساطيرُ والإسرائيليات، عن كثيرٍ من التفصيلات، في أَحداثِ القصة. ولكننا نعلمُ أن هذه المصادر ليست مقبولةً ولا موثوقة، ولا تقدِّمُ معلوماتٍ صحيحةً يُعتمدُ عليها.

لا نخوضُ في زمانِ أو مكانِ القصة، ولا نعيِّنُ أَسماءَ أَشخاصِها. ولا نبحثُ عن أسبابِ الخلاف بين ابْنَيْ آدم، ولا نفصِّلُ في كيفيةِ وملابسات القتل، لأنَّ النصوصَ لا تقدم لنا معلوماتٍ عن ذلك.

مجمل قصتهما:

ومجملُ القصة من خلال الآيات، هو[١]:

كان لآدمَ ابنان، من جملةِ أبنائه، وحصَلَ بينهما خلافٌ ما، على أَمْرٍ ما، فقَرَّبا قرباناً إلى الله، حَلاًّ لذلك الخلاف، وذلك القربانُ غيرُ محدَّد ولا معيّن.

وتقبَّلَ اللّهُ قربانَ أحدِهما، لأنه كان على صواب، ولم يتقبَّلْ قربانَ أَخيه، لأنه كان على خطأ.

وبدلَ أن يرتدعَ الأخُ المخطئ ويرعوي، ويرجعَ إلى الحق، ويُنهي الخلاف، زادَ في باطِله، واشتطَّ في خصومتِه، وحقدَ على أَخيه، وملأَ قلْبَه كراهيةً وبغضاً له.

وحمَلَه حقدُه وبغضه على أنْ يفكرَ في التخلُّصِ من أخيه بالقتل، وتوعَّدَ أخاه، وهدَّدَه قائلاً: لأقتلَنّك.

لكنَّ أخاه كان مثالَ الإنسانِ الهادئ المتَّزِن، ولذلك قابلَ تهديدَ أَخيه بهدوء. وقال له: إنما يتقبلُ اللّهُ من المتقين، ولذلك تقبَّلَ اللّهُ

---

(١) وقفنا وقفة تدبر وتحليل واستنتاج مع آيات القصة في كتابنا «مع قصص السابقين في القرآن» القسم الثالث، فارجع إليه إن شئت.

قرباني، ولم يتقبَّلْ قربانَك، وإذا ما سَوَّلَتْ لك نفسُك قتلي، ومدَدْتَ إليَّ يدكَ لتقتلني، فلن أُعاملَك بالمثل، ولن أمدَّ يدي إليك لقتْلِك، وليس المانعُ عندي خوفي منك، أَو عجْزي عن قتلك، إنما المانعُ خوفي من الله ربِّ العالمين، وإذا ما قتَلْتَني فإنك تبوءُ بإثمي وإِثمك، وبذلك تكونُ من أصحاب النار.

وهذا الكلامُ اللينُ الهادئ، كان كفيلاً بأن يستَلَّ الحقدَ والبغضَ من قلب أخيه، ويُزيلَ منه التفكير في قتله، ولو كانَ في ذلك الأخ بقيةٌ من خير، أو كانَ يستمعُ لصوت الحق، ويستجيبُ للصواب.

لكنَّ ذلكَ الأخَ الحاقد استجابَ للشيطان، واستسلمَ له، وانحازَ للباطل، ولذلك لم يؤثِّرْ فيه منطقُ أخيه الهادئ.

وأخيراً طوَّعَتْ له نفسُه قتْلَ أخيه، تنفيساً لحقده، واستجابةً للشيطان. فقام بِقَتْلِهِ، وبذلك خسرَ خسارةً مطلقة، خسرَ الدنيا والآخرة.

وهذه أولُ جريمةِ قتْلٍ تقعُ على الأرض، وابنُ آدم القتيل هو أولُ ضحيةٍ للحقد والكراهية، وأولُ ثمرةٍ مُرَّةٍ للاستجابة البشرية للشيطان ووساوسِه ونزغاتِه.

وبما أنَّ الأخَ المجرم كان أولَ قاتل، فإنه لم يعرفْ كيفيةَ التصرُّفِ بالجثةِ التي أَمامه، ولذلك وقَفَ أَمامَها عاجزاً خاسِراً.

وأرادَ اللّهُ أنْ يسخَرَ منه لعجزِه وضعفِه، فبعثَ غُراباً من الغربان، ليعلِّمَه كيفيةَ التصرف في جثةِ أخيه.

ووقفَ ذلك الإِنسانُ العاجز، صاحبُ العقل والفكر، تلميذاً أمام الغراب، يتعلَّمُ منه.

وعلَّمه الطيرُ الأعجم، عن طريق الحركة والإِشارة، بأنْ صارَ

يحفرُ في الأرض بمنقاره، ويبحَثُ فيها برجلَيْه، وكأنّه يقولُ لذلك الإنسان العاجز: تعلَّمْ مني، واحْفِرْ حفرة، واجعَلْها قبراً، وضَعْ فيه جثةَ أَخيك!.

وأخذَ ذلك الأخ العاجز من الغراب إشارتَه، وقال: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ﴾.

وحفرَ الأخُ القاتلُ القبر، ووضعَ جثة أَخيه فيه.

وندمَ المجرمُ على جريمته، لكنَّ ندَمَه لم يكن ندمَ توبةٍ واستغفار، وإنما كانَ ندمَ عجزٍ وخسارةٍ وإحباط.

ندمَ لأنه خسرَ كلَّ شيء بقتْلِه لأخيه، ولأنه لم يعرفْ كيفيةَ التصرف بالجثة، ولأنه وقفَ تلميذاً يتعلمُ من غرابٍ أعجم!.

هما نموذجان مكروران في البشرية:

وطُويَتْ صفحاتُ قصةِ ابْنَيْ آدم من صُلْبه، بتعمُّقِ الخطَّيْنِ الأصيلَيْن في ذريةِ آدم بعدَ ذلك، وحتى قيام الساعة:

خطُّ الخير: الذي يمثلُه ابنُ آدم القتيل، حيث لم يتخلَّ عن الخير والحق، وبقيَ مع الله، وتعامَلَ مع أَخيه بأخوةٍ ومنطق.

وخطُّ الشر: الذي يمثلُه ابنُ آدم القاتل، حيث استسلَم للشيطان، واستجابَ لنزغاته، وصارَ شرّيراً قاتلاً مجرماً.

وبذلك ذهبَ ذلك القتيلُ إلى الله مظلوماً، وباءَ القاتلُ بإثمه، وانتهى خاسِراً معذَّباً، مخلَّداً في نارِ جهنم.

وتتكرَّرُ قصةُ ابْنَيْ آدم بعد ذلك، تتكررُ بمضمونها، وليس بتفاصيلها وأحداثِها.

فمن ذريةِ آدم مَنْ يقتدي بابنِ آدم الطيِّبِ الخَيِّر، فيكونُ متَّبعاً للحق، متَّصلاً بالله، بعيداً عن الظلمِ والعدوان. وهؤلاء موجودون على وجهِ الأرض، في كل وقت وزمان.

ومِنْ ذريةِ آدم مَنْ يقتدي بابن آدم القاتل، فيَبْغي ويَعْتدي، ويظلم ويُؤذي، ويتبعُ الشيطان، وهؤلاء كثيرون موجودون على وجه الأرض، في كلِّ وقت وزمان.

وقد دَعانا رسولُ الله ﷺ إلى أَنْ نقتديَ بابن آدم الطيب. فروى أبو داود والترمذي عن سعدِ بن أبي وقاص رضي الله عنه، أنه قال عندَ فتنة عثمان رضي الله عنه: أَشهدُ أَنّي سمعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنها ستكونَ فتنة، القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائمُ فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي.

قال: أرأَيْتَ إنْ دخلَ عليَّ بيتي، وبسطَ يده ليقتُلَني؟.

قال: كنْ كابنِ آدم»[1].

وبيَّنَ لنا رسولُ الله ﷺ، أنَّ ابنَ آدم القاتل يتحمَّلُ جزءاً من دمِ كلِّ إنسانٍ يُقْتَلُ ظلماً، حتى قيامِ الساعة.

فروى البخاريُّ ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: لا تُقْتَلُ نفسٌ ظلماً إلا كان على ابنِ آدمَ الأولَ كِفْلٌ من دمها، لأنه كانَ أوَّلَ مَنْ سَنَّ القتل»[2].



(١) أخرجه أبو داود برقم: ٤٢٥٧. والترمذي برقم: ٢١٩٥. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٣٣.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٣٥. ومسلم برقم: ١٦٧٧. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٣٢.

قِصَّةُ نُوحٍ

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام



[١]

مواضع قصة نوح في القرآن

نوحٌ عليه الصلاة والسلام نبي ورسول. أرسلَه الله إلى قومه.

وقد وردَ اسم «نوح» عليه السلام في القرآن، ثلاثاً وأربعين مرة.

وذِكْر «نوح» في القرآن على حالتين:

الحالة الأولى: ذِكْر اسمِه مجرداً، أو مضافاً إلى قومه، ضمنَ الحديث عن قصته، وذلك في إِحدى وعشرين مرة.

الحالة الثانية: ذكْر اسمِه مجرداً، أو مضافاً إلى قومه، ولكن ليس ضمنَ الحديث عن قصته، وإنما في إشارةٍ سريعة إليه، أو إلى رسالته، أو إلى شريعتِه، أو إلى كفرِ قومه وتكذيبهم، وذلك بما يتفق مع موضوع السورة، أو الوحدة التي وردت فيها الإِشارة. وذلك في اثنتين وعشرين مرة.

والسوَرُ التي ورد اسمُ نوح عليه السلام فيها، مجرداً أو مضافاً إلى قومه، لكن ليس ضمن قصته، هي سور: آل عمران، النساء، الأنعام، الأعراف، التوبة، هود، إبراهيم، الإسراء، مريم، الحج، الفرقان، الأحزاب، صَ، غافر، الشورى، قَ، الذاريات، النجم، الحديد، والتحريم.

والسورُ التي وردتْ فيها مشاهد ولقطات من قصة نوح عليه السلام هي: الأعراف، يونس، هود، الأنبياء، المؤمنون، الشعراء، العنكبوت، الصافات، القمر، ونوح.

ويتفاوتُ المقدارُ المعروض من قصته في هذه السور طولاً وقِصراً، وتُعرض المشاهد واللقطات من القصة بالمقدار الذي يتفق مع

موضوعِ السورة وسياقها وشخصيتها، والعبرةِ المقصودة منها.

فسورةُ «نوح» كلُّها في الحديث عن قصته مع قومه، وسورةُ هود عرضتْ مشاهدَ ولقطاتٍ طويلةً من قصته، وسور يونس والشعراء عَرضتْ لقطات أقصر، بينما وردت الإِشارةُ إلى القصة في سورة العنكبوت في آيتيْن اثنتيْن، تضمنتا معلومة هامة، لم تردْ في السور الأخرى.

واللافتُ للنظر أن السورَ العشرةَ السابقة التي تحدثت عن قصته هي سورٌ مكية، وهذا يتفقُ مع طبيعة القرآن المكي، الذي كان يوظفُ «القصص» لإِثباتِ نبوة محمد ﷺ، وبيانِ أن القرآن كلام الله، وتقديمِ الدروس والعظات للمؤمنين المستضعفين في مكة.

[٢]
ما عرضته كل سورة من قصته

قلنا إنَّ قصةَ نوح عليه السلام وردتْ في عشر سور مكية، هي: الأعراف، يونس، هود، الأنبياء، المؤمنون، الشعراء، العنكبوت، الصافات، القمر، نوح.

ونشيرُ فيما يلي إلى الموضوعاتِ واللقطات التي عرضَتْها كلّ سورة من قصته.

ما عرضته سورتا الأعراف ويونس وهود:

١ ـ ما عرضته سورة الأعراف:

وردتْ قصةُ نوح في ست آيات: ٥٩ ـ ٦٤.

تحدثتْ عن إرسالِ نوح إلى قومه، ودعوتِه لهم إلى عبادة الله وحده، واتهامِ الملأ من قومه له بأنه ضال، وردِّه لذلك الاتهام،

وتقديمِه نفسَه ودعوتَه لهم، وإزالةِ عجبهم من جعل رسول من البشر، وتكذيبهم له، وتدميرهم ونجاةِ الذين آمنوا معه.

٢ ـ ما عرضته سورة يونس:

وردَت قصةُ نوح في ثلاث آيات: ٧١ ـ ٧٣.

تحدثتْ عن تحدي نوح عليه السلام لقومه، وعدمِ خوفه منهم لاستعلائه بإيمانه، واعتمادِه على ربه، وتجردِه في دعوته، وعدمِ طلبه الأجرَ منهم، وعن تكذيب قومه له، ونجاةِ المؤمنين معه، وإغراقِ الكافرين بالطوفان.

٣ ـ ما عرضته سورة هود:

وردت قصة نوح في خمسٍ وعشرين آية: ٢٥ ـ ٤٩.

والمشاهدُ واللقَطَات المعروضة من القصة في هذه السورة، من أطولِ المشاهد، وتكادُ تكونُ أطولَ من المشاهد المعروضة في سورة نوح نفسها، التي تخصصتْ بالحديث عن قصته.

تحدثتْ آياتُ سورة هود عن إرسالِ نوح إلى قومه، ودعوتِه لهم إلى عبادةِ الله وحده، وردِّ الملأ الكفار من قومه عليه، وإثارةِ شبهات لهم حولَه وحولَ دعوته، وحول أَتباعه، ونقضِ نوح عليه السلام لتلك الشبهات، ورفضِ العَرض الذي قدمه له كفارُ قومه بطردِ أتباعه المؤمنين، وطلبِ قومه إيقاعَ العذاب بهم، وردِّه على طلبهم.

كما تحدثت الآياتُ عن إخبارِ الله له بأنه لن يؤمن من قومه إلا منْ قد آمن، وأمْرِه له بصنع السفينة، وتَعرضُ الآياتُ بعضَ ما جرى بينه وبين قومه الكفار أثناءَ صنعه للسفينة، وتَعرضُ مشهدَ بدءِ الطوفان، وفورانِ التنور بالماء، وتحميلِ نوح في سفينته زوجيْن من كل حي، والمؤمنين معه، وجريانِ السفينة في أمواج الطوفان باسم الله.

وتصورُ الآياتُ ما جرى بين نوح وبين ابنه الكافر، وهلاكَ ذلك الكافر غرقاً، كما تصورُ انتهاءَ الطوفان، وزوالَ الماء، واستقرارَ السفينة بركابها على جبل «الجودِيّ».

وتسجلُ الآياتُ سؤالَ نوح لربه عن غرق ابنه، وعتابَ الله له، وبيانَه أنه ليس من أهله، لأنه عملٌ غيرُ صالح، وتأدُّبَ نوح مع ربه، وطلبَه منه العفو والرحمة.

وتختم الآياتُ القصةَ بمنظرِ نزولِ نوح وأَتْباعه المؤمنين من السفينة إلى الأرض، واستئنافِ الحياة من جديد على وجه الأرض. وتوظفُ الآياتُ قصةَ نوح في القرآن دليلاً على نبوة محمد ﷺ.

ما عرضته سبع سور أخرى:

٤ ـ ما عرضته سورة الأنبياء:

وردتْ قصةُ نوح في إشارةٍ سريعة في آيتين: [٧٦ ـ ٧٧].

وعرضت الآيتان لقطةً سريعة لاستنجادِ نوح بربه، واستنصارهِ له على قومه الكفار، واستجابةِ الله له، وإغراقِ أولئك الكفار.

٥ ـ ما عرضته سورة المؤمنون:

وردت قصة نوح في ثماني آيات: [٢٣ ـ ٣٠].

تحدثت الآياتُ عن إرسالِ نوح إلى قومه، ودعوتِه لهم إلى عبادة الله وحده، ورفضِ الملأ الكفار من قومه لدعوته، وإثارتِهم للشبهات ضده، واتهامِهم له بالجنون، واستنصارهِ بالله، وأمرِ الله له بصنع السفينة ونجاتِه مع المؤمنين ركاب السفينة، وإغراقِ الكفار بالطوفان.

٦ ـ ما عرضته سورة الشعراء:

وردت قصة نوح في ثماني عشرة آية: [١٠٥ ـ ١٢٢].

تحدثت الآياتُ عن تكذيبِ قومه له، ودعوتِه لهم إلى الله، وإثارتِهم الشبهات عليه وعلى أتباعه، وطلبِهم منه طردَ المؤمنين المستضعفين، وتهديدِهم له برجمه، واستنصارهِ بالله، ونجاته مع أتباعه، وإغراقِ قومه الكفار.

٧ ـ ما عرضته سورة العنكبوت:

وردت قصة نوح في آيتين: [١٤ ـ ١٥].

ووردت في الآيتيْن معلومةٌ جديدة، لم تُذكَر في غير هذه السورة، وهي أن نوحاً مكثَ يدعو إلى الله في قومه ألفَ سنة إلا خمسين عاماً.

ومع ذلك كذبوه، فأَغرقهم الله بالطوفان، وأنجى نوحاً وأَتباعه المؤمنين في السفينة.

٨ ـ ما عرضته سورة الصافات:

وردت قصة نوح في ثماني آيات: [٧٥ ـ ٨٢].

تحدثت الآياتُ عن استنجادِ نوح بربه على قومه الكافرين، ونجاتِه مع أتباعه المؤمنين، وغرقِ قومه الكفار، والثناءِ على نوح عليه السلام.

٩ ـ ما عرضته سورة القمر:

وردت قصة نوح في تسع آيات: [٩ ـ ١٧].

تحدثت الآياتُ عن تكذيبِ قومه له، ودعائِه لله واستنجادهِ واستنصارِه به، وتعذيبِ الله لقومه بالطوفان، وإنجائه لنوح وأتباعه في السفينة، وإبقاءِ قصة الطوفان والسفينة آيةً وعبرة لمن يعتبر أو يتذكر.

١٠ ـ ما عرضته سورة نوح:

سورةُ نوح كلُّها في الحديث عن قصته، وآياتُها ثمانٍ وعشرون آية.

تحدثت آياتُ السورة عن إرسالِ نوح إلى قومه، وإنذارِه لهم، وطلبِه منهم عبادةَ الله وحده، ويخبرُ نوحٌ في الآيات عن جهودِه في دعوة قومه، وأساليبِه، في الدعوة، ولا ننسى أنه استمرَّ على هذه الدعوة ألفَ سنة إلا خمسين عاماً، ومع ذلك واجَه قومُه دعوتَه بالإِصرار على الكفر والعناد.

يبينُ لهم نوحٌ آثارَ الإِيمان والاستغفار المباركة في الحياة الدنيا، ويقدمُ لهم في دعوته معلوماتٍ علمية، كخلقِهم أطواراً، وخلقِ سبع سماوات، وكونِ القمر نوراً، وكونِ الشمس سراجاً، وإنباتِهم من الأرض نباتاً، وجعلها لهم بساطاً.

ومع ذلك أصرَّ قومُه على عصيانِه، واتَّبعوا الملأَ الكافرين منهم، وتمسكوا بعبادةِ أصنامهم، وذَكرتْ أسماءَ خمسة منها، وعقابَ الله لهم بالطوفان، وتعذيبهم بالنار.

وتتضمنُ الآياتُ دعاءَ نوح على قومه الكفار بالهلاك والدمار، ودعاءَه واستغفارَه لوالديْه وللمؤمنين والمؤمنات.

[٣]

المدة بين آدم ونوح

بعثَ اللّهُ نوحاً عليه الصلاة السلام نبياً ورسولاً إلى قومه. وكان نوحٌ بعد آدم عليهما السلام.

آدم أول نبي ونوح نبي ورسول:

فمن المعلوم أن آدمَ أبا البشر هو أولُ نبي، بعثه اللّهُ إلى أولاده، فعلَّمهم دينَ الله. وجاءتْ أجيالٌ بعده على الإِيمان والتوحيد. ثم طرأَ عليهم الشركُ والكفر بعد ذلك، وتمكنَ الشيطانُ من إغواءِ وإضلال أجيالٍ أخرى، فظهرَ فيهم الشركُ بالله، وعبادةُ الأصنام.

فبعثَ اللَّهُ نوحاً عليه السلام نبياً ورسولاً، ليدعو هؤلاء الكفارَ المشركين إلى الإِيمانِ بالله وتوحيدِهِ.

و «نوح» اسمُ علمٍ أجنبي، ليس عربياً ولا مشتقاً، لأنَّ العربَ لم يكونوا قد وُجدوا في عهده عليه السلام، ولم تكن اللغةُ العربية قد ظهرت، فلا نبحثُ في معنى اسم «نوح» في العربية، ولا في مادةِ اشتقاقه.

ولم يثبتْ في الأحاديثِ الصحيحة شيءٌ عن أسماء آباء نوح، ولا عن سلسلةِ النسب بينه وبين أبيه آدم، فلا نخوضُ في ذلك، كما فعلَ الذين ذهبوا إلى الإِسرائيليات.

كذلك لم يثبتْ شيءٌ في تحديدِ المكان الذي كان يقيمُ فيه قومُ نوح، والذي عاشَ فيه نوح، ولا عن عمره الذي قضاهُ قبل أنْ يبعثَه الله نبياً رسولاً.

كذلك لم يثبتْ شيءٌ في تحديدِ أسماءِ أولاده أو عددِهم، أو اسم زوجته، أو اسم والدَيْه.

كلُّ هذه الأمور من «مبهمات القصص القرآني»، التي لم تبيَّنْ في الآيات والأحاديث الصحيحة، ويجبُ أن نبقيَها على إِبْهَامِهَا، وأن لا نذهبَ إلى الإِسرائيليات والأساطيرِ في محاولة تعيينها.

ابن عباس يخبر عن المدة بين آدم ونوح:

أما المدةُ الزمنيةُ بين آدم ونوح عليهما السلام، فهناك روايةٌ موقوفة على ابن عباس رضي الله عنهما، تحددُها بأنها عشرةُ قرون.

فقد روى الحاكمُ في المستدرَك عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «كان بين نوح وآدم عشرةُ قرون، كلُّهم على شريعةِ الحق،

فاختلفوا فبعثَ اللَّهُ النبيين، مبشرين ومنذرين»[١].

وابنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ لم يرفع هذا الخبرَ إلى رسول الله ﷺ، ولا ندري دليله على تحديدِ المدة بأنها عشرةُ قرون، ولا المصدرَ الذي اعتمدَ عليه، وأخذَ منه.

وبما أن هذا الخبرَ ليس مرفوعاً للرسول ﷺ، فإننا نتحفظُ في اعتمادِه، والقولِ به يقيناً، مع إجلالِنا وتقديرنا وتوقيرنا لابن عباس رضي الله عنهما.

نتحفظُ في القول بهذا الخبر يقيناً، وفْقَ منهجنا في روايات قصصِ القرآن، حيث لا نعتمدُ منها إلا ما صحَّ منها متصلاً مرفوعاً للرسول ﷺ. لأن قصصَ القرآن من غيب الماضي، وأنباءُ الغيب لا تؤخَذُ إلا من آية صريحة، أو حديثٍ مرفوع صحيح.

ورغمَ تحفُّظنا في اعتمادِ خبرِ ابن عباس رضي الله عنهما، إلا أننا نستأنسُ به استئناساً، لصحةِ وقفِه عليه.

ما المراد بالعشرة قرون بينهما:

فما المرادُ بالعشرة قرون بين آدم ونوح عليهما السلام؟ مدةُ القرن في بداية تاريخ البشرية، تختلفُ عن مدة القرن فيما بعد، وبالذات في العصرِ الحاضر.

مدةُ القرن في حساباتنا مئةُ سنة. لكن هذا لا يوجبُ أن تكونَ مدةُ القرن زمنَ آدم ونوح عليهما السلام مئةَ سنة.

القرنُ مشتقٌ من الاقترانِ والاجتماع.

---

(١) أخرجه الحاكم ٢: ٥٤٦ ـ ٥٤٧. وقال: صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٤٧.

قال الإمام الراغب في المفردات: «الاقتران: كالازدواج، في كونه اجتماعَ شيئيْن أو أشياءَ، في معنى من المعاني.

والقرن: القومُ المقترنون في زمن واحد، وجمعُه قرون»[1].

وهذا معناه أنَّ القرنَ يطلقُ على أهلِ الجيل الواحد، الذين اقترنوا معاً، وعاشوا في زمنٍ واحد.

ومعلومٌ أنَّ أعمارَ الناس في بدايةِ تاريخ البشرية كانت طويلة، حيث كان أحدُهم يعمرُ مئاتَ السنين.

فها هو نوحٌ ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعيش مع قومه نبياً رسولاً قبلَ الطوفان تسعَمئة وخمسين سنة! قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤].

وهذا يعني أنَّ نوحاً عليه السلام عاش ألف سنة أو أكثر.

وهذا يعني أن متوسطَ الأَعمار بين آدم ونوح عليهما السلام ألفُ سنة، بينما أعمارُ الناس في زماننا ما بين الستين والسبعين، وقلَّ مَنْ يتجاوزُ الثمانين من عمره. فمتوسطُ الأعمار في زماننا هو سبعون سنة.

مدةُ القرنِ لأبناءِ الجيل الواحد بين آدم ونوح عليهما السلام هي ألفُ سنة، بينما مدةُ القرن لأبناء جيلِنا هي سبعون سنة.

فالعشرةُ قرونٍ بين آدم ونوح عليهما السلام ـ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما ـ حوالي عشرةُ آلاف سنة، والله أعلم!

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن للراغب: ٦٦٧.

[٤]

كيف انحرف الناس إلى الكفر؟

كان الناسُ بعد آدم عليه السلام، مؤمنين بالله، موحِّدين له، ومرتْ أجيالٌ منهم على الإِيمان، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان بين نوح وآدم عشرةُ قرون، كلُّهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعثَ اللّهُ النبيين مبشرين ومنذرين».

تمكنَ الشيطانُ بعد هذه الأجيال المؤمنة من إغواءِ أُناس من الأجيال اللاحقة، فأبعدهم عن الإِيمان والتوحيد، وقادَهم إلى الكفرِ والشرك بالله.

وهذا يدلّ على أنَّ الإِيمانَ بالله وإخلاصَ العبادة له، هو الأصل، وهو الأساس، وأن الكفرَ والشرك طارئ حادث.

الإِسلام هو أول دين على وجه الأرض:

إن أولَ دين على وجْهِ الأرض هو الإِيمانُ والإِسلام. وإن الناسَ بدأوا حياتَهم على وجه الأرض مؤمنين مسلمين، وإنَّ «الإِنسانَ الأول» كان مؤمناً بالله، موحِّداً له. وكان على هذا الدين الصحيح آدمُ عليه السلام، وأولاده وأحفادُه.

ثم جاءَ الكفر والشرك طارئاً بعد ذلك.

وقد قررَ هذه الحقيقة الإِيمانية، في البدايةِ التاريخية المؤمنةِ المهتدية للبشرية، نصوصُ الكتاب والسنة.

قال الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣].

تقررُ الآيةُ الكريمةُ أن الناسَ في بدايةِ تاريخ البشر على وجْهِ الأرض، كانوا مؤمنين بالله، موحِّدين له، أمةً واحدة، على دينٍ واحد.

ثم جاءتْ أجيالٌ جديدة، تخلوا عن الدين، وانقادوا للشيطان وكفروا بالله، فوقعَ بينهم الاختلاف والنزاع، فبعثَ اللَّهُ لهم الرسلَ والأنبياء، مبشرين ومنذرين، ليعيدوهم إلى الله، وأنزلَ معهم الكتاب بالحق، والمنهاج الصحيح، ليُزيلَ الخلاف، ويحسمَ النزاع، ويحكمَ بين الناس فيما اختلفوا فيه.

روى الإمامُ مسلمٌ في صحيحه عن عياضِ بنِ حمارِ المُجاشِعي رضي الله عنه، أن رسولَ الله ﷺ قال ذاتَ يومٍ في خطبته: «ألا إنّ ربي أمرني أنْ أعلِّمكم ما جهلْتُم مما علَّمني، يومي هذا: كلُّ مال نَحَلْتُه عبداً، حلال.. وإني خلَقْتُ عبادي حنفاءَ كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين، فاجتالَتْهم عن دينهم، وحرمَتْ عليهم ما أحللْتُ لهم، وأمرَتْهم أنْ يُشركوا بي ما لم أنزلْ به سلطاناً... وإن اللَّهَ نظرَ إلى أهل الأرض فمقَتَهم، عرَبَهم وعجَمَهم، إلا بقايا من أهل الكتاب..

.. وقال: إنما بعثْتُك لأبتليك، وأَبتليَ بك، وأنزلْتُ عليك كتاباً، لا يغسلُه الماء، تقرؤُه نائماً ويقظان...»[1].

وهذا الحديثُ الصحيحُ نصٌّ في أن الناسَ بدأوا على وجْهِ الأرض حنفاء، مؤمنين موحدين، وهذا ما جرى للقرونِ والأجيال بعد آدمَ عليه السلام.

الشرك طارئ شاذ على البشرية:

ثم جاءَ الشركُ طارئاً بعد ذلك، حيث أتت الشياطينُ الناس،

---

(١) أخرجه الإمام مسلم، برقم: ٢٨٦٥.

فحازَتْهم، واستحوذَتْ عليهم، واجتالَتْهم وصرفَتْهم عن الدين الحق، وحلَّلَتْ لهم ما حرمَ اللَّهُ عليهم، وحرمَتْ عليهم ما أحلَّ اللَّهُ لهم، وأَمرتْهم أن يكفروا بالله، وأنْ يشركوا معه الأصنام والأوثان.

عند ذلك بعثَ اللَّهُ نوحاً عليه الصلاة والسلام نبياً ورسولاً.

فلما جاء نوحٌ عليه السلام إلى قومه، وجدهم يعبدون أصناماً وأوثاناً، يعتبرونها آلهة، فنهاهم عن عبادتها، وأَمرهم بتوحيدِ الله، ولكنَّ الملأَ من قومه رفضوا دعوته.

وقد ذكرَ القرآنُ أسماءَ خمسةِ أصنامٍ لهم.

قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ۝٢٢ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝٢٣ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ۝٢٤﴾ [نوح: ٢٢ ـ ٢٤].

الآلهةُ الخمسةُ المعبودةُ من دون الله، هي: وَدّ، سُواع، يَغوث، يَعوق، نَسْر.

كيف عبد قوم نوح الأصنام؟

وقد روى البخاريُّ حديثاً موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنهما في كيفيةِ انحرافِ قوم نوح، وعبادتِهم لتلك الأصنام.

قال ابنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «صارت الأوثانُ التي كانتْ في قومِ نوحٍ في العرب بعد:

أما «وَدٌّ» فكانت لكَلْب. بدومةِ الجَنْدل.

وأما «سُواعٌ» فكانت لهُذَيْل.

وأما «يَغوث» فكانت لمُراد، ثم لبني غَطيف بالجُرْف، عند سبأ.

وأما «يَعوقُ» فكانت لهمذان.

وأما «نَسْرٌ» فكانتِ لحِمْيرَ، لآل ذي الكلاع.

وكانت هذه أسماءُ رجالٍ صالحين، من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطانُ إلى قومهم، أن انصِبوا إلى مجالسهم - التي كانوا يجلسون - أَنصاباً، وسمّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبد، حتى إذا هلكَ أولئك، ونُسخَ العلم، عُبدت...»[1].

وبما أنَّ الروايةَ موقوفةٌ على ابن عباس رضي الله عنهما، وبما أنه لم يرفع الحديثَ إلى رسول الله ﷺ، فإننا نتحفظُ عليه، ولا نجزمُ به، بل نستأنسُ به استئناساً، كما سبقَ أنْ قلْنا في العشرةِ قرون التي بين آدم ونوح عليهما السلام.

لقد انحرفَ قومُ نوح، واستجابوا لدعوةِ الشياطين إلى الشرك بالله، وعبدوا أصناماً خمسة، هي: وَدّ، وسُواع، ويَغوث، ويَعوق، ونَسْر.

[٥]
نوح رسول يدعو إلى عبادة الله

أخبرَنا اللّهُ أنه بعثَ نوحاً نبياً ورسولاً إلى قومه. فقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف: ٥٩].

نوح أول رسول للبشر:

والآيةُ تنصُّ على أنَّ نوحاً عليه الصلاة والسلام رسول.

وقد أخبرَنا رسولُ الله ﷺ أن نوحاً عليه الصلاة والسلام هو أولُ رسول إلى الأرض.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٩٢٠. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٤٨.

روى البخاريُّ ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ ـ في حديثِ الشفاعة الطويل ـ أنه قال: «... فيأتون نوحاً، فيقولون: يا نوح: أنتَ أولُ الرسل إلى الأرض، وسَمّاكَ اللَّهُ عبداً شكوراً، اشفَع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بَلَغَنا؟

فيقول لهم: إن ربي قد غضبَ اليومَ غضباً، لم يغضبْ قبلَه مثلَه، ولن يغضبَ بعده مثله، وإنه قد كانتْ لي دعوة، دعوتُ بها على قومي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى إبراهيم ﷺ..»[1].

إن آدمَ عليه السلام هو أولُ نبي، بعثه اللَّهُ نبياً إلى أولاده. أما نوح فهو نبي، وهو أولُ رسول، أرسلَه الله إلى قومه.

أرسلَ اللَّهُ نوحاً عليه السلام إلى قومه خاصة، لأنَّ كلَّ رسولٍ كان يُرسل إلى قومه خاصة، إلا محمدٌ ﷺ، حيث أرسلَه الله إلى الناس كافة.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١﴾ [نوح: ١].

ونفَّذَ نوحٌ أمرَ الله، وقام بإنذار قومهِ عذابَ الله ودعاهم إلى الإيمانِ بالله، وإخلاصِ العبادة له: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ [نوح: ٢ ـ ٤].

نوح يطلب منهم عبادة الله وحده:

لقد طلبَ نوحٌ عليه الصلاة والسلام من قومه عبادةَ الله وحده، ونهاهم عن عبادةِ غيره:

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٤٠. ومسلم برقم: ١٩٤. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٣٦٤.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٥ ـ ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣].

طلبَ نوحٌ عليه السلام من قومه طلباً واحداً، وهو عبادةُ الله وحده: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

وهذه هي خلاصةُ رسالة نوح عليه السلام، وخلاصةُ رسالة كل رسول.

ولذلك كان كلُّ رسول يطلبها من قومه.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥].

خلاصةُ كلِّ دين أنَّ اللّهَ وحدَه هو ربُّ العالمين، وكلُّ ما سواه مخلوقون عبيدٌ خاضعون له.

وأيُّ دين رباني يقوم على: معرفةِ حقيقةِ الألوهية، ومعرفةِ حقيقة العبودية.

الله وحده هو الربُّ والإِلَه: لا إله إلا الله.

وكلُّ ما سواه له عبد، خاضعٌ مستسلم له، يتلقى الأوامرَ

والواجباتِ والأحكامَ منه، وعليه واجبُ الالتزام والتنفيذ، ليحقق عبوديتَه لله رب العالمين.

ولهذا قال نوح لقومه ـ وقاله كلّ نبي لقومه ـ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

ورسالةُ نوح ودعوتُه عليه السلام من حيث العقيدة، هي رسالةُ كل نبي، في الدعوةِ إلى الإيمان بالله وتوحيده، وإفرادِه بالعبادة والخضوع والطاعة، وفي تعريفهم على صفاتِ الله وأفعاله، وفي الإيمان بالبعثِ والحساب، والجنة والنار، وفي تعريفهم ما خلقَ اللَّهُ من حولهم من الملائكة والجن، والسماوات والأرض، والشمس والقمر.

موضوع رسالة نوح العقيدي:

قال تعالى عن موضوع رسالتهِ الإيمانية والعقيدية، مخبراً عن مخاطبته لقومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح: ١٠ ـ ٢٠].

والدليلُ على أن موضوعاتِ العقيدة واحدةٌ في كل رسالة، وعند كل رسول، قولُه تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: ١٣].

ومن هذا الباب أخبرَنا رسولُ الله ﷺ أن نوحاً عليه الصلاة والسلام أنذرَ قومَه الدجال.

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: «قامَ رسولُ الله ﷺ في الناس، فأثنى على الناس بما هو أهلُه. ثم ذكرَ الدجال فقال: إني لأنذرُكموه، وما من نبي إلا أنذره قومَه، لقد أنذرَ نوحٌ قومَه، ولكني أقولُ لكم فيه قولاً لم يقلْه نبيٌّ لقومه، تعلمون أنه أعور، وأن اللَّهَ ليسَ بأعور..»[1].

إنَّ ظهورَ الدجال في آخر الزمان من مسائل العقيدة، وبما أن العقيدةَ واحدةٌ عند جميع الرسل، فقدْ أنذرَ كل نبي قومه الدجال، وحذرهم منه، وما ذلك إلا لعظم فتنته.

ولذلك أنذرَ نوحٌ عليه السلام قومَه المسيحَ الدجال.

[٦]

أساليب نوح في الدعوة

نوح يستخدم مختلف الأساليب في الدعوة:

قام نوحٌ عليه السلام بواجبه في دعوةِ قومه إلى عبادةِ الله وحده، وبلَّغهم الدعوةَ كما أمره الله.

وقد سلكَ معهم مختلفَ الأساليبِ والوسائلِ في الدعوة، بهدفِ إقناعِهم والتأثير فيهم، ليتخلوا عن الباطل، ويتبعوا الحق.

فمن أسلوبِ الترغيب، إلى أسلوب التحبيب، إلى أسلوب الترهيب، إلى أسلوب البرهان، إلى الدعوة السرية، إلى الدعوة العلنية، إلى الدعوة في الليل، إلى الدعوة في النهار.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٣٧. ومسلم برقم: ١٩٦.
وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٤٩.

ها هو يتحببُ إليهم في قوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ هو تقربٌ منه لهم وتحبُّب، ليَقبلوا دعوته.

وهو أخوهم المشفقُ عليهم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الشعراء: ١٠٦].

وها هو يصارحُهم بإشفاقِه عليهم، وحرصِه على مصلحتهم، وخوفِه من وقوعِ العذابِ بهم إن استمرّوا على كفرهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ [هود: ٢٥ ـ ٢٦].

وهو يرغِّبهم بنيْلِ الخير والبركة إن استجابوا لدعوته: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢].

وهو يبينُ لهم ثمرةَ استجابتهم لدعوته: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ [نوح: ٣ ـ ٤].

أما عن توظيفِه لأحسنِ الأوقات في الدعوة، وتخيُّرِه لأوقات التأثير فيهم، فيخبرُ عنها عليه السلام، في تقريرِهِ بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾﴾. [نوح: ٥]

وبقوله: ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾ [نوح: ٨ ـ ٩].

إنه داعيةٌ إلى الله، يدعوهم في مختلف الأوقات، يَدْعُوهُم في

ساعات الليل، وساعات النهار ويتخيّر من هذه الساعات والأوقات ما كان أكثرَ تأثيراً في نفوسهم: ﴿دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾.

دعوته ألف سنة إلا خمسين عاماً:

ويدعوهم بمختلف الأساليب، يدعوهم الدعوةَ الجهريةَ الجماهيرية العامة على المستوى الاجتماعي، في المؤتمرات واللقاءات: ﴿دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾.

ويدعوهم الدعوةَ العلنية على المستوى الأقلّ والأضيق من الدعوة الجهرية: ﴿إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ﴾.

ويدعوهم الدعوةَ السرية الخاصة، في اللقاءاتِ الفردية الجانبية السرية الخفية: ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾.

واستغرقت هذه الأساليبُ الثلاثةُ ـ الجهر، والعلن، والسر ـ وقتَه كله، في ليله ونهاره!!.

كم شهراً استمرَّ على الدعوةِ بهذه الأساليب والأوقات؟ وكم سنةً استمر على ذلك؟ هل استمر شهوراً؟ أو سنوات؟ أو عشرات السنين؟.

لقد استمرَّ على هذه الأساليب الدعوية ألفَ سنةٍ إلا خمسين عاماً: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤].

إنه رسولٌ داعية، موقوفٌ على الدعوة والتبليغ، وقد أدى واجبَه طيلةَ مئات السنين، بصبرٍ وثبات، وجهادٍ ونشاط.

وهو «قدوةٌ» للدعاةِ إلى الله، الذين كلّفهم اللّهُ بواجبِ الدعوة، وتوظيفِ أعمارهم التي لا تتعدى عشراتِ السنين في أداءِ هذا الواجب.

[٧]

نوح يواجه الملأ من قومه

واجَه نوحٌ «الملأ» من قومه، الذين كانوا يقودون أَتْباعَهم الكافرين، ويوجِّهونهم لمواجهةِ نوح عليه السلام.

ظاهرة الملأ في مواجهة الرسل:

وقد أخبرتْنا آياتُ القرآن عن ظاهرةٍ عجيبة وخطيرة، في الوقوف أمام نوح عليه السلام ومحاربته، وهي ظاهرةُ «الملأ».

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾ [الأعراف: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧].

ولتسميتهم باسم «الملأ» ملحظٌ ذو دلالة.

قال الإمامُ الراغبُ في معنى «الملأ»: «الملأ: جمَاعةٌ يجتمعونَ على رأي، فيملؤون العيون رواءً ومنظراً، والنفوسَ بهاءً وجَلالاً.

... يقال: «فلانٌ مِلءُ العيون. أي: معظَّمٌ عندَ مَنْ رآه. كأنه مَلأَ عينه من رؤيته...»[1].

قومُ نوح الكفار كان لهم «ملأ» ـ وكلُّ كفارٍ لهم ملأ، يقودونهم في مواجهة الحق ـ.

وهؤلاء «الملأُ» كانوا يجتمعون على كفرهم، ويلتقونَ في جلساتِهم على التآمرِ والمكرِ ضدَّ نوح عليه السلام ورسالته، ويتفقون على أساليبِ حربه ومواجهتِه، ويَضعون خطةً إعلامية، ينفذونَها في أَتباعهم وجنودِهم وأعوانِهم.

---

(١) المفردات: ٧٧٦.

وسُمي هؤلاء «مَلأً» لأنهم كانوا يملؤون عيونَ جماهيرهم وأَتباعهم مهابةً وخوفاً، ويملؤون نفوسَ جنودهم رهبةً وإجلالاً، أي: كانوا ملءَ عيونِ ونفوسِ وقلوبِ وعقول أَتْباعهم وجنودهم. ولهذا كانوا يخافون منهم، ويَرهبونهم، ومن ثم كانوا يتبعونَهم وينفِّذون ما يطلبونَه منهم، ويجندون لهم أعواناً في رفضِ الحق، ومواجهةِ نوح عليه السلام.

هذه هي الآثارُ الخطيرةُ لظاهرة «الملأ» التي نلحظُها في قصص الأنبياء في القرآن، والتي كانت تمثلُ القيادةَ الشيطانيةَ الجاهلية لحزبِ الشيطان، في مواجهةِ الحقِّ وجنوده.

وتخبرُنا آياتُ القرآن في قصةِ نوح عليه السلام، أن هؤلاء «الملأَ» هم الذين قادوا قومَهم في مواجهته، وهم الذين أَثاروا الشبهاتِ ضدّه، وضدَّ دعوته وأَتباعه، وقدَّموا طلباتِهم له، ووجَّهوا تهديداتهم إليه.

وقد واجهَ نوحٌ عليه السلام هؤلاء «الملأ» وفندَ شبهاتِهم، ولم يستجبْ لطلباتِهم، ولم يرضخْ لتهديداتهم، وإنما تحدّاهم، وحارَبهم، واستعلى عليهم بإيمانه، متوكلاً على اللَّهِ ربه.

تفنيد شبهات الملأ في سورة الأعراف:

ماذا قال الملأُ له؟ وما هي شبهاتُهم ضدَّه؟ وماذا طلبوا منه؟ وبماذا هدّدوه؟ وكيف «تعامل» نوحٌ عليه السلام مع كلِّ هذا؟ وكيف واجَهَهم؟ وكيف «أَدارَ» الحربَ ضدهم؟.

نسير مع آيات القرآن في ذلك.

١ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن

﴿جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأعراف: ٦٠ ـ ٦٣].

الشبهاتُ التي أثاروها ضدَّه كما سجلَتْها هذه الآيات هي:

أنه في ضلالٍ مبين. فكيف يتخلى عن دينِ آبائه وأجداده؟

وقد أجابَهم بأنه ليس في ضلال، وإنما هو على هدى مبين، فهو رسولٌ لهم، أرسلَه اللَّهُ ربُّهم، ليبلِّغهم الحق، ويدعوهم إلى الخير، ويقدمَ لهم النصيحة.

وأنه رجلٌ منهم، فكيف يجعلُه اللَّهُ رسولاً لهم، وهو واحدٌ منهم، إذا كان الله سيرسل رسولاً، فلا بد أن يكونَ أحدَ الملائكة!

وقد أجابَهم بإزالةِ استغرابهم وتعجُّبهم: لقد شاءَ الله الحكيمُ أن يجعلَ رجلاً منهم نبياً، ودعاهم هذا النبيُّ إلى التَّقوى، وقدمَ لهم الإِنذار، ليؤمنوا وينالوا رحمةَ الله.

فماذا في هذا مِن تعجبٍ واستغراب؟

تفنيد شبهاتهم في سورة هود:

٢ ـ قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [هود: ٢٧ ـ ٢٩].

وقوله تعالى في نفس السورة: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [هود: ٣١].

شبهاتُهم التي أَثاروها ضده هي:

هو بشرٌ مثلُهم، وليس رسولاً من عندِ الله.

والذين اتبعوه وآمَنوا به هم أراذلُ سفهاءُ مستضعَفون.

وهؤلاء الأَراذلُ سذَّجٌ بلهاء، لا يفكرون ولا يُعملون عقولَهم، ويَتَّبعون الرأيَ الذي يبدو ويظهر، بدون تروٍّ ولا نظرٍ ولا تفكير ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾. ولذلك استغْفلَهم، و«ضحكَ عليهم».

لا فضلَ لنوح وأَتْباعه المؤمنين على القوم، وما قدموا لهم خيراً.

نتيجةً لما سبق فإن نوحاً وأَتباعَه كاذبون: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾.

ردَّ نوحٌ عليه السلام عليهم بقوله: هو رسولٌ من عند الله وهو على يقينٍ كامل، وبينةٍ قاطعة بذلك. اللَّهُ آتاه رحمةً من عنده، وهي رحمةُ النبوة والرسالة، والهداية واليقين.

هذه الرحمةُ «عُمِّيَتْ» على الملأ من قومه الكافرين، فهم «عُمْيٌ» لا يرونها.

ما هو إلا داعيةٌ ومبلِّغ ونذير، فإذا رفضوا الحق، فلن يُلزمهم إياه.

هو متجردٌ في دعوته، لا يريدُ منهم مقابلَ الدعوة مالاً ولا أجراً، لأنَّ أجْرَه وثوابَه عند الله.

وهو داعيةٌ رسولٌ بشر، وليس جامعَ مال، أو تاجرَ دعوة. فليس عنده خزائنُ المال، ولا يعلمُ الغيب، وليس مَلكاً من الملائكة.

أَتباعُه المؤمنون ذوو منزلة عالية عند الله، ولقد علمَ اللَّهُ ما في نفوسهم من صفاءٍ ونقاء، فهداهم للحق، ووعدَهم الخيرَ والثواب والنعيم، ولا يَضيرُهم عند الله أنْ تَزدريهم أعينُ الملأ الكفار، أو أنْ يعتبروهم أراذلَ بادي الرأي.

تفنيد شبهاتهم في سورتي المؤمنون والشعراء:

٣ ـ قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦)﴾ [المؤمنون: ٢٤ ـ ٢٦].

شبهاتُهم التي أثاروها هنا هي:

أنه بشرٌ مثلُهم وليس رسولاً، ولو شاءَ اللّهُ إرسالَ رسول لأنزل ملائكة.

وهو يريدُ استغلالَ الدعوة لتحصيل مكاسبَ شخصية، ونيلِ مراكزَ متقدمة، وليس صادقاً في دعوته: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾.

هو مبتدعٌ في دعوته، ولهذا فهو مدَّعٍ متقوّل، فلم يسمعوا بدعوتِه في آبائهم الأولين.

هو مجنونٌ وليس عاقلاً، فكلامُه كلام مجنون، لا يمكنُ أنْ يصدرَ عن عاقل.

على جنودهم تكذيُبه والكفر به، والتربصُ به حتى حين موتِه وزوالِ دعوته.

فردَّ نوحٌ عليه السلام على كل ذلك بتوجُّهه إلى الله واستنصارهِ عليهم.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣)﴾ [الشعراء: ١١١ ـ ١١٣].

في هذه الآياتِ علَّلَ الملأُ من قومه سببَ كفرِهم به، وعدمِ اتباعهم له أنَّ أتباعه هم الأرذلون عندهم، هم ضعفاؤُهم وعبيدُهم،

فكيف يكونون مع الأدنى والأقلّ والأرذل في دعوةٍ واحدة أو مجلسٍ واحد؟

فردَّ عليهم بأنه لا يعلمُ عن جنوده وأَتْباعِه إلا أنهم أَطهارٌ أَنْقياء، عرفوا الحق، فاتَّبعوه، وحسابُهم على الله، فهو أعلمُ بما في قلوبهم، وأَعلمُ بنفوسِهم ونياتِهم.

ومن خلالِ هذه المواضع الأربعة التي سجلَتْ شبهاتِ الملأ الكفار من قومه، وردَّ نوح عليها - في سور: الأعراف، وهود، والمؤمنون، والشعراء - نرى أَنها الشبهاتُ نفسُها التي أَثارها كلُّ ملأ من الكفار، ضدَّ نبيهم ودعوتِه.

كما نرى أنَّ الملأَ الكفارَ أَرادوا بهذه الشبهات توجيهَ حربٍ إعلاميةٍ دعائية ضدَّ نوح عليه السلام ودعوتِه، بهدف الوقوف أمامه، لوقف انتشارِ دعوته. وهي شبهاتٌ متهافتةٌ ساقطة، لا تقومُ على منطق، ولا تعتمدُ على حجة، ونرى الردَّ العلميَّ، والنقضَ الموضوعي، والإجابةَ اليقينية، في التي قامَ بها نوحٌ عليه السلام، وهكذا منطقُ الحق والإِيمانِ في وضوحه وظهورِه وإقناعه.

رد نوح على طلبات الملأ:

أَما ما طلَبَه الملأُ من قومه منه فهو ما سجلَتْه الآيات:

١ - طلبوا منه أنْ يطردَ أَتْباعه المؤمنين، الذين هم في نظرهم أراذلُ سفهاء، وقد رفضَ عليه السلام ذلك الطلب، فمَنْ ينصُرُه من الله إن استجابَ لطلب الملأ، وطردَهم:

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۝ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣٠﴾ [هود: ٢٩ - ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١٤ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝١١٥﴾ [الشعراء: ١١٤ ـ ١١٥].

٢ ـ اعترفوا بأنه جادلهم، وأكثرَ جدالَهم، وأنه أفحمهم وأقامَ عليهم الحجة، ومع ذلك فلن يستجيبوا له، ولن يتبعوه.

وطلبوا منه أنْ يوقعَ بهم العذابَ الذي يَعدُهم به، ويرهِّبُهم منه.

فردَّ عليهم بأنَّ أمْرَ العذاب بيدِ الله لا بيده هو، ويوقعُه اللّهُ بهم متى شاء، وهم لا يُعْجِزونَ الله. أما هو فما هو إلا ناصحٌ لهم، ولكنَّ نصْحَه لن ينفعهم طالما اختاروا صَمَّ آذانِهم وإقفالَ قلوبهم:

قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣٢ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٣٣ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٣٤﴾ [هود: ٣٢ ـ ٣٤].

[٨]
عناد قومه وإصرارهم على تكذيبه

أصرَّ قومُ نوح على كفرِهم وعنادِهم، ورفضوا دعوتَه، وكلما زادَ إقبالاً عليهم ودعوةً لهم، وتلطفاً وتحبباً وتقرُّباً إليهم، زادوا كفراً وعناداً، وازدادوا تكذيباً له، وفِراراً منه.

نوح يقدم تقريره لربه عن دعوته:

ولهذا قالَ نوحٌ عليه السلام في تقريره الذي قدَّمه عن دعوتِه، وموقفِ قومه منه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟

ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾ [نوح: ٥ ـ ٩].

هو عليه السلام دعاهم: ليلاً ونهاراً، ودَعاهم جِهاراً وأعلَنَ لهم، وأسرَّ لهم إِسراراً.

هم ماذا كان موقفُهم؟: لم تزدْهُم دعوتُه إِلا فِراراً منه، وفِراراً من الحق الذي معه، وفِراراً من الهدى والنور والإِيمان، وفِراراً من رحمة الله ومغفرته وفضله ونعيمه!.

«فِراراً» إلى أين؟: إِلى الشيطان والعذاب والنار، فرار إلى الظلمات والضياع والمعاصي، فرار إلى غضبِ الله ولعنته!

ألَيس هذا هو فعْلَ الكفار في كلّ زمان ومكان؟ أليس هذا هو موقفَهم من دعوة الحق؟ أليس هذا هو فرارهم الدائم من النور والهدى؟

حركاتهم الانفعالية صادرة عن العقد النفسية:

وعندما كان نوحٌ عليه السلام يدعوهم إلى مغفرةِ الله ورحمته، وعندما كانوا يشاهِدونه بعيونهم، ويسمعونَه بآذانهم، كانوا يتصرفون تصرُّفاتِ «مُتَشَنِّجَة»، صادرةً عن نفسياتٍ معقَّدة: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾.

إنهم يجعلون أصابعَهم ـ وليس أطرافَ أصابعهم ـ في آذانهم، حتى لا يسمعوا صوتَه الواضح، ومنطقَه المقنع، وبرهانَه الساطع.

وعندما يشاهدونه يستَغْشون ثيابَهم. أي: يُغطّون عيونَهم ووجوههم بثيابهم، وذلك حتى لا يشاهدوه ولا يبصروه.

إنها حركاتٌ «مضحكة» وأنت تضحكُ سخريةً بهؤلاء الملأ الذين يضعون أصابعهم في آذانهم، ونوحٌ يخاطبهم، كما أنك تضحكُ سخريةً

بهؤلاء الذين يكونون عاديين هادئين، فإذا ما شاهدوا نوحاً، توتَّروا وانفعلوا، وغطّوا عيونَهم بثيابهم.

لقد أصرّوا على كفرهم وعنادهم، وحملَهم على ذلك استكبارُهم﴿وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾.

وقد عصى الكفارُ في قوم نوحٍ رسولَهم عليه الصلاة والسلام، وكفروا به، واتبعوا الملأ القادةَ فيهم، وساروا مع الشيطان: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١].

وقد مكر الملأُ المعاندون من قومه به وبدعوته، يكفيك تصوُّرُ خطورةِ ذلك المكر والكيد قولُ الله عنه: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ [نوح: ٢٢] والكُبَّارُ أبلغُ من الكبير.

هيجوا أتباعهم ضده:

ولجأ الملأُ الماكرون إلى أَتْبَاعهم، واستثاروا فيهم الحميةَ الدينية، ووظَّفوها وسيلةً لتهييجهم ضدَّ نوح عليه السلام، وهذا مبالغةٌ منهم في كيدِهم ومكرِهم: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

قالوا لجَماهِيرِهم وأَتباعهم: إنَّ نوحاً خطيرٌ عليكم وعلى دينكم، فلا تستجيبوا له، وإنَّ آلهتكم في خطرٍ مباشرٍ منه، ومن جنوده ودعوته، فواجِهوهُ وحارِبوه، ولا تَتركوا آلهتكم، لا تَذروها، ولا تتخلّوا عن عِبادتها، إنها الآلهةُ التي عبدَها آباؤكم وأجدادكم، الذين تحبونهم، وتَفخرونَ بالانتساب لهم، والتي أنتم تعبدونَها من بعدهم!

لا تَذروا ولا تتركوا هذه الآلهةَ الخمسة: وَدّ، وسُواع، ويَغوث، ويَعوق، ونَسْر.

وهكذا هيَّجَ الملأُ أتباعَهم ضدَّ نوحٍ ودعوتِه، وبلَغوا النهايةَ في العنادِ والإِصرار، والكفرِ والتكذيب، والمكر والكيد، والحربِ والمواجهة.

وواجه نوحٌ عليه السلام كلَّ هذا بإيمانٍ وثبات، وصبرٍ واحتساب، ودعوةٍ ومواجهة، وتحدٍّ وجهاد.

ولا ننسى أن هذه المواجهةَ الحادةَ بينه وبينهم، استمرتْ «ألفَ سنة إلا خمسين عاماً»!!!.

[٩]

حصيلة دعوته

استمرَّ نوحٌ علَيه الصلاةُ والسلام يدعو قومه إلى الله: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾.

وكان يدعوهم في كلِّ الأوقات: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾.

وقد أقامَ عليهم الحجة، وأكثرَ من تقديم الأدلة والبراهين لهم، وجادَلهم فأكثرَ جدالَهم: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾.

ولكنهم لم يستجيبوا له، وعصَوْا أَمْره، واتبعوا الشياطين: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾.

لم يؤمن معه إلا قليل:

لم يؤمنْ بنوح إلا عددٌ قليل من قومه. قال الله عنهم: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

هذا العددُ القليلُ من المؤمنين «مُبْهَم» في القرآن، فلم يحدد القرآنُ عدَدَهم، ولم يبيّن أَسماءَهم.

كذلك لم يحدد الرسولُ ﷺ أعدادَهم ولا أسماءَهم، ولم يسألْ أحدٌ من الصحابة الكرام الرسولَ ﷺ عن ذلك، وأَخذوا النص القرآني على إجماله، وتعاملوا مع العدد على إبهامه، ولم يُشغلوا أنفسهم فيما لا فائدةَ منه، والتفتوا إلى العبرةِ والعظة المستفادةِ من المسألة.

لهذا نقتدي نحنُ بالصحابة عليهم الرضوان في ذلك. ونُبقي العددَ على إبهامه، ولا نخوضُ في هذا العددِ القليلِ من المؤمنين، ولا نذهبُ إلى الإسرائيليات والأساطير، طالبين منها تحديدَ العدد، أو تعيينَ الأسماء، أو بيانَ درجة قرابتهم لنوح عليه السلام.

موقف عائلته من دعوته:

نقفُ مع القرآن في ما عرضَه عن أحوالِ عائلةِ نوح عليه السلام:

نوحٌ عليه السلام نبي رسول، وهو إمام المؤمنين.

والدا نوح عليه السلام مؤمنان صالحان، بدليل دعاءِ نوح لهما بالمغفرة: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح: ٢٨] فلو لم يكونا مؤمنينْ به لما دعا لهما بالمغفرة.

امرأةُ نوح: كافرة. بدليل قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: ١٠].

والمرادُ بخيانةِ امرأة نوح له، الخيانةُ في الدين، حيث اختارت الكفر، رغم أنها امرأةُ نبي رسول، وهي معه في بيته.

ولا يُرادُ بالخيانة هنا الخيانةُ في العِرْض، أو ارتكابُ فاحشةِ

الزنا، ففراشُ الأنبياء طاهر، لم تلوِّثه امرأةُ أحدهم بالزنا، ولم يطأ فراشَ النبي أو امرأتَه أحدٌ غيرُه.

قد تكفرُ امرأةُ النبي، أَما أنْ تزنيَ فلا!.

أحدُ أبناء نوح كافرٌ بنص القرآن، وهو الذي رفضَ أنْ يركبَ معه السفينة، فأغرَقه اللّهُ بالموج. ولما سألَ نوحٌ ربَّه عن ابنه، قال الله له: ﴿يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٦].

أما أحوال باقي عائلةِ نوح، فهي مبهمةٌ في القرآن، لا نعرفُ هل كانوا مؤمنين أو كافرين.

وبما أنَّ القرآنَ والسنةَ أَبهما أسماءَ والدَيْه وامرأتِه وابنِه، فلا يمكننا تحديدُ هذه الأسماء، ولا نأخذُ ذلك من الإِسرائيليات.

الأكثرية ضالة والأقلية مهتدية:

بقيَ أن نقول: ما دلالةُ هذا القليلِ الذي آمن بنوح عليه السلام؟.

إنه يدلُّ ـ من جملة ما يدلُّ عليه ـ على أن الأكثريةَ من الناس تتبعُ الباطلَ دائماً، وتسيرُ مع الشيطان، وترفضُ الحق. وأنَّ أنصارَ الحق دائماً قليلون من حيث العدد، وأنَّ هذه القلةَ المباركة هي المؤثرةُ في الحياة، المقدمةُ عند الله.

وقد قررتْ آياتُ القرآن هذه الحقيقة.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

ونقف لنتساءل: هل قصَّرَ نوحٌ عليه السلام في الدعوة، ولم ينجحْ في تقديمها وعرضها، حتى كانت الحصيلةُ بعد حوالي ألف سنة هذا العددَ القليل؟ هل كان فاشلاً في الدعوة؟

كلاّ، لقد كان داعيةً ناجحاً موفَّقاً، قامَ بالدعوة، وأحسنَ عرْضَها، والدفاعَ عنها، والاحتجاجَ لها، واستمرَّ على هذا حوالي ألف سنة، لكنَّ القومَ أصرّوا على كفرهم، فماذا يمكنُ أنْ يفعلَ لهم؟ هل يمكنُ أن يُكرهَهم على الإيمان؟

لقد كانَ صريحاً في تقريرِ هذا المعنى لهم: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴿٢٨﴾﴾ [هود: ٢٨].

و: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴿٣٤﴾﴾ [هود: ٣٤].

ولقد قررتْ آياتُ القرآن تسليةَ نوح ومواساتَه من ربه، على ما لقيَ من كفرٍ وصدودِ قومِه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴿٣٦﴾﴾ [هود: ٣٦].

[١٠]

نوح يتحدى قومه

واجهَ الملأُ الكفارُ نوحاً عليه السلام، وطلَبوا منه إيقاعَ العذابِ بهم: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴿٣٢﴾﴾ [هود: ٣٢].

كما طلبوا منه طرْدَ أتباعِه المؤمنين المستضعَفين، فرفضَ طلبهم بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴿١١٤﴾إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الشعراء: ١١٤ - ١١٥].

قومه يعاملونه بالعنف والتهديد:

أمامَ تحدّيه لهم، ورفْضِه لطلباتِهم الجائرة، وثباتِه على دعوته، هدَّدوه بالرجم، ولجأوا إلى العنف، فلم يخَفْ ولم يتراجَعْ، بل ثبتَ

على الحق، واستنصرَ بالله، وطلبَ منه الفتح والنصر. قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦ ـ ١١٨].

لئن لم تنتهِ يا نوحُ لتكوننَّ من المرجومين: إذا لم تتوقَّفْ يا نوحُ عن الدعوة، سنرجمُك بالحجارة. عليكَ أن تتخلى عن دعوتك، وأنْ تتركَ ما أنتَ عليه، وأنْ تسكتَ عن ما تقوله لنا، وأنْ تنتهيَ عن اتصالك بالناس، وعن التبشيرِ بدينك، وعن الكلامِ عن ديننا وآلهتنا...

عليكَ أنْ تنتهيَ عن كل ذلك. فإن لم تفعلْ فسنرجمُك ونعذبُك، ونؤذيك ونضطهدُك...

هذا هو المنطقُ الذي يجيدُه الملأُ الكفار من قومه ـ والذي يجيدُه كلُّ ملأ في كل زمان ومكان ـ، وهذه هي اللغةُ التي يُحسنونها، وهذا هو الأسلوب الذي يُتقنونه، والسلاحُ الذي يلجأون إليه.

لقد جادَلَهم نوح فخسروا الجدال، وناقَشَهم فخسروا النقاش، وعرضَ دعوتَه بحجةٍ ومنطق وبرهان، وهم لا يملكون حجةً ولا منطقاً ولا برهاناً، ولهذا خسروا في هذا الميدان، وانهزموا أمامَ نوحٍ عليه السلام.

إِنهم لا يجيدون إلا العنفَ والتعذيب، والتهديدَ والاضطهاد، واللجوءَ إلى القوة والبطش. وهذا دليلُ الهزيمةِ والخسارة.

كيفَ تعاملَ نوحٌ عليه السلام مع تهديدِهم وإنذارِهم؟ إنه لم يضعفْ، ولم يجبن، ولم يستسلمْ، ولم يتنازلْ، ولم ينْتَهِ، ولم يتوقَّفْ.

نوح يواجههم بالتحدي والثبات:

لقد واجهَ تهديدَهم بتحَدٍّ وثَبات، وعزمٍ واستعلاء.

قال تعالى: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ

وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس: ٧١ ـ ٧٢].

قال نوحٌ لقومه: يا قوم، إنْ كانَ عظُمَ عليكم كلامي، وشقَّ عليكم قيامي بالدعوة إلى الله، مما دفعكم إلى تهديدي، فلن أتخلى عن الحق، ولنْ أنتهيَ عن الدعوة، ولنْ أتوقفَ عن الكلام، ولنْ أسكتَ عن التذكيرِ بآيات الله.

إنني أَتحدّاكم، وأواجهُكم، وأَقفُ أمامكم، أنا واحدٌ أمامكم، وأنتم «مَلأٌ» جميع، واجِهوني وحارِبوني، أَجْمِعوا أمركم، وأَحْضِروا أفكارَكم، وجَمِّعوا أسلحَتِكم ومكائدَكم ومؤامراتكم، ووظِّفوا كيدَكم ومكرَكم ولؤمَكم، واجْمَعوا شركاءَكم، واستَعينوا بأعوانكم، واستعدّوا استعداداً تاماً لمواجهتي وحربي.

وعندما تنتهونَ من جمعِكم وحشدِكم وتجميعِكم، أعْلِنوا الحربَ عليّ، واقضوا إليّ، واهجموا عليّ، فجأةً وبدون إعلام ولا إخبار، ولا إنـظـارٍ ولا إمـهـال: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾.

ما هـو السرُّ في قـوةِ نـوح عـليـه السـلام، الـذي دفعه إلى هـذا التحدي، وهذه الثقة؟

إنه في قـولـه لـهـم: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾! لقد تـوكَّلَ عـلى الله، واعتمدَ عليه، واستعانَ به، واطمأنَّ إليه، واستنصرَه.

هـذا هـو مـصـدرُ قـوةِ نـوح عـليـه الـسـلام، الـتـي دفـعَـتْـه إلـى هـذا الموقف، وهذا هو استعلاءُ الإِيمان، والتوكلُ على الله.

وهذا درسٌ إيمانيٌ دعوي، لكلِّ داعيةٍ يقتدي بنوحٍ عليه السلام.

[١١]

نوح يصنع السفينة

صنعه السفينة بعد كفر قومه:

عند هذه المرحلةِ من مراحل المواجهةِ بين نوح عليه السلام وبين قومه، أمره اللّهُ أن يصنعَ السفينة، انتظاراً للفرج والنصرِ من الله.

قال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [هود: ٣٦ ـ ٣٩].

لقد انتهت الفرصةُ الممنوحةُ لهم للإيمان، لأنهم لم يستفيدوا منها ولم ينتهزوها، وماذا يريدون فرصةً أطولَ من ألفِ سنة إلا خمسين عاماً؟

وعلمَ اللّهُ أن هؤلاء العتاةَ الكفارَ لن يؤمنوا، ولهذا قال لنوحٍ عليه السلام: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾.

لقد انتهى الأمر، وأُغلق الباب، آمَنَ مَنْ آمَن، واستفادَ وفاز، وكفَرَ مَنْ كفر، وخابَ بذلك وخسر.

عند ذلك دعا نوحٌ على قومه الكفار: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٦ ـ ٢٧].

طالما أصرّوا على كفرهم، وطالما أخبره اللّهُ أنهم لن يؤمنوا،

إذن فليدْعُ عليهم بالهلاك: ربِّ لا تتركْ واحداً منهم حياً، ولا تدَعْ على أهل الأرض منهم ساكناً في بيتٍ أو دار.

والدّيّار ـ هو: الساكنُ الذي يسكن في الدار.

إنهم ضالون في نفسهم، مضلّون لغيرهم، فاسِدون في فطرتهم، فهم حريصون على إضلالِ الناس: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ﴾.

وهم يتواصون على الكفر والفجور، ويقيمونَ أُسَرَهم عليه، وينَشِّئون أولادهم عليه: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾.

دعا نوحٌ عليه السلام ربه عليهم، وانتظرَ أمْرَ الله في الاستجابة لدعوته، وإيقاعِ العذابِ والدمار بهم.

فأمره اللّهُ أنْ يصنعَ السفينة: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾.

و ﴿ٱلْفُلْكَ﴾ هو السفينة، ويُطلقُ على الواحد والجمع.

فمن إطلاقِه على السفينةِ قوله تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾. ومن إطلاقِه على الجمع قولُه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ [النحل: ١٤].

وصار نوحٌ عليه السلام يصنعُ السفينةَ بأمر الله ووحْيِه، وبعينه ورعايته وحفظه.

قومه يسخرون منه وهو يسخر منهم:

وصارَ الملأُ من قومه يمرّون عليه، ويشاهدونه وهو يصنعُ السفينة، ويستغربون، لماذا يصنعُ السفينة؟ وهل تخلى عن النبوة ليصبحَ نجاراً صانعاً للسفن؟ وما دخْلُ السفينةِ في الدعوة؟

وأخبرهم أن اللّهَ سيُغرقهم، وسيُنجيه هو وأتباعُه في السفينة:

﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾.

عندها صاروا يسخَرون منه، ويتهكَّمون عليه: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ﴾.

وكان نوحٌ عليه السلام يجيبهم: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾.

أنتم تَسخرون منا الآن، ولكننا نسخرُ منكم الآن، ونُشفقُ عليكم، ونأسىٰ لحالكم، بسبب كفركم وضلالكم.

وإننا سنسخرُ منكم في المستقبل، عندما يقعُ بكم العذاب، وتَغرقون بالطوفان، ويُنجينا الله في السفينة. عند ذلك تعلمون: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

وصنعَ نوحٌ السفينة، كما أمره الله، وبعدما انتهى من صنعها انتظرَ الخطوةَ التالية من المواجهةِ بينه وبين قومه، حسب ما يريدُ الله، وحسبَ ما يوجهه إليها الله.

مبهمات تتعلق بسفينة نوح:

وكلُّ ما يتعلقُ بالسفينة مبهم في الكتاب والسنة، لم تبينْه ولم تفصِّله الآياتُ والأحاديثُ الصحيحة، ولا نذهبُ إلى الإسرائيليات والأساطير في محاولةِ تبيينِها.

ما نوعُ الخشب الذي صَنع منه السفينة؟ ومن أين قَطَعَ ذلك الخشب؟ وأين كان يقيم وهو يصنعُ السفينة؟ وكيف قَطعَ ألواح الخشب وركَّب منها السفينة؟ وما مساحةُ تلك السفينة؟ وكم كان طولُها وعرضُها وارتفاعُها؟ وماذا كان شكلُها؟...

كلُّ هذه الأسئلةِ وغيرِها، عليها إجاباتٌ في الأساطير والإسرائيليات، لكن لا جوابَ عليها عندنا، ولا يضرنا عدمُ العلم بها، فلا تُضيفُ لنا علماً، ولا تُقدمُ لنا عبرةً أو عظة.

لا نجدُ وصْفاً لسفينة نوح عليه السلام إلا في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ [القمر: ١٣].

والدُّسُر هي المسامير.

قال الإمام الراغب في المفردات: «الدُّسُر: المسامير، والواحد دَسار. وأصْلُ الدَّسْرِ: الدَّفْعُ الشديد بقهر. يقال: دَسَرَهُ بالرمح»[1].

أي أنها سفينة ذاتُ ألواحٍ خشبية، وذاتُ مسامير تُثبتُ تلك الألواحَ بعضها ببعض.

[١٢]

نوح يستنصر ربه

نوح يستنصر ربه بعد بذل جهده:

لجأ نوحٌ عليه السلام إلى ربه، ودعا على قومه، واستنصرَ به، وطلبَ منه أن ينصرَه عليهم، وأنْ يفتحَ بينه وبينهم، وأنْ يدمرهم ويهلكَهم، وأنْ يُنجيه مع أتباعِه المؤمنين.

وكان هذا بعدَ أنْ أدّى كلَّ ما عليه، وبعدما استنفدَ طاقتَه ووُسْعَه، وبعد أنْ مكثَ يدعوهم حوالي ألف سنة.

وقد سجلتْ آياتُ القرآن لجوءَ نوحٍ إلى ربه، واستنصارَه به.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦ ـ ٢٧].

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [الشعراء: ١١٧ ـ ١١٨].

---

(١) المفردات: ٣١٤.

يطلبُ نوحٌ عليه السلام من ربه أنْ يفتحَ بينه وبين قومه، أي يفصلَ الأمرَ بينه وبينهم، ويُنهي النزاع، ويحسمَ المسألة، بأنْ يدمرَ الكفار، وينصرَ المؤمنين.

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴿٢٦﴾﴾ [المؤمنون: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴿٧٦﴾﴾ [الصافات: ٧٥ ـ ٧٦].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ٩ ـ ١٤].

طلبَ نوحٌ من ربه أنْ ينصره بسببِ تكذيبِ قومه له. ونادى نوحٌ ربَّه، ملتجئاً إليه، مستنصراً به، فأجابَه الله ونصره، وهو نعمَ المجيب، ونَجّاه وأهلَه المؤمنين من الكرب العظيم، وهو كيدُ ومكْرُ قومهم الكافرين.

قومه يزدجرونه:

لقد كذَّبَ الملأُ الكفارُ نوحاً عليه السلام، واتَّهموه بالجنون، وهو النبيُّ الكريمُ الصادقُ الأمين، بل لقد زجروه وطردوه ومنعوه.

قال الإمام الراغب في معنى: «ازْدُجِر»: «ازْدُجِر: أي: طُرِد. واستعمالُ الزجْرِ فيه لصياحِهم بالمطرود، نحو أنْ يقولوا له: اغْرُب، وتَنَحَّ»[1].

---

(١) المفردات: ٣٧٨.

أَمامَ هذا التكذيبِ والاتهام والزجر والطرد لجأَ نوحٌ إلى ربه، معلناً أنه مغلوبٌ أمامهم: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾.

لقد أَدى ما عليه، والقومُ قد غلبوه، ومع ذلك لم يتخلَّ عن الحق، ولم يتوقَّفْ عن الدعوة. والباقي على الله، فاللّهُ هو الذي يتولى الحكمَ والفصلَ والقضاء، وبيده النصر.

﴿فَٱنتَصِرْ﴾: انتصِرْ يا ربِّ لرسولك الذي كذَّبوه، وانْتَصِر لدينك الذي حاربوه، وانتصِرْ لأوليائك الذين اضطهدوهم، وانتصِرْ للحق الذي أنكروه.

انتصِرْ لنا يا ربَّنا من هؤلاء، وأنصِفْنا منهم، وانصُرْنا عليهم، واجعَلْهم مغلوبين مهزومين معذَّبين.

[١٣]

فوران التنور والطوفان

استجابَ اللّهُ دعاءَ ونداءَ نوح عليه السلام، وسمعَ استنصارَه به، فنصَرَه ونجّاه، وأوقعَ بأسَه وعذابه بالكفار، فكان الطوفان.

كان نوحٌ عليه السلام ينتظرُ علامةَ بدءِ الطوفان، كما أمره الله، فقد صنعَ السفينةَ وصار ينتظرُ العلامة، وأَتباعُه المؤمنون جاهِزون منتظرون، والكفارُ غافلون لاهون ساخرون.

بدء الطوفان بفوران التنور:

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [هود: ٤٠ ـ ٤١].

وقال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ [القمر: ١٠ ـ ١٣].

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المؤمنون: ٢٦ ـ ٢٨].

وكانت علامةُ بدءِ الطوفان فورانَ الماء من التنور: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ﴾.

إنَّ أمْرَ الله يجيءُ عند فورانِ التنور، ومجيءُ أمرِ الله هو قضاءُ الله بإغراقِ القوم الكافرين، وأَمْرُه سبحانه ـ الذي هو بين الكاف والنون ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ـ للماءِ أنْ يفور من التنور، وللطوفانِ أنْ يبدأَ على القوم.

والتّنّور هو: الفرنُ الذي يُخْبَزُ فيه، وسمّي «تَنوراً» لأنَّ النارَ تكون موقدةً مشتعلةً فيه.

وحكمةُ الله بالغةٌ في جعْل علامةِ الطوفان فورانَ الماء من التنور. لأن المعروفَ عند الناس أن الماءَ يطفيءُ النار، فعندما تشتعلُ النارُ في شيء يقومون بسَكْبِ الماء عليها لإطفائها. فكيف يفورُ هذا الماءُ من وسطِ التّنور الموقَدِ بالنار؟ وكيف يلتقي الماءُ مع النار وسطَ التنور؟

إنه لا قدرةَ لهؤلاء الكافرين على إطفاءِ نار التنور بالماء، كما أنه لا قدرةَ لهم على إيقافِ تدفقِ الماء وفورانِه من وسط التنور. لقد جاءهم أمرُ الله، ولا رادّ لأمْرِه سبحانه.

وبعدما فارَ الماءُ من وسط التنور، امتدَّ هذا الفورانُ ليشمل باقي المناطق على وجْهِ الأرض، وفجَّرَ اللّٰهُ وجهَ الأرض عيوناً فوارةً بالماء الغزير: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾. وتحول وجهَ الأرض إلى عيونٍ تفورُ بالماء، والتقى الماءُ المتفجرُ من تلك العيون بعضُه مع بعض، وامتلأَ وجهُ الأرض بالماء!.

ثم أمرَ اللّٰهُ السماءَ أن ترسلَ الماءَ منها مدراراً إلى وجه الأرض: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾، وكأنَّ السماءَ تحولَتْ إلى أبوابٍ واسعة عريضة، ينهمرُ منها الماء، ويتوجَّهُ إلى الأرض، ليلتقي مع ذلك الماء المتفجر من العيون!!.

وهكذا بدأَ الطوفان، وجْهُ الأرض كلُّه عيونٌ متفجرةٌ بالماء الغزير، والسماءُ كلُّها أبوابٌ يهطلُ منها الماءُ المنهمر، والتقى على قومِ نوح الكافرين ماءُ السماء وماء الأرض، وارتفعَ الماء عليهم، وصارَ يعلو ويعلو، حتى أَصبحَ أمواجاً كالجبال: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾.

أمرَ اللّٰهُ نوحاً عليه السلام من قبل، أن يجهزَ ركابَ السفينة، وأنْ يُعدَّهم ويهيئَهم لركوبها، فإذا ما بدأَ الطوفان، وفارَ الماء من التنّور فعليهم أن يدخلوا السفينة فوراً.

حمولة السفينة من المؤمنين فقط:

أما حمولةُ السفينة من المؤمنين وباقي المخلوقاتِ الحية، فقد أشارَ لها قولُه تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ﴾.

الذين كانوا في السفينة هم المؤمنون، ولن يدخلْها إنسانٌ كافر. وهؤلاء المؤمنون قسمان:

الأول: أهلُ نوح المؤمنون. والمرادُ بهم أهلُ بيته الذين آمنوا به واتّبعوه: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾.

وتدلُّنا هذه الجملة على أن أهلَ نوح عليه السلام، وأفرادَ أسرته كانوا فريقين:

فريقٌ آمنوا به، ولا نعرفُ عددَ هؤلاء، ولا أسماءَهم، ولا درجةَ قرابتهم له، فلا نعرفُ كم ذَكَراً من أهله آمَنَ به، ولا كم أنثى آمنت به.

وفريقٌ آخر كفروا به، ولا نعرفُ عددَ هؤلاء، ولا أسماءَهم. لكننا نجزم بما أخبرَنا عنه القرآنُ، باثنين منهم. وهم: امرأتُه الكافرة، وابنُه الكافر، ولا نعرفُ اسميْهما، لأنه من مبهماتِ القرآن.

الثاني: المؤمنون من غيرِ أقاربِ وأهل نوح، وكانوا من قومه الذين أُرسلَ إليهم.

ولا نعرفُ عددَ هؤلاء المؤمنين من قومه، ولا أسماءهم، كلُّ ما أخبرنا عنه القرآن، أنهم كانوا قليلين في العدد، بالقياس إلى عددِ قومِهِ الكفار: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

وحمولة السفينة من غير البشر المؤمنين، يشيرُ لها قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾.

وزوجين اثنين من كل المخلوقات الحية:

والتنوينُ في كلمة ﴿كلٍّ﴾ عِوَضٌ عن مضاف إليه محذوف، ويسميه علماء النحو «تنوينَ العِوَض». والتقدير: من كلِّ مخلوقٍ حي زوجيْن اثنيْن.

وكلمةُ ﴿كلٍّ﴾ تدل على الشمول والعموم.

وتدلُّنا جملةُ ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أن نوحاً أخذَ معه في السفينة، زوجيْن اثنيْن من كل المخلوقات الحية، على إطلاقِها، من فصائلِ الحيواناتِ والحشرات والزواحف والطيور.

والمرادُ بالزوجين: الذكرُ والأنثى من كل صنف، كالجملِ والناقة، والبقرةِ والثور، والتيسِ والشاة، والدجاجةِ والديك، وهكذا.

ولعلَّ الحكمةَ من ذلك أن الطوفانَ الذي بدأ، سيقضي على كلِّ المخلوقات الحية على وجْهِ الأرض، وسيزيلُ كلَّ مظاهر الحياة عليها، فأمرَ اللَّهُ نوحاً عليه السلام أنْ يأخذَ معه هذه الأزواج من كل الأحياء، وذلك لاستئنافِ الحياة على الأرض، بعد انتهاء الطوفان.

[١٤]

بين نوح وبين ابنه الغريق

ركبَ نوحٌ عليه السلام والمؤمنون السفينة، وحملَ فيها معه زوجيْن اثنين من كلِّ الأحياء. وبدأت السفينةُ تجري وسط أمواج الطوفان، بينما كان الكافرون خارجَها يغرقونَ تباعاً في الماء، لا يحميهم من الطوفان بيتٌ ولا مرتَفَعٌ ولا جبل.

ركوب السفينة باسم الله والدعاء:

ولما دخلَ نوحٌ عليه السلام السفينة قال: الحمد لله الذي نجّانا من القوم الظالمين، ربِّ أنزلْني مُنْزَلاً مباركاً وأنتَ خير المُنْزِلين.

وقد أخبرنا القرآنُ عن هذا الدعاء، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون: ٢٨ ـ ٢٩].

ولما أركبَ نوحٌ عليه السلام أتباعَه المؤمنين في السفينة قال لهم: ﴿۞ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ٤١﴾.

ركوُبهم السفينةَ بسم الله، وجريانُ السفينة وسطَ أمواجَ الطوفانِ بسم الله، وحِفْظُها وسطَ الأمواجِ من الغرق بسم الله، ورسُوُّ السفينة بعد انتهاء الطوفان بسم الله، ونجاةُ المؤمنين من الغرق بسم الله.

إن الله غفورٌ رحيم، غفر لهؤلاء المؤمنين الصالحين ما صدرَ عنهم من مؤاخذاتٍ ومخالفات، ورحمهم فأنجاهم من الغرق برحمتِه، بينما أغرقَ الكافرين الظالمين بعدْلِه وعقابِه!.

وسارت السفينةُ وسطَ الأمواج، ونظرَ نوحٌ عليه السلام، فرأى ابنه الكافر، من بعيد، فدعاه إلى ركوب السفينة، ولكنه أبى.

وقد سجلَ القرآنُ هذا المشهدَ بين نوح وبين ابنه. قال تعالى: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٢ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ٤٣﴾ [هود: ٤٢ ـ ٤٣].

﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾: تُصورُ هذه الجملةُ عظمةَ الطوفان، وضخامتَه، هذه الضخامةُ التي كَبَّرت وضاعفت الأمواجَ العاتيةَ المتلاطمة، فأصبحتْ هذه الأمواجُ كالجبال في ارتفاعِها وعلوِّها وامتدادِها، لكنها جبالٌ متحركةٌ عامة طامة.

وسفينةُ نوح تجري بركابها المؤمنين وسطَ هذه الأمواجِ والأهوال، والله هو الذي يُسيِّرها ويُجريها، ويَحفظها ويَرعاها، فهي تجري بعينِ الله

وحفظه ورعايته: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ [القمر: ١٣ ـ ١٤].

دعوة نوح لابنه ورده عليه:

ونظرَ نوحٌ عليه السلام من خلالِ الأمواجِ والأهوال، فرأى ابنَه الكافر، الذي لم يُركبه معه السفينة لكُفره، رآه في معْزِل، فدعاهُ إلى الركوب معهم لينجوَ من الطوفان، ولكنَّ ابنَه أبى، ولم يستجبْ لِهذه الدعوة، وردَّ على أبيه قائلاً: سآوي إلى جبلٍ يعصمُني من الماء. وأفهمه نوحٌ عليه السلام أنه لن يجدَ جبلاً ولا مكاناً يعصمُه من أمرِ الله، ويدفعُ عنه عذابَه...

وبينما كانا متحاورَيْن، يحاورُ كلٌّ منهما الآخَرَ، ويردُ عليه، والسفينةُ تجري، والأمواجُ تتلاطم، والماءُ يعلو ويرتفع، ويصل إلى ذلك «المَعْزِل» الذي وقفَ فيه الابن، وقبلَ أن تنتهيَ المحادثةُ والمحاورة، قطعَ الموجُ الاتصالَ بين الابن وأبيه، وحالَ بينهما، وطوى ذلك الابنَ داخلَه فكان من المغرقين.

ولقد سبقَ أنْ نهى اللّهُ نوحاً عليه السلام أنْ يُركبَ معه في السفينة أحدَ الكافرين. وقال له: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧].

وقال له: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود: ٤٠].

أي: لا تُركبْ مَن سبقَ عليه القول من أهلك معك، كامرأتِك وابنِك، لأنهم اختاروا الكفر، وصدرَ عليهم حكمُ الله بالغرق.

أما امرأتُه الكافرة، فقد كانت مع المغرقين عند بدء الطوفان.

توجيه موقف نوح من ابنه:

ولكن موقفَه من ابنه يحتاجُ إلى كلمة.. إذ كيفَ يدعوه إلى ركوبِ

السفينة، وهو كافر؟ وقد خلَّفه وراءه لما أركب المؤمنين معه، هل أصابه الآنْ حنانُ الأبوة وشفقتُها، وأشفقَ على ابنه الكافر أنْ يموت غريقاً، فنسيَ نَهْيَ الله له عن إركابِ الكافرين من أهله، ودعاه للركوب؟

الجوابُ في تدبُّر قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

إنَّ قولَه: ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ جملة معترضة: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾.

لقد تركَ نوحٌ عليه السلام ابنَه مع الكافرين، وبدأَ الطوفان، وسارت السفينة، والآن ها هو ابنُه وحيداً في معزِل، تاركاً القومَ الكافرين، معتزلاً لهم، واقفاً وحده بعيداً عنهم!

فما الذي دفعه لأنْ يبتعدَ عنهم ويقف في هذا المعزل؟ هل بدا له أنْ يتخلى عن الكفر ويدخلَ في الإِيمان ولذلك فارق الكافرين واعتزلَهم؟ ربما!.

لهذا ظنَّ نوحٌ عليه السلام أن ابنَه الواقفَ الآن ﴿فِي مَعْزِلٍ﴾ تخلى عن الكفر، ودخلَ في الإِيمان. ولهذا دعاه إلى الركوبِ في السفينة بهذه الصفة، والتحاقِه بركب المؤمنين، وكونِه معهم قال: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، إنَّ دعوتَه لابنه تركِّزُ على المعيَّة، أنْ يكونَ مؤمناً مع المؤمنين الناجين، ولا يكونَ مع الكافرين الغارقين!.

لقد دعا نوحٌ ابنَه للسفينة لأنه ظنه آمَنَ بعدَ مفارقته له، فهو يصعدُ إِليها باعتباره مؤمناً، ولو لم يظنّ نوحٌ هذا الظن، ولو لم يكن ابنُه في معزل لما دعاه لركوب السفينة، ولم يكن للشفقة دورٌ في ذلك، فقد

تركه وراءه لما صعدَ إلى السفينة، ولو دفعَتْه شفقتُه لدعوةِ ابنه، لدعاهُ للركوب عندما صعدَ هو والمؤمنون للسفينة!.

ولما سمعَ الابنُ دعوةَ أبيه ردَّ عليه قائلاً: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾. أي أنه يبحثُ عن مكانٍ آمن، وعاصمٍ حافظ، ينقذُه من الماء، وسيصعدُ إلى قمةِ جبل شاهق!.

وما درى المسكينُ أنه لا يعصمه جبلٌ ولا غيره، فهو الطوفان. ولهذا قال له أبوه عليه السلام: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾.

إن الابنَ كافر، وإن اعتزالَه لقومه الكفار ليس توجُّهاً منه للإيمان، بل بحثاً عن جبلٍ يعصمه من الماء. ولهذا وقعَ عليه العذاب من الله، وجاءَ الموجُ العاتي، وقطعَ حواره مع أبيه، ولَفَّه وسطه: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ وماتَ غريقاً كافراً.

مَن هو هذا الابن؟ ما اسمُه؟ وما ترتيبُه بين أخوته؟ هذا من مبهماتِ القرآن، التي لا يعنيه بيانها وهو يسردُ قصصه!!.

[١٥]

واستوت على الجودي

أغرق الله الكفار بالطوفان:

أوقعَ اللَّهُ عذابَه بقوم نوح الكافرين، وأَغرقهم أجمعين، وذلك بسبب كفرهم ومعاصيهم، ولم ينصرهم أَحد، ولم يدفعْ عنهم عذابَ الله.

قال تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾ [نوح: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الشعراء: ١١٩ ـ ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس: ٧٣].

واستمرَّ الطوفانُ مدةً طويلة، لا يعلمُ مقدارَها إلا الله، وعمَّ الطوفان وجْهَ الأرض كلِّها، وغمرَ كلَّ البقاع، وعلا فوقَ قمم الجبال الشاهقة، واستمرت السماءُ تهطل بالماء، واستمرتْ عيونُ الأرض تتفجرُ بالماء، واستمرتْ أمواجُ الطوفان تتلاطم وهي كالجبال، كلُّ هذا ونوحٌ عليه السلام والمؤمنون ناجون في السفينة، التي تجري بأمرِ الله وعينِه ورعايتِه وحفظِه.

التعبير القرآني عن انتهاء الطوفان:

وحققَ اللّهُ إرادتَه في إهلاك الكافرين، ونفَّذَ أمره في إغراقهم، وشاءَ أنْ يُنهيَ سبحانه هذا الطوفان، وأنْ يُعيدَ نوحاً ومَن معه إلى اليابسة، وأنْ تُستأنفَ الحياةُ على وجه الأرض من جديد!

قال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

وهكذا انتهى الطوفانُ بأمرِ الله، كما بدأ بأمر الله، ولله الأمرُ كلُّه.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾: هذا الماءُ الكثير، الذي غمرَ قممَ الجبال الشاهقة، ابلعيه أيتها الأرض، ابتلعيه ابتلاعاً سريعاً، ولا تتشرَّبيه تشرُّباً، ولا تمتصّيه امتصاصاً بطيئاً، فلا بدَّ أنْ يغيبَ هذا الماءُ عن وجهك!.

﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾: كُفِّي أيتُها السماءُ عن إِدرارِ الماءِ المنهمر من أبوابك الواسعة، وأغلِقي تلك الأبواب، وأَقلِعي عن الإِمطار.

ونفَّذت السماءُ المستسلمةُ لأمر الله ما أَمرها به، فأقلعتْ، وتوقفَ نزولُ الماء منها. ونفذت الأرضُ الخاضعةُ لله ما أمرها به، فابتلعَتْ تلك الأمواجَ العالية.

﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾: أي شَربت الأرضُ الماء ـ أو بلعَتْه ـ وجعلَتْ داخلَها كميةَ الماء الزائدةِ بالطوفان. ونقصَ ذلك الماء، وعادَ إلى منسوبِه السابق، وزالَ طغيانُه وزيادتُه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ١١﴾ [الحاقة: ١١].

ومعنى: ﴿طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾: زاد عن منسوبه المعتاد، وأضيفتْ له أمواجٌ عاتية كالجبال، وهذه الأمواجُ الزائدة، والطوفان الطاغي، لإِغراق الكفار.

أما وقد تحققَ هذا الأمر، فلا بدَّ أنْ تغيبَ وتزولَ هذه الأمواجُ الزائدة، وأنْ تبلَعَها الأرض، وبذلك يغيضُ الماء.

ومعنى ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾: نقص، بغيابِ الكمياتِ الزائدة المضافةِ له في جوف الأرض، وبذلك يكونُ قد استقرَّ على نسبتِه الموزونة.

﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾: حققَ اللّٰهُ أمره، ونفَّذَ إرادتَه، وأوقعَ عذابَه بالكافرين، وأغرقَهم بالطوفان، ومَنَّ على نوح والمؤمنينِ بالنجاة، وها هي سفينتُهم على وجه الماء، وهم داخلها حامدون شاكرون لربهم، ونوحٌ عليه السلام يدعو ربَّه قائلاً: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٢٩﴾ [المؤمنون: ٢٩].

استقرار السفينة على جبل الجودي:

﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾: حدَّدتْ هذه الجملةُ من الآية المكانَ الذي استوت واستقرَّتْ عليه سفينةُ نوح عليه السلام. إنه ﴿ٱلۡجُودِيِّۖ﴾.

قال ياقوت الحموي عن ﴿ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ في «معجم البلدان»: «الجودي: ياؤه مشدَّدَة. وهو جبلٌ مطلٌّ على جزيرةِ ابن عمر، في الجانبِ الشرقي من دجلة، من أعمالِ الموصل، عليه استوتْ سفينةُ نوح عليه السلام، لما نضبَ الماء»[1].

وجزيرةُ ابن عمر هي الأرضُ الواقعةُ بين نهري دجلة والفرات، في شمالِ العراق.

وجبلُ «الجودِيّ» مطلٌّ على الجزيرة، وهو قريبٌ من مدينة الموصل العراقية المعروفة.

وما زالَ اسمُه حتى الآن جبل «الجوديّ»، وهو جبلٌ معروف هناك.

ولما استقرتْ سفينةُ نوحٍ على جبل الجوديّ، نزل منها نوح عليه السلام، والمؤمنون الذين معه، واستُؤنفت الحياةُ من جديد على وجْهِ الأرض: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾﴾ [هود: ٤٨].

ولا نعرفُ تفاصيلَ استقرارِ سفينة نوح على جبل الجودي، ولا كيفيةَ نزولِ نوح عليه السلام والمؤمنين منها، ولا مكانَ إقامتِهم بعد الخروج من السفينة، واستقرارِهم على اليابسة، ولا حركاتِهم وتنقلاتِهم على وجه الأرض. لا نعرفُ هذا لعدم وجود أدلةِ عليه من كتاب الله، أو من حديثِ رسولِ الله ﷺ.

---

(١) معجم البلدان ٢: ١٧٩.

وبهذا كان نوحٌ عليه السلام، الأبَ الثاني للبشرية، بعدَ آدم عليه السلام، لأن الحياةَ استُؤنفت به وبأتباعه بعد الطوفان!.

[١٦]

معاتبة الله لنوح بشأن ابنه

لماذا سأل نوح عن ابنه؟

بعدما شاهدَ نوحٌ عليه السلام غرقَ ابنه أمامَ عينيه، سألَ اللّهَ عن ذلك، فعاتبه الله وبيَّن له حقيقةَ الأمر.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود: ٤٥ ـ ٤٧].

إن ابنَ نوح من أهله، لأنه ابنُه من صلبه، وقد وعدَه اللّهُ أنْ ينجيَ أهلَه المؤمنين، وأمَره أنْ يُركبهم معه في السفينة، أمّا أهلُه الكافرون فهم مع المُغرقين. وذلك في قوله له: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ﴾ وفهم نوحٌ هذا من الأمر، وعلَم أن ابنَه ليس من أهله الناجين، ولذلك لم يُركبه معه في السفينة.

فلما سألَ نوحٌ ربَّه عن ابنه فيما بعد، وقال له: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾؟؟.

أنَّ الذي أوقعَ نوحاً عليه السلام في اللبس فيما بعد، هو أنه شاهدَ ابنَه معتزلاً قومَه، واقفاً وحدَه في معزل، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: ٤٢ ـ ٤٣].

لما شاهدَ نوحٌ عليه السلام ابنَه «في معزل» ظنَّ أنَّ ابنَه بدا له أن يتخلّى عن الكفر، وأنْ يُؤمن، ولذلك اعتزلَ القومَ الكافرين، فدعاه أبوه إلى أنْ يَركبَ معهم في السفينة، علىٰ أَساس توجُّهه للإيمان وتركِه للكفر. ولكنَّ ابنَه أخبره ببحثِه عن جبل، يأوي إليه، ليعصِمَه من الماء، وينقذَه من الطوفان.

فردَّ عليه نوحٌ بأنه لن يعصمه شيء من أمر الله، وأنه لا منقذَ ولا منجيَ إلا الله، فمن يريدُ أنْ يرْحمَه لإيمانه يعصمه وينجيه.

وفجأةً داهمَ الموجُ ابنَه الذي كان في معزل، وأخذه معه، وحالَ بينه وبين أبيه: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾.

فوجئَ نوحٌ عليه السلام بالموج يأخذُ ابنَه، قبلَ أنْ يعرفَ حقيقةَ موقفِ ابنه، هل هو في المعزِلِ بعيداً عن قومه لأنه آمن، أو سيؤمن؟ أم لسببٍ آخر؟

ولهذا سألَ نوحٌ ربَّه عن إغراق ابنه، أي سأله عن الذي ماتَ عليه ابنُه. هل ماتَ على الإيمان أو نيةِ الإيمان؟ أم مات على الكفر؟ فإنْ كان ماتَ وهو قريبٌ من الإيمان فكيفَ أغرقه الموج؟.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾. إنه ابني، وأنا ظننتُ أنه سيؤمن، لأنه كان في معزل، وأنتَ وعدتَ بإنجاءِ أهلي المؤمنين، وإنَّ وعدك الحق، وأنت أحكمُ الحاكمين.

ابنه ليس من أهله:

فسؤالُ نوح عليه السلام لربّه سؤالَ استيضاح، ليعلَمَ ما ماتَ عليه ابنُه. فوضَّحَ اللّهُ له الأمر، وبيَّنَ له حقيقةَ ما مات عليه ابنه، وأنَّ ظنَّه في ابنه ليس صحيحاً، فهو كافر، ولما كان في معزل كان كافراً، وأغرقه اللّهُ لكفره، وهو بهذا الاعتبار ليس من أهله.

﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ﴾. نفى اللّهُ أن يكونَ ابنُه من أهله، وعلَّلَ ذلك بأنه عملٌ غيرُ صالح.

ابنُه من أهله من حيث النسب، فهو ابنُه من صلبه، ولدَتْه منه زوجتُه، وكانت عفيفةً في عرضها رغم كفرها، فلم ترتكب فاحشةَ الزنا!.

ومع أنه ابنُه من صلبه، إلا أنه ليس من أهلِه في الحقيقة، لأنه اختارَ الكفر، وهذا الكفرُ أفسدَ عليه كل عمله، فصارَ كلُّ عمله غيرُ صالح، بل تحولَ هو نفسه بالكفر إلى عملٍ غيرِ صالح، وهذا أفقده الانتسابَ الحقيقي لنوح، مع أنه ابنُه من صلبه: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ﴾.

درس في الولاء والبراء:

إن هذه الآيةَ التي تنفي عن الابن الكافر كونَه من أهلِ نوحٍ النبي، بسبب كفره وعمله غيرِ الصالح، مع أنه ابنُه من صلبه، تقررُ مبدأً إيمانياً عظيماً، وهو «الولاءُ والبراءُ والمفاصلة».

فالمؤمنُ ولاؤه لله، ولأولياءِ الله من المؤمنين، وإنْ كانوا بعيدين في النسب والقرابةِ عنه. والمؤمنُ يتبرأُ من أعداءِ الله، ويفاصلُهم ويبتعدُ عنهم، وإن كانوا أقربَ الناس إليه من حيث النسب والقرابة.

فها هو ابنُ نوح عليه السلام، من أقرب الناس له نسباً وقرابة، ولكنه بعيدٌ عنه، وليس من أهله الحقيقيين، لأنه ليس مؤمناً.

وبعد ما بيّنَ اللّهُ لنوح عليه السلام حقيقةَ ما مات عليه ابنُه، وقدَّمَ لنا نحن ذلك المعلمَ الإيمانيَّ والدعويَّ الهام، عاتب نوحاً على ذلك، فقال له: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

ولم يُخطئ نوحٌ عليه السلام في سؤالِه عن ابنه، ولكنَّ اللّهَ عاتبه هذا العتَاب الرباني المحبب، ليقررَ لنا هذه الحقيقة الإيمانية الدعوية في الولاء والبراء.

وعاذَ نوحٌ عليه السلام بربه، وأعلنَ له إقبالَه عليه ولجوءَه إليه واعتصامَه به: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

[١٧]

سفينة نوح آية وعبرة

العبرة في سفينة نوح للمؤمنين والكافرين:

جعلَ اللّهُ سفينةَ نوح آيةً وعبرةً للناس من بعده، حيث أَغرقَ اللّهُ بالطوفان العارم كلَّ الكافرين، ولم تنفعْهم قوتُهم، ولم تدفعْ عنهم عذابَ الله.

أما المؤمنونَ فقد أَنجاهم اللّهُ برحمته، وأجرى لهم السفينة وسطَ الأمواج بحفظه وعنايته.

ثم أَرسى اللّهُ السفينةَ على جبل الجوديّ، وأخرجَ نوحاً والمؤمنين منها بكرمه، وأَحلَّ عليهم نعمَه وبركاتِه، وأعادهم للأرض من جديد، واستأنفَ بهم الحياةَ الإنسانية من جديد، وجَعَلَ هذا الفضلَ منه على أتباعِ نوح المؤمنين، مِنّةً وكَرَماً على الأجيالِ البشرية المتتابعة.

وجعلَ اللَّهُ قصةَ الطوفان والسفينة، والهلاكِ والنجاة، آيةً وعبرة، ودعا الناسَ ليعتبروا ويتعظوا بها، ويتذكَّروا ما هم عليه.

قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾ [الشعراء: ١١٩ ـ ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت: ١٤ ـ ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ [القمر: ١٣ ـ ١٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة: ١١ ـ ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ [يس: ٤١ ـ ٤٤].

إن هذه الآياتِ من السور المختلفة تقررُ حقيقةً قرآنيةً قاطعة، بشأنِ قصةِ نوح عليه السلام، وهي أنَّ اللَّهَ جعلَ قصةَ السفينة ونجاة المؤمنين فيها، آيةً وعبرةً وعظة.

إنَّ الله جعلَها آيةً وعبرةً للعالمين جميعاً، سواء كانوا مؤمنين أم كافرين. لأنَّ كلَّ هؤلاء العالمين من ذريةِ أتباعِ نوح المؤمنين، وكلُّ هؤلاء سمعوا عن قصةِ السفينة، واستقرتْ في ذاكرتهم وعقلهم الباطن. فعليهم أنْ يستحضروها من ذاكرتهم، وأنْ يَعتبروا ويتَّعظوا بها، وأنْ يغيِّروا مسارَ حياتهم المخالفِ لمنهج الله!.

أبقاها الله تذكرة للبشرية:

ونصَّ القرآنُ على أن اللَّهَ جعل قصةَ سفينةِ نوح تذكرةً للناس: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾. [الحاقة: ١١ ـ ١٢].

يتذكرُها الناس، فيعرفونَ نعمةَ الله عليهم، وتعيها آذانُهم الواعية، وقد أبقى اللَّهُ السفينةَ آيةً للذكر، يتذكرُها الناسُ، على مدار القرون والأجيال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾﴾. [القمر: ٥١].

قال قتادة ـ فيما رواه عنه البخاري في كتاب التفسير من صحيحه ـ: «أبقى الله سفينة نوح، حتى أدركها أوائل هذه الأمة»[1].

ولا يعني قولُ قتادة هذا أنَّ اللَّهَ أَبقى خشبَ سفينة نوحٍ على جبلِ الجوديّ عشراتِ آلاف السنين، وأنَّ هيكل خشبِ السفينة ما زال صالحاً موجوداً على جبل الجوديّ، حتى رآه أوائلُ الصحابة الذين وصَلَوا جبلَ الجوديّ في الفتوحاتِ الإِسلامية!.

ويرى الإِمامُ ابنُ كثير أنَّ المرادَ من قولِ قتادةَ أن اللَّهَ أَبقى السُّفُنَ وسيلةً للتنقل والسفر عبر البحار، وهي بهذا الإِبحار وسطَ المياه والأمواج آيةٌ وعبرةٌ لأصحابها. قال: «قال قتادة: أبقى اللَّهُ سفينةَ نوح، حتى أدرَكَها أولُ هذه الأمة. والظاهرُ أنَّ المرادَ من ذلك جنسُ السفن. كقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يس: ٤١ ـ ٤٢].

وكقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة: ١١ ـ ١٢].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٨٦٩. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٥٦.

ولـهـذا قـال هـهـنـا: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾. أي: فـهـل مَـنْ يـتـذكـرُ ويتعظ[1].

[١٨]

وصية نوح عند موته

عاشَ نوحٌ عليه السلام عمراً مديداً طويلاً، وقد أخبرَنا اللَّهُ عن بعضِ مقدارِ عمره، لا كلِّه. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤].

ومعنى قوله: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ﴾ أنَّ نوحاً مكثَ بين قومه بعد النبوة تسعَمئة وخمسين سنة، وهذه هي المدةُ ما بين النبوةِ ووقوعِ الطوفان.

عاش نوح أكثر من ألف سنة على ثلاث مراحل:

أما كم كان عمرُ نوحٍ عندما جعلَه الله نبياً؟ فإننا لا نعرفُ ذلك، لأن اللَّهَ لم يخبرنا عنه.

وبعد ما استوت السفينةُ على جبلِ الجودِيّ، ونزلَ منها نوحٌ والمؤمنون، واستأنفوا الحياة من جديد، عاشَ نوحٌ مدةً أخرى، ومرحلةً أخرى من عمره، لا نعرفُ مقدارَها، لأن الله لم يخبرنا عنه.

كما أننا لم نعرفْ تفاصيلَ حياة نوح وأتباعِه بعدَ الطوفان، أين أقاموا؟ وأين تحركوا؟ وهل كانَ معهم في شمال العراق أو في مكان آخر؟

لقد كان عمرُ نوحٍ ثلاثَ مراحل:

المرحلة الأولى: ما بين ولادتِه ونبوَّتِه: وهذه لم يخبرنا اللَّهُ عنها، فلا نعرفُ شيئاً عن مكان ولادته، ولا عمرِه يوم مبعثه.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤: ٢٧٨.

المرحلة الثانية: ما بين نبوته والطوفان. وهي حوالي ألفُ سنة: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾.

المرحلة الثالثة: ما بين نزولِه من السفينة إلى وفاته، وهذه لم يخبرْنا اللَّهُ عنها، فلا نخوضُ فيها.

أما والداه، فقد آمَنا به بعد نبوته، ودَخَلا في دينه، وتخلَّيا عن الكفرِ بالله بدليل قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح: ٢٨].

لقد سألَ نوحٌ ربَّه أنْ يغفر له أولاً، ولأمه وأبيه ثانياً، ولمن دخلَ بيتَه مؤمناً ثالثاً، ثم لجميع المؤمنين والمؤمنات على اختلافِ الزمان والمكان، أينما كانوا، وحيثُما وُجدوا.

فلو لم يكن أبواه مؤمنَيْن لما استغفرَ لهما، فهو لم يستغفرْ لامرأتِه وابنه لأنهما كَفَرا به.

وصية نوح لابنه قبيل موته:

وعندما حانتْ وفاةُ نوح عليه السلام، بعدَ هذا العمر الطويل الذي عاشه، أحضرَ ابْنَه المؤمن وأوصاهُ وصيةً إيمانيةً جامعة، أخبرَنا عنها رسولُ الله ﷺ.

روى أحمد والبيهقي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال:

(كنا عندَ رسولِ الله ﷺ، فجاءَ رجلٌ من أهلِ البادية، عليه جُبَّةُ سِيجان، مزرورةٌ بالديباج[1]، فقال رسولُ الله ﷺ: «ألا إنَّ صاحبكم

(١) السيجان جمعُ ساج. وهو الثوبُ الطيلَسانُ الأخضر. وكان الأعرابيُّ قد زررَ ثوبَه الأخضر بأزرار من الديباج، وكان لباسُه يشير إلى تكبره، ولذلك كره الرسولُ عليه السلام لبسه، وذكَّره بوصيةِ نوح عليه السلام لابنه.

هذا قد وضعَ كلَّ فارسٍ ابنِ فارس، ورفعَ كلَّ راعٍ ابنِ راع»!

فأَخذَ رسولُ الله بمجامعِ جُبَّته، وقال له: أَرى عليك لباسَ مَنْ لا يعقل!!

ثم قال عليه الصلاة والسلام: «إن نبيَّ اللَّهِ نوحاً عليه السلام لما حضرَتْه الوفاة، قال لابنه:

إِنيّ قاصٌّ عليك الوصية: آمُرُك باثنتيْن، وأَنْهاك عن اثنتيْن: آمُرُك بلا إله إلا الله. فإنَّ السموات السبع والأَرضين السبع، لو وُضعت في كفة، ووُضعتْ لا إله إلا الله في كفة، رجحتْ بهنَّ لا إله إلا الله. ولو أنَّ السماواتِ السبع والأرضين السبع كُنَّ حَلَقَةً مُبْهَمَة، ضَمَّتْهُنَّ لا إله إلا الله.

وآمُرُك بالتسبيح وبالتكبير، فإنَّ بها صلاةَ كل شيء، وبها يُرزَقُ الخلق.

وأنهاك عن: الشرك، والكبر».

قال: يا رسول الله، هذا الشركُ قد عَرَفناه، فما الكبر؟ هو أنْ يكونَ لأحدنا نَعلان حسنتان لهما شِراكان حسنان؟

قال عليه الصلاة والسلام: «لا».

قال: هو أنْ يكونَ لأحدِنا حلةٌ يلبسها؟

قال عليه الصلاة والسلام: «لا».

قال: هو أنْ يكونَ لأحدنا دابةٌ يركبها؟

قال عليه الصلاة والسلام: «لا».

قال: هو أن يكونَ لأحدنا أصحابٌ يجلسون إليه؟

قال عليه الصلاة والسلام: «لا».

قال: يا رسولَ الله فما الكِبْر؟

قال عليه الصلاة والسلام: «هو سَفَهُ الحق وغَمْطُ الناس!»)[1].

إن المتكبرَ هو الذي يسفهُ الحقَّ ويغمطُ الناس.

ومعنى سَفَه الحق: الاستخفافُ به، ورفضُه، وعدمُ قبوله.

ومعنى غمط الناس: عيبُهم وازدراؤُهم وانتقاصُهم واحتقارُهم.

ويهمنا هنا أن نتعرفَ على وصيةِ نوح عليه السلام لابنه عندما قربتْ وفاتُه. إنه يوصيه بالإيمانِ والعبادة، وينهاه عن الشرك والمعصية.

لقد أَمره بالتوحيد، والإِكثارِ من قول: لا إله إلا الله، لأنها أفضلُ ما قاله أيُّ مخلوق. كما أَمره بالإِكثارِ من التسبيحِ والتكبير والعبادة.

ونهاهُ عن أقبح رذيلتيْن، وهما الشركُ بالله، والتكبرُ على عباد الله.

ثم توفي نوح عليه الصلاة والسلام.

ولم تفصِّل النصوصُ من الآياتِ والأحاديثِ الصحيحة كيفيةَ احتضارِ نوح ووفاتِهِ عليه السلام، ولا كيفيةَ دفنه، كما أنها لم تحدِّد المكانَ الذي دُفن فيه، ولا البقعةَ التي كان قبره فيها.

وبما أن النصوصَ المعتمدةَ قد سكتتْ عن ذلك، فنحنُ ملزمون أن نسكتَ عنه، وأن لا نحاولَ أَخذه من الإِسرائيليات!

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢:١٦٩، ١٧٠، ٢٢٥. والبيهقي في الأسماء والصفات: ٧٩. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٥٢.

[١٩]

بين نوح وأمة محمد ﷺ يوم القيامة

أخبرَنا رسولُ الله ﷺ عن أمريْن، يكونان بين نوحٍ عليه الصلاة والسلام، وبين أمةِ محمد ﷺ.

الأمر الأول: هو استشفاعُهم بنوحٍ عليه السلام. فعندما يكونون في أرضِ الموقف، يُعانون أهوالَ الحشر، يأتونَ إلى آدم عليه السلام، يستشفعون به، فيُحيلهم إلى نوحٍ عليه السلام.

روى البخاريُّ ومسلم وغيرُهما عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، في حديث الشفاعة الطويل، أنه قال:

« .. فيقول لهم آدمُ عليه السلام: اذْهَبوا إلى غيري، اذْهَبوا إلى نوح.

فيأتون نوحاً، فيقولون: يا نوح: أنت أولُ الرسل إلى الأرض، وسمّاكَ اللّهُ عبداً شكوراً. اشفَع لنا إلى ربك! ألا ترى ما نحنُ فيه؟ ألا ترى ما قد بلَغَنا؟

فيقولُ لهم: إن ربي قد غضبَ اليوم غضباً، لم يغضبْ قبلَه مثله، ولن يغضبَ بعدَه مثله، وإنه قد كانت لي دعوة، دعوتُ بها على قومي، نفسي نفسي، اذْهَبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم ﷺ. .»[١].

ويبقونَ يذهبون إلى الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام، يستشفعونَ بهم، حتى يَصِلوا إلى محمد ﷺ، فيشفعُ لهم عند الله، لأنه صاحبُ مقام الشفاعة!

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٤٠. ومسلم برقم: ١٩٤. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٣٦٤.

شهادة الأمة لنوح بتبليغ قومه:

الأمر الثاني: شهادةُ أمةِ محمد ﷺ، لنوح عليه الصلاة والسلام، أنه بلَّغَ قومَه، وذلك بعد أنْ يكذبَ قومُه، وينكروا تبليغَه لهم.

روى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء نوحٌ وأمتُه. فيقول اللّهُ له: هل بلَّغت؟

فيقول نوح: نعم أي رب!

فيقول لأمته: هل بلَّغكم؟

فيقولون: لا. ما جاءنا مِن نبي!

فيقول لنوح: مَن يشهدُ لك؟

فيقول: محمد ﷺ وأمتُه!

قال عليه الصلاة والسلام: وهذا هو قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. والوسط: العدل.

قال عليه الصلاة والسلام: فَيُدْعَوْن. فيشهدون له بالبلاغ، ثم أَشهدُ عليكم»[١].

وفي رواية النسائي تفصيلٌ أكثر، مع إِبهامِ اسم النبي الذي تشهدُ له هذه الأمة.

روى النسائي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «يجيءُ النبيُّ يومَ القيامة معه الرجل، ويجيءُ النبيُّ معه الرجلان، ويجيءُ النبيُّ معه أكثر من ذلك!

فيقال له: هل بلَّغتَ قومك؟

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٣٩. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم ٥٥.

فيقول: نعم.

فيُدْعَون: فيقال لهم: هل بلَّغكم؟

فيقولون: لا.

فيقال: مَنْ يشهدُ لك؟

فيقول: أمةُ محمد ﷺ.

فتُدعى أمةُ محمد ﷺ، فيقال لهم: هل بلَّغَ هذا؟

فيقولون: نعم.

فيقال: وما عِلْمُكم بذلك؟

فيقولون: أخبرَنا نبيُّنا ﷺ أن الرسلَ قد بلَّغوا، فصدَّقْناه.

فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ومعنى ﴿وَسَطًا﴾: عَدْلاً[1].

إن أمةَ محمد ﷺ هي الأمةُ الوسطُ العادلة، هي أمةُ العدالة والشهادة، التي تحبُّ الأنبياءَ السابقين جميعاً، ولذلك تشهدُ لهم بالصدق والعدل، بأنهم بلَّغوا أقوامهم، ولكن أقوامهم يُنكرون ويَكذبون.

ومن هذه الشهاداتِ الصادقة العادلة، هذه الشهادةُ التي يقدمونها لصالحِ نوح عليه الصلاة والسلام يوم القيامة، وقد عَلِموا ذلكَ من كتاب الله، ومن حديثِ رسولِ الله ﷺ، فآمَنوا به وصدَّقوه، وشهدوا به.

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى برقم: ١١٠٠٧. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٥٥.

قصة هود

عليه الصلاة والسلام



[۱]

ذكر عاد وهود في القرآن

وردتْ قصةُ هودٍ عليه الصلاة والسلام مع قومه عادٍ في ثماني عشرة سورة في القرآن.

وقد وردتْ في هذه السور على عدة حالات. فأحياناً تُفصَّلُ قصةُ هود مع عاد، وتُعرضُ بلقطاتٍ مُفَصَّلة نوعاً ما، وأحياناً تُعْرَض بلقطات أقصر وأوجز، وأحياناً تُعرضُ بلقطاتٍ سريعة خاطفة، وأحياناً يُكتفىٰ بتسجيل إشارات، وأحياناً لا يُذكرُ إلا اسم عاد، أو اسم هود عليه الصلاة والسلام.

والسورُ المذكورةُ فيها قصةُ عاد ـ ولو بمجرد ذكر الاسم ـ حسبَ ترتيبِ المصحف، هي: الأعراف، التوبة، هود، إبراهيم، الحج، الفرقان، الشعراء، العنكبوت، صّ، غافر، فصلت، الأحقاف، قّ، الذاريات، النجم، القمر، الحاقة، الفجر.

ذُكرتْ كلمةُ «عاد» في هذه السور أربعاً وعشرين مرة، وذلك على النحو التالي:

«عادٌ» مرفوعة: تسعَ مرات، في سور: هود، الحج، الشعراء، صّ، فصلت، قّ، القمر، الحاقة.

«عاداً» منصوبة: أربعَ مرات، في سور: هود، الفرقان، العنكبوت، النجم.

«عادٍ» مجرورة: إحدى عشرة مرة، في سور: الأعراف، التوبة، هود، غافر، فصلت، الأحقاف، الذاريات، الفجر[1].

(۱) انظر قائمة بالآيات التي ذكرت اسم «عاد» في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن لمحمد فؤاد عبد الباقي، رحمه الله: ٤٩٣.

أما «هودٌ» عليه الصلاة والسلام، فقد ذُكر اسمُه سبعَ مرات في القرآن في سور: الأعراف، هود، الشعراء.

وردَ في حالة رفع مرتيْن.

وفي حالةِ نصبٍ ثلاث مرات.

وفي حالة جر مرتيْن(١).

[٢]

مواضع قصة هود في القرآن

السورُ التي أوردتْ لقطاتٍ من قصة هود عليه السلام مع عاد ـ سواء كانت لقطاتٍ سريعة أو مشاهدَ مطولة ـ إحدى عشرة سورة. وفيما يلي موجزُ ما أوردتْه كلُّ سورة من قصته، حسبَ ترتيبِ المصحف.

قصة هود في سور الأعراف وهود والمؤمنون:

١ ـ ما أوردتْه سورةُ الأعراف:

وردتْ قصتُه في ثماني آيات: الآيات: ٦٥ ـ ٧٢.

أخبرت الآياتُ عن إرسال هود عليه السلام نبياً إلى قوم عاد، حيث دعاهم إلى عبادةِ الله وحده، ولكن الملأَ من قومه كذَّبوه، واتهموه بالسفاهة، وقدْ ردَّ هودٌ على اتهامهم، وأزالَ شبهاتهم تجاهه، وذكَّرهم بنعمِ الله عليهم، وقد طلبَ قومُه منه إيقاعَ العذاب بهم، فأخبرهم بغضبِ الله عليهم، وقد قطعَ اللّهُ دابرهم ودمَّرهم، وأنجى هوداً ومَنْ آمن معه.

---

(١) انظر هذه المرات في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص٧٣٩.

٢ ـ ما أوردتْه سورةُ هود:

هي السورةُ التي حملتْ اسمَ هود عليه السلام. وقد وردتْ قصتُه في إحدى عشرة آية من آياتها: الآيات: ٥٠ ـ ٦٠.

في هذه الآياتِ الإِخبارُ عن إِرسالِ هود إلى عاد، ومطالبتِه لهم بإفرادِ الله بالعبادة، وقد أخبرهم بطلبه الأجْرَ من الله وليس منهم، ورَبَطَ لهم بين الإِيمانِ والرخاء المادي، ولكنهم ردّوا عليه بإصرارهم على دينهم الباطل، واتهامِه بالسوء والجنون، فواجَههم بالمفاصلة والبراءة منهم، وتحدَّاهم جميعاً، وأخبرهم بتوكُّله على الله، وأنهم دوابٌ نواصيهم بيد الله، وقد أدى واجبَه في تبليغهم. ثم أَخبرت الآياتُ عن تدميرِ عاد، ونجاةِ هودٍ ومَنْ معه برحمة الله.

٣ ـ قصة هود في سورة المؤمنون:

وردتْ قصتُه في إحدى عشرة آية. الآيات: ٣١ ـ ٤١.

ولم تَذكر الآياتُ اسمَ هود عليه السلام أو اسمَ عاد بالنص. ولكنَّ سياقَ آياتِ القصة في السورة يدلُّ على أنها قصةُ هودٍ عليه السلام مع عاد.

فقد كانَ الكلامُ من قبلُ عن قصةِ نوح عليه السلام مع قومه، حيث جاءتْ قصةُ نوح في ثماني آيات [٢٣ ـ ٣٠].

وبعدَ قصةِ نوحٍ مباشرة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المؤمنون: ٣١].

وفي الآياتِ إِخبارٌ عن طلب هودٍ منهم عبادةَ الله وحده، ورفْضِ الملأ من قومه لدعوته، والإِشارةِ إلى ترفهم في الدنيا، وتسجلُ الآياتُ أهمَّ شبهاتهم ضد هود، فهو بشرٌ مثلهم، يأكلُ ويشربُ مثلَهم، وهو

يَعِدهم البعثَ بعد الموت والبلى، وهو كاذبٌ في ذلك، ولهذا لن يؤمنوا به. وقد دعا هودٌ ربَّه عليهم، فأهلكهم اللّهُ بالصيحة.

قصة هود في سور الشعراء وفصلت والأحقاف:

٤ ـ قصةُ هود في سورة الشعراء:

وردتْ قصتُه في ثماني عشرة آية. الآيات: ١٢٣ ـ ١٤٠.

سجلت الآياتُ دعوةَ هودٍ عليه السلام لعاد، وتكذيبهم له، وعرضَتْ بعضَ مظاهر التقدم المادي عندهم، كبناء القصور فوقَ الجبال، واتخاذِ المصانع، وذَكَرَتْ بطشَهم وتجبُّرهم، وإنكارَ هود عليهم ذلك، ودعوتَه لهم إلى تقوى الله وطاعته، وشكرِه لإنعامِه عليهم، ولكنهم رفضوا دعوتَه وكذَّبوه، فأهلكهم الله وجعلَهم آيةً للناس.

٥ ـ قصة هود في سورة فصلت:

وردتْ إشارةٌ لقوم عادٍ في آيتيْن: ١٥ ـ ١٦.

وسبقَ الآيتين تهديدُ كفار قريش، بأنهم إنْ أصَرّوا على الكفر، فستصيبهم صاعقةٌ مثل صاعقة عاد وثمود، وجَمعت الآياتُ بين الرسل في دعوتهم لعادٍ وثمود، وخلاصةِ دعوتهم، والمسارعةِ بكفرِ عاد وثمود بهم.

ثم تتخصصُ الآيتان: ١٥ ـ ١٦، في الحديثِ عن تعذيبِ قوم عاد. وتُخبران أنَّ عاداً اعتدّوا بقوَّتهم، واستكبروا في الأرض، واستعبدوا الآخرين، ونسوا قوةَ الله، وقد عذَّبهم الله بالريحِ الصرصرِ في الأيام النحسات.

٦ ـ قصة هود في سورة الأحقاف:

وردتْ قصتهُ في خمسِ آيات. الآيات: ٢١ ـ ٢٥.

تخبرُ الآياتُ عن مكانِ إقامةِ عاد، وهو الأَحقاف، وإنذارِ هودٍ

لهم عذابَ الله، ودعوتهِ إلى عبادةِ الله، وتكذيب قومه له، وطلبهم عذاب الله، وتشيرُ إلى قدومِ العذاب عليهم في صورةِ عارضٍ ممطر، ولكنه في الحقيقة ريحٌ مدمرةٌ، دمَّرت القومَ الكافرين المجرمين.

إشارات سريعة في أربع سور أخرى:

٧ ـ إشارةُ سورة الذاريات لقصة هود:

وردت الإشارةُ في آيتيْن: ٤١ ـ ٤٢. والكلامُ في هذه الإشارة عن الريحِ العقيمِ التي دمرتْ قومَ عاد فجعلتْهم كالرميم.

٨ ـ إشارة سورة القمر لقصة هود:

وردتْ هذه الإشارةُ في خمس آيات: ١٨ ـ ٢٢. وكان الكلامُ فيها عن تكذيب عاد، وتعذيبِ الله لهم بالريحِ الصرصر، التي تركتْهم هلكى كأعجازِ النخل المنقعر.

٩ ـ إشارة سورة الحاقة لقصة هود:

وردت هذه الإشارةُ في ثلاث آيات: ٦ ـ ٨. والكلامُ فيها عن إهلاك عادٍ بالريح الصرصر العاتية، التي سخَّرها اللَّهُ عليهم سبعَ ليال وثمانية أيام متتابعات، فلم تُبْقِ منهم باقية.

١٠ ـ إشارة سورة الفجر لقصة هود:

وردتْ هذه الإشارةُ في ثلاث آيات: ٦ ـ ٨. والكلامُ فيها عن قوةِ عادِ إرم، التي لم تُشَابهها قوةُ آخرين بالبلاد، ومع ذلك دمَّرها الله.

[٣]

عاد بعد قوم نوح

يدل سياقُ قصةِ عاد في القرآن، على أنهم كانوا بعدَ قومِ نوح.

فبعدَ أن نزلَ نوحٌ عليه السلام وأَتْباعُه المؤمنون على جبل الجوديِّ، عاشوا فترةً مؤمنين بالله، موحِّدين له.

ثم تفرّقوا في الأرض، وتوفي نوح عليه السلام، وتشعَّبتْ عنهم الشعوبُ والقبائل.

وكان منهم قبيلةٌ توجَّهتْ نحو الجنوب، فأقامتْ جنوبَ الجزيرة العربية، في منطقةِ الأحقاف.

هذه القبيلةُ هي قبيلةُ «عاد».

وكانت هذه القبيلةُ في أيامها الأولى، على الإيمانِ بالله وتوحيده، لأنهم ذريةٌ مؤمنةٌ للقوم المؤمنين الذين كانوا مع نوح عليه السلام.

ولا ندري كم استمروا على الإيمان بالله وتوحيدِه، ولا متى استحوذَتْ عليهم الشياطين، واجْتالَتْهم إلى الشرك؛ لأنَّ القرآنَ سكتَ عن هذه المسألة.

كلُّ ما عرفْناه عن «عاد» في القرآن أَنهم كفروا بالله، وأشركوا به، فبعثَ الله لهم أخاهم هوداً عليه السلام.

والدليلُ على أنَّ «عاداً» كانوا بعدَ قومِ نوح من القرآن، هو سياقُ القصة.

ففي سُوَر الأعراف وهود والمؤمنون والشعراء، كانتْ تَرِدُ قصةُ هود بعدَ قصةِ نوح، وكان الكلامُ عن قوم عادٍ بعد الكلام عن قوم نوح.

وهذا الترتيبُ في الذكْر يوحي بالترتيب في «الوجودِ التاريخي»!

ثم إن هوداً عليه السلام كان صريحاً في تذكيرِهم بنعم الله عليهم، واستخلافِهم بعد قوم نوح. قال تعالى: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ

بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. [الأعراف: ٦٩].

[٤]

العرب العاربة وعاد وهود

قسَّمَ علماءُ التاريخ العرب إلى قسميْن:

عربٌ عاربة، وعرب مستعربة.

العرب العاربة بعد نوح:

فالعربُ العاربة: هم أولُ القبائل العربية وجوداً في التاريخ، وهم أولُ مَن تكلموا بالعربية. وهم الذين كانوا في الجزيرةِ العربية قبل إقامةِ إسماعيل عليه السلام في مكة.

ومن هذه القبائلِ العربية العاربة: عاد، وثمود، وجرهم، وطسم، وجديس، وغيرهم[١].

وإذا كانتْ «عادٌ» بعدَ قوم نوح زمنياً، فإنها تكون أُولى قبائلِ العرب العاربة وجوداً.

وسُمّوا عَرَباً عاربة، لأنهم أولُ مَنْ نطقوا بالعربية! قال ابنُ دُرَيْد في كتابِه القيم «الاشتقاق» عن العرب العاربة:

«يَعْرُبْ: يَفْعُل. مِن قولهم: أَعْرَبَ في كلامه. أي أفصحَ فيه. أو مِن قولهم: أعربَ عن نفسه. أي: أوضحَ عنها..»[٢].

وقال في موضعٍ آخر من كتابه: «والعربُ العاربةُ: هم الذين

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ٨٨ ـ ٨٩.

(٢) الاشتقاق لابن دريد: ٣٦١.

تحولتْ ألسنتُهم إلى العربية، حيثُ تبلبلت الألسن، منهم عاد وثمود وطسم وعملاق وجديس. قبائلُ دَرَجوا. .»[١].

أي أنَّ عاداً ومَنْ بعدهم سُمّوا عربا عارِبةً من الإِعراب، وهو الإِفصاحُ والإِيضاحُ والبيان.

أي أنَّ عاداً كانوا يُفْصِحون في كلامهم عما في نفوسهم، ويُبينون للسامع مُرادَهم، ويوضِّحون له مقصودَهم.

عاد أول العرب والعربية لغة وضعية:

ونفهمُ من كلامِ ابن دُرَيْد السابق أنَّ «عاداً» هم أولُ مَنْ تكلموا بالعربية، ونطقوا بها. وذلك بعدما قَدِموا من العراق ـ موطنِ إقامةِ أَجدادهم الذين آمنوا مع نوح عليه السلام ـ وأَقاموا في «الأحقاف» جنوبِ الجزيرة العربية.

ولعلَّ هذا يوضحُ لنا نشأةَ اللغةِ العربية، وأَنها لغةٌ «وَضْعِيَّة» حادثة، أَلهمَ اللَّهُ بعضَ الناس أنْ ينطقوا بها، بعد فترةٍ من بدءِ الحياة على وجه الأرض.

فهناكَ فترةٌ بين آدمَ ونوح عليهما السلام، وهناك فترةٌ أقصر بين نوح عليه السلام وقومِ عاد. ولم يكن الناسُ يتكلمون العربية في هذه الفترة.

ولعلَّ قومَ عاد هم أولُ مَنْ نطقوا باللغةِ العربية، ثم نطقتْ بها قبائلُ عربية تفرعَتْ عنهم فيما بعد، كثمود وجرهم.

إنَّ قضية «نشأة اللغة العربية» خلافية، وهل هي توقيفيةٌ أو وضعية، فيها خلاف. ويصعبُ الجزمُ برأي قاطع في ذلك. مع أننا نميلُ إلى أنَّ اللغةَ العربية وضعيةٌ وليست توقيفية، وأن النطقَ بها

---

(١) المرجع السابق: ٥٢٤.

حادث، بعد قرونٍ من نزولِ آدم إلى الأرض، وأنَّ أولَ مَنْ نطقوا بها هم قومُ عاد.

هذا ما نميلُ إِليه ونرجِّحه في هذه المسألة، والله تعالى أعلم.

إن اسمَ «عاد»، وإطلاقَه على هؤلاء القوم الذين قَدِموا من العراقِ إلى الأحقاف، يُشيرُ إلى ما قلناه ورجحناه.

عاد من العود وهود من الهود:

قال الإمامُ ابنُ فارس في «مقاييس اللغة»: «العَوْد: التثنيةُ في الأمر. قال الخليل: هو تثنيةُ الأمر، عَوْداً بعد بدء. تقول: بدأ ثم عاد...»[1].

وسَمّى هؤلاء القومُ العربُ الخلَّصُ أنفسَهم «عاداً»، لأنَّ الحياةَ البشريَّة عادتْ بهم من جديد. حيث كانَ قبلَهم الطوفان، الذي أهلك كلَّ البشر على وجه الأرض، باستثناءِ المؤمنين ركابِ السفينة.

فلما جاءَ فريقٌ من ذرية هؤلاء المؤمنين إلى الأحقاف، استأنفوا الحياةَ من جديد، فعادَتْ بهم الحياةُ البشرية من جديد، وهم «عاد»!!.

وبعثَ اللّهُ إلى عادٍ أخاهم هوداً عليه الصلاة والسلام نبياً، وبما أنَّ «عاداً» اسمٌ عربي صريح، مشتقٌ من العودِ والرجوع والبدء، فكذلك «هودٌ» اسمٌ عربي صريح أيضاً، مشتقٌ من «الهَوْد».

قال ابنُ فارس عن الهَوْد: «يدلُّ على إِرْوادٍ وسكون. يقولون: التهويد: المشيُ الرُّوَيْد البطيء.. وهَوَّدَ: إذا نام...»[2].

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤: ١٨١.

(٢) المرجع السابق ٦: ١٧.

أي أنَّ الهَوْدَ عند ابن فارس مشتقٌ من السكون والرويد والبطء والتأنّي.

ولهذا قالَ ابن دريد عن اشتقاق الهَوْد: «واشتقاقُه من السكونِ ولينِ الجانب.. والتَّهويد: التسكين. تقول: هَوَّدْتُ الرجلَ من نِفاره: إذا سكَّنْتُه..»[1].

أما الهَوَدُ عند الراغب الأصفهاني فهو: «الرُّجوعُ برفق. ومنه التَّهويد. وهو مشيٌ كالدبيب. وصارَ الهَوْدُ في التعارف: التوبة.

وهُود: جمعُ هائد. أي: تائب. وهو اسمُ النبيِّ عليه الصلاة والسلام..»[2].

إنَّ اسمَ «هود» عليه السلام يعني: التوبةَ إلى الله، والسكونَ والرفقَ والطمأنينة، والتأني واليسر.. وهذه صفاتٌ تحققتْ في شخصيتِه عليه الصلاة والسلام.

العرب العاربة والمستعربة:

بقيَ أنْ نقولَ في هذا البحث الاشتقاقي التاريخي عن «عاد وهود»: إنَّ عاداً وثمود وغيرَهم من العرب العاربة الفصيحة، أُطلقَ عليهم: العربُ البائدة. لأنهم أبيدوا وانقرضوا، ولم يبقَ لهم ذكْر. حيث حلَّ محلَّهم قبائلُ عربية أُخرى.

والعربُ الجددُ الذين وَرِثوا العربَ العاربة من عاد وثمود، أُطلقَ عليهم اسم «العربُ المُسْتَعْرِبة».

قال الإمام ابنُ كثير في تاريخه: «وأما العربُ المستعربة: فهم مِنْ وَلَدِ إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. وكان إسماعيل عليه السلام هو أولَ مَنَ تكلمَ بالعربيةِ الفصيحة البليغة. وكان قد أخذَ كلامَ العرب من

(١) الاشتقاق لابن دريد: ٥٤٩.

(٢) المفردات للراغب: ٨٤٦ ـ ٨٤٧.

«جُرْهُمْ»، الذين نزلوا عند أمّه هاجر بالحرم.. وقد أَنطقَه اللّهُ بها في غايةِ الفصاحة والبلاغة. وكذلك كان يتلفظُ بها رسولُ الله ﷺ..»[1].

قومُ عاد هم أولُ مَنْ نطقوا بالعربية الفصيحة، وهم أولُ القبائلِ العربية العاربة ثم البائدة..

[٥]

مسكن عاد في الأحقاف

نصَّ القرآنُ على المكان الذي كان يسكنُه قومُ عاد.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [الأحقاف: ٢١].

وقد سُميتْ سورةُ الأحقاف بهذا الاسم، لورودِ هذه اللقطةِ من قصةِ هودٍ مع عادٍ فيها.

فما معنى الأحقاف؟ ولما سميتْ بذلك؟ وما هو موقعُها الآن؟

الأحقاف هي كثبان الرمل:

الأَحقاف جمع «حِقْف».

قال ابن فارس في معنى «حِقف»: هو يدلُّ على ميلِ الشيء وعِوَجِه. يقال: احقَوْقَفَ الشيءُ إذا مال. وحاقِف مائل.

ولهذا قيل للرمْلِ المنحني حِقْف. وجمعُه أَحْقاف»[2].

وقالَ السمينُ الحلبي في كتابه «عمدةُ الحفاظ في تفسير أشرفِ الألفاظ» في معناه: «الأَحقافُ جمع حِقْف. وهو الكثيبُ من الرملِ المتحرك.

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ٨٩.

(٢) مقاييس اللغة لابن فارس ٢:٩٠.

قال امرؤُ القيس في معلقته:

فَلَمَّا أَجَزْنا ساحةَ الحَيِّ، وَانْتَحىٰ   بنا بَطْنُ خَبْتٍ ذي حقافٍ عَقَنْقَلِ[1]

وقال الأزهري: الحِقْف: الرملُ المستطيل. وقال الهروي: هو ما عَظُمَ واستدارَ من الرمال.. واحْقَوْقَف: أي: انحنى ومال. واحقوقَفَ الهلال: أي: اعوجّ.. وظبيٌ حاقِف: نائمٌ انحنى في نومه»[2].

فالأَحقافُ إذنْ هي: الكثبانُ الرمليةُ الكثيفةُ المتحركة المائلة المعوَجّة.

وقد سُميتْ منطقةُ «الأحقاف» بهذا الاسم: لطبيعتها الجغرافية، فهي منطقةٌ جغرافيةٌ واسعة، وكلُّها كثبانٌ رملية معوَجّة متحركة، تنقلُها العواصفُ الرملية الصحراويةُ الشديدة، من مكان إلى مكان، فترى هذا الكثيبَ الرملي ـ الحِقْف ـ هنا، وبعدَ حين ترى الريحَ قد نقلَتْه إلى مكان آخر.

وهي أرض بين عمان وحضرموت:

ومكانُ الأَحقاف على «الخارطةِ الجغرافية» الآن، هو الأرضُ الواقعةُ بين عُمان وبين حَضْرَموت.

قال ابنُ عباس: الأحقاف: وادٍ بين عُمان وأرضِ المَهَرَة.

وقال ابن إسحاق: أرض فيما بين عمان إلى حضرموت.

وقال قتادة: هي رِمالٌ مشرفةٌ على أرضِ الشِّحْر من أرضِ اليمن[3].

وقال ياقوت في «**معجم البلدان**» عن الأَحقاف وحضرموت: «حضرموت: ناحيةٌ واسعة، في شرقيِّ عدن، قرب البحر، وحولَها رمالٌ كثيرة تُعْرَفُ بالأحقاف، وبها قبرُ هودٍ عليه السلام، وبِقُرْبِهَا بئرُ بَرَهوت..»[4].

---

(١) الخبت: الواسع الفسيح. وحقاف: كثبان رملية. وعقنقل: رمل كثيف.

(٢) عمدة الحفاظ ١:٥٠٣.

(٣) القاموس المحيط للفيروزآبادي. طبعة مؤسسة الرسالة: ص١٠٣٥ حاشية.

(٤) معجم البلدان: ٢/ ٢٧٠.

والخلاصةُ من الأقوالِ السابقة أنَّ «الأحقاف» التي كانت تسكنها عاد، هي الآنَ كثبانٌ رمليةٌ عالية متحركة متنقلة، في الأرض الصحراوية الواقعةِ شمالَ حضرموت والمهرة والشِّحر، ما بين حضرموت وعُمَان.

وهي الآنَ تقعُ جنوبَ الربع الخالي، على الحدود بين اليمن وعُمان والمملكة العربية السعودية.

وبينما كانت «الأحقافُ» زمنَ عادٍ أرضاً زراعية خصبة، فإنها الآن صحراء قاحلة، لا يوجَدُ بها إلا كثبانٌ رملية متحركة.

[٦]
مظاهر قوة عاد

منحَ اللّهُ قومَ عاد قوةً كبيرة، لم يمنحْهَا لأيٍّ من القبائلِ الأخرى التي كانت حولَهم.

وقد سجلَ القرآنُ هذه الحقيقة. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [الفجر: ٦ ـ ٨].

إنَّ عادَ إرَم ذات العماد، قد منحها اللّهُ قوة، لم يُخْلَقْ مثلَها في باقي البلاد، أَي أنَّ قوةَ جميعِ القبائل الأخرى كانت أقلَّ من قوة عاد.

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩].

فاللّهُ زادَ قوم عاد بسطةً في الخَلْق، أي أنَّ أجسامَهم كانت قوية وضخمة، وزادهم بسطةً ومتانة وقوةً في أجسامهم عن الآخرين.

وقال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢].

إن اللّهَ أعطاهم من القوة ما أَعطاهم، ولكنهم إنْ آمنوا بالله واتبعوا منهجه زادهم قوة، إلى ما هم فيه من قوة.

وقال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣٠].

مِن مظاهرِ قوتهم المادية أنهم كانوا يَبنون القصورَ على رؤوس الجبال، ويُنشؤون المصانع، ويتمتَّعون بتقدمٍ مادي كبير.

ولكن هذه القوةَ الماديةَ التي منحهم الله إياها، لم يستخدموها في طاعةِ الله، والإحسانِ إلى عباده، لأنهم ليسوا مؤمنين. ولذلك استخدموها في استعبادِ الآخرين، وإيذائهم: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت: ١٥].

لقد اغترَّ قومُ عاد بقوتهم، وقادَهم هذا إلى الاستكبار في الأرض، واستعبادِ الآخرين، وقالوا: مَنْ أشدُّ منا قوة؟ ونسوا قوةَ الله.

[٧]

عاد إرم: ذات العماد لا مثيل لقوتها

إرم ذات العماد ليست مدينة أسطورية:

أَخبرتْ آياتُ القرآن عن عادِ إِرَمَ ذاتِ العماد، التي لم يُخلقْ مثلُها في البلاد، كما أخبرتْ عن إهلاكِ الله لعاد الأُولى.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾﴾.

فما هي إِرَم؟ وما معنى ذاتِ العماد؟ وكيف لم يُخْلَقْ مثلُها في البلاد؟

هناك كلامٌ كثيرٌ في الإِسرائيلياتِ والخرافات والأساطير، عن مدينةِ

أسطورية خيالية، سَمّوها مدينةَ «إِرَم»، ومدينةُ «إِرَم ذات العماد» قالوا عنها، إنها مبنيةٌ من قصورٍ وأعمدةٍ، من ذهب ورخام، وإنها متنقلةٌ في البلدان.

وهذا كلُّه أَساطيرُ وخرافات، فليستْ هناك مدينة اسمُها «إِرَم ذات العماد».

قال الإِمام ابن كثير: «ومَنْ زعمَ أن «إِرم» مدينةٌ تدور في الأرض، فتارةً في الشام، وتارةً في اليمن، وتارة في الحجاز، وتارة في غيرها، فقد أَبْعَدَ النجعة، وقالَ ما لا دليل عليه، ولا بُرهان يعوَّلُ عليه، ولا مسندَ يُرْكَنُ إليه..»[(١)].

إنَّ كلمةَ ﴿إِرَمَ﴾ في سورة الفجر ليستْ اسمَ مدينة كانت تسكنها عاد، وإنما هي بدلٌ من عاد، أو عطفُ بيانٍ لعاد. وعاد هي: عاد إرم.

و «إِرَم» اسمُ أحدِ أَجداد «عاد»، وسُميتْ قبيلةُ عادٍ باسمه، وكان يقال لها: عادُ إِرَم.

و «إرم» في اللغة هي الحجارةُ المرفوعة، قال ابن فارس في «مقاييس اللغة»: «والإِرَم: العَلَم. وهي حجارةٌ مجتمعة، كأنها رَجُلٌ قائم»[(٢)].

معنى «عاد إرم ذات العماد»:

و ﴿إِرَمَ﴾ في الآية بدلٌ من عاد: ﴿بِعَادٍ﴾ ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴿٧﴾﴾، مجرورةٌ بالفتحة بدل الكسرة لأنها ممنوعةٌ من الصرف، للعلمية والتأنيث.

و ﴿ذَاتَ﴾: صفة لعاد ـ أو إرم ـ مجرورة. وهي مضاف و ﴿ٱلْعِمَادِ﴾: مضاف إليه.

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ٨٨.

(٢) مقاييس اللغة ١ : ٨٥.

و ﴿ٱلَّتِى﴾: اسمُ موصول مبني، في محلِّ جر صفةٍ لعاد. والتقدير: غيرِ المخلوقِ مثلُها في البلاد.

إنَّ الآياتِ تتحدثُ عن عاد، التي هي عادُ إِرَم. وعادُ إِرَم هذه ذاتُ العماد. فكانت تسكنُ في بيوتٍ من الشَّعَر، أعمدتُها مرتفعةٌ وسطها، وتبني قصوراً ضخمةً على قمم الجبال، وبداخِلها أعمدةٌ مرفوعة، فهي بهذا الاعتبار: عادُ ذاتُ العماد.

وعادُ هذه أعطاها الله قوة، فلم يَخلقْ مثلَها في البلاد قبيلةً في قوتها وسلطانها.

فالآياتُ لا تتكلمُ عن مدينة ﴿إِرَمَ﴾ ذات العماد، التي لم يُخلقْ ولم يُبْنَ مثلُها في البلاد، ولم تماثِلْها أيةُ مدينة في البلاد.

وإنما تتحدثُ عن عادِ إرم، وعن أعمدتها، وعن قوتها. إن عاداً هي عادُ إرَم، وهي عادُ ذاتُ العماد، وهي عادُ التي لم يَخلق اللَّهُ في البلاد مثلَها في القوة والسلطان.

[٨]

هل هما عادان؟ أم عاد واحدة؟

هل عادُ قبيلةٌ واحدة؟ أم هناك «عادان» قبيلتان، حملتْ كلُّ واحدة اسمَ عاد؟

حجة من قال بعاد الأولى وعاد الثانية:

ذهبَ بعضُ المؤرخين والمفسِّرين إلى وجودِ قبيلتيْن، كلُّ واحدةٍ حملتْ اسمَ عاد، فهناك عادُ الأولى، وهناك عادُ الثانية.

وقالوا: عاد الأُولى: هي التي وُجدتْ بعدَ قوم نوح مباشرة، وبعثَ اللَّهُ لها هوداً عليه الصلاة والسلام نبياً، وقصَّ علينا قصتَه في القرآن. وهؤلاء أهلكهم الله بالصيحة.

وعاد الثانية: وهي قبيلةٌ ناشئة عن عاد الأولى، وبينهما عشراتُ السنين، وكانت هذه القبيلةُ بعدَ إبراهيم الخليل عليه السلام، ونبيُّهم رجلٌ آخر غيرُ «هود»، لم يَذكر القرآنُ اسْمَه، فلما كذَّبوه أهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية، التي سخّرَها عليهم سبعَ ليال وثمانيةَ أيام حسوماً!![1].

واستدلَّ هؤلاء على قولهم بدليليْن من القرآن:

الأول: قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾ [النجم: ٥٠ ـ ٥١].

وهي عاد التي كانت تسكنُ في «الأحقاف» والتي نبيُّها هودٌ عليه السلام.

الثاني: إخبارُ القرآن عن عذابيْن وقَعا لعاد. عذاب بالصيحة، وعذابٌ بالريح الصرصر العاتية.

فعاد الأُولى: أهلكَها اللّهُ بالصيحة، ولهذا قال عن هذا الإهلاك في سورة المؤمنون: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المؤمنون: ٤٠ ـ ٤١].

وعاد الثانية: أهلكها اللّهُ بالريح. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [الحاقة: ٦ ـ ٧].

الراجح أنها واحدة «الأولى» في القوة:

ولكننا نرى أنها «عادٌ» واحدة، وهي التي خلقها الله بعد نوح، وكانت تسكن «الأحقاف»، وجعلها أقوى قبيلة في البلاد، وبعثَ لها

(١) الإمام ابن كثير مع هذا الرأي. انظر قصص الأنبياء: ٩٩ ـ ١٠٢.

هوداً نبياً، فلما كَفرتْ به، أهلَكها اللّهُ بالريح، التي كانت مقدمتها الصيحة.

إنَّ قوله: ﴿أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ لا يلزمُ منه وجودُ عادٍ الثانية، وكلمةُ ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ في الآية لا يراد بها الأوليةُ العدديةُ التاريخيةُ الزمانية، حيث جاءَ بعدها في التاريخ الثانية والثالثة.

إنّ ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ في الآية تعني: الأوليةَ في الدرجةِ والمنزلة والمستوى والمرتبة، أوليةٌ بجانبها ما هو أقلُّ منها في المستوى والمرتبة.

نفهم ﴿عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ من خلال قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨﴾.

ومن خلال قوله: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟.

أي أنها: الأُولى في القوة والسلطان، في الزمنِ الذي وُجدتْ فيه، فلم توجَدْ قبيلةٌ أُخرى تماثِلُها أو تساويها في القوة.

ثم هي عاد الأُولى في الوجود، في المرحلة الثانية من تاريخ البشرية، هذه المرحلةُ التي بدأَتْ بعد الطوفان، فهي أولُ قبيلةٍ كافرة بعد الطوفان أَخبرَ عنها القرآن.

وأيضاً هي الأُولى في الإِهلاك، فهي أولُ قبيلةٍ أَهلكها اللّهُ بعد الطوفان.

هذه الأوليةُ لعادٍ بهذا الاعتبار، لا يستلزمُ منها وجودُ عادٍ أخرى ثانيةٍ بعدها. والله أعلم.

أما الهلاك، فنرى أنّ كلَّ الآيات في قصة عاد وهود، تتحدثُ عن عادٍ التي لا ثانيَ لها، فعادٌ قومُ هود أهلكهم الله بالصيحة، وبالريح الصرصر العاتية.

وكان هلاكُ عادٍ على مرحلتيْن:

المرحلة الأولى: الصيحة التي فوجئوا بها.

والمرحلة الثانية: الريح الصرصر التي سخرها الله عليهم فأبادتهم!.

[٩]

قصور عاد ومصانعهم

كان قومُ عادٍ متقدمين مادياً، وهذا من مظاهرِ قوتهم، وقد أَشارَ القرآنُ إلى بعضِ مظاهرِ التقدم المادي عندهم. قال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠)﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣٠].

قال الإمام الراغب عن الرِّيع: «الريعُ: المكانُ المرتفعُ الذي يبدو من بعيد. الواحدةُ ريَعة. ومعنى ﴿بِكُلِّ رِيعٍ﴾: بكلِّ مكانٍ مرتفع..»[(١)].

وقال عن المصانعِ المذكورةِ في الآية: «وعبَّر عن الأمكنة الشريفة بالمصانع». قال تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩)﴾[(٢)].

وقالَ السمين الحلبي عن المصانِع: «قوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾. قيل: هي مجاري الماء. وقيل: هي الأصْناع. مفردُها صِنْع. وهو الذي يُحْبَسُ فيه الماء. وقيل: المصانعُ ما شِيدَ من القصور، وزُخرفَ من الدور.

والكلُّ مراد، فإنَّ القومَ فعلوا كل ذلك»[(٣)].

معنى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨)﴾: تبنون بكلِّ جبلٍ مرتفع

---

(١) المفردات: ٣٧٢.

(٢) المرجع السابق ٤٩٣.

(٣) عمدة الحفاظ ٢: ٤١١ ـ ٤١٢.

قصراً، دليلاً على قوتكم، ولا تَبنون هذا للحاجة، بل للعبثِ والترف.

ومعنى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩﴾: تُنشؤونَ المصانعَ الكثيرةَ المختلفة، وتُتْقنونها وتُجيدونها، لعلكم تَخْلُدون في مساكنكم.

اتخذوها للسرف والبطر:

وقد أنكرَ عليهم هودٌ عليه السلام هذا الترفَ والبطرَ والسرف. كانوا يُكثرون من العمران والبناء، ويَزرعُونَ رؤوسَ الجبال وقِممَ المرتفعات بالقصور والدور، ويعتبرونَها آيةً وعلامةً ودلالةً على قوتهم وترفهم وغناهم.

وكانوا يبنونَ هذه القصورَ والآياتِ لأجلِ السَّرَفِ والبطر والعبث، يَعبثون فيها، ويَرْصدون أموالهم، ويُنفقون طاقاتهم في ذلك العبث!.

كما كانوا يتوسَّعون في «المصانع» ويُكثرون منها، ويَستخدمونها لمختلفِ الأَغراض، لعلَّهم يخْلُدون، فالقومُ كانوا متقدمين في المصانع والمزارع والبناء.

وهذا التقدمُ الصناعي، والرقيُّ العمراني عند قوم عاد، قادَهم إلى الترف والسرف، ونتجَ عن هذا الكفرُ بالله وإنكارُ الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٣٣].

وماذا يُنتجُ العبثُ والسرفُ غيرَ الترف والبطر.

والقومُ العابثون المسرفون المترفون، الذين لا يَرونَ إلاّ الدنيا، ولا يفكّرون إلا فيها، هل يؤمنون بالله؟ وهل يشكرونه؟ وهل يتذكّرونَ الآخرة؟ وهل يَعملون لها؟ هذا ما كان عليه قومُ عاد!!

[١٠]

قوة عاد وطغيانهم وفسادهم

نتجَ عن التقدمِ المادي لقوم عاد ـ المتمثلِ في القصور والمصانع

ومظاهر الترف ـ قوةً كبيرة، تميَّزوا بها عن مَنْ حولَهم من القبائل والأقوام والأمم.

بسطة أجسامهم وقولهم: من أشد منا قوة؟

لقد ذكَّرهم هودٌ عليه السلام بما منحهم الله من بسطة: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]. والبَسْطَة هي السَّعَة.

أي أنَّ اللَّهَ زاد أَجسامهم نَشْراً وسَعَة، فكانوا في أجسامهم أَضخمَ وأكبرَ من غيرهم، وكان لبَسْطةِ أجسامهم أثرٌ مباشر في قوتهم وتقدُّمِهم المادي.

ولا يعنينا «قياسُ» أجسامهم التي زادَها الله بَسْطة، في الطولِ والعرضِ والوزنِ والارتفاع، ولا يهمُّها تحديدُ أَطوالهم، وأوزانهم بالأرطال، وتسجيلُ «العماليق» فيهم. لأنَّ الخوضَ في هذا من الذهابِ للأساطير والإِسرائيليات.

كلُّ ما نقولُه: إنَّ الله زادَهم في الخلق بَسْطة، وكانوا بهذا متقدمين على غيرهم!

وقد اغترَّ قومُ عاد بقوتهم، ورأَوا أنفسهم أَقوى من غيرهم. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت: ١٥].

إنَّ القوةَ المادية عند غيرِ المؤمنين تغرُّهم وتُطغيهم، وتَعميهم عن رؤيةِ الحقائق، وتقودُهم إلى الاستكبارِ في الأرض، واستعبادِ الآخرين، وتُنسيهم قوةَ الله، وتجعلُهم يكفرون به، ويجحدون بآياته. وهذا هو «المرضُ» الخطيرُ الذي أصابَ قوم عاد، فانتفشوا وتاهوا وتجبروا، وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟.

المتصرفون بنفس منطق عاد في العصر الحديث:

وكمْ من الأمم والأقوام المتجبرين في الماضي، تصرَّفوا بمنطق ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾؟ كالفراعنة واليونان والرومان والفرس. ثم قصمهم الله وأبادهم!

وكم من الدولِ في العصر الحديث، تصرَّفوا مع الآخرين بمنطق ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾؟ فكيف كانتْ نهايتُهم: الإِسبانُ والبرتغاليون والهولنديون والإِنجليز والفرنسيون، وألمانيا النازية الهتلرية، والاتحادُ السوفياتي الشيوعي.

والذين يتصرفونَ في هذا العقد من الزمان بمنطق ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾؟ معروفون. إنهم الأمريكان، الذين يستخدمونَ قوَّتهم في استعبادِ الآخرين. واليهودُ، الذين يستخدمون قوتَهم في استعباد دول المنطقة وشعوبها!!.

ولكن ما الذي ينتظرُ الأمريكان واليهود؟

لقد استكبروا كما استكبرَ قومُ عاد، واستبدوا وطغوا كما استبدَّ وطغى قومُ عاد، وتساءَلوا كما تساءَل قومُ عاد، ولذلك ستكون نهايتُهم كنهايةِ قومِ عاد، وسيقصمهم اللّهُ كما قصمَ قومَ عاد!.

هذه هي سنةُ الله، وهذا هو منطقُ الحياة، وهذه هي شهادةُ التاريخ. ولكن كثيراً لا يعلمون!!.

عاد مستكبرون جبارون مفسدون:

قوةُ عادٍ قادَتْهم إلى البطش والتجبر والطغيان. قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠].

وقد جمعتْ سورةُ الفجر بين ثلاثِ أقوام، غرَّتْهم قوتُهم وأبطرتْهم، وقادتْهم إلى الطغيان والإِفساد في البلاد، وهم: عاد، وثمود، وفرعون.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ [الفجر: ٦ ـ ١٤].

لقد سارَ هؤلاء الأقوامُ الثلاثة: قومُ عاد، وقومُ ثمود، وقومُ فرعون، في الطريق المحتوم، خطوةً خطوة، ومرحلةً مرحلة، وشوطاً شوطاً:

إنعامٌ من الله عليهم، تمكينُهم من مظاهر القوة، استخدامُ هذه القوة في الطغيانِ والاستعبادِ لأهل البلاد، الإكثارُ من الفساد في أنفسهم، ثم الإفسادُ لغيرهم، ونشرُه بين الناس، تعذيبُ الله لهم بسبب طغيانهم وإفسادهم.

وكلُّ دولة أو أمة، تَسيرُ على نفس الطريق المحتوم بهذه المراحلِ والخطوات والمحطات، تصلُ في النهاية إلى الهلاك والدمار: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤﴾!!.

[١١]

دعوة هود عليه السلام لعاد

قال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٦٥﴾ [الأعراف: ٦٥].

هودٌ عليه السلام هو أَخو عاد، فهو واحدٌ منهم، لأنَّ سنةَ الله في إِرسالِ الرسل، أنه يختارهم مِن أشرفِ بيتٍ من بيوتِ أَقوامهم، وهذا أَدعى إلى أَنْ يعرفوه ويؤمِنوا به ويتَّبعوه.

ولما بعثه الله لهم رسولاً، قامَ بإبلاغِهم رسالتَه، ودعوتِهم إلى الله.

هود يدعوهم إلى عبادة الله وحده:

وقد بدأ دعوتَه لهم. بمخاطبتهم بغايةِ التقرُّب والتحبُّبِ، حيثُ قال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾، وذلكَ ليرقَّقَ قلوبَهم، ويفتَحوا آذانَهم، فهو أَخوهم أَوّلاً، ثم هو واحدٌ منهم، لأنهم قومُه وأهلُه وعشيرتُه، وهو حريصٌ على تقديمِ الخير لهم، ودفْعِ الضرِّ عنهم.

ثم تحببَ إليهم بأسلوبِ الترهيب بعد الترغيب، فقال لهم: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝١٣٥﴾ [الشعراء: ١٣٥].

إِنهم عندما يعلمون حرصَه على نصحِهم وإرشادِهم، وشفقَتَه عليهم، وخوفَه من وقوع العذاب بهم، سيهتمون بكلامِه، ويستمعون لدعوتِه، هذا إنْ كانوا يفقهون!.

وبعدَ ما تقربَ هودٌ إلى قومه، قدمَ إليهم خلاصةَ دعوته: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

هذه خلاصةُ دعوةِ هودٍ لقومه، وخلاصةُ دعوةِ كلِّ رسولٍ لقومه، وهي العبارةُ نفسُها التي قالَها كل رسول، وأَوردَها القرآنُ في قصته: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ﴾.

إنَّ الرسالةَ هي تحديدُ «الألوهية.. والعبودية» مَنْ هو الإلهُ المعبود؟ إنه الله ربُّ العالمين، لا إلهَ غيرُه، ولا ربَّ سواه. ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ﴾.

وكلُّ ما سوى الله مخلوق، فهو عبدٌ لله، الأصْلُ أنْ يكون عابداً له، خاضعاً لأمره: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾. فكلُّ إنسانٍ مطالبٌ بإفرادِ الله بالعبادةِ والطاعة.

وقد ذكَّرهم هودٌ بنعم الله عليهم، واستخلافِهم بعد قوم نوح: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

وأخبرهم أنه لا يريدُ منهم أجراً ولا مالاً ولا منفعة، مقابلَ دعوتِه لهم، وإنما يقومُ بواجبه الذي أوجبه اللَّهُ عليه، في تبليغِهم الدعوة: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف: ٦٨].

﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [هود: ٥١].

ويذكرهم بسنن الله:

وأنكرَ عليهم هودٌ ترفَهم وبطشَهم وتجبُّرَهم. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ [الشعراء: ١٢٤ ـ ١٣٥].

ورَبَطَ لهم هودٌ عليه السلام بين القيم الإِيمانية والسننِ الكونية، وبيَّنَ لهم أَثَرَ الإِيمان بالله وطاعتِه واستغفارِه، وترْكِ معاصيه والتوبة إليه، في الرخاءِ المادي، والوفرِ الاقتصادي، والتمكينِ الحضاري، وهذا في قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود: ٥٢].

وهذه سنةٌ ربانيةٌ من سنن الله، تحكمُ حياةَ البشرية، إنَّ الكونَ وخيراته بيد الله وحده، يُنعمُ بما يشاء منها على مَنْ يشاءُ مِن عباده، وإذا آمنَ الناسُ بالله، وعبدوه وأطاعوه، ووظفوا قُواهم في عمارة الأرض، وابتعدوا عن معاصي الله، وتابوا إلى الله واستغفروه، فإن اللَّهُ يُنعمُ عليهم بالمزيد من النعم، ويَزيدُهم خيراً إلى خيرهم، وقوةً إلى قوتهم..

أما إذا رفضوا هذا الطريق، وتولَّوا مجرمين، فإن الله يسلُبُهم هذه النعم، أو يجعلُها سبباً في شقائهم، ويوقعُ بهم العذابَ والهلاكَ!.

[١٢]

شبهات عاد ورد هود عليها

لم يَستجبْ قومُ عاد لدعوةِ أَخيهم هودٍ عليه السلام، وإنما كفروا به وكذَّبوه، وأَصرّوا على إثارةِ شبهاتٍ ضدَّ دعوته، وقد ردَّ هودٌ عليه السلام على شبهاتهم، وفنَّدَ أباطيلَهم.

وقد سجلتْ آياتُ القرآن تلكَ الشبهات، وردَّ هودٍ عليه السلام عليها.

اعتراضهم على البشرية وطلبهم معجزة:

١ ـ هو بَشَرٌ مثلُهم. وكيف يكون النبيُّ بشراً؟: قالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝٣٤﴾ [المؤمنون: ٣٣ ـ ٣٤].

وهو رجلٌ منهم، ولو كان رسولاً ما كان رجلاً منهم.

وقد أزالَ هودٌ عليه السلام استغرابَهم من بشريتِه، وكونِه بشراً مثلهم، ورجلاً منهم، يشابهُهم في البشرية ويشاركهم الطعام والشراب بقوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٩].

لقد اختارَ اللّهُ رجلاً منكم بَشَراً مثلَكم، وأنزلَ عليه الذكْر، وبعثَه نبياً لكم لينذركم، وهلْ في هذا ما يدعو إلى العَجَبِ والاستغراب، أو التكذيبِ والإِنكار؟ فلماذا تعجبون أنتم من ذلك؟.

٢ ـ لم يُقدِّمْ لهم معجزةً أو آيةً بينةً على صدق رسالته ونبوته: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣﴾ [هود: ٥٣].

ولم تذكُرُ آياتُ القرآن معجزةً لهودٍ عليه السلام، كالمعجزات التي جعلَها اللّهُ لأنبياءَ آخرين، مثل: ناقة صالح، وعصا موسى عليهما السلام.

وقد تكونِ مع هودٍ عليه السلام معجزةٌ مادية كبرى، كمعجزاتِ باقي الأنبياء، ولكنَّ الآيات لم تذكُرْها، لأنها لم تفصِّلْ كلَّ جزئياتِ قَصصِ الأنبياء.

وقد لا تكون مع هود عليه السلام معجزةٌ مادية، ولكنه اكتفى بالآية الربانية الكبرى، وهي نجاةُ نوح والمؤمنين معه في السفينة، لما غمرَ الماءُ كلَّ شيء، حيثُ جعلَ اللّهُ سفينةَ نوح آيةً وعبرة وعظة للناس، وقومُ عادٍ هم أولُ قوم وُجدوا بعد نجاةِ نوح ـ كما سبقَ أنْ قُلْنا ـ فكان حادثُ السفينة قريباً من ذاكرتهم، حيّاً ساخناً مؤثّراً في كيانهم، فاكْتُفيَ به آية ومعجزة وبيِّنة. والله أعلم.

رفضهم دعوته واتهامه بالجنون والكذب:

٣ ـ استغربوا منه دعوتَه إلى الإِيمانِ بالله وحده والكفرِ بالآلهةِ المدَّعاة، وعبادةِ الله وحده، وعدم عبادة الآلهة التي ورثوها عن آبائهم: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠].

وسجَّلوا هذه الشبهة أيضاً بقولهم له: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ [الأحقاف: ٢٢].

٤ ـ رفضوا دعوةَ هودٍ عليه السلام لهم للإيمان بالبعث بعدَ الموت، ومجيءِ اليوم الآخر، واعتبروا الدنيا هي كلَّ شيء، وأنَّ مَن ماتَ فقد مضى وانتهى، وهذا هو خلُقُ الأولين، حيث ماتوا وصاروا تراباً.

قال تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا

﴿نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٥ ـ ٣٧].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الشعراء: ١٣٦ ـ ١٣٨].

٥ ـ اتَّهموه بالجنون، حيث مسَّته آلهتُهم بسوء، وجعلَته بدونِ عقل، لأن هذه الآلهة تعاقب من كفر بها، وتمسه بسوء: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤].

٦ ـ اتَّهموه بالسفاهة، لدعوته إلى توحيدِ الله وإفرادِه بالعبادة، وتركِ عبادة الآلهة والأصنام، وأرادوا بهذا اتهامَه بالخفة والطيش، لتنفيرِ الناس منه.

وقد ردَّ عليهم بأن نفىٰ عن نفسه السفاهةَ والخفةَ والطيش، وأثبتَ لنفسه الرزانة الناتجةَ عن الرسالة والتبليغ.

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف: ٦٦ ـ ٦٨].

اتَّهموه صراحةً بالكذب والافتراء، قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [المؤمنون: ٣٨].

٨ ـ طلبوا منه إيقاعَ العذابِ بهم، فقد سبقَ أنْ أنذرهم عذابَ الله، إن استمروا على كفرهم، وأخبرهم بشفقتِه وخوفه عليهم، وبدلَ أنْ يَقبلوا دعوتَه، ويتجنَّبوا ما خوَّفهم منه، عاملوه بتبجُّح، حيث طلبوا منه الإِسراعَ بتعذيبهم، وتقديمِ ما يَعِدُهم به من الهلاك!.

وقد أخبرهم أنَّ إيقاعَ العذاب بهم ليس بيده، إنما هو بيدِ الله وحده، وما عليه إلا أن يبلغهم ما أمره الله بتبليغه.

قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأحقاف: ٢٢ ـ ٢٣].

وقال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾.

[١٣]

هود يتحدى قومه الكافرين

قامَ هودٌ عليه السلام بدعوةِ قومِه إلى الله، وسلَكَ معهم مختلفَ الأساليب، للتأثيرِ فيهم، واستجابَ له عددٌ قليلٌ منهم، لم يذكر القرآنُ عددَهم.

والأكثريةُ منهم أصرّوا على الكفر بالله، وتكذيبِ هود عليه السلام، وقد اتهموه باتهاماتٍ باطلة، وأثاروا على دعوته شبهاتٍ منكرة.

فماذا بقيَ أَمامَ هود عليه السلام؟

هود يتحداهم ويتبرأ منهم:

لم يَبْقَ إلا إعلانُ البراءةِ منهم، ومِنْ معبوداتهم الباطلة، والجهرُ بهذه البراءة، وإشهادُهم عليها، ثم تحديهم تحدياً صريحاً واضحاً.

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

إنَّ هوداً عليه السلام يقدِّمُ لنا في هذا الموقف العظيم «مَعْلماً أساسياً» من معالمِ الدعوة إلى الله، ومواجهة الكافرين والظالمين.

إنه البراءةُ من الباطل وأصحابه، ومفاصلتُهم وعدمُ الالتقاء معهم، وعدمُ مداهنتِهم أو ملاينتِهم: ﴿أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾.

وبعد البراءةِ والمفاصلة تأتي الخطوةُ التالية: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾، إنها مواجهةُ أصحابِ الباطل، وتحديهم، والجهرُ بالحق أمامهم، والثباتُ عليه، وجهادُهم به.

إنها «استعلاءُ الإيمان» في نفس المؤمن، وامتلاءُ القلب به، وعدمُ الخوف من أصحاب الباطل، أو الرهبةِ والخشيةِ والقلق والاضطراب أمامهم، واستخفافُ مظاهرِ قوتهم المادية، والاستهانةُ بها، وعدمُ الاحتمال بها، وذلك لضمانِ الثبات على الحق، وعدمِ الهزيمة أمامَ الباطل.

يتحدّاهم هودٌ عليه السلام بقوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا﴾: امكروا بي، وتآمروا عَلَيّ، واجتَمِعوا جميعاً على الكيد والتآمر، واستَعينوا بمن تَقْدرون عليه، واتَّخذوا لذلك كل ما تملكون مِن وسائلِ القوة والكيد والتآمر، ثم وجِّهوا لي كلَّ كيدِكم وقوتِكم وحقدِكم وأَتباعِكم، وحارِبوني به، واهجموا عليَّ فجأة، ولا تُمهلوني أو تُنظِروني أو تُخبروني!!.

افْعلوا ذلك بي، فلن أهتمَّ بكم، ولن أضعفَ أمامكم، ولن أتخلّى عن ما أنا عليه من الحق.

ثم يقدمُ هودٌ عليه السلام التعليلَ الصائبَ لموقفه هذا، التعليلَ الإيمانيَّ الذي دفعه لهذا الاستعلاء والثبات والتحدي والمواجهة: ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾.

سر ثباته وتحديه:

لقد امتلأَ هودٌ عليه السلام إيماناً بالله، وتوكُّلاً واعتماداً عليه، لقد استندَ إلى قوةِ الله، وأيقنَ به، فلماذا يهابُهم؟ ويضعفُ أَمامهم؟ وماذا

تساوي قوتُهم الضعيفةُ أمامَ قوةِ الله القاهرة؟.

إنَّ هوداً عليه السلام نظرَ إلى قوةِ عادٍ بالمنظار الإيماني، ولا ننسى أنه لم تماثِلْ قوتَهم أيةُ قوةٍ بشرية أُخرى، إنها عاد ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨﴾.

قوتُهم العظيمة ليست شيئاً أَمام قوةِ الله وهم دوابٌّ نواصيهم بيدِ الله!.

نعم. هم دوابّ، نواصيهم بيدِ الله. هذا ما قاله لهم: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ۝٦٥﴾.

إِنَّ الدابةَ الذلول، الخاضعةَ لصاحبها، لا تُخيفُ أحداً، لأنها لا تتحركُ إلا بأمر صاحبها، ولا تُؤذي إلا بتوجيهِ صاحبها، فهو الذي يقودُها من ناصيتها، ويحرِّكُها ويوجِّهها كما يشاء.

وقومُ عاد الأقوياء، قوتُهم ليستْ ذاتية، إنما هي سببٌ من الله، اللّهُ هو الذي منحهم القوة، يسلُبُها منهم متى يشاء، واللّهُ هو الذي يملكُهم، ويأخذُ بنواصيهم، ويوجِّههم ويحرِّكهم حيث يشاء. هذه حقيقةُ قوتِهم من خلال المنظارِ الإيماني، الذي نظرَ به هودٌ عليه السلام، فرآهم على حقيقتهم، بدون انتفاشٍ أو استكبار، وعرفَ قوتَهم الضعيفةَ القاصرةَ على حقيقتها، بدونِ ادعاءٍ أو انتفاخ.

وهذا ما يحتاجه كلُّ داعيةٍ إلى الله، يواجهُ أصحابَ الباطل، ممن يَزْهون بقوتهم المادية، إذ لا بدَّ أن يتعاملَ معهم بمنطقِ هودٍ عليه السلام: ﴿أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ﴾.

يجبُ على الدعاة إلى الله أنْ ينظُروا إلى قوةِ خصومِهم بالمنظارِ الإيماني، وأن يعرفوا قوتَهم على حقيقتها، وأنْ يضعوها أمامَ قوةِ الله القاهرة، ليتمكّنوا من الثبات والمواجهة، والجهادِ والتحدي!!.

[١٤]

الريح الصرصر في الأيام النحسات

هود أدى واجبه وانتظر ساعة الفصل معهم:

لما كذبَ قومُ عادٍ أخاهم هوداً عليه السلام قالَ لهم ما أخبرتْ عنه آياتُ القرآن.

منها قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأعراف: ٧١].

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ [هود: ٥٧].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأحقاف: ٢٢ ـ ٢٣].

وبعدما أَصَرَّ قومُه على الكفرِ والتكذيب، دعا اللَّهَ عليهم، وطلبَ من ربه أنْ ينصُرَه، وأنْ يهلكَ أعداءَه الكافرين، فأخبرَه اللَّهُ أنَّ العذابَ قادمٌ إليهم، وعن قريبٍ يهلكون ويندمون. قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [المؤمنون: ٣٩ ـ ٤٠].

لقد أدى هودٌ عليه السلام واجبَه تجاهَ قومه، وبلَّغهم رسالةَ الله، وآمَنَ به قليلٌ من قومه، وكفرَ به وكذَّبه أغلبيةُ قومه. واختارَ كلٌّ طريقَه ودينَه، وانتهى الأمر، فماذا بقيَ بعدَ ذلك؟.

لم يبقَ إلاّ تَحققُ سنةِ الله في تعذيبِ القوم الكافرين، ونجاةِ المؤمنين الصالحين مع هودٍ عليه السلام، وهذه هي نهايةُ كلِّ قومٍ كافرين، وخاتمةُ كلِّ نبيٍّ من المرسلين!.

عذاب عاد على مرحلتين:

قدرَ اللَّهُ أنْ يعذبَ قومَ عادٍ بالريح الصرصر العاتية، التي سخّرَها عليهم في أيامٍ نحسات، وكانت سبعَ ليال، وثمانية أيام متتابعة.

وكانت هذه الريحُ الشديدة، بعد الصيحةِ التي سبقَتْها.

لقد كان عذابُ عادٍ بالريح على مرحلتيْن:

المرحلة الأولى: الصيحة. وهي صيحةٌ أخذَتْهم فجأة، وكانت ممهِّدةً للريح العاتية. قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المؤمنون: ٤١].

لما أخذَتْهم الصيحةُ تركَتْهم غثاء، أي أنهم لما أهلكهم اللَّهُ بالصيحة ثم بالريح، صاروا غثاءً كغثاءِ السيل ـ وهو ما يحملُه السيلُ معه من النبات اليابس والقذر ـ لا خيرَ فيهم، ولا يُعتدُّ بهم.

المرحلة الثانية: الريحُ الصرصرُ العاتية، التي سخّرها عليهم ثمانيةَ أيام متتابعات.

هذه الريحُ جاءتْ بعدَ الصيحة، حيث جمعَ اللَّهُ عليهم الصيحة والريح.

قال الإمام ابن كثير: «ولا يَمنعُ من اجتماعِ الصيحة والريحِ العاتية عليهم، كما سيأتي في قصةِ مَدْيَنَ أصحابِ الأيكة، فإنه قد اجتمعَ عليهم أنواعٌ من العقوبات..»[(١)].

وقد ذكرتْ آياتُ القرآن بعضَ التفاصيلِ في إرسالِ الريح عليهم، وفي تعذيبِهم وهلاكِهم.

سحاب مدمر ظنوه ممطراً:

أشارت الآياتُ إلى أنَّ اللَّهَ حبسَ عن قومِ عاد المطر، فأصابهم

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ٩٢.

المحلُ والجدبُ والقحط، وكانوا متلهّفين للمطر والغيث، متشوّقين للسحاب الحامل للماء.

فأراهم الله السحاب، قادماً إليهم، مستقبِلاً لأوديتهم، مبالغةً منه سبحانه في السخرية منهم، وإيقاعِ الحسرةِ والأسى في نفوسهم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الأحقاف: ٢٤].

والعارضُ المذكورُ في الآية هو السَّحاب، قال السمينُ الحلبي: «والعارضُ البادي عَرْضُه. وتارةً يختصُّ بالسحاب، قال تعالى: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ أي: سحابٌ قد عرضَ في الأفق.

وقد استخدمَ الفرزدقُ العارضَ بمعنى السحاب في قوله:

يـا مَـنْ رَأى عـارِضـاً أُكَـفْـكِـفُـهُ بَـيْـنَ ذِراعَـيْ وَجَـبْـهَـةِ الأَسَـدِ[1]

فرحَ قومُ عادٍ بالسحاب الذي عرضَ وظهرَ لهم في الأفق، واستبشروا به، وظنّوه سحاباً ماطراً، وغيثاً مغيثاً، وقالوا: هذا عارضٌ ممطرنا.

﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ هو العذابُ الذي استعجلوا بطلبه من هود عليه السلام، وقالوا له: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. فها هو قد جاءَهم ما وعدَهم به من العذاب: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

الريح العقيم هي الدبور الشرقية:

هذه الريحُ التي ساقت العارضَ إليهم سماها اللّهُ الريحَ العقيم، قال تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: ٤١ ـ ٤٢].

---

(١) عمدة الحفاظ للسمين الحلبي ٣: ٦٨.

و «العقم» وصفٌ للمرأةِ العاقرِ التي لا تنجب. يقال: هذه امرأةٌ عقيم: لا تحملُ ولا تَلِد.

وإطلاقُ صفة «العقم» على الريح، للمبالغةِ في بيانِ ما تحملُه من دمارٍ وهلاكٍ لقوم عاد.

إن الأصلَ في الرياحِ أن تكونَ بشرى للناس، تحملُ معها الغيث والمطرَ والنفعَ والرخاء والبشرى والأمل. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [الروم: ٤٨ ـ ٤٩].

أمّا أنْ تسوقَ الريحُ التي وجَّهها الله إلى عادٍ السحاب، وأنْ لا يكونَ مطرٌ ولا غيثٌ في هذا السحاب، فهذا هو العُقْم بعينه.

إنها ريحٌ عقيم، بدون غيثٍ أو مطر، وبدون نفع وبشرى، فهي مدمّرة: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾.

هذه الريحُ العقيمُ كانت ريحاً شرقية دبوراً نَحِسَة، كما أخبَرنا عنها رسولُ الله ﷺ.

فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إني نُصِرْتُ بِالصَّبا، وإنَّ عاداً أهلكَتْ بالدَّبور»[1].

والصَّبا هي: ريحُ الصَّبا التي نصرَ اللَّهُ بها رسولَه ﷺ على كفار قريش، في معركةِ الأحزاب.

قال الفيروزابادي عن ريح الصَّبا: «والصَّبا ريح، مهَبُّها منْ مطلعِ الثُّريا إلى بناتِ نعش»[2].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ١٠٣٥ ومسلم برقم: ٩٠٠. انظر الأحاديث الصحيحة: ٦٢.

(٢) القاموس المحيط: ١٦٧٩.

وهي ريحٌ تحملُ معها الخير والبشرى، وعندما تهبُّ في موسم الأمطار، يكون مطرُها غيثاً مغيثاً نافعاً.

وريحُ الدَّبور عكسُ ريح الصبا، وهي التي يتشاءَمُ بها الناس، وتكونُ جافةً شديدة.

وريحُ الصَّبا الماطرة ريحٌ غربية غالباً، وريحُ الدَّبور الجافةُ ريحٌ شرقية غالباً.

لما هبّتْ ريحُ الدَّبورِ الشرقيةِ الجافة على قوم عاد، وساقَتْ معها السحابَ الأسود، عارِضاً مستقبلَ أوديتهم، ظنّوه غيثاً ماطراً: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾.

ما كل سحاب ماطراً وخشية الرسول منه:

لقد أخطأت عادٌ الظنَّ والنظر، وخُدعوا بما شاهدوا من العارضِ الأسودِ الذي اعترضَ أفقهم وغطّاه، واعتبروه غيثاً وفَرَجاً ورخاءً، وما دروا أنه يحملُ لهم العذابَ والدمار.

وما كلُّ سحابٍ ماطراً، ولا كلُّ مطر نافعاً، فقد يكونُ السحاب أسود، لكنه جافٌ ماحِلٌ لا ماءَ فيه، وقد تكونُ معه الصواعقُ والعواصفُ المدمرة.

وكان رسولُ الله ﷺ إذا هبت الريحُ خشيَ أنْ يكونَ فيها الدمارُ والهلاك، فيسألُ اللَّهَ خيرها، ويعوذُ بالله من شرها، ويبقى وَجِلاً خائفاً إلى أنْ تنتهي، أو ينزلَ المطر!.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: كان رسولُ الله ﷺ إذا عَصفت الريح، قال: اللهمّ إني أسألك خيْرَهَا، وخيْرَ ما فيها، وخيرَ ما أُرسلتْ به، وأعوذُ بك من شرِّها، وشرِّ ما فيها، وشرِّ ما أُرسلت به.

قالت: وكان إذا غُيِّبت السماءُ بالسحاب تغيَّرَ لونُه، وخرجَ ودخل، وأَقبلَ وأدبر، فإذا أَمطرتْ سُرِّيَ عنه.

فعرفَتْ ذلك عائشة، فسأَلتْه، فقال: لعله يا عائشةُ كما قالَ قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾.

وفي روايةٍ أُخرى أخرجها البخاريُّ ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ مُسْتَجْمِعاً ضاحِكاً قط، حتى أرى منه لَهَواتِه. إنما كانَ يبتسم.

قالت: وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً، عُرِفَ ذلك في وجهه. فقالت له: يا رسولَ الله إنَّ الناسَ إذا رأوا الغيمَ فرحوا، رجاءَ أنْ يكونَ فيه المطر، وأَراكَ إذا رأيْتَه عُرِفَ في وجهك الكراهية؟

قال: يا عائشة ما يُؤمنني أنْ يكونَ فيه عذاب!! قد عُذبَ قومُ نوح بالريح. ورأى قوم العذابَ فقالوا: هذا عارض ممطرنا!![1].

كانت ريح عاد صرصراً عاتية:

هذه الريحُ العقيمُ المدمرةُ التي أرسلَها الله عليهم، استمرت في هبوبها وشدتِها وتعذيبها لهم ثمانيةَ أيام متتابعة. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٦ ـ ٧].

وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [فصلت: ١٦].

الأيامُ النَّحِساتُ المذكورة في سورةِ «فُصِّلَتْ» مبهمة من حيث العدد، وقد فَصَّلت سورةُ الحاقة عددَها، وأَزالتْ إِبهامها، فهي ثمانيةُ أيام متتابعة!.

---

(١) أخرجهما البخاري برقم: ٣٢٠٦، ٤٨٢٨. ومسلم برقم: ٨٩٩. الأحاديث الصحيحة رقم: ٦٠ ورقم ٦١.

وكان هبوبُها الشديدُ المدمرُ في كلِّ يوم من هذه الأيام الثمانية، مستمراً طيلةَ ذلك اليوم، مستغرِقاً ليلَه ونهارَه، وكلَّ ساعةٍ ودقيقة فيه، لم تتوقَّف ولم تضعُفْ ولم تَخفِتْ لحظةً واحدة. قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٨ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩﴾ [القمر: ١٨ ـ ١٩].

والريحُ الصرصر: الريحُ الباردةُ شديدةُ البرودة.

وأَساسُ «صَرْصَر» هو «صِرّ». والصِّرُّ هو البردُ الشديد. وعلى هذا قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمرآن: ١١٧].

قال السمينُ الحلبي في معنى «صرصر»: «ريحٌ صَرْصَر: شديدةُ البرودة. وهي من الصِرّ. وإنما كُرِّرَ اللفظُ دلالةً على تكرار المعنى، كما قالوا «صَلْصَلْ» من «صِلّ» وأصْلُ الصِّرِّ بمعنى العَقْدِ المُحْكَم، وبمعنى الشّدّ»[1].

هذه الريحُ كانتْ ريحاً صرصراً باردةً شديدةَ البرودة، وكانت عاتية.

ومعنى «عاتية» هنا: المبالغةُ والشدةُ في هبوبِها وسرعتِها واستمرارِها، فهي قد تجاوزتْ حَدَّها الأول[2]، وسرعَتَها المعتادة، فزادت من سرعتها وشدتِها وبرودتها واستمرارها، حتى وصلت إلى كلِّ بيتٍ لهم، وكلِّ شخصٍ منهم.

وقد أخبرَنا اللَّهُ أن هذه الريحَ قد استمرتْ مسخرةً عليهم ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾.

والحُسوم هيَ المتابعة، التي أدى استمرارُها وتتابُعها طيلةَ هذه

---

(١) عمدة الحفاظ ٢:٣٨٣.

(٢) المرجع السابق ٣:٣٦.

الأيام الثمانية إلى قطْعِ الخيرِ عن قوم عاد، ثم قطْعِ أَعمارِهم وآثارهم وأَخبارهم.

في سبع ليال وثمانية أيام حسوم:

إنَّ أساسَ معنى «الحسم» هو القطعُ وإزالةُ الأثر.

قال الراغب: «الحَسْم: إزالةُ أثرِ الشيء. يقال: قَطَعَه فحَسَمَه، أي: أزالَ مادتَه. وبه سُميَ السيفُ حساماً. وحَسْمُ الداء: إزالةُ أثره بالكيّ.

و ﴿وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾، حاسمةً لأثَرهم، وقيل: حاسمةً لخبرهم، وقيل: قاطعةً لأعمارهم. وهذه الأقوالُ كلُّها داخلةٌ في عموم المعنى»[١]

واعتبرَ ابن فارس سببَ تسميتها بالحسوم، لأنها حسمت الخيرَ وقطعَتْه عن قوم عاد[٢].

وكلُّ يوم من هذه الأيام الحسومِ الثمانية نَحس: ﴿رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾.

ومجموع هذه الأيام الثمانية أنها أيامٌ نَحِسات: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾.

قال الراغب في معنى النحس: «النَّحْس: ضدُّ السّعد. وقيل في معنى ﴿نَّحِسَاتٍ﴾: مشؤومات. وقيل: شديداتُ البرد.

وأصْلُ النحس: أنْ يَحْمَرَّ الأُفقُ، فيصير كالنحاس. أي: لهبٌ بلا دخان. فصار ذلك مَثَلاً للشؤم»[٣].

---

(١) المفردات: ٢٣٥.

(٢) معجم مقاييس اللغة ٢: ٥٧.

(٣) المفردات للراغب: ٧٩٤.

وقد أخبرنا اللَّهُ أنْ الريحَ الصرصرَ العاتية استمرتْ عليهم ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾.

وهذا يعني أنَّ هُبوبَها عليهم كان من صباحِ أَحدِ الأيام، ومنذُ شروقِ شمسِ ذلك اليوم، وطُلوعِ نهاره. واستمرتْ ثمانيةَ أيام شديدةً متتابعة.

والأيامُ الثمانية تضمُّ سبعَ ليال، فلو أَرَدْنا أنْ نعدَّ ثمانيةَ أيام من السبت، إلى نهايةِ السبت الثاني مثلاً، فإننا نجدُ فيها سبعَ ليال.

قال الإمام الراغب في معنى اليوم: «اليومُ يعبَّرُ به عن وقتِ طلوع الشمس إلى غروبها، وقد يعبَّرُ به عن مدةٍ من الزمان. أيُّ مدةٍ كانت»[1].

[١٥]

قوم عاد صرعى كأعجاز نخل خاوية

حكمة الله في تعذيبهم بالريح القوية:

اغترَّ قومُ عاد بقوتهم، وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، ونسوا قوةَ الله الذي خلقهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾.

وقد شاءَ اللَّهُ أنْ يسخرَ عليهم الريحَ القويةَ الشديدة الباردة المتتابعة، ليقضي بها على قوتهم، ويحسمَ بها أخبارَهم، ويقطعَ بها أعمارَهم، ويُزيلَ بها حياتَهم ووجودَهم.

ولهذا قالَ تعالى عن إهلاكهم: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: ٤١ ـ ٤٢].

كلُّ ما مرتْ عليه الريحُ من الناسِ الكفار، جعلَته كالرميم.

---

(١) المرجع السابق: ٨٩٤.

والرَّميم من الرِّمَّة. والرِّمَّةُ هي العظامُ البالية.

ومنى ﴿جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ جعلتْ هذه الريحُ كلَّ كافرٍ من قوم عاد كالحطام المدروسِ البالي، والورقِ المفتوت المطحون. فأصبحَ كالترابِ والرماد(1).

وقال تعالى عن إهلاكهم: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المؤمنون: ٤١].

والغثاءُ هو ما حملهُ السيلُ من التافهِ الذي لا فائدةَ فيه، ولا نفعَ منه، من العشبِ اليابس والورقِ التالفِ وغير ذلك.

وقد شبهَ القرآنُ قومَ عاد بعدَ الهلاك بأعجازِ النخل المنقعر.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [القمر: ١٩ ـ ٢٠].

وقالَ عن نفسِ الموضوع في سورةِ الحاقة: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة: ٧ ـ ٨].

ونتوقفُ لحظةً لنحاولَ التعرفَ على حكمةِ الفرْقِ بين التشبيهَيْن في السورتيْن، والاختلافِ في المشبَّهِ به فيهما.

تحليل تشبيههم بأعجاز النخل المنقعر:

ففي سورة القمرِ شبّه هلاكَ قومَ عادٍ بأعجازِ النخل المنقعر، وفي سورة الحاقة شبههم بأعجازِ النخل الخاوية.

إنَّ أعجازَ النخل هي أوائلُها مما يلي الأرض، التي تكونُ فوقَ جذورها، ومعلومٌ أنَّ النخلةَ طويلةُ القامة، وقومُ عاد كانوا طويلي القامات، ضخامَ الأجسام ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾.

---

(1) عمدة الحفاظ للسمين الحلبي ٢:١٢٨.

واستحضارُ صورِ بستانِ نخْلٍ عصفتْ به العواصفُ الهوجاء ثمانيةَ أيام متتابعات، فاجتثتْ ذلك النخلَ من الأرض اجتثاثاً، وقعرتْه قعراً، وقلَعَتْه من قعره وجذوره، وألقَتْه على وجه الأرض، يقربُ للخيال صورةَ إهلاكِ قوم عاد.

في سورةِ القمر قال تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾.

قال الراغبُ في معنى منقعر: «قَعْرُ الشيء أسفلُه. وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾: ذاهبٌ في قَعْرِ الأرض، وقال بعضُهم: انقعرت الشجرة: انقلعتْ من قَعرها.

وإنما أرادَ الله تعالى بيانَ أن هؤلاء الكافرين من قوم عاد قد اجْتُثّوا، كما اجْتُثَّ النخلُ الذاهبُ في قعْرِ الأرض، فلم يبقَ لهم رسْمٌ ولا أَثَر»[1].

المشبّهُ في الآية: قَلْعُ الريح لقوم عاد، ونزعُهَا لهم، وقَطْعُها لرؤوسهم.

والمشبَّهُ به في الآية: قلْعُ الريح للنخل، واجتثاثُها له، وقطْعُها لرؤوسه.

ووجْهُ الشبه في الآية: القلعُ والقطعُ والانقعار.

أي أنَّ الآيةَ شبهتْ قلْعَ الريح لقوم عاد، وقطْعَها لرؤوسهم، ونزْعَها واجتثاثَها لهم ـ وهذا أمْرٌ غيرُ مألوف ولا معتاد عندَ الناس ـ بقلْع الريح للنخل، وقطْعِها لرؤوسه، وقعْرِها واجتثاثِها له ـ وهذا مألوفٌ معتادٌ للناس!.

فالتشبيهُ في الآية من باب تشبيهِ غير المألوفِ وغير المعتاد، وهو

(١) المفردات: ٦٧٩.

قعْرُ واجتثاثُ قوم عاد، بالمألوفِ والمعتاد، وهو قعْرُ واجتثاثُ الريح للنخل.

أي أنَّ غرضَ التشبيه في سورة القمر هو تقريبُ غيرِ المعلوم بالبديهة، وغيرِ المعتاد، إلى المعلومِ بالبديهة، والمألوفِ المعتاد.

تحليل تشبيههم بأعجاز النخل الخاوية:

أما في سورةِ الحاقةَ فقد اختلفَ المشبَّهُ والمشبَّهُ به ووجْهُ الشبه من حيثُ التفاصيل.

قال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾.

المشبَّهُ هنا: همودُ أجسادِ قومِ عاد، وصرْعُها، وخلُوُّها من الحياة والحركة. وهذا غيرُ معلومٍ بالبديهة، فاحتاجَ إلى مشبَّهٍ به ليُعلَمَ بالبديهة.

والمشبَّه به هنا: خلوُّ النخلةِ الخاوية من النموِّ والحياةِ والحركةِ والنضرة. وهذا معلومٌ بالبديهة.

ووجْهُ الشبه: الخواءُ والخُمود، وذهابُ الحياة والحركة.

والغرضُ من التشبيه في سورةِ الحاقة هو تقريبُ غيرِ المعلوم بالبديهة، وهو خواءُ الجَسَدِ من الحياة والحركة، إلى المعلومِ بالبديهة، وهو خواءُ الشجرة من النضرة والحياة[1].

والمقصودُ هو بيانُ نهايةِ قوم عاد، وتدميرهم وهلاكهم، هؤلاء القومُ الأقوياء، الذين اغترّوا بقوتهم، وقالوا: منْ أشدُّ منا قوة؟ ها هم بعدَ الأيام الحُسوم الثمانية صَرعىٰ هلكى، أمواتٌ خامدون، مُلْقَوْن على وجه الأرض، منزوعون نَزْعاً، مجتَثّون اجتثاثاً.

---

(١) هذه اللفتة استفدناها من كتاب الرماني «النكت في إعجاز القرآن» أثناء كلامه عن أغراض التشبيه في القرآن. انظر «ثلاث رسائل في إعجاز القرآن»: ٨٤.

انظر: ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ⁽⁸⁾﴾؟ لم يبقَ منهم أحد.

انظر: إنك لن ترى إلا مساكنهم الخاوية منهم: ﴿رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ⁽²⁴⁾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ⁽²⁵⁾﴾ [الأحقاف: ٢٤ ـ ٢٥].

تعذيبهم بسبب جرائمهم وتذكير الكفار بهم:

وما أوقعه اللَّهُ بعادٍ من الدمار والهلاك هو جزاءُ كفرِهم وبغيهم، واتِّباعهم كلَّ جبارٍ عنيد من الملأ منهم. قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ⁽⁵⁹⁾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [هود: ٥٩ ـ ٦٠].

هذه جريمةُ عاد: جحدوا بآياتِ ربهم، وعصوا رسله، واتّبعوا أمْرَ كلِّ جبارٍ عنيد.

ولذلك أوقعَ اللَّهُ بهم عذابَه، وأحَلَّ عليهم لعنتَه في الدنيا، وسيحلُّ عليهم لعنتَه الأشدَّ وعذابَه الأبلغَ يوم القيامة.

وقد غابَ قومُ عادٍ بعد الهلاك عن الوجود، وابتَعدوا عن الحياة: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾ [هود: ٦٠].

وذكَّرَ اللَّهُ الكفار من قريش وغيرهم بقوةِ عاد، التي هي أَقوى من قريش، ومع ذلك لم تدفعْ عنهم عذابَ الله: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ⁽²⁶⁾﴾ [الأحقاف: ٢٦].

أي: لقد مكنّا قومَ عادٍ تمكيناً كبيراً، لم نمكِّنْكم مثْلَه يا قريش، ومنحناهم من مظاهرِ القوة ما لم نمنَحْكم مثلَه، ومع ذلك لم تنفعْهم قوتُهم أمامَ عذابِ الله، ولم تُغنِ عنهم شيئاً. هذا وهُم أقوى منكم يا قريش، فكيف بكم أنتم أمامَ عذاب الله إذا وقعَ بكم؟ وأنتم الأضعفُ والأقلّ!

إنه لا حلَّ لكم إلا بالتخلّي عن الكفر، وبالدخولِ في الإسلام!.

نجاة هود مع المؤمنين به:

أما هودٌ عليه السلام والمؤمنون الذين معه، فقد أَنجاهم الله برحمته من العذاب، وأنقذَهم من الهلاك. قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف: ٧٢].

هذه هي سنةُ الله في الصراع بين الإيمان والكفر، فعندما تنتهي جولةٌ من جولات الصراع بين مؤمنين وبين كافرين، تكونُ الخاتمةُ لتلك الجولة بإهلاكِ الله للكافرين، وإنجائِه للمؤمنين.

لقد أنجى اللّهُ هوداً عليه السلام وأَتْباعَه برحمةٍ منه سبحانه، وانتقلوا إلى بقعةٍ أُخرى من الأرض، ليعيشوا فيها حياتهم الإيمانية، على منهاجِ الله وطاعته.

ولا نعرفُ عددَ الذين آمنوا بهود عليه السلام، وأَنجاهم الله معه، ولا نعرفُ المكانَ الذي أقاموا فيه بعد هلاك عاد، ولا نعرفُ كم عاشَ هودٌ بعدها، ولا نعرفُ أينَ مات، ولا نعرفُ أين قبره الآن. كلُّ هذا من «مبهماتِ» قصة هود عليه السلام، التي لم يَرِدْ عنها كلامٌ في القرآنِ والحديثِ الصحيح. فنسكتُ عن ما سكتتْ عنه النصوص، ونكتفي بما فيها من بيان!!!.





قصّة صالح

عليه الصّلاة والسلام



[١]

ذكر صالح وثمود في القرآن

بعث اللَّهُ صالحاً عليه الصلاة والسلام نبياً ورسولاً إلى «ثمود» قومه.

وقد ذكرَ اللَّهُ في القرآن قصةَ صالح مع ثمود في عدة سور. وأحياناً كان يذكر اسمَ صالحِ فقط، وأحياناً يذكر اسم ثمودَ فقط، وأحياناً يذكر بعض اللقطات منَ القصة.

وردتْ كلمةُ صالح في القرآن، عَلَماً على نبي الله المبعوث إلى ثمود، واسماً له تسع مرات:

صالح: مرفوعة: ثلاث مرات.

صالحاً: منصوبة: خمس مرات.

صالح: مجرورة: مرة واحدة.

ووردت كلمة «ثمود» في القرآن، على الحالات الثلاثة: رفعاً ونصباً وجراً، وكان عدةُ مرات ورودها ستاً وعشرين مرة. ولا ننسى أن «ثمودَ» تكونُ مجرورةً بالفتحة، لأنها ممنوعةٌ من الصرف.

ثمود: مرفوعة: تسع مرات.

ثمود: منصوبة: ست مرات.

ثمود: مجرورة بالفتحة: إحدى عشرة مرة.

[٢]

مواضع قصة صالح عليه السلام في القرآن

وردتْ قصةُ صالح عليه السلام مع ثمود في عدة سور، وكان الكلامُ عنها يأخذُ عدةَ صور.

فأحياناً يَعرضُ مشاهدَ مطولة من القصة، وأحياناً يَعرضُ منها لقطات سريعة، وأحياناً يَكتفي بتسجيلِ إشاراتٍ خاطفة، وأحياناً لا يَذكرُ إلا اسم صالح أو اسم ثمود، ضمن ذكر أنبياء آخرين، أو أقوام سابقين.

وفيما يلي بيانُ مواضعَ ذكْرِ القصة في القرآن، وما عرضَتْه كل سورة من لقطاتها، نرتبُها حسب ترتيب المصحف.

١ ـ ما أوردته سورة الأعراف:

وردت قصة صالح عليه السلام في سبع آيات: ٧٣ ـ ٧٩.

أخبرت الآياتُ عن إرسال صالح نبياً إلى ثمود. وطلبهِ منهم عبادةَ الله وحده، وتقديمِه الناقة معجزةً له، وتحذيرِ قومه من إيذائها، وتذكيرِه لهم بنعم الله عليهم، وتكذيبِ الملأ من قومه له، واستهزائهم بالمستضعفين الذين آمنوا به، وإقدامِهم على قتل الناقة، وطلبهم إيقاع العذاب بهم، وتعذيبِ الله لهم بالرجفة، وتعقيب صالح على هلاكهم ودمارهم.

٢ ـ ما أوردته سورة هود:

وردت قصته في ثماني آيات: ٦١ ـ ٦٨.

أخبرت الآياتُ عن إرسال صالح إلى قوم ثمود، وطلبهِ منهم عبادةَ الله وحده، وتذكيره لهم بنعم الله عليهم، وردِّ قومه عليه ساخرين به، وجواب صالح عليهم، ونهِيه لهم عن إيذاء الناقة، وإقدامِهم على

عقرها، وإحلالِ العذاب بهم بعد ذلك بثلاثة أيام، حيث دمَّرهم الله بالصيحة وغيَّبهم عن الوجود.

٣ ـ ما أوردته سورة الحجر:

وردت قصته في خمس آيات منها: ٨٠ ـ ٨٤.

لم تصرحْ هذه الآياتُ بذكْر اسم صالحٍ أو ثمود، وإنما ذكرت المكانَ الذي أقاموا فيه، وهو «الحِجْر» ـ ومنه أُطلق الاسم على السورة ـ وأَخبرتْ عن تكذيبهم، وعن نعم الله عليهم في مساكنهم، وعن تعذيبهم بالصيحة.

٤ ـ ما أوردته سورة الشعراء:

وردت قصته في تسع عشرة آية منها: ١٤١ ـ ١٥٩.

أخبرت الآياتُ عن دعوة صالح لهم، وتذكيره لهم بنعم الله عليهم، وعن بعضِ مظاهر الترف والرخاء عندهم، وعن ردِّ الملأ المسرفين عليه، ورفضهم لدعوته، وتقديم الناقة معجزةً لهم، وعقرهم للناقة، وإيقاع العذاب بهم، وإبقاءِ قصتهم آيةً لمن بعدهم.

٥ ـ ما أوردته سورة النمل:

وردت قصته في تسع آيات منها: ٤٥ ـ ٥٣.

أخبرت الآياتُ عن دعوة صالح لقوم ثمود، وانقسامهم فريقين بشأنه، وتطيُّر الكافرين منهم به وبدعوته، وردِّه على اتهاماتهم وشبهاتهم، وتآمُرِ التسعةِ المتآمرين عليه، واتفاقهم على قتله، وإبطال الله لمكرهم، وتدميرِ القوم الكافرين، وإنجاء القوم المؤمنين.

٦ ـ ما أوردته سورة القمر:

وردت قصته في عشر آيات منها: ٢٣ ـ ٣٢.

أخبرت الآياتُ عن تكذيب ثمود لصالح، وأهمّ شبهاتهم ضده، وإرسالِ الناقة فتنة لهم، وطبيعة تلك الناقة، وإقدامِ أحدهم على عقرها،

ومعاقبة الجميع لرضاهم به، وإهلاكهم بالصيحة.

٧ ـ ما أوردته سورة الشمس:

وردتْ قصتُه في خمس آيات منها: ١١ ـ ١٥.

أخبرت الآيات عن تكذيب ثمود وطغيانها، وأبرزتْ إقدامَهم على عقر الناقة بيد أشقاهم، وتدمير الله لهم بسبب جرائمهم.

أما السورُ التي فيها إشاراتٌ سريعة لقصة صالح عليه السلام مع ثمود فهي:

١ ـ **سورةُ الإِسراء**: آية: ٥٩. وفيها إشارةٌ إلى كفر قوم ثمود بالناقة، وتكذيبهم لما دلتْ عليه من نبوة صالح عليه السلام، والحكمة من إرسال الآيات من الله للأقوام الكافرين.

٢ ـ **سورةُ فصلت**: آيتان: ١٧ ـ ١٨. وفيهما إشارة إلى اختيار قوم ثمود للعمى على الهدى، والكفر على الإِيمان، وتعذيبهم ونجاة المؤمنين المتقين.

٣ ـ **سورةُ الفجر**: آية: ٩ وما بعدها. ذكرت الآيةُ قَطْعَ ثمود للصخر بالواد، وإقامتَهم فيه، وجمعتْ بين عادٍ وثمود وفرعون، في الطغيان والفساد، وتعذيب الله لهم لأنه بالمرصاد.

٤ ـ **سورةُ الذاريات**: آيات: ٤٣ ـ ٤٥. أشارت الآياتُ إلى تمرد ثمود على أوامر الله، وإهلاكهم بالصاعقة بعد فترة الإِنذار، وعجزهم عن الدفاع عن أنفسهم.

٥ ـ **سورةُ النجم**: آية: ٥١. أَشارتْ إلى تدمير الله لقوم ثمود، وذلك أثناء إشارتها إلى تدمير قوم نوح وعاد وثمود ومدين، وهي مجردُ إشارات.

وقد ورد اسم ثمود مجرد ذكر فقط في السور التالية:

سورة التوبة، آية: ٧٠.

سورة إبراهيم، آية: ٩.

سورة الحج، آية: ٤٢.

سورة الفرقان، آية: ٣٨.

سورة العنكبوت، آية: ٣٨.

سورة ص، آية: ١٣.

سورة غافر، آية: ٣١.

سورة ق، آية: ١٢.

سورة الحاقة، الآيتان: ٤ ـ ٥.

سورة البروج، آية: ١٨.

[٣]

ثمود بعد عاد

لما دمَّرَ اللَّهُ قومَ عاد بالريح الصرصر العاتية، وأنجى هوداً عليه السلام والمؤمنين الذين آمنوا معه، عاشَ هودٌ مع أتباعه المؤمنين ما قدَّر الله له أن يعيش.

وأقام هودٌ مع أتباعه المؤمنين في مكانٍ لا ندري عنه شيئاً، لأن النصوصَ لم تخبِرْنا عنه.

وماتَ هودٌ عليه السلام، ولا ندري أين دُفن، وماتَ ذلك الجيلُ من أتباعه المؤمنين، وكانوا مؤمنين صالحين.

ونشأتْ أجيالٌ جديدة، وتَدَسَّسَ الشركُ والكفر إليهم، وتمكَّنَ الشيطانُ من إغوائهم والاستحواذِ عليهم، وأمرهم أن يعبدوا غيرَ الله، فنفَّذوا أمرهُ، وانقادوا له.

ونشأتْ من هذه الأجيال الجديدة قبيلةُ «ثمود».

كان ثمودُ قوماً مشركين بالله، عابدين للآلهة والأصنام، فبعث الله

لهم أخاهم صالحاً نبياً عليه الصلاة والسلام.

ثمود والثمد والعرب البائدة:

و «ثمود» وُجدوا في التاريخ بعد «عاد». وهم مثْلُ عاد من العربِ العاربة الفصيحة، وقد كانوا يتكلمونَ اللغةَ العربية الفصيحة، التي أخذوها من «عاد».

كما أَنهم من العرب البائدة، الذين أَبادهم الله، ولم يُبقِ منهم أحداً، ولم يَترك لهم أثراً!.

و «ثَمود» كلمةٌ عربية فصيحة، مشتقةٌ من «الثَّمْد».

قال ابن فارس في مقاييس اللغة عن الثمد: «الثَّمَد: هو القليلُ من الشيء. والثَّمَدُ هو الماءُ القليل. وثَمَدت فلاناً النساءُ: إذا قطعْنَ ماءه من كثرةِ الجماع.

والإِثمد: الطِّيبُ المعروف، سُمي بذلك، لأنَّ الذي يستعملُ منه قليلٌ يَسير»[1].

ولعل هذا هو سرُّ تسميتهم بثمود، ولعلهم سكنوا في منطقة، ماؤها ثمدٌ قليل يسير، فسُمّوا بذلك.

وقد وُجد قومُ ثمود بعد قوم عاد.

ثمود بعد عاد:

ومن الأدلةِ على ذلك سياقُ قصتهم في القرآن، فحينما كانت تَرِدُ مجموعةٌ من قصص القرآن في سورة من السور، كانت ثمود تُذكر بعد عاد.

جاءتْ قصةُ ثمود بعد قصة عاد في سور: الأعراف، هود، الشعراء، القمر.

---

(١) مقاييس اللغة ١: ٣٨٧ ـ ٣٨٨.

وجاءت ثمودُ أيضاً بعد عاد في الإِشارات السريعة في سورة: فصلت، الذاريات، النجم، الحاقة، الفجر.

وهذا الترتيبُ في الذكْر يوحي بالترتيب التاريخي.

ومن الأدلةِ على وجودِ ثمودَ بعد عادٍ أيضاً، تذكيرُ نبيهم صالحٍ عليه الصلاة والسلام لهم بذلك.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٧٤].

وهذا نصٌّ صريحٌ على أن الله جعل قومَ ثمودَ خلفاءَ من بعد قوم عاد، وكلمة «خلفاء» توحي بالبَعْدِية المباشرة، لأنَّ الخليفةَ هو الذي يأتي بعد الخليفة السابق مباشرة.

[٤]

مسكن ثمود بالحِجْر

ثمود هم أصحاب الحجر:

أخبرت آياتُ القرآن عن مكانِ إقامةِ قوم ثمود.

قال تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾ [الفجر: ٩].

والجَوْبُ: القطع.

قال السمين الحلبي: «الجوب: قطْعُ الجَوْب. وهو كالغائط من الأرض.

أي: الأرضُ المنخفضة. ثم استُعمل في قطْعِ كل أرض.

ومعنى ﴿جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾: قطعوا الصخر، وجعلوه بيوتاً يسكنونها..»[1].

تدلُّنا الآية على أن ثمود كانوا يسكنون في منطقة صخرية، في

---

(١) عمدة الحفاظ ١: ٤١٠.

أحد الأودية، وأنهم قاموا بقطْعِ الصخر في ذلك الوادي، وتجهيزِ بيوت ومساكن لهم فيه.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الحجر: ٨٠ ـ ٨٢].

كان قومُ ثمودَ يسكنون في منطقة «الحجْر»، فهم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾ كما سمّتْهم هذه الآيةُ من سورة الحجر، ثم ذَكرت كيف كانوا يقيمون في منطقة الحِجْر الصخرية الجبلية الحجرية. فقد كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين.

وهذا يوحي بأنَّ صخور تلك الجبال والأودية كانت رخوةً، سهلةَ النحتِ والحَتّ، مما مكنهم من نَحْتِ تلك الصخورِ والجبال، وتجهيزِ البيوت والمنازل داخلها.

كما أن هذا يدلُّ على مهارتهم في نَحْتِ الجبال، وتقدمِهم العلمي والفني، وقدرتِهم على تخطيطِ وتنفيذِ الأشكال الفنية والهندسية والمعمارية.

كانوا في نحتهم فارهين فرهين:

وقد ذكَّرَهم صالحٌ عليه السلام بفضل الله عليهم، في تمكينهم من نَحت الصخور والجبال. قال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الشعراء: ١٤٩].

إذن كان قوم ثمود في منطقة الحِجْر ينحتون الجبال بيوتاً، آمنين فارِهين.

و ﴿فَٰرِهِينَ﴾ جمع فاره. وفاره: اسمُ فاعل من فَرِهَ.

والفَرَهُ هو الأَشَرُ والبَطَرُ والحذقُ والمهارة.

قال ابن فارس: «الفَرَهُ: كلمةٌ تدلُّ على أَشَر وحَذق. والفارِهُ الحاذقُ بالشيء. والفَرِه: الأَشِر»[1].

ووصْفُ قوم ثمود بأنهم كانوا فارِهين في نَحْت بيوتِهم في الجبال، يُراد به أمران:

الأول: وصْفُهم بالحذقِ والمهارةِ والإتقان في نحت البيوت، ونَحْتُ الصخر يحتاج إلى حذقٍ ومهارة، وما كلُّ إنسان يقدرُ على نحتِ الصخر، وما كلّ ناحتٍ يكون فارِهاً حاذقاً ماهراً في نحته.

وهذا لصالحهم، وفيه إشارةٌ إلى تقدمهم المعماري، وفنِّهم الإنشائي الهندسي، في نحتِ الأشكال الهندسية الجميلة.

الثاني: ذمُّهم وإدانَتُهم والإنكارُ عليهم، لأنهم كانوا فرهين في نحتِ الجبال بيوتاً، أي كانوا في ذلك أَشِرين بطرين، مترفين مسرفين متكبرين.

ولا تناقضَ بين الأمرين، لأن قومَ ثمودَ أحسنوا الاستفادةَ من مواهبهم وقدراتهم في نحت البيوت في الجبال، وكانوا بذلك حاذقين ماهرين، وهذا يسجَّلُ لهم.

لكنهم أفسدوا هذه المهارة، وأتلفوا هذا الحذق، عندما استخدموا ذلك في الفَرَهِ والأشر، والتكبرِ والبطر. وهذا هو وجهُ الإنكارِ عليهم.

ولو استغلوا حذقَهم ومهارتهم في تحسينِ مستواهم العمراني، ولم يستخدموه في البطر والتكبر لأجادوا وأحسنوا واستحقوا الثناء!.

وفي ﴿فَرِهِينَ﴾ قراءتان، من القراءات العشر المعتمدة.

الأولى: قراءةُ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: ﴿فَٰرِهِينَ﴾ بالألف. بمعنى: حاذقين ماهرين متقِنين.

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٤:٤٩٦.

الثانية: قراءةُ ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، ويعقوب، وأبي جعفر: «فَرِهِين» بدون ألف. بمعنى: أَشِرين بَطِرين متكبرين[1].

إن مجموعَ القراءتين الصحيحتين «فارهين.. فرهين» يدلُّ على تحققِ واجتماعِ معنييهما عند قوم ثمود، فقد كانوا في نحت البيوت فارِهين حاذقين ماهرين، ثم كانوا بعد ذلك فرِهين أشِرين بطرين!!!.

ولم تقتصرْ مساكنُ ثمودَ على الإقامة في البيوت المنحوتة في الجبال، وإنما توسَّعوا في تقدمهم العمراني، فأنشأوا القصور الفخمة في السهول.

وقد ذكَّرهم صالحٌ عليه السلام بذلك فقال: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف: ٧٤].

فالله قد بوَّأهم في الأرض، حيث هيأَها ومهَّدها لهم، ومكَّنهم من تعميرها، كما قال صالح لهم: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

ومن مظاهر تعميرِهم للأرض أنهم بنوا القصورَ في السهول، ونحتوا البيوت في الجبال: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ﴾.

موقع منطقة «الحجر»:

ومنطقةُ «الحِجْر» التي أَقامَ فيها قوم ثمود، تقعُ في شمالِ غرب الحجاز، على الطريقِ القديمِ الذي يربطُ بين المدينة المنورة ـ على ساكنها الصلاة والسلام ـ وبين تبوك.

---

(١) إتحاف فضلاء البشر للبنا ٢:٣١٩.

وقد مرَّ رسول الله ﷺ على منطقة الحِجْر أثناءَ توجهه من المدينة إلى تبوك.

روى البخاريُّ ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: لما نزلَ رسولُ الله ﷺ بالناس على تبوك، نزلَ بهم الحِجْرَ عند بيوت ثمود، فاستقى الناسُ من الآبار التي كانت تشربُ منها ثمود، فعَجنوا منها، ونَصَبوا القُدور، فأمرهم رسول الله ﷺ، فأَهْرَقوا القدور، وعَلَفوا العجين الإِبل. ثم ارتحلَ بهم، حتى نزلَ بهم على البئر التي كانت تشربُ منها الناقة، ونهاهم أن يَدخلوا على القوم الذين عُذِّبوا، فقال: «إني أخشى أن يصيبكم مثلُ ما أَصابهم، فلا تدخلوا عليهم..»[1].

يحددُ عبدُ الله بن عمر رضي الله عنهما في هذا الحديث الصحيح مسكنَ ثمود، وأنه الحِجْرُ المذكور في القرآن، كما يحددُ الحِجْرَ بأنه على الطريق بين المدينة وبين تبوك: «نزل بهم الحِجْر، عند بيوت ثمود».

كما يحددُ البئرَ التي كانت تشربُ منها ناقة صالح عليه السلام، وأنها ما زالت موجودة، وما زال ماؤها موجوداً حتى عهد الرسول ﷺ، حيث أذن للصحابة أن يشربوا منها!.

هي الآن مدائن صالح في العلا:

ومنطقةُ الحِجْر أطلقَ عليها في التاريخ الإِسلامي اسم «العُلا». قال ياقوت في معجم البلدان: «العُلا: بضمِّ أوله والقصر: اسمٌ لموضعٍ من ناحيةِ وادي القرى، بينها وبين الشام، نزلَه رسولُ الله ﷺ في طريقه إلى تبوك»[2].

وما زالت المنطقةُ تحملُ اسم «العُلا» حتى الآن.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٧٨ ومسلم برقم: ٢٩٨١. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٦٧.

(٢) معجم البلدان لياقوت الحموي ٤: ١٤٤.

وفي منطقة «العُلا» تقع منطقةٌ أثرية، تسمى الآن «مدائنُ صالح». نسبةً إلى نبي الله صالح عليه السلام.

ولا تزال بها آثارُ قوم ثمود، ولا تزالُ بعض بيوتهم المنحوتة في الصخور والجبال، ولا تزال بعض مظاهرِ المهارة العمرانية لقوم ثمود موجودةً في هذه البيوت.

والذين شاهدوا آثارَ ثمود في «مدائن صالح» من منطقة العُلا، يقولون إنها تفوقُ في إتقانها وجمالها آثارَ الأنباط، في منطقة البتراءِ في جنوب الأردن، ذاتِ البيوت المنحوتة في الصخور والجبال.

[٥]
بعض مظاهر تقدم ثمود

أشارت الآياتُ التي تحدثتْ عن قصةِ ثمود إلى بعض مظاهرِ قوتهم وتقدمهم.

نحتوا الجبال وتقدموا في الزراعة:

فهم قد نحتوا البيوتَ في الجبال، وكانوا في ذلك فارِهين حاذِقين ماهرين، كما سبق أنْ بيّنّا.

وهم قد عَمَروا السهول أيضاً: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾.

وكانوا بذلك آمِنين مطمئنين: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢].

ووصَلوا إلى مستوى متقدم في الزراعة، وفي استصلاح الأراضي، واستخراجِ العيون، والتنعم بالزروع والثمار. وقد ذكَّرهم نبيهم صالح عليه السلام بذلك، فقال: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الشعراء: ١٤٦ ـ ١٤٩].

وهذه الآياتُ تشيرُ إلى أن قوم ثمودَ كانوا آمنين في مساكنهم، منعَّمين في أراضيهم ومزروعاتِهم وثمارهم.

كانَ عندهم عيونُ الماء، التي أنشأوا منها الجنات والبساتين، وزرعوها بالزروع، وغرسوها بالنخيل وأشجار الفواكه.

وقد وَصفت الآياتُ طَلْعَ النخل بأنه هضيم: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾. وطلْعُها هو ثمرُها الذي تثمره من التمر. و ﴿هَضِيمٌ﴾ بمعنى: مهضوم.

وتقدم لنا الآيةُ معلومةً عن فائدةِ التمر الغذائية، فهو هضيم، أي: هو سريعُ الهضم، فالمعدةُ تهضمه وتمتصُّه بسرعة، ولا تجدُ في ذلك معاناة، والدمُ يحملُ ما فيه من سكر وعناصر غذائية للجسم.

وما أنْ يأكلَ الإنسانُ حباتٍ من التمر، حتى يشعرَ بالحيوية والنشاط. ولهذا من السُّنَّة للصائم أن يفطرَ على حباتٍ من التمر، يُتبعها بشربةِ ماء، ليعودَ لجسمه نشاطُه وحيويتُه. لأن هذا التمر هضيم، كما قرر صالحٌ عليه السلام قبلَ آلاف السنين.

استعمرهم الله في الأرض:

وتمكينُ اللّه لثمود في الأرض، وما أنشأوا عليها من جناتٍ وزروع وثمار، وبيوت في الجبال، وقصور في السهول، هو استعمارٌ منه للأرض على أيديهم.

وقد أشار لهم صالحٌ عليه السلام إلى هذا الاستعمار «الرباني»، قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

إن اللّهَ هو الذي أنشأهم في الأرض، وإن اللّهَ هو الذي استعمرهم فيها. أي أن اللّهَ هو الذي مكّنهم من تعميرِ الأرض

واستصلاحِها، وإنشاء جنات وبساتين فيها، والاستفادة من عيونها، والتنعم بزروعها وثمارها، ونحت البيوت في جبالها.

مظاهرُ العمارة هذه، التي عمروا بها الأرض، نعمةٌ من الله وفضْل، فهو صاحب هذا الاستعمار والإصلاح، وهم سبب مادي مباشر له. إن هذه الجملة ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ تقدِّمُ لنا المعنى الصحيحَ للاستعمار.

إن الاستعمارَ الصحيحَ للأرض هو تعميرُها، والاستفادةُ من خيراتها وكنوزها، والارتقاءُ بها إلى أعلى مستوياتها، وتحسينُ مستوى الحياة المادية بها، وهذا من مظاهر الخلافة، التي جعل اللَّهُ الإنسانَ بها خليفةً له في الأرض.

أما «الاستعمارُ» بالمفهوم الغربيِّ الاستعماريِّ المعاصر، فليس هو استعماراً حقيقياً، ولا هو تعميراً صحيحاً للأرض!

إن الغربَ الاستعماريَّ ـ الإنجليزي والفرنسي والهولندي والبلجيكي والأسباني والبرتغالي والإيطالي والألماني والأمريكي واليهودي ـ ما كان يعمرُ الأرضَ المستعمرة، ولا يرتقي بمستواها، وإنما كان يمتصُّ خيراتها، وينهب مواردَها، ويدمِّرُها تدميراً، لصالح منافعه ومصالحه.

إنَّ فعْلَ الغربيين بالبلاد المستعمَرة قبل الاستقلال ـ وبعده ـ هو تدميرٌ وليس تعميراً. أو هو: «استدمارٌ» وليس استعماراً.

فِعْلُ الكفارِ استدمارٌ للأرض، وفعْلُ المؤمنين الصالحين استعمارٌ للأرض!! وشتانَ بين استدمارهم واستعمارنا!!!.

[٦]

الناقة آية لثمود

جعلَ اللَّهُ مع صالح عليه السلام آيةً بينة، ومعجزةً واضحة، قدمها لقومه، دليلًا على نبوته.

ناقة صالح آية بينة:

وهذه الآيةُ هي الناقة. وكانت ناقةً خاصة في خَلْقِها وصفاتها، ليست كباقي «النِّياق» التي عندهم.

وقدمتْ لنا بعضُ آيات القرآن بعضَ صفات هذه الناقة.

أما خَلْقُ الناقة، وكيفيةُ خلقها، فلا نعرفُ عنه شيئاً، ولم تخبرْنا الآياتُ عنه، ولا توجَدُ أحاديثُ صحيحة توضِّحُ ذلك، ونحن لا نذهب للخرافات والإسرائيليات.

قال صالحٌ عليه السلام لثمود عن الناقة: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٣٧].

إن هذه الناقةَ بينةٌ لثمود، وآيةٌ لصالح عليه السلام، ودليلٌ بيِّنٌ على أن اللَّهَ بعثه لهم نبياً. والآيةُ الخارقةُ دليلُ صدق النبي، لأن الله يصدِّقُه بها، وكأنه يقول لقومه: صدقَ عبدي فيما يرويه عني، وهذه الآيةُ المعجزةُ تصديقٌ مني له.

وأُضيفت الناقةُ إلى الله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾. وهي إضافةُ تشريفٍ وتكريم للناقة، لأنها خاصةٌ في خلقها ووجودها بينهم.

وليست الإضافةُ لتخصيصِ التمليك، بمعنى أن اللَّهَ يملكُ هذه الناقةَ وحدها، كما يملكُ أحدهم ناقته، ولا يملكُ ناقةَ غيره، لأنَّ كلَّ الكون وما فيه من المالكين والمملوكين ملكٌ لله وحده.

﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾. هي ناقةُ الله، والأرضُ كلُّها أرض الله، وناقةُ الله تأكل في أرض الله، وهم ليس لهم من الأمر شيء، الأمر كلُّه لله ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

معجزة شربها لماء العين كله:

وقد كان شربُ الناقة للماء شُرباً خاصاً معجزاً، أشارتْ له آياتُ القرآن.

قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾ [الشعراء: ١٥٥ ـ ١٥٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القمر: ٢٧ ـ ٢٨].

لقد كان ماءُ عينِ ثمودَ قسمةً بينهم وبين الناقة، حيث يشربون هم ماءَ العين يوماً، وتشربُ الناقةُ وحدَها ماء العين كلَّه يوماً آخر، وهكذا يكونُ شربُ ماء العين بالتناوب بينهم وبين الناقة. كلٌّ له شِربُ يوم معلومٌ محدَّد، وكلٌّ يحضرُ ليشرب العين في يومه، وإذا كانَ يومُ شربَ الناقة، فعليهم أنْ يُخلُّوا بينها وبين شرب العين، ولا يمنَعوها من ذلك، ولا يمسّوها بسوء.

إذن كان قومُ ثمود كلُّهم يشربون ماءَ العين يوماً، والناقةُ وحدَها تشربُ ماءَ العين كله يوماً آخر!!.

أما كيف كانت الناقةُ تشربُ وحدها ماءَ العين؟ وأين كانت تضعُ هذا الماء؟ فهذا لا يعنينا، ولا نستغربُه، لأنَّ هذه الناقة معجزة، ولذلك شُربُها وحدها لماءِ العين كلِّه يوماً بعد يوم معجزةٌ أيضاً، وطالما أن اللَّهَ أخبرنا عن ذلك في القرآن، فنحن نؤمنُ به ونصدقُه ونقولُ به.

ولقد حذرَ صالحٌ عليه السلام قومَه عن إيذاء الناقة، أو مسِّها بسوء، حتى لا يصيبهم عذابٌ أليم.

[٧]
بين صالح عليه السلام وبين ثمود

قامَ صالحٌ عليه السلام بدعوة ثمود، وبلَّغهم رسالةَ الله، وأقام عليهم الحجة، وردَّ عليه قومُه دعوتَه، وأثاروا ضده الشبهات، ووجَّهوا له الاتهامات، وقامَ هو بإبطالِ شبهاتهم. وسجلت الآياتُ بعضَ ما قاله لهم، وبعضَ ما ردوا عليه به، وبعضَ ما أجابهم عنه.

دعوة صالح لقومه:

بدأ صالحٌ عليه الصلاة والسلام بدعوةِ قومه إلى عبادةِ الله وحده، وعدمِ الإشراك به، وهي «نقطةُ البدءِ» التي بدأَ بها كلُّ نبي. ولهذا قال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾ [هود: ٦١].

وقدَّم لهم نفسَه باعتباره رسولاً أميناً لهم، وأَمَرَهم بطاعته، وحثَّهم على تقوى الله: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٤١ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٤٢ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٤٣ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٤١ ـ ١٤٤].

وأخبرهم بعدمِ انتظاره الأجْر منهم، وإنما يقومُ بواجبه في دعوتهم إلى الله، أما الأجرُ فهو عند الله: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٥﴾ [الشعراء: ١٤٥].

ولفتَ أنظارهم إلى آيتِه البينة، وهي الناقة، ونهاهم عن إيذائها: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وذكَّرهم بنعم الله عليهم، في استخلافِهم بعد عاد، وفي تسخيرِ الأرض لهم، وطالَبهم بمقابلةِ نعم الله بالشكر، وليس بالإفساد والكفر: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٧٤﴾ [الأعراف: ٧٤].

وقال لهم: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾ [هود: ٦١].

وقال لهم: ﴿أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ١٤٦ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ١٤٧ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ١٤٨ وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ١٤٩ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٥٠﴾ [الشعراء: ١٤٦ ـ ١٥٠].

وبينما أَمرهم صالحٌ بتقوى الله وطاعته، وطاعةِ صالحٍ نفسِه

باعتباره رسولاً لهم، فقد نهاهم عن العكس والنقيض، نهاهم عن طاعةِ المسرفين المفسدين الظالمين، من كبرائهم وساداتهم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الشعراء: ١٥٠ ـ ١٥٢].

هذه خلاصةُ دعوةِ صالح عليه السلام لثمود، فماذا كان ردُّهم عليه؟ وماذا قالوا له؟.

اتهامه بأنه من المسحرين:

قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الشعراء: ١٥٣].

اتهموه بأنه من المسَحَّرين. فما معنى «المسَحّرين»؟.

قال ابن فارس عن معنى السّحر:

«السِّحْرُ يُطلقُ على أصولٍ ثلاثة متباينة:

الأول: السَّحْر: وهو ما لصق بالحلقومِ والمريء من أَعلى البطن.

والثاني: السِّحْر: وهو إخراجُ الباطل في صورةِ الحق، للخداع.

والثالث: السَّحَر: وهو الزمانُ الذي يكون قبيلَ الصبح[1].

ولما اتهم قومُ ثمودَ صالحاً عليه السلام بأنه من المسَحَّرين، لعلَّهم أَرادوا المعنيين الأول والثاني من معاني السحر.

قال الإِمام الراغب في «المفردات» عن ذلك:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾.

قيل: أنت ممن جُعل له «سَحْر». تنبيهاً إلى أنه محتاجٌ إلى الغذاء. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾؟ [الفرقان: ٧]. ونبّهوا إلى أنه بشرٌ في قولهم له:

---

(١) مقاييس اللغة ٣:١٣٨ باختصار.

﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٤].

وقيل: «معناه: أنت ممن جُعل له، «سِحر»، يتوصَّلُ بلطْفِه ودقته إلى ما يأتي به ويدّعيه...»[١].

وإنْ كانَ الأرجحُ أنهم أرادوا المعنى الأول. لأنَّ الكلمةَ ﴿ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ وردتْ في سياقِ إنكارِهم نبوتَه لأنه بشرٌ مثلُهم، وليس في سياقِ اتهامه بالسحر والكذب والخداع: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الشعراء: ١٥٣ ـ ١٥٤].

أي أنتَ بشر، لك سَحْرٌ ونَحر، وحُلقوم ومريء، مثلنا، فكيف تكون نبياً؟.

وقادَهم هذا إلى اتهامِه بالكذب قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ [القمر: ٢٣ ـ ٢٦].

وفي معنى: ﴿أَشِرٌ﴾ نقل السمين الحلبي قول القُتَيْبيّ والهَرَوي:

قال القُتَيْبي: الأشِرُ هو: الفَرِحُ المتكبِّر.

وقال الهروي: الأَشِر هو: اللجوجُ في الكذب[٢].

﴿كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾:

ثم أخبرَ قومُ ثمودَ صالحاً عليه السلام بخيبةِ ظنّهم فيه، وانقطاع أملهم ورجائِهم منه! قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود: ٦٢].

---

(١) المفردات: ٤٠٠.

(٢) عمدة الحفاظ: ١٠٢.

خاب ظنهم فيه مع أنه المنقذ لهم:

لقد شبَّ صالحٌ عليه السلام في قومه، ونشأ بينهم، ورأَوا صفاته الطيبة، وعَرَفوه عن يقين، وكان معقدَ آمالهم، ومحطَّ رجائهم، وكانوا ينتظرونَ منه الكثيرَ لهم، وظنوا أنه سيتابعُهم على كفرهم، ويشاركهم شركهم بالله، ولذلك جعلوه مرجُوّاً فيهم.

ولكنهم فوجئوا بنبوَّته، ودعوته إلى توحيدِ الله وإفراده بالعبادة، والتخلي عن ما كان يعبدُ آباؤهم من الأوثان والأصنام، واعتبروها دعوةً غريبةً مستهجنة مرفوضة!!.

وأَخبروه بأنه كان قبل أنْ يدعوهم إلى تلك الدعوة، كان مرجُوّاً فيهم: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾. أما بعدَ الدعوة فقد خيَّبَ رجاءهم، وضيَّعَ اعتمادهم، وبدَّدَ أملَهم!!!.

وهذه نظرةٌ جاهليةٌ منهم، وإلا فإن صالحاً عليه الصلاة والسلام بعد النبوة هو المنقذُ لهم، والأصْلُ أنْ يكونَ محطَّ رجائهم بعدها، لأنه يخرجُهم بإذن الله من الظلمات إلى النور، ومن الشقاء إلى السعادة، ومن النار إلى الجنة!.

ولما أَخبروه بخيبة رجائهم فيه، وصارَحوه بالشك والريبة فيه ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، ردَّ عليهم صالحٌ عليه الصلاة والسلام قائلاً: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ [هود: ٦٣].

صالح على بينة ويقين وميزانه هو الصحيح:

لقد أوضحَ لهم صالحٌ عليه السلام في هذا الردِّ حقيقةَ الأمر. فهو على بينةٍ من ربه، وعنده اليقينُ الكامل، والقناعةُ التامة أنه على الحق، وأنهم على الباطل، وأن الله أَعطاه الآيةَ البينة على ذلك، ومَنَّ عليه برحمةِ النبوة والوحي. فكيف يخالفُ تلك البينة؟ وكيف يتخلّى عن

تلك القناعة؟ وكيف يردُ تلك الرحمة؟ ولماذا يفعلُ ذلك؟ هل منْ أجلِ أنْ يلتقيَ مع قومه ويهادنَهم ويفاوضهم ويصالحهم؟ وهو يوقنُ أنهم على ضلال وباطل! هل يطيعُهم ويعصي الله؟ هل يختارُ باطلهم ويتركُ رحمةَ الله؟ لو فعل ذلك لكان خاسراً غيرَ رابح، ولو استجابَ لهم ورضي بباطلهم لما زادوه غيرَ تخسير!! ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾.

جوابُ صالحٍ عليه السلام لقومه الكافرين أصحابِ الباطل، هو ما يجبُ أن يكونَ جوابَ كلِّ داعية مصلحٍ لعُروضِ أصحابِ الباطل، ليثبتَ على الحق، ولا يضعفَ أمامَ الباطل.

وميزانُ صالح عليه السلام الذي وضع فيه عُروض قومه الباطلة، فعرفَ الخسارة فيها، هو ما يجبُ أن يأخذه معه كلُّ داعية مصلح، ليضعَ فيه عروض أصحاب الباطل، فيعرفَ الخسارةَ فيها، فيرفضها ويستعلي عليها.

وما عندَ صالحٍ عليه السلام من البينةِ واليقين، والثقةِ والقناعة، من أنه على حقّ وهم على باطلٍ، هو ما يجبُ أنْ يكونَ عند كل داعية مصلح، ليَثبت على الحق، ولا يتنازلَ عنه للالتقاءِ مع الباطل!.

ولم يكتفِ قومُ صالحٍ الكافرون بما قالوه له، بل توجَّه الملأُ المستكبرون منهم إلى أتباع صالح عليه السلام من المؤمنين المستضعَفين، بهدفِ تشكيكهِم فيما اختاروه، ولكن أولئك المؤمنين المستضعفين كانوا على بينة وقناعة ووضوح ويقين. قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥ ـ ٧٦].

وهكذا تكونُ المواجهةُ دائماً بين أصحابِ الحق وأصحاب الباطل، في كلِّ زمان ومكان. وهكذا يتمتعُ أصحابُ الحق بالعلم واليقين

والقناعة بما هم عليه، والرضى به والثبات عليه، فيردُّ عليهم أصحابُ الباطل بالإصرار على رفض الحق والكفر به، عناداً واستكباراً، وينتجُ عن ذلك المفاصلةُ بين الطريقين، والافتراقُ بين الفريقين! بدون تميُّعٍ أو أرجحة أو مداهنة!!.

[٨]

ثمود يعقرون الناقة

حذرَ صالحٌ عليه السلام قومَه من إيذاءِ الناقة أو مَسِّها بسوء، وربطَ لهم بين عقْرِها وبين العذاب، فإذا أقدموا على عقرها فإن العذابَ واقعٌ بهم:

قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾ [هود: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾ [الشعراء: ١٥٦].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾ [الشمس: ١١ ـ ١٣].

معنى ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾: كذبت ثمودُ نبيَّها صالحاً عليه السلام بسببِ طغيانِها واستكبارها وتمردها على ربها، ولهذا كفرتْ بالله وأشركت به.

ولقد حذرهم رسولُ الله صالحٌ عليه السلام من إيذاءِ ناقة اللّهِ، أو منْعِها من الشرب، وحَثَّهم على إكرامها وسقياها: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾ لكنهم لم يستجيبوا له، فأقدموا على عقرِ الناقة.

عقر الناقة أشقاهم:

والذي عقرَ الناقة واحد. وهو أشقاهم: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ وهم الذين دَعوه لعقْرها: ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩].

ولكنَّ القرآنَ نسب عقرَ الناقة لهم جميعاً، واعتبرهم اللّٰهُ جميعاً مشتركين في جريمة عقرها، متحمّلين نتيجةَ ذلك.

قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٤].

وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ [الأعراف: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٧].

وفي تحميلِهم جميعاً مسؤولية عقر الناقة، مع أن منفذَ الجريمة أشقاهم وحده، دليلٌ على «المسؤولية الجماعية» في الدنيا.

فإذا ما أقدمَ فردٌ على جنايةٍ أو جريمة ـ وبخاصةٍ إذا كان مسؤولاً ـ فإنَّ مَنْ كان راضياً بجريمتِه، متابعاً له، يكون مشتركاً معه في تحمُّلِ المسؤولية، ودفعِ الثمن، وأخذ النتيجة. أما مَنْ أنكرَ عليه جريمته، وأعلَن براءتَه من ذلك، فإنه قد أَعذرَ إلى الله، ونجا من الاشتراك في العقوبة. قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

وها هي ثمودُ كلُّها تتحملُ مسؤوليةَ عقْرِ أشقاها للناقة، ويقعُ بها عذابُ الله بسبب ذلك.

عاقر الناقة وقاتل علي:

وأخبرنا رسولُ الله ﷺ أنَّ ﴿أَشۡقَىٰهَا﴾ كان عَزيزاً مسؤولاً متنفِّذاً في ثمود.

روى البخاريُّ ومسلم عن عبد الله بن زَمْعَة رضي الله عنه قال: خطبَ رسولُ الله ﷺ، فذكَرَ الناقة، وذكر الذي عقرها فقال: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ

أَشْقَنٰهَا ﴿١٢﴾﴾: انبعثَ لها رجُلٌ عارِمٌ، عَزيز، مَنيعٌ في رهْطه، مثلُ أبي زَمْعَة[1].

وقد جمعَ رسولُ الله ﷺ بين عاقر الناقة، وبين قاتلِ علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

روى أحمد والحاكم عن عمار بن ياسر رضي الله عنه: أن رسولَ الله ﷺ قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ألا أحدثكم بأشقى رجلين؟:

أُحَيْمِرُ ثمود الذي عقرَ الناقة.

والذي يضربكَ يا علي على هذه، حتى يبلَّ منها هذه»[2].

و «أُحَيْمِر» تصغيرُ أحمر: فعاقرُ الناقة كان أحمرَ اللون.

والذي يضربُ علياً على قَرْن رأسه، فينزلُ الدمُ منه ويبلُّ لحيتَه.

وهذا ما حصلَ سنةَ أربعين للهجرة، حيثُ أقدمَ أشقى المسلمين: «عبدُ الرحمن بن عمرو» المعروف بعبدِ الرحمن بن مُلْجِم المرادي على قتْلِ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، أمير المؤمنين، في الكوفة. وكان ذلك قبلَ صلاة فجر يوم الجمعة، السابع عشر من شهر رمضان، سنة أربعين للهجرة. وتوفيَ عليٌّ رضي الله عنه بعد الضربة بيومين[3].

[٩]

المتآمرون التسعة على صالح

تسعة رهط يقودون ثمود:

كان في ثمود تسعةُ رهْطٍ من كبارِ مجرميهم ومتآمريهم وطغاتهم،

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٧٧. ومسلم برقم: ٢٨٥٥. انظر الأحاديث الصحيحة: ٦٦.

(٢) أخرجه أحمد ٤:٢٦٣. والحاكم ٣: ١٤٠ ـ ١٤١. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٦٥.

(٣) انظر هذا في كتابنا «الخلفاء الراشدون بين الاستخلاف والاستشهاد».

وكانوا يقودون المفسدين الظالمين في مواجهةِ صالح عليه السلام، وصدّ الناس عن دينه.

وتآمَرَ هؤلاء المتآمرون التسعة على حياة صالح، واتّفقوا على اغتيالِه وقتْله، ثم إنكار أن يكونَ لهم علمٌ بذلك.

وقد أشارتْ آياتُ سورةِ النمل إلى هذه المؤامرة. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ [النمل: ٤٥ ـ ٥١].

تخبرُ الآياتُ عن انقسام ثمود أمامَ دعوةِ صالح إلى فريقين. فريق المؤمنين به، وفريق الكافرين به، وبينهما اختصامٌ وجدالٌ ونزاع: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾.

وقد أنكرَ صالحٌ عليه السلام على فريق الكافرين من قومه استعجالهم بالسيئة، ودعاهم إلى عبادةِ الله واستغفارِه والتوبة إليه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

فردَّ عليه الملأُ من قومه بأنهم تطيَّروا وتشاءَموا به وبالمؤمنين معه، فوجودُ مؤمنين عند قومهم يسببُ لقومهم المآسي والمشكلات، والضيقَ والأذى: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾.

وقد صححَ لهم صالحٌ عليه السلام المسألة، فالبشرُ لا يضرون

ولا ينفعون، ووجودهم لا يجلب ضراً، وغيابهم لا يقدّمُ خيراً، وكلُّ ما يقعُ بالناس إنما هو بأمرِ الله ومشيئته وقدره، والتطيُّرُ والتشاؤمُ لا يُحدثُ ما لا يريده الله، والتفاؤلُ لا يدفع شراً عنهم: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾.

تآمر الرهط التسعة عليه:

أما المتآمرونَ التسعةُ المفسدون فهم: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

والرَّهْط هم: العصابةُ من الناس، عددهم دون العشرة.

اجتمعَ الرَّهْطُ التسعة، واتفقوا على تبييتِ صالحٍ عليه السلام ليلاً، وقتْلِه هو وأهلِه، دونَ أن يشعرَ بهم أحد.

﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾: تآمروا على قتل صالح، وأَقسموا بالله على ذلك، وحَلَفوا الأَيمان، وأكّدوا ما اتفقوا عليه بها.

ومعنى: تقاسَموا بالله: اقْسِموا بالله على التنفيذ.

﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾: نهجمُ على صالحٍ وأهله بالليل بَياتاً وهم نائمون، ونقتلُهم دونَ أنْ يشعرَ بنا أحد.

قال السمين الحلبي في معنى التبييت: «والتبييت: تدبيرُ الأمرِ ليلاً، وأكثرُ ما يكون ذلك في المكر. قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨]. و: بَيَّتَ على كذا: عَزَمَ عليه قاصداً له...»(١).

ومن المبالغةِ في مكْرِ ولؤم المتآمرين التسعة أنهم اتفقوا على قتل صالح وأهله ليلاً، وإنكار هذا فيما بعد، والتبرؤِ من دمه أمامَ وليّه: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾.

---

(١) عمدة الألفاظ ١: ٢٧٩.

وكان هؤلاء التسعةُ متنفذين في قوم ثمود، ذوي سطوة ومنزلة، ولهذا عقَّبوا على مؤامرتهم في قتل صالح وأهله بقولهم: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

ومعنى التعقيبِ على المؤامرة بهذا، أنَّ كلمتهم مسموعةٌ في قومهم، وقومُهم لا يجرؤون على مناقشتهم أو مخالفتهم أو تكذيبهم، وكلُّ ما يقولونه نافذٌ في قومهم، فإذا ما قتلوا صالحاً، ثم أنكروا قتْلَه بلسانهم، فهم صادقون في الإنكار والاستنكار، وقومُهم لا يتهمونهم بدمه، وكيف يتهمونَهم به وهم الملأُ الكبراء المتنفذون؟؟.

هذا ما بيَّته هؤلاء المتآمرون التسعة، وهذا ما مكَروا به، ولكنَّ الله لمكرهم بالمرصاد، حيثُ أبطلَ مكرهم، وقضى عليهم، وأنجى صالحاً عليه السلام ومَنْ معه: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٥٣﴾ [النمل: ٥٠ ـ ٥٣].

[١٠]

إهلاك ثمود بالصيحة

قامَ صالحٌ عليه السلام بواجبه، وبلَّغَ ثمود الدعوة، وأقامَ الحجةَ عليهم، ولكن ثمودَ أصرّوا على الكفر والعناد والتكذيب.

واتبع صالحاً عليه السلام قليلٌ من قومه.

وأوشكتْ قصةُ صالح عليه السلام مع قومه على نهايتها، وسارتْ في مسارِها، كما هي سنةُ الله في الصراع بين الحق والباطل، وفي مواجهة الحق للباطل، وقطعَ صالحٌ عليه السلام جميعَ محطات وخطوات الطريق، ووصلَ الأمْرُ إلى نهايته، وبقيت الخطوةُ الأخيرة،

والمشهد الختامي، الذي يسجلُ نجاةَ المؤمنين، ودمارَ وهلاكَ الكافرين!.

فبعدَ أن أَقدموا على عقر الناقة، أَخبرهم صالحٌ عليه السلام أنَّ عذابَ الله واقعٌ بهم بعد ثلاثة أيام.

عذابهم بعد عقر الناقة بثلاث:

قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴿٦٥﴾﴾ [هود: ٦٥].

وبعد مضيِّ الأيامِ الثلاثة أوقعَ اللَّهُ بهم عذابَه، فأخذَتْهم الصيحةُ عند صباحِ اليوم الرابع.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴿٦٧﴾﴾ [هود ٦٦ ـ ٦٧].

وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴿٨٣﴾﴾ [الحجر: ٨٣].

ومعنى «مصبحين»: وقْتَ الإِصباح. أي عندما طلعَ الصبحُ عليهم أخذهم اللَّهُ بالصيحة فأهلكهم.

وقال تعالى: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴿٣١﴾﴾ [القمر: ٢٩ ـ ٣١].

لم يرسل اللَّه عليهم إلا صيحةً واحدة، أبادهم بها وقضى عليهم، وصاروا ﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾.

و ﴿ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ هو صاحبُ الحظيرة، الذي يَبني حظيرةً لما عنده من البقر والغنم، يجعلُها داخلها، ويقدِّمُ لها داخلَ الحظيرة ـ أو المزرعة ـ العلفَ والطعام.

و «الهَشيم» هو النباتُ اليابس، الذي يُقدَّمُ للماشية لتأكله. فمعنى قوله: ﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ أنَّ قومَ ثمود لما أهلكهم اللَّهُ بالصيحة

أبادتهم وقضت عليهم، وصاروا هلكى، كالزرع اليابس الذي يجمعه صاحبُ الحظيرة، فيدرسه ويطحنُه، ويقدِّمه «تِبْناً» مدروساً لحيواناته داخلَ الحظيرة.

عذبهم الله بالصيحة والرجفة والصاعقة:

وقد أطلقَ القرآنُ على العذاب الذي وقعَ بقوم ثمود عدةَ أسماء. فسمَّاه: صيحة، ورجفة، وصاعقة.

ولا تعارُضَ بين هذه الأسماء، فكلُّ اسمٍ تُلحظُ فيه مرحلةٌ من مراحلِ ذلك العذاب، ودرجةٌ من درجاته.

لقد انشقَّتْ بهم الأرض، فسمعوا لها صيحةً قوية، وصوتاً عالياً، ثم رجفتْ بهم وحركَتْهم، ثم صعقَتْهم وأهلكتهم.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الحجر: ٨٣].

قال السمين الحلبي: «الصيحة هي: الصوتُ الشديد.. وأصْلُها تشقيقُ الصوت. مأخوذٌ من قولهم: انصاحَ الخشبُ والثوبُ إذا انشَقّ، فسُمع منه صوت»[(١)].

لقد انشقت الأرضُ أمامَ ثمود، وزُلزلت، وسمعوا لانشقاقِها صوتاً عالياً، وصيحة مدوية.

وهذه الصيحةُ المدويةُ التي سمعوها نتجَ عنها رجفةٌ قوية.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف: ٧٨].

والرجفةُ من الرَّجف، والرَّجْف هو: الحركةُ والاضطراب الشديد[(٢)].

---

(١) عمدة الحفاظ ٢: ٤٢١ ـ ٤٢٢.

(٢) عمدة الحفاظ: ١: ٨١.

وهذه الرجفةُ وقعتْ بعد الصيحة، فقومُ ثمودَ سمعوا صيحةً قوية، ثم رجفتْ بهم الأرض بعد ذلك، وتحركتْ حركةً شديدة، وزُلزلتْ زلزالاً كبيراً بعد الصيحة.

ثم صُعقوا بعد الصيحة والرجفة، فسُمِّيَ العذابُ الواقعَ بهم «صاعقة». قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [فصلت: ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الذاريات: ٤٣ ـ ٤٥].

والصاعقةُ هي: «الصوتُ الشديدُ من الجو، ثم يكون منها نار فقط، أو عذاب، أو موت وهي في ذاتها شيءٌ واحد، وهذه الأشياء تأثيراتٌ منها..»(١).

لقد صُعِقَ قومُ ثمود بالصاعقة، وكانوا ينظرون وهم مصعوقون، عاجزون عن الحركة أو الهرب، غيرُ قادرين على الانتصار أو دفع ذلك العذاب عنهم.

وأنجى اللّهُ صالحاً عليه السلام والمؤمنين الذين معه، وفق سنته المطردةِ في الصراع بين الحق والباطل: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت: ١٨].

وأخبرَ اللّهُ عن هلاك ثمود بقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ١١ ـ ١٥].

لقد طغتْ ثمود، ولم يلتفتوا لتحذيرِ صالح عليه السلام، وأقدموا

---

(١) المفردات للراغب: ٤٨٥.

على عقر الناقة، فأوقعَ اللّهُ بهم العذاب، وأخذهم بالصيحة والرجفة والصاعقة، ودمدمَ عليهم، وسوّى مكانهم بالأرض، أو سوّى الأرض بهم!.

الدمدمة بالعذاب والتسوية بالأرض:

قال السمين في معنى «دَمْدَم»: قوله: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾: أَطبقَ عليهم العذاب. وأَصْلُه «دَمَّم» بثلاثِ ميمات. فأبدلَ الميمَ الوسطى دالاً ـ فصارت «دَمْدَم».

تقول: دمَّمْتُ على الشيء: أَطْبَقْتُ عليه. فإذا كَرَّرْتَ الإِطباق قلت: دَمْدَمْتُ عليه.

وقال الفراء: «الدَّمْدَمَة والدَّمدام: الهلاك»[1].

وقال الراغب الأصفهاني في معنى ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾: ومعنى قوله: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾: سوّى بلادَهم بالأرض. وقيل: معناها: سَوّى بلادَهم بهم، وهذا كقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء: ٤٢][2]ـ .

أَهلكَ اللّهُ ثمودَ بعَدْلِه، وعاقَبهم جزاءً على كفرهم وطغيانهم، ودمدمَ عليهم، وأَطبقَ عليهم العذاب، حتى عمّهم جميعاً، وسَوّى الأرض بهم، وهو القويُّ الحكيم العادل، فلا يَخافُ متابعاً يتابعه، ولا محاسِباً يحاسبه، ولا نكيراً ينكرُ عليه، فهو الفعّالُ لما يريد، لا رادَّ لأمره، وفعْلُه كلُّه عدْلٌ وحكمةٌ وصواب، ولهذا عقَّبَ على دمارِ ثمود بقوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾.

وبهذا انتهى قومُ ثمود، وذَهبوا من الوجود. قال تعالى ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود: ٦٧ ـ ٦٨].

---

(١) عمدة الحفاظ ٢: ٢٠ ـ ٢١.

(٢) المفردات للراغب: ٤٤٠.

قال السمين في معنى ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾: «يقال: غَنِيَ بالمكان، يَغنى به. إذا أَقام به. وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾: كأن لم يقيموا فيها.

يقال: غَنِيَ بالمكان: إذا أقامَ إقامةَ مستَغْنٍ به عن غيره، راضٍ به، وبإقامتِه فيه»[1].

بعداً لثمود وتعقيب صالح على مصرعهم:

لقد خلتْ ديارُ ثمود منهم، وأصبحتْ خاوية، كأن لم يكنْ بها ساكنون يتحركون. وذهبَ ثمودُ إلى عذابِ الله، وخلَّفوا وراءَهم بيوتهم وممتلكاتهم، التي أقاموا فيها ما أقاموا، وها هم قد غادروها مُكْرَهين معذَّبين، كأن لم يَغْنوا ولم يقيموا فيها.

أَلا بُعْداً لثمود، وسُحْقاً لهم، وتَبّاً وخسارةً لهم، وخزياً وذلاً لهم، وهذه هي النهايةُ التي يستحقونها بسببِ كفرهم وطغيانهم، وهي نفسُها نهايةُ كل قوم كافرين.

ووقفَ صالحٌ عليه السلام على أَطلالِ قومه المعذَّبين، وشاهدَ جثثهم صرعى كهشيم المحتظِر، فعقَّبَ على هذا قائلاً لهم وهم أموات: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

لقد قامَ صالح عليه السلام بواجبه نحو قوم ثمود، وبلَّغَهم رسالةَ الله، ونصحَ لهم، وأخلصَ في نصحه، وهذا كلُّ ما يملكه تجاههم. أما هم فقد أَغلقوا أمامَ نصحه قلوبَهم، ورفضوا دعوتَه لهم، فوقع بهم العذاب!!.

[١١]

مرور الرسول على ديار ثمود

مَرَّ رسولُ الله ﷺ مع أصحابه على ديار ثمود، الواقعة في منطقة

---

(١) عمدة الحفاظ: ٣: ٢١٢.

«الحِجْر» بين المدينة وتبوك، وذلك أثناءَ توجُّهه إلى غزوةِ تبوك.

وقد سنَّ لنا رسولُ الله ﷺ من ذلك سنةً دائمة، في مرورنا بديارِ الأَقوام المعذَّبين، وعلَّمنا كيفيةَ التصرفِ عند ذلك.

نهي الصحابة عن الدخول على ديارهم:

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: (لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك، نزل بهم الحجرَ عند بيوت ثمود، فعَجبوا منها، ونصَبوا القُدور، فأمرهم رسول الله ﷺ فأَهْرقوا القُدور، وعَلَفوا العجين الإِبل، ثم ارتحلَ بهم، حتى نزلَ على البئر التي كانت تشربُ منها الناقة، ونهاهم أنْ يدخلوا على القوم الذين عذبوا.

وقال: «إني أخشى أنْ يصيبكم مثلُ ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم»)[1].

لقد نهى رسولُ الله ﷺ المسلمين عن استعمال الماءِ الذي في ديار ثمود، لأنه ماءُ قومٍ معذَّبين، وأَمَرهم بإهراقِ القُدور التي طبخوا فيها بذلك الماء، وإِطعام العجين الذي عجنوه بذلك الماء لدوابهم، وهذا النهي للتنزيهِ لا للتحريم، وهذا التصرفُ منه إرشادٌ لهم إلى ما هو أولى.

والرسولُ ﷺ يريدُ من المسلمين أنْ تبقى قلوبُهم نافرةً من المعاصي، وأنْ لا يرضوا نفسياً بالقوم المعذَّبين، ولذلك نهاهم عن الإقامةِ في ديار القوم المعذَّبين، وعن الدخول عليهم، حتى لا تهتزَّ نظرتُهم للعصاة والمعاصي، وحتى لا يتأثَّروا بما كان يفعله المعذَّبون الهالكون.

وسنَّ الرسولُ ﷺ للمسلمين أن يمروا بديارِ المعذَّبين وهم باكون.

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي لله عنهما قال:

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٧٨. ومسلم برقم: ٢٩٨١. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٦٧.

قال رسول الله ﷺ وهو بالحِجْر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذَّبين، إلاّ أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخُلوا عليهم، لئلا يصيبَكم مثلُ ما أصابهم»(١).

موقف المسلم من آثار الهالكين:

وهذا هو موقفُ المسلمين من كلِّ قوم معذَّبين يمرون على آثارهم، فلا يجوزُ أنْ يُعجبوا بآثارهم، ولا أنّ يَفخروا بهم، ولا أنْ يَقتدوا بهم في معاصيهم وفجورهم، ولا أنْ يَجعلوا آثارَهم مواسمَ للفسق، ولا أنْ يُقيموا عليها المهرجانات، ويمارسوا عليها المنكرات!.

فإذا كانوا سيمرّون على آثارهم لضرورةٍ، فعليهم أن يكونوا متأثرين متّعظين، وأن يكونوا باكين خائفين وَجِلين، كما علَّمَهم رسولُ الله ﷺ.

وإذا أرادَ بعضُ المسلمين أنْ يتعجَّبوا من آثارِ القوم المعذَّبين، فعليهم أنْ يتعجَّبوا مما هو أهمُّ من هذا. هذا هو ما أرشدَ الرسولُ ﷺ إليه أحدَ الصحابة، عندما أرادَ أن يتعجَّبَ من آثار قوم ثمود.

روى أحمد عن عمرو بن سعد ـ وقيل عامرِ بن سعد ـ رضي الله عنه قال: لمّا كان رسولُ الله ﷺ في غزوةِ تبوك، تسارعَ الناسُ إلى أهل الحِجْر يدخُلون عليهم.

فبلغَ ذلك رسولَ الله ﷺ، فنادى مناديه في الناس: الصلاة جامعة.

قال عامر بن سعد: فأتيتُ رسولَ الله ﷺ، وهو ممسكٌ بعيرَه، وهو يقول: ما تدخلونَ على قوم غضبَ اللّهُ عليهم؟!!

فقال له رجل: نعجبُ منهم يا رسولَ الله!!

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٣٣. ومسلم برقم: ٢٩٨٠. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٦٨.

فقال عليه الصلاة والسلام: أفلا أنبئكم بأعجبَ من ذلك؟ رجلٌ من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم، وما هو كائنٌ بعدكم. فاستقيموا وسدِّدوا. فإنَّ الله لا يعبأُ بعذابكم شيئاً، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً»[1]

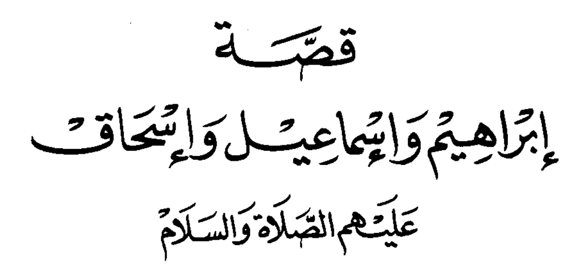
إِنَّ الأعجبَ من آثارِ القوم المعذَّبين هو الواجباتُ والتكاليفُ التي أَوجبها الله على المسلمين وكلَّفهم بها، وعليهم أنْ يقوموا بذلك الواجب، فإنْ قصَّروا فيهِ، فإن اللَّهَ سيعذِّبُهم، كما عذَّبَ المتمردين العصاة قبلهم، وسيعجزونَ عن دفعِ العذاب عنهم. كما عجز عن ذلك مَنْ قبلهم!.

هذا هو الدرسُ الذي لا بدَّ أنْ يتعلَّمه المسلمون، عندما يشاهدون آثارَ الأقوام المعذَّبين، أو يمرون بديارهم، وفْقَ ما علَّمهم رسولُ الله ﷺ.



(١) أخرجه أحمد في المسند ٤: ٢٣١. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٦٩.




قصة
إبراهيم وإسماعيل وإسحاق
عليهم الصلاة والسلام



[١]

ذكر إبراهيم عليه السلام في القرآن

ذكَرَ القرآنُ اسمَ إبراهيم عليه السلام عشراتِ المرات، وذلك أثناءَ الحديثِ عن قصته، أو أثناءَ ذكرِ الرسلِ والأَنبياء.

وفيما يلي أسماءُ السور التي ذُكرَ فيها إبراهيم، ومراتُ ذكْرِه فيها: .

١ ـ سورة البقرة: وقد ذُكر فيها خمسَ عشرة مرة.

٢ ـ سورة آل عمران: وقد ذُكر فيها سبعَ مرات.

٣ ـ سورة النساء: وقد ذُكر فيها أربعَ مرات.

٤ ـ سورة الأنعام: وقد ذُكر فيها أربعَ مرات.

٥ ـ سورة التوبة: وقد ذُكر فيها ثلاثَ مرات.

٦ ـ سورة هود: وقد ذُكر فيها أربعَ مرات.

٧ ـ سورة يوسف: وقد ذُكر فيها مرتين.

٨ ـ سورة إبراهيم: وقد ذُكر فيها مرةً واحدة.

٩ ـ سورة الحِجْر: وقد ذُكر فيها مرةً واحدة.

١٠ ـ سورة النحل: وقد ذُكر فيها مرتين.

١١ ـ سورة مريم: وقد ذُكر فيها ثلاثَ مرات.

١٢ ـ سورة الأنبياء: وقد ذُكر فيها أربعَ مرات.

١٣ ـ سورة الحج: وقد ذُكر فيها ثلاث مرات.

١٤ ـ سورة الشعراء: وقد ذُكر فيها مرةً واحدة.

١٥ ـ سورة العنكبوت: وقد ذُكر فيها مرتين.

١٦ ـ سورة الأحزاب: وقد ذُكر فيها مرةً واحدة.

١٧ ـ سورة الصافات: وقد ذُكر فيها ثلاثَ مرات.

١٨ ـ سورة صَ: وقد ذُكر فيها مرةً واحدة.

١٩ ـ سورة الشورى: وقد ذُكر فيها مرةً واحدة.

٢٠ ـ سورة الزخرف: وقد ذُكر فيها مرةً واحدة.

٢١ ـ سورة الذاريات: وقد ذُكر فيها مرةً واحدة.

٢٢ ـ سورة النجم: وقد ذُكر فيها مرة واحدة.

٢٣ ـ سورة الحديد: وقد ذُكر فيها مرةً واحدة.

٢٤ ـ سورة الممتحنة: وقد ذُكر فيها مرتين.

٢٥ ـ سورة الأعلى: وقد ذُكر فيها مرةً واحدة.

ومجموعُ السور التي وردَ اسمُه فيها خمسٌ وعشرون سورة، ومجموعُ مراتِ ذكره هو تسعٌ وستون مرة[١].

[٢]

مواضع ذكر إبراهيم في القرآن

١ ـ ما ذكرتْه سورةُ البقرة من قصة إبراهيم:

ذُكرتْ قصتُه في ثلاثة مواضعَ من سورة البقرة.

الأول: آيات: ١٢٤ ـ ١٤١. وهي ربعُ الحزبِ الأخير من الجزء الأولِ من السورة.

وقد تحدثت الآياتُ عن جعل إبراهيمَ إماماً للناس، هو وذريتُه الصالحون، وعن جعْلِ مقامِ إبراهيم الذي عند الكعبة مصلّى، وعن دعاءِ إبراهيم وإسماعيل، وهما يبنيان بيتَ الله الحرام، وعن دين إبراهيم وهو الإسلامُ لله، وعن وصيتِه لأولاده بأنْ يكونوا مسلمين، وأن لا يموتوا إلا وهم مسلمون.

---

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن لمحمد فؤاد عبد الباقي: ١ ـ ٢.

وناقشت الآياتُ اليهودَ والنصارى في زعْمهم اتباعَ إبراهيم، وبينتْ أن إبراهيمَ كان حنيفاً مسلماً، وسجلت اعترافَ المؤمنين بإيمانهم بإبراهيم وكلِّ مَنْ بعده من رسلِ الله، وأنكرت الآياتُ على اليهود والنصارى جدالَهم وحجاجَهم في إبراهيم، ونفت الآياتُ عن إبراهيم ومَنْ بعده مِن الرسل كونَهم يهوداً أو نصارى، وسجلَت أنهم كانوا مسلمين، وجردت اليهودَ والنصارى من الانتسابِ لإبراهيم عليه السلام.

الثاني: آية (٢٥٨) من السورة. وقد تحدثت الآيةُ عن المواجهة بين إبراهيمَ عليه السلام، وبين الملكِ الظالم، الذي ادَّعى الألوهية، حيث أخبره إبراهيمُ أن الله هو الذي يحيي ويميت، فادّعى الملكُ قدرتَه على الإماتةِ والإحياء، فتحدَّاه إبراهيمُ بتغييرِ مسار الشمس، والإتيانِ بها من المغرب، فبُهت ذلك الملكُ الكافر.

الثالث: آية (٢٦٠) من السورة وقد تحدثت الآيةُ عن ما طلبه إبراهيمُ عليه السلام من ربه، أنْ يريَه كيف يحيي الموتى، وليس هذا شكّاً منه في قدرةِ الله، ولكن ليطمئنَّ قلبُه، وأخْذِه أربعةَ طيور، وجعْلِه جزءاً منهن على كل جبل، ثم دعوتِه إليهن، ومجيئِهن له سعياً.

ذكره في سورتي آل عمران والأنعام:

٢ ـ ما ذكرتْه سورةُ آل عمران عن إبراهيم:

لم تذكر سورةُ آل عمران مشاهدَ أو لقطاتٍ من قصة إبراهيم عليه السلام، وإنما تحدثتْ عن حقيقةِ الانتساب إليه، وحقيقةِ الدين الذي كان عليه.

لقد نزلتْ سورةُ آل عمران في جدالِ اليهود والنصارى والعرب المشركين، وبينتْ أنه لا صلةَ لهم تربطُهم بإبراهيم عليه السلام.

تشيرُ آيات السورة إلى اصطفاءِ الله لآل إبراهيم وآل عمران على العالمين (آية رقم: ٣٣).

وترفضُ الآياتُ انتسابَ اليهود والنصارى لإبراهيم (آية: ٦٥)،

وتبينُ أنه كان حنيفاً مسلماً، ولم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا مشركاً (آية: ٦٧)، وتقررُ أنّ أَوْلى الناسِ بإبراهيم هم الذين آمنوا به من قومه، ثم محمدٌ ﷺ وأمتُه (آية: ٦٨).

وتأمرُ الآياتُ اليهودَ والنصارى باتباعِ ملة إبراهيم، والدخولِ في الإِسلام، وتشيرُ إلى بناءِ إبراهيم الكعبة، لتكون أولَ بيت وُضعَ لعبادة الله في الأرض، وتذكر مقام إبراهيم عند البيت الحرام، وتأمر المسلمين بالحج إلى البيتِ الحرام، وهذا في آيات: ٩٥ ـ ٩٧.

٣ ـ ما ذكرتْه سورةُ الأنعام عن إبراهيم عليه السلام:

تحدثتْ سورةُ الأنعام عن قصةِ إبراهيم عليه السلام، في آياتها: ٧٤ ـ ٨٦.

وقد عرضت الآياتُ طرفاً من الحوارِ بين إبراهيم عليه السلام وبين أبيه، ينكرُ فيه على أبيه عبادةَ غير الله.

ثم تحدثت الآيةُ عن مشهدِ الحِجاج والجدالِ بين إبراهيم وبين قومه، عندما أبطلَ لهم ـ بالمنطقِ الجدلي البرهاني ـ كونَ الكواكبِ آلهة، وأعلنَ لهم إيمانَه بالله، وبراءتَه مما يعبدون من دون الله، وتقريره لحقيقةِ الأمن والخوف.

ثم أشارت الآياتُ إلى الأنبياءِ من ذريته، مما يُظهِرُ أنه هو أبو الأنبياء فعلاً.

وتشيرُ السورةُ في آياتها الآخيرة إلى حقيقةِ ملةِ إبراهيم، وهي الحنيفية، آية: ١٦١.

ذكره في سور هود وإبراهيم والحجر ومريم:

٤ ـ ما ذكرتْه سورةُ هود من قصته:

تحدثتْ سورةُ هود عن قصة إبراهيم عليه السلام، وذلك في آياتها: ٦٩ ـ ٧٦.

أشارت الآياتُ إلى قدومِ الملائكة إلى إبراهيم عليه السلام في صورةِ بشر، وهو لا يعرفهم، وعدمِ أكْلهم من عجْلِه لأنهم ملائكة، وبشارتِهم لإبراهيم وزوجِه سارة بإسحاق، وردِّهم على تعجُّبِ سارة واستغرابها، ثم إخبارِهم إبراهيم بمهمتهم في تدمير قوم لوط الشاذين، وأخبرتْنا الآياتُ عن مفتاحِ شخصية إبراهيم، الذي ينطبق على كلِّ مشهدٍ أو لقطةٍ من قصته: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾.

٥ ـ ما ذكرتْه سورةُ إبراهيم من قصته:

تحدثتْ سورةُ إبراهيم ـ التي تحملُ اسمه عليه الصلاة والسلام ـ عن مشهد من قصته، وذلك في آياتها: ٣٥ ـ ٤١.

وأشارت الآياتُ إلى وضعِ إبراهيمَ ابنَه وزوجَه في وادٍ غيرِ ذي زرع في الحجاز، ودعائِه ربَّه أنْ يجمعَ الناس حولهما، وأنْ يرزقَهم من الطيبات، وأن يحفظه هو وبنيه عن عبادةِ الأصنام، وعن شكرِه لله على ما أنعمَ عليه من النعم، ومنها إنجابُه إسماعيلَ وإسحاق.

٦ ـ ما ذكرتْه سورةُ الحِجْر من قصته:

تحدثتْ سورةُ الحِجْرِ عن قصةِ إبراهيم عليه السلام، وذلك في آياتها: ٥١ ـ ٦٠.

وأشارت الآياتُ إلى قدومِ الملائكة إليه في صورة بشر، وما بشَّروه به من الولد، وما أخبروه به من توجههم إلى تدميرِ قوم لوط.

٧ ـ ما ذكرتْه سورةُ مريم من قصته:

تحدثتْ سورةُ مريم عن قصةِ إبراهيم عليه السلام وذلك في آياتها: ٤١ ـ ٥٠.

وأشارت الآياتُ إلى دعوتِه لأبيه، كي يتخلّى عن الكفر بالله، ويدخلَ في دين الله، ورفْضِ أبيه لهذه الدعوة، واعتزالِ إبراهيم عليه السلام لقومه، وهبةِ الله له إسحاق ثم يعقوب عليهما السلام.

ذكره في سور الأنبياء والحج والشعراء والعنكبوت:

٨ ـ ما ذكرتْه سورةُ الأنبياء من قصته:

تحدثتْ سورةُ الأنبياء عن قصة إِبراهيم عليه السلام، وذلك في آياتها: ٥١ ـ ٧٣.

أشارت الآياتُ إِلى إنكارِ إبراهيم على أبيه وقومِه عبادةَ غير الله، ودعوتِهم إلى الإِيمان بالله، وتحطيمِه أصنامهم، ومحاكمتِه على أعين الناس، ونجاحِ إبراهيمَ في إفحامِهم وإقامةِ الحجة عليهم أثناء المحاكمة، ولجوئهم إلى إحراقِه بالنار بعد هزيمتهم أمامَ حجته، وإنجاءِ الله له من النار، وخروجِه مع لوط إلى الأرض المباركة فلسطين، وهبةِ الله له إسحاقَ ثم يعقوب عليهما السلام.

٩ ـ ما ذكرتْه سورةُ الحج من قصته:

تحدثتْ سورةُ الحج عن قصةِ إبراهيمَ عليه السلام: في الآيات: ٢٦ ـ ٢٩. وعرضتْ هذه الآياتُ لقطةً من قصته، تناسبُ موضوعَ السورة، وهو الحجُّ والمناسك والهدي والبيت الحرام والنحر.

أشارتْ هذه الآياتُ إلى بناءِ إبراهيم لبيتِ الله الحرام، وتجهيزه وتطهيره للعابدين والطائفين. وأذان إبراهيم بالحج، ودعوتِه الناسَ ليحجّوا، ويؤدوا المناسك، ويُعظموا حرماتِ الله.

وفي الآيةِ الأخيرةِ من السورة: رقم ٧٨. تذكيرُ المسلمين بالواجب الذي أوجبهُ الله عليهم، وبيانُ ارتباطهم بأبيهم إبراهيم عليه السلام، وأنه هو الذي أَطلق عليهم اسمَ «المسلمون».

١٠ ـ ما ذكرتْه سورةُ الشعراء من قصته:

تحدثتْ سورةُ الشعراء عن قصةِ إبراهيم عليه السلام، وذلك في آياتها: ٦٩ ـ ٨٩.

أشارت الآياتُ إلى رفضِ إبراهيم لكفرِ أبيه وقومه، ودعوتِه لهم

إلى التخلي عن الكفر، والدخولِ في دين الله، وبراءتِه مما يعبدون من دون الله، وتوجُّهه إلى الله، ونظرِه لليوم الآخر، ودعائِه ليكون من الناجين الفائزين في ذلك اليوم.

١١ ـ ما ذكرتْه سورةُ العنكبوت من قصته:

تحدثتْ سورةُ العنكبوت عن قصةِ إبراهيم عليه السلام، وذلك في آياتها: ١٦ ـ ٢٧.

أشارت الآياتُ إلى دعوةِ إبراهيمَ قومَه لعبادة الله وحده، وإنكارِه عبادتَهم لغيرِ الله، وتعريفِهم على بعض صفاتِ وأفعال الله، وبينتْ ردَّ قومِه على حسنِ دعوته بتهديدهم بقتله أو حرْقِه، ونجاتِه من كيدهم، ثم هجرتِه مع لوط إلى فلسطين، وهبةِ الله إسحاقَ ويعقوب له.

ذكره في سور الصافات والذاريات والممتحنة:

١٢ ـ ما ذكرتْه سورةُ الصافات من قصته:

تحدثتْ سورةُ الصافات عن قصةِ إبراهيم عليه السلام، وذلك في آياتها: ٨٣ ـ ١١٣.

وأشارت الآياتُ إلى تمتُّع إبراهيمَ عليه السلام بقلبٍ سليم، وإلى إنكارِه على قومه عبادةَ الأصنام، وتحطيمه لأصنامهم، ومحاولتِهم إحراقَه، وإنجاءِ الله له من النار، وولادةِ إسماعيل له، ورؤياه بذبْحِ ابنِه، واستسلامِه مع ابنه لله، وتبشيرِه بابنه الآخر إسحاق نبياً، ومباركةِ الله للمحسنين الصالحين من أبناء إسحاق دون الظالمين منهم.

١٣ ـ ما ذكرتْه سورةُ الذاريات من قصته:

تحدثتْ سوةُ الذاريات عن قصةِ إبراهيم عليه السلام، وذلك في آياتها: ٢٤ ـ ٣٤.

أشارت الآياتُ إلى قدوم الملائكة ضيوفاً عنده، وبشارتِه وزوجه بولادةِ إسحاقَ لهما، وردُّ الملائكة على استغرابِ وتعجُّب زوجِهِ،

وإخبارهم لإِبراهيم عن توجههم لتدمير قوم لوط.

١٤ ـ ما ذكرتْه سورةُ الممتحنة من قصته:

تحدثتْ سورةُ الممتحنة عن قصةِ إبراهيم عليه السلام، وذلك في آياتها: ٤ ـ ٦.

أشارت الآياتُ إلى موقفٍ إيمانيٍّ عظيم لإِبراهيم وأَتْباعِه المؤمنين، هو براءتُهم من قومِهم الكفار، وإِعلانِ العداوة والبغضاء لهم، حتى يؤمنوا بالله وحده، ودعت المؤمنينَ إلى الاقتداءِ بإبراهيمَ وأتباعِه في هذا الموقف، وبينتْ حقيقةَ موقفِ إبراهيم عليه السلام من أبيه.

هذه هي السورُ التي عَرضتْ مشاهدَ ولقطاتٍ من قصةِ إبراهيم عليه السلام: سورة البقرة، وآل عمران، والأنعام، وهود، وإبراهيم، والحجر، ومريم، والأنبياء، والحج، والشعراء، والعنكبوت، والصافات، والذاريات، والممتحنة.

إشارات عنه في سور أخرى:

وهناك سورٌ فيها إشارةٌ سريعة للَقطةٍ من قصة إبراهيم عليه السلام. منها:

سورةُ النساء: الآية: ١٢٥. فيها الثناءُ على من اتَّبع ملةَ إبراهيم حنيفاً، والإِشارةُ إلى اتخاذِ الله لإِبراهيم خليلاً.

وسورةُ التوبة. الآية: ١١٤. فيها بيانُ حقيقةِ استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه، وبراءةُ إبراهيم من أبيه لمّا تبينَ له أنه عدوٌّ لله.

وسورةُ النحل. الآية: ١٢٠. فيها الإِخبارُ بأن إبراهيمَ كان أمةً قانتاً لله حنيفاً، وما كان من المشركين.

والآية: ١٢٣، فيها الأَمرُ باتباعِ ملة إبراهيم عليه السلام.

وسورةُ الزخرف: الآية: ٢٦، فيها الإِخبارُ ببراءةِ إبراهيم عليه السلام من قومه الكافرين.

وسورةُ الحديد، الآية: ٢٦. فيها الإِشارةُ إلى نبوةِ نوحٍ وإبراهيم عليهما السلام، وجعْلِ النبوة والرسالةِ في ذريتهما.

وهناك سورٌ اكتفتْ بذكْرِ إبراهيم عليه السلام مجردَ ذكْر، ضمن ذكْرِ أسماءِ الأنبياء، أو الثناء على بعض مواقفهم، وهي سور: يوسف، والأحزاب، وصَ، والشورى، والنجم، والأعلى.

هذه هي مواضعُ ذكْرِ إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم.

[٣]

تعريف بإبراهيم عليه السلام

هو أبو الأنبياء، إبراهيمُ الخليلُ عليه الصلاة والسلام، وهو من أُولي العزم من الرسل، بعثَه الله رسولاً إلى قومه في بلاد العراق، وكانوا يعبدون الأصنامَ والكواكبَ من دون الله.

وكان أبوه من عابدي تلكَ الأصنام، واسمُ أبيه آزر، بنصِّ القرآن، كما سنتكلم عنه بعدَ قليل، وقد أصرَّ أبوه آزر على كفْرِه، فتبرأَ إبراهيمُ منه.

وقد التقى رسولُنا محمدٌ ﷺ بالأنبياءِ السابقين في رحلةِ المعراج، حيثُ أَمَّ بهم في بيت المقدس، ثم استقْبَلوه في السماوات.

إبراهيم وهيئته:

وقد أخبرَنا رسولُ الله ﷺ عن هيئةِ إبراهيم عليه السلام، فروى مسلمٌ عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما، أن رسولَ الله ﷺ قال: «عُرِضَ علَيَّ الأنبياء، فإذا موسى ضَرْبٌ من الرجال، كأنه من رجالِ شَنوءَة، ورأيتُ عيسى بنَ مريم عليه السلام، فإذا أقربُ مَنْ رأيتُ به

شَبَهاً عروة بنُ مسعود، ورأيتُ إبراهيمَ صلوات الله عليه، فإذا أقربُ مَنْ رأيتُ به شبَهاً صاحبُكم (يعني نفسَه)، ورأيتُ جبريلُ عليه السلام، فإذا أقربُ مَنْ رأيتُ به شَبَهاً دِحْيَة..»[1].

كما أخبرَنا رسولُ الله ﷺ عن سرعةِ تنفيذِ إبراهيمَ عليه السلام لأمْرِ الله، فلما أمره اللَّهُ بالاختتانِ اخْتَتَن، وهو ابنُ ثمانين سنة.

فروى أَبو هريرة رضي الله عنه عن رسولِ الله ﷺ قال: «اخْتَتَن إبراهيمُ النبي، عليه الصلاة والسلام، وهو ابنُ ثمانين سنة، بالقدوم»[2].

وهناك قولان في المرادِ بالقدوم:

فمنهم مَنْ قال: «القَدُوم» بتخفيف الدال، وهو اسمٌ للآلةِ المعروفةِ المستعملةِ بالقطع. أي أنَّ إبراهيمَ عليه السلام استخدمَ آلَةَ القَدُوم في الاختتان، وقَطع بها غُرْلَتَهُ.

ومنهم مَنْ قال: «القَدّوم» بتشديدِ الدال، وهو اسمٌ لقريةٍ معروفة في فلسطين، واسمُها الآن «كُفْرُ قَدّوم»، وهي إحدى قرى منطقةِ نابلس، أي أنَّ إبراهيم عليه السلام كان مقيماً في هذه القرية لما اختتن[3].

ولعلَّ الرأيَ الأولَ هو الأوجهُ والأرجح، فالحديثُ يريدُ أنْ يذكُرَ الآلَةَ التي استخدمَها إبراهيمُ في الاختتان.

المهمُّ أن نتذكَّرَ مسارعةَ إبراهيمَ عليه السلام لأمر الله، حيثُ نَفَّذَ أَمْرَ الله، واختتنَ وهو ابنُ ثمانين سنة.

إبراهيم بين العراق وفلسطين والحجاز:

وقد بدأَ إبراهيمُ عليه السلام دعوتَه في العراق، مع أَبيه أولاً، ثم

(١) أخرجه مسلم، برقم: ١٦٧. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٧١.
(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٥٦، ومسلم برقم: ٢٣٧. انظر الأحاديث الصحيحة: ٨٥.
(٣) انظر شرح النووي على صحيح مسلم ١٥ : ١٢٣.

مع قومه ثانياً، ثم مع الملكِ الظالم الكافر بعد ذلك ولما لم يستجيبوا له حطمَ أصنامهم، فحَكَموا بإحراقه بالنار، ولكنَّ اللّهَ أَنجاه منها، وبعد ذلك أمرهُ الله بالخروجِ والهجرة من العراق، فغادرَها إلى الأرضِ المباركة المقدسة، وكانَ معه لوطٌ عليه السلام.

أَقامَ إبراهيمُ عليه السلام في الأرضِ المباركةِ فلسطين، وكان معه زوجُه المؤمنةُ سارة رضي الله عنها، وارتحلَ مع سارةَ إلى مصر، وهناك جرتْ لهما قصةٌ مع ملك مصر، فأهداهما «هاجر»، وقدَّمت سارةُ هاجرَ إلى إبراهيم، وتَسَرّى بها، فَأَنْجَبَتْ له أول أولاده، إسماعيل عليه السلام، وأَمَرَه الله بأخذ هاجرَ وإسماعيل إلى بلادِ الحجاز، فنفَّذَ أَمْرَ الله.

وهبهُ اللّهُ بعد ذلك إسحاق عليه السلام من زوجهِ سارة، بعد أنْ كان شيخاً، وكانتْ زوجهُ عاقراً. ولما شبَّ إسماعيلُ أمرهُ اللّهُ ببناءِ الكعبة المشرفة مع ابنه إسماعيل، فبنى أولَ بيتٍ وُضِعَ للناس، وبعد ذلك بنى ثاني بيتٍ لعبادةِ الله، وهو المسجدُ الأقصى في بيت المقدس.

وشبَّ إسحاق في حياةِ إبراهيم، كما شبَّ إسماعيل قبله، وزوَّجَ إبراهيمُ ابْنَيْه النبيَّيْن: إسماعيل وإسحاق، وأنجبَ إسحاقُ ابنَه يعقوب، ورأى إبراهيمُ حفيدَه يعقوبَ النبي، عليهم جميعاً الصلاة والسلام.

وبعد حياةٍ حافلةٍ بالدعوة إلى الله، جاءَ إبراهيمَ عليه السلام أجلُه، فتوفَّاهُ الله إليه.

ولما عُرجَ برسولِ الله محمد ﷺ في رحلةِ المعراج، رأى إبراهيمَ عليه السلام في السماءِ السابعة.

ففي حديث مالكِ بن صَعْصَعَة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، أنه قال عن رحلةِ المعراج: «. . . فأَتَيْنَا السماءَ السابعة. قيل: مَنْ هذا؟ قيل: جبريل، قيل: مَنْ معك؟ قيل: محمد، قيل: وقد أُرسلَ إليه؟ مرحَباً به، ولنعمَ المجيء جاء.

فأتَيْتُ على إبراهيم فسلَّمْتُ عليه، فقال: مرحباً بكَ من ابنٍ ونبي.

فرُفعَ لي البيتُ المعمور. فسألتُ جبريل، فقال: هذا البيتُ المعمور، يصلّي فيه كلّ يومٍ سبعونَ ألفَ مَلَك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه، آخرَ ما عليهم»[1].

[٤]

مراحل حياة إبراهيم عليه السلام

عرضَ القرآنُ حياةَ إبراهيم عليه السلام، بعد أنْ بعَثَه اللّٰهُ نبياً رسولاً، ولم يتحدثْ عن حياتِه قبلَ النبوة. وليس هناك تفاصيلَ عن حياةِ إبراهيمَ عليه السلام قبل النبوة في الأحاديثِ الصحيحةِ، فلا يعنينا معرفةُ هذه الأخبار والتفاصيل، طالما لم تَرِدْ في المصدرين الموثوقيْن عندنا.

نعلمُ أنَّ التوراةَ تحدثَتْ عن بداياتِ حياةِ إبراهيم، ونعلمُ أنَّ فيها أخباراً عن طفولتِه وشبابه، وبحْثِه عن الله، وظَنِّه أنَّ الكواكبَ قد تكونُ آلهة، وأنه اهتدى أَخيراً إلى الله. ونعلمُ أن هناك أخباراً في الأساطير والخرافات، لكننا لا نُجيزُ لأنفسنا ولا لغيرنا اعتمادَها أو الأَخْذَ منها، لأنَّ التوراةَ محرفة، ولأنَّ تلكَ الأخبار غيرُ مؤثوقة ولا مأمونة.

فنبدأُ مع إبراهيم عليه السلام من مشهدِ حياته الذي بدأَ به القرآن، وهو دعوتُه إلى الله بعد النبوة.

تنوع طرق عرض القرآن لقصص الأنبياء:

وعرْضُ قصصِ الأنبياء في القرآن ليس له طريقةٌ واحدة مطردة، فقد سلكَ القرآنُ عدةَ طرقٍ في عرْضِ قصصِ الأنبياء.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٧٥١٧. ومسلم برقم: ١٦٢. انظر الأحاديث الصحيحة: رقم: ١٢٨.

فأحياناً يتكلمُ عن النبي منذُ ولادته، كما حصلَ في قصة موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام.

وأحياناً يتكلمُ عن النبي منذُ شبابه، كما في قصةِ داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام.

وغالباً يعرضُ قصةَ النبي منذ نبوته، حيث يُرينا إياه وهو يخاطبُ قومَه، ويدْعوهم إلى الله، ويرفضُ كفرَهم بالله. كما في قصةِ نوح وهود وصالح وشعيب عليهم الصلاة والسلام.

وهذا ما نراهُ في قصة إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام.

إننا لم نعرف عن إبراهيم شيئاً قبل نبوته، ولا نذهبُ إلى مصادرَ غيرِ موثوقة، لنأخذَ منها كلاماً غيرَ دقيقٍ ولا صحيح عن حياةِ إبراهيمَ قبل النبوة.

لهذا سنتعاملُ معَ إبراهيمَ عليه السلام منذُ أن بعثَه الله نبياً.

حياة إبراهيم على مرحلتين:

وعندما ننظرُ في قصتهِ في القرآن، فيمكننا أن نقسِّمَ حياتَه إلى مرحلتيْن أساسيتيْن:

المرحلة الأولى: دعوتُه إلى الله في موطنِه الأصلي، في بلاد العراق، حيث تَعرضُ لنا آياتُ القرآن مشاهدَ ولقطاتٍ من دعوته لأبيه، ثم دعوتِه لقومه، ثم دعوتِه للملك الظالم، ولما لم يستجيبوا له حطَّمَ أصنامهم التي يعبدونَها من دون الله، فانتقموا منه، وأرادوا إحراقَه بالنار، ولكنَّ الله أنجاهُ من النار.

وبهذا المشهدِ العنيف لم يعُدْ لوجودِ إبراهيم عليه السلام في بلاد العراق فائدة، وعلمَ اللّهُ أنَّ قومَه لن يستجيبوا له، ولهذا وجَّهَه اللّهُ إلى الخروج مِن العراق، والانتقال إلى بلاد أخرى.

المرحلة الثانية: دعوتُه إلى الله في الأرضِ المباركة فلسطين، حيث هاجرَ إليها قادماً من العراق، وصحبَه في هجرته نبيُّ الله لوطٌ عليه السلام، وعاشا في مكانيْن متقاربيْن، فكان إبراهيمُ في منطقة القدس والخليل، وكان لوطٌ إلى الشرق منه.

نتعرفُ في هذه المرحلةِ من حياته على ذهابِه مع زوجه سارة إلى مصر، وعودتِهما منها ومعهما هاجر، كما أخبرَ عن ذلك رسولُ الله ﷺ، كما نتعرفُ منها على استقبالِه لضيوفِه من الملائكة، وتبشيرهم له بولادة إسحاق ثم يعقوب له، وذهابهم لتدمير قوم لوط، كما نتعرفُ منها على بنائهِ للأقصى، واستقبالِه للضيفين، واختتانِه واستعماله لسنن الفطرة.

ونتعرفُ في هذه المرحلة على ذهابِه إلى الحجاز، وبنائِه الكعبة، وهذه مرحلةٌ متداخلة مع المرحلة الأولى.

فبينما كان مقيماً في فلسطين، وبعدَ أنْ وُلد له إسماعيلُ من هاجر، أمرهُ الله أنْ يأخذَ ابنَه الوحيد وزوجَه هاجر، ويذهبَ بهما إلى بلاد الحجاز، ويضعَهما هناك تحتَ شجرة دَوْح، بوادٍ غيرِ ذي زرع.

وضعَهما هناك وعادَ إلى مقرِّ إقامتِه في فلسطين، وبعد سنواتٍ ذهبَ إليهما، وإسماعيل شاب، وأَمرهُ الله في الرؤيا بذبحْ ابنه، وأخبره بذلك، واستسلما لأمْرِ الله، وفدى اللّهُ إسماعيلَ بذبحٍ عظيم.

وبعدَ سنواتٍ عادَ إبراهيمُ إلى إسماعيلَ في مكة، وأخبره بأمْرِ الله له ببناءِ الكعبة المشرفة أولِ بيتٍ وُضِعَ لعبادةِ الله في الأرض، وبعدما بَنَيا البيت، أذَّنَ إبراهيمُ بالحج إلى بيتِ الله الحرام.

وبعد بناءِ البيت الحرام، عادَ إبراهيمُ عليه السلام إلى فلسطين، وبقي فيها إلى أنْ توفّاهُ الله، بعدما شاهدَ حفيدَه يعقوبَ عليه السلام.

[٥]

المرحلة الأولى

مع إبراهيم في بلاد العراق

يمكنُ تقسيمُ هذه المرحلةِ من حياته إلى المشاهدِ التالية:

مشاهدها الخمسة ومواضعها في القرآن:

المشهدُ الأول: دعوةُ إبراهيمَ أباه لعبادةِ الله وحده والتخلّي عن عبادةِ الأصنام.

المشهدُ الثاني: دعوةُ إبراهيمَ قومَه لعبادة الله وحده، وإبطالُه كونَ الكواكب آلهة، وهذه خطوةٌ تاليةٌ للخطوة السابقة، فلما دعا أباه، ولم يستجبْ له، توجَّه إلى دعوةِ قومه، وهذا انتقالٌ مرحليٌّ مفهوم.

المشهدُ الثالث: توجُّهُه إلى الملكِ الظالم، الذي كان يَدّعي الألوهية، حيث دعاهُ إلى الإيمانِ بالله، ولكنه لم يستجبْ له، وهذه خطوةٌ مبنية على الخطوات السابقة.

المشهدُ الرابع: قيامُه بتحطيمِ الأصنام، باعتبارِ عبادتهم لها سبباً في إعراضِهم عن دعوته، فأرادَ أنْ يُزيلَ هذا السببَ المادي، بعد ما رفضَ قومُه التجاوبَ مع حججِه العقلية في إبطالِ عبادتها.

المشهدُ الخامس: محاكمةُ قومِه له، وحكْمُهم عليه بالحرقِ بالنار، لتحطيمه الأصنام، ولكنَّ الله أنجاه من كيدهم، وجعلَ النارَ برداً وسلاماً عليه.

بهذا المشهدِ تنتهي المرحلةُ الأولى من حياته، ولم تَعُدْ إقامتُه مع قومه في بلاد العراق ممكنة، بعد تصعيدِ المواجهة بينه وبينهم، ووصولِها إلى هذا الطريقِ المسدود.

فوجَّهه الله إلى الأرضِ المقدسة، ودَعاه إلى الهجرةِ إليها، فسارَ إليها مع مَنْ تبعه من المؤمنين.

وكانت اللقطةُ الختاميةُ للمرحلة الأولى في حياته، إعلانَه الهجرةَ والتوجُّهَ إلى فلسطين.

والمشهدُ الأول: عرضَتْه آياتُ سورة مريم، التي تضمنتْ دعوتَه لأبيه، وردَّ أَبيه المتشنجَ عليه.

والمشهدُ الثاني: عرضَتْه آياتُ سورة الأنعام، التي عرضتْ حججَ وبراهينَ إبراهيم عليه السلام، في إِبطالِ عبادةِ الكواكب.

المشهد الثالث: عرضتْه آية واحدةٌ من سورة البقرة.

والمشهدُ الرابع: الذي قامَ فيه بتحطيم الأصنام، عرضَتْه آياتٌ من سورة الأنبياء، وآياتٌ من سورة الصافات.

والمشهدُ الخامس: وهو حرقُه بالنار ونجاتُه منها بأمْرِ الله، عرضتْه آياتُ من سورة الأنبياء، ومن سورة الصافات.

أما خاتمةُ هذه المشاهد، وتوجُّهُه مهاجراً إلى الأرض المباركة، فقد أشارتْ إليه سورةُ العنكبوت، وسورة الصافات، وسورة الأنبياء.

وفيما يلي كلامٌ عن هذه الآيات والمشاهد بالتفصيل..

[٦]
إبراهيم يدعو أباه إلى الله

بدأ إبراهيم بدعوة أبيه:

بعثَ الله إبراهيمَ عليه السلام نبياً رسولاً، ولا نعرفُ عمره عندَ نبوتِه، وطلبَ منه أن يدعوَ الناس إلى الله.

ومن المنطقيّ أن يبدأَ إبراهيمُ بدعوةِ أَقربِ الناس إليه، ولذلك كانت الخطوةُ الأولى في خطواتِ تبليغِه الرسالة، هي أنْ يدعوَ أَباه إلى الله.

وقد سجلتْ آياتُ القرآن بعضَ خطاباتِ إبراهيم لأبيه. ومن هذه الآيات آيات سورة مريم.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: ٤١ ـ ٤٧].

إننا نرى في هذه الآياتِ أسلوبَيْن ومنطقَيْن:

المنطقُ الإيمانيُّ الدعوي، وما فيه من أساليبَ طيبةٍ، في الدعوة والخطابِ والحوار، والتحبب والإِشفاق والهدوء. وهو منطقُ إبراهيم عليه السلام.

والمنطقُ العنيف الكافر، الذي لا يُجيدُ إلا لغةَ التهديدِ والعنف والإِيذاء، وهو منطقُ أبيه الكافر.

إبراهيمُ عليه السلام يُنكرُ على أبيه الكفر، ويدعوه إلى الإِيمان، لكنَّ خطابَه له بمنتهى التحببِ والإِشفاق والهدوء والبِرّ، ولهذا قال له: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ أربعَ مرات، كما سجلَتْ ذلك الآيات.

ماذا قال إبراهيم عليه السلام لأبيه؟

﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾؟

ماذا قال إبراهيم لأبيه؟:

بدأ إبراهيمُ عليه السلام دعوتَه بالإِنكار على أبيه، لعبادتِه غيرَ الله، إنه يعبدُ الأصنام، وهذه الأصنامُ جمادات، لم تَصِلْ إلى المستوى البشريِّ الإِنساني الحي، فكيف ترتقي إلى المستوى الرباني وتكونُ آلهة؟

لماذا يا أَبتِ تعبدُ الجمادات؟ إنها لا تسمعك عندما تدعوها أو تطلبُ منها أو تستغيثُ بها، وإنها لا تراكَ ولا تبصرك، ولا تطلعُ على أحوالك، ولا تعرفُ حاجتك، وهذه الجماداتُ لا تنفعك ولا تساعدك، ولا تُغني عنك.

وبعدَ أنْ بيَّنَ له عدمَ كونِ الأصنام آلهة، ذكرَ له جَهْلَه في عبادتها، إنه لا علمَ عنده ولذلك عبدَ غيرَ الله، وبما أنه جاهلٌ فلا بدَّ أنْ يبحثَ عن صاحبِ العلم ليعلمه، ولهذا قال له: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾.

أبوه جاهلٌ لأنه لم يعرف الحق، ولذلك عبدَ غيرَ الله، أما هو فإنه على علم، لأنه نبي، وقد علَّمَه الله، وفرَّقَ له بين الحق والباطل، وأَعلَمه أنه على حق، وأنَّ أَباه على باطل.

وبما أنه على علم، وأنَّ أَباه على جهل، فما على الجاهلِ إلاّ أنْ يتبعَ العالم: ﴿فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾.

إنّ أباه على طريقٍ أعوج لأنه يعبدُ غيرَ الله، أما هو فإنه على صراطٍ سويٍّ مستقيم، وما على والدِه إلاّ أنْ يتبعَه ويسيرَ معه، ليعرفَ الطريقَ السويَّ ويلتزمَ به.

ويُحذِّرُ إبراهيمُ أباه من عبادة الشيطان، وعبادةُ الأصنام هي عبادةُ الشيطان: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾.

يدلّ إبراهيمُ أباه على أنهما طريقان لا ثالثَ لهما:

عبادةُ الرحمن، صاحبُها على علم وهدى، يتبعُ الحق، ويسيرُ على صراطٍ سويٍّ مستقيم، وهو وليٌّ لله، وإبراهيمُ يمثل هذا الطريق.

وعبادةُ الشيطان، صاحبُها على جهلٍ وضلال، يتبعُ الباطل، وطريقُه أعوج، وهو وليٌّ للشيطان، وهو خاسرٌ هالك، ولا ينصره

الشيطان، ولا يدفعُ عنه عذابَ الله، ووالدُه يمثلُ هذا الطريق.

ولذلك يريدُ إبراهيمُ من أبيه أنْ يتخلّى عن طريقِه الأعوج، ويسيرَ في الطريقِ الصحيح.

ونلاحظُ في أسلوبِ إبراهيم ومنطقِه وحوارِه، الهدوءَ والحكمةَ والحلم، ونتعرفُ منه على حرصِه وإشفاقِه واهتمامِه بأبيه.

رد إبراهيم على غلظة أبيه:

فماذا كان ردُّ أبيه عليه؟ وبماذا قَابَل منطقَه الهادئ؟

هددَه وتوعدَه، وعاملَه بمنطقِ الغلظةِ والجلافةِ والحدة والتشنج، وهذا هو منطقُ الكفار دائماً: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا (٤٦)﴾.

ولكنَّ إبراهيمَ لم يفقدْ هدوءَه وحلمَه وسَعةَ صدره، أمامَ تصرفِ أبيه المتشنج، فخاطبَ أباه قائلاً: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾.

هكذا بثقةِ المؤمن وهدوئِه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ ووعدَ بأنْ يسألَ الله له الهداية، وأنْ يستغفرَ له إذا آمن: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾.

والحَفِيُّ هو: البَرُّ اللطيفُ العالم. قالَ الإمامُ الراغب في المفردات: «والحَفِي: البَرُّ اللطيف. يقال: حَفَيْتُ بفلان، وتحفَّيْتُ به: إذا عنيتُ بإكرامه. والحَفيّ: العالمُ بالشي»[1].

وقولُه عن الله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ في مقابلِ قوله لأبيه عن الأصنام: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾.

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ٢٤٦.

فإذا كانت الأصنام لا تعرفُ عن عابديها شيئاً، وإذا كان الشيطانُ يتخلّى عن أوليائه، فإن اللَّهَ لا يتخلّى عن عباده، وهو حفيٌّ بهم، لطيفٌ بهم، عالمٌ بأحوالهم، متكفلٌ بأمورهم وحاجاتهم.

وقد سجلتْ آياتٌ أُخرى إنكارَ إبراهيم على أبيه عبادةَ الأصنام، منها قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: ٧٤].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الشعراء: ٦٩ ـ ٧٠].

ومنها قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنبياء: ٥١ ـ ٥٢].

إنَّ إبراهيمَ عليه السلام قد بدأ بدعوةِ أبيه إلى الله، ولكنَّ أباه لم يستجبْ لدعوته، وأصرَّ على كفره وضلاله، وفي النهايةِ تبرأ إبراهيمُ منه.

[٧]
آزر الكافر هو والد إبراهيم

من هو آزر؟:

تنصُّ آياتُ القرآن على كفر ﴿ءَازَرَ﴾ والدِ إبراهيم عليه السلام، وتبيِّنُ أنَّ إبراهيمَ كان يطمعُ في إيمانه، وبعد أنْ تبينَ له إصرارُه على الكفرِ تبرَّأ منه.

ولكنَّ بعضَهم رفضَ القولَ بكفر والده، واعتبرَ كفرَه مأْخذاً يؤاخَذُ به إبراهيم عليه السلام، ومطعناً يوجَّهُ إليه، فكيف يكونُ إبراهيمُ نبياً رسولاً ويكونُ والدُه كافراً؟ ثم إنَّ والدَ إبراهيم هو أحدُ أجدادِ رسول الله محمد ﷺ، وكلُّ أجدادِ محمد عليه الصلاة والسلام مؤمنون موحِّدون، فلو كان والدُ إبراهيمَ كافراً لما كان كلُّ أجدادِ محمد عليه الصلاة والسلام موحِّدين.

ولهذا يهربُ هؤلاء من كونِ والدِ إبراهيم كافراً، و ﴿ءَازَرَ﴾ الذي تتكلمُ عنه سورةُ الأنعام وتنصُّ على كفره، ليس أباً لإبراهيم وإنما هو عمُّه، واعتبرتْه الآيةُ أباً له من بابِ المجاز، وليس من باب الحقيقة! أما والدُه فهو مؤمنٌ موحِّد!!

الراجح أنه والده:

ونرى أنَّ كلامَ هؤلاء يتناقضُ مع الآية القرآنية الصريحة، التي تصرحُ بأنَّ ﴿ءَازَرَ﴾ هو والدُ إبراهيم، وأنه كافر، وأنه ماتَ كافراً، كما يتناقضُ مع ما صحَّ من حديثِ رسولِ الله ﷺ حولَ الموضوع.

ولا نرى جوازَ الخلافِ في هذه المسألة، طالما حسمَتْها النصوصُ الصريحةُ الصحيحة، وكلُّ قولٍ يخالفُ الآياتِ أو الأحاديثَ الصحيحة، فلا يجوزُ أنْ يُقال أصلاً، وإذا قيلَ فلا يُلتفتُ إليه، ولا يُعْتَدُّ به! ﴿ءَازَرَ﴾ هو اسمُ أبي إبراهيم عليه السلام. قال تعالى: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: ٧٤].

﴿ءَازَرَ﴾: اسمُ علم أجنبي، وليس عربياً مشتقّاً، ولهذا جاءَ هنا ممنوعاً من الصرفِ للعلميَّة والعُجمة، وإعرابُه في الجملة: ﴿لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ بدل من «أبيه»، مجرورٌ بالفتحة، لأنه ممنوعٌ من الصرف.

الآية تقول: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾.

وعندما ننظرُ فيها بدونِ مقرَّراتٍ مسبقة، وعندما نستخرجُ بعضَ دلالاتِها متجردين من أيِّ مؤثراتٍ جانبية، فإننا نرى فيها ما يلي:

اسمه آزر وكان يعبد الأصنام:

١ ـ ﴿ءَازَرَ﴾ هو اسمُ والدِ إبراهيم عليه السلام، وقد نصَّ القرآنُ على اسمه ـ وقليلاً ما يصرحُ القرآن بأسماءِ الأشخاص، لأنه يُبقيها مبهمةً غالباً ـ حتى يُريحَ المسلمين من عَناءِ البحث عن اسمه، وحتى لا يذهبَ أحدُهم إلى التوراةِ المحرفة أو الإسرائيليات، ليأخذَ اسمَه منها.

إنَّ التوراةَ تذكرُ له اسماً آخر، هو «تارخ»، ونتوقَّفُ في هذا

الاسم، لأننا نعلمُ أنَّ اليهودَ قد حرَّفوا التوراة، وقد يكونون حرَّفوا اسم أبي إبراهيم، كما حرفوا غيره.

يجبُ أنْ نعتمدَ الاسمَ الذي أطلقه عليه القرآن ﴿ءَازَرَ﴾، ولا يجوزُ إهمالُ أو تجاوُزُ هذا النصِّ القرآني.

٢ ـ ﴿ءَازَرَ﴾ هو أبو إبراهيم، كما تنصُّ عليه الآية، ولهذا جاءَ في الإعرابِ بدلاً من أبيه: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾.

والأبُ يُطلقُ في الحقيقةِ على والدِ الإنسان، الذي أنجبه وخرجَ من صُلبه. ولا ننكرُ أنَّ «الأبَ» قد يُطلق على العم. لكنَّ استعمالَ الأب في الوالدِ حقيقة، واستعمالَ الأب في العم مجاز، ولا يجوزُ العدولُ عن الحقيقةِ إلى المجاز إلا عند تعذُّرِ حملِ اللفظ على الحقيقة!

وهنا حملُ اللفظ على الحقيقة غير مستحيل ولا متعذِّر، ولا محذورَ فيه. فكونُ أبي إبراهيم كافراً لا يُعيبُه ولا يُنقصُه.

٣ ـ ﴿ءَازَرَ﴾ والدُ إبراهيم عليه السلام كان كافراً، لأنه لم يتخذ الله ربَّ العالمين إلهاً، وإنما جعلَ الأصنامَ آلهة، وعبدَها من دون الله.

٤ ـ كان دينُ آزر الباطلُ يقومُ على عبادةِ الأصنام: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فكانَ كفرُ آزر وقومُه يقومُ على عبادة الأصنام، كما تنصُّ هذه الآية.

وهذا لا يمنعُ وجودَ معبوداتٍ أُخرى لهم، يعبدونَها مع الأصنام، كالكواكبِ وغيرِها، لأن الإنسانَ عندما يكفرُ ويسقط ويُؤَلِّهُ غيرَ الله، فلا يَحصرُ عبادتَه في إلهين أو أكثر، وعنده استعداد لعبادةِ آلهةٍ كثيرين مختلفين: سواء كانوا بشراً أو أصناماً أو كواكب!

ومما يقررُ مضمونَ هذه الآيةِ، في كفرِ والدِ إبراهيم وعبادتِه لغير الله، الآياتُ السابقة من سورةِ مريم، وسورةِ الأنبياء، وسورةِ الشعراء، التي أوردْناها أثناءَ كلامِنا عن دعوةِ إبراهيمَ عليه السلام لأبيه.

[٨]

كفر والد إبراهيم لا يعيبه

إبراهيم ينكر على أبيه كفره:

كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام صريحاً في الإنكارِ على أبيه لكفره بالله، وفي رفضِ ما هو عليه من الباطل، وفي دعوتِه إلى الإيمان بالله.

وقد وردَ هذا في صريح آيات القرآن: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾. و ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾. و: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

هذا هو الواجبُ على إبراهيمَ عليه السلام، وقد قامَ بهذا الواجب، ودعا أباه وذكَّره ونصَحَه.

لو لم يفعلْ ذلك مع أبيه لكان مؤاخَذاً، وكان ذلك سبباً للطعنِ فيه، أما وقد فعلَ ذلك فإنه قدْ أدّىٰ ما عليه.

ولا يُعيبُ إبراهيمَ بعد ذلك عدمُ استجابةِ أبيه لدعوته، وإصرارهُ على كفرهِ، ولا يُعتبرُ موقفُ أبيه طعناً في نبوته، حتى نتكلفَ في الدفاعِ عن إبراهيم عليه السلام، إنه ليس مُتَّهماً حتى ندافعَ عنه.

هل كانَ إبراهيمُ مأموراً بقذفِ الإيمانِ في قلب أبيه؟ هل وجبَ عليه إكراهُ أبيه على الإيمان؟ لا أحدَ يقول بذلك، واجبُه هو الدعوة والنصح، وقد قامَ بواجبه على أحسنِ صورة. أَمَّا استجابةُ أبيه له أو عدمُها فهذا قرارُ أبيه، وهو يتحملُ مسؤوليةَ وعاقبةَ قراره!

وهناك شبهةٌ تتعلَّقُ بصلةِ إبراهيم عليه السلام بأبيه، تحتاجُ إلى توجيهٍ وتوضيح، وهي وعْدُهُ بالاستغفارِ لأبيه.

حقيقة استغفار إبراهيم لأبيه:

لقد وعدَ إبراهيمُ أباه أنْ يستغفرَ له، فكيف وعدَه ذلك مع أنه كافرٌ مُصِرٌّ على كفره؟

جاءَ وعْدُه له في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴿٤٧﴾﴾ [مريم: ٤٧].

وفي قوله تعالى: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقد استغفرَ لأبيه فعلاً، وطلبَ من الله أنْ يغفرَ له، وجاءَ هذا الاستغفارُ صريحاً في قوله تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴿٨٦﴾﴾ [الشعراء: ٨٦].

استغفرَ إبراهيمُ عليه السلام لأبيه، لكن ما هي المناسبةُ؟ وما هو الظرفُ والجو؟

لقد كانت آياتُ القرآن صريحةً في بيان ذلك: قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٣ ـ ١١٤].

تنهى الآيةُ المؤمنين عن الاستغفار للكافرين المشركين، ولو كانوا من أقرب الناسِ إليهم، ولو كان الكافرُ أباً أو ابناً للمسلم، بعدما يقومُ المؤمنُ بدعوةِ قريبِه الكافر إلى الله، وبعدما يرفضُ الكافرُ هذه الدعوة، ويختارُ الكفرَ والضلال، عند ذلك يتبينُ للمؤمن أنَّ قريبَه الكافرَ من أصحاب الجحيم.

وحتى لا يستشهدَ أحدُهم بفعلِ إبراهيم عليه السلام، وحتى لا يستغفرَ لقريبه الكافرِ مقتدياً باستغفارِ إبراهيمَ لأبيه، فقد وضحت الآيةُ ملابساتِ فعل إبراهيم عليه السلام.

استغفر له ثم تبرأ منه:

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾. إنَّ إبراهيم عليه السلام قد استغفرَ لأبيه فعلاً، لكنه فعلَ ذلك، بسببِ الوعدِ الذي أعطاه لأبيه، فقد وعدَ إبراهيمُ أباه أنْ يستغفرَ له، وذلكَ لما قالَ له: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾.

وقد وعدَ أنْ يستغفرَ له لأنه طمعَ في إسلامه وإيمانه، فجعل استغفارَه له سبباً من أسبابِ توجُّهِه إلى الإسلام، وما كانَ له إلا أنْ ينفِّذَ وعْدَه ويستغفرَ له، لأنه ما زال يطمعُ في إسلامه.

ولكن، وبعدما استغفرَ لأبيه، أصرَّ الأبُ على كفره، فعرفَ إبراهيمُ حقيقةَ إصرارِ أبيه، وتبينَ له عنادُه وكفرُه وعداوتُه لله، واتِّباعُه للشيطان.

المهمُّ ما هو موقفُ إبراهيمَ عليه السلام بعدما تبينَ له حقيقةُ كفرِ أبيه؟ هل استغفرَ له بعد ذلك؟ هل ما زالَ موالياً له مدافعاً عنه؟ إنه لو فعلَ ذلك ـ وحاشاه ـ لكان مؤاخذاً مخطِئاً!

بعدما وقفَ على حقيقةِ موقفِ أبيه تبرَّأ منه وفاصَلَه وعاداه: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾.

لقد تبرَّأَ إبراهيمُ من أبيه في النهاية، وأظهرَ عداوتَه له ولقومه، وهذا هو الموقفُ الذي يجبُ أنْ يقتديَ المؤمنون بإبراهيم فيه، موقفُ البراءةِ من كلِّ كافر، حتى لو كانَ أقربَ الناسِ إلى المؤمن، كما فعلَ إبراهيمُ عليه السلام مع أبيه.

إذن: والدُ إبراهيمَ كافر، اختارَ الكفر، وأصَرَّ عليه، ولما تبيَّنَ لإبراهيمَ ذلك الموقفُ من أبيه تبرأَ منه.

وعاش آزرُ والدُ إبراهيم حياتَه في الدنيا كافراً، وماتَ على كفرِه، ولذلك يُبعثُ يومَ القيامة كافراً.

بين إبراهيم وأبيه يوم القيامة:

وقد أخبرَنا رسولُ الله ﷺ عن المقابلةِ بين إبراهيم وأبيه يوم القيامة: روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: «يَلقى إبراهيمُ أَباه آزرَ يومَ القيامة، وعلى وجْهِ آزرَ قَتَرةٌ وغَبَرَة.

فيقولُ له إبراهيم: ألم أقلْ لك لا تعصِني؟

فيقولُ له أبوه: اليومَ لا أعصيك.

فيقولُ إبراهيم: يا ربِّ إنكَ وعَدْتَني أنْ لا تُخزِني يومَ يبعثون، وأيُّ خزيٍ أَخزى من أبي الأبعد؟

فيقولُ الله: إني حرَّمْتُ الجنةَ على الكافرين.

فيقال: يا إبراهيم: انظرْ ما بين رجليك. فينظرُ فإذا هو بِذيخٍ مُتلَطِّخٍ، فيؤخَذُ بقوائِمِه، فيُلقىٰ في النار»[1].

ينصُّ الحديثُ على أنَّ إبراهيمَ عليه السلام يَلقى أَباه يومَ القيامة، وتعلو وجهَ آزرَ غبرةٌ وقَتَرة لأنه كافر، ولمّا يُذَكِّرُ إبراهيمُ أباه بتحذيرِه له من هذا الموقف والعذاب، لَمّا كانَ في الدنيا، يُظهِرُ أبوه استعدادَه لطاعتهِ والدخولِ في دينه، لكن متى؟ بعد فواتِ الأوان.

ويتساءلُ إبراهيمُ عليه السلام: كيف ستكونُ نهايةُ أَبيه؟ ويقول لربه: لقد وعَدْتَني أن لا تُخْزِني يوم القيامة، وأيُّ خزيٍ أخزى من أبي؟

وكأنه يقول: كيفَ ستكونُ نهايةُ أبي؟ وكيفَ ستتفقُ هذه النهايةُ مع عدم حصولِ الخزي لي لأنه أَبي؟

وليس هذا القولُ من إبراهيم شفاعةً لأبيه يوم القيامة، وليس طلباً من الله أنْ يُدخلَه الجنة، فقد تبرأَ إبراهيمُ من أبيه في الدنيا، وهو لنْ يشفعَ له بدخول الجنة يوم القيامة.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٥. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ١٢٧.

ويُطَمئِنُ الله إبراهيمَ عليه السلام، بأنَّ إبراهيمَ لن يصيبَه الخزيُ بسببِ كفر أبيه، ولذلك لا يَدخلُ أَبوه النارَ على صورتِه الآدميةِ البشريةِ المعروفة، حتى لا يُقال: انظروا، ها هو آزرُ والدُ إبراهيمَ، يُؤْخَذُ به ليُلقىٰ في النار.

وإنما يمسخُه الله، ويُحوِّله من صورتِه البشرية إلى صورةٍ حيوانية. «فينظر فإذا هو بِذِيخٍ مُتلطخ»، ويرى الناسُ أمامَهم ذيخاً مُتلطخاً، فيؤخَذُ بقوائمه الأربعة، فيُلقىٰ في النار، على هذه الصورة الحيوانية.

وعندما يستقرُّ في وسط جهنم، مع الكافرين أتْباعِ الشياطين، يبدو أنه تُعادُ لَهُ صورَتُه الآدميةُ البشرية، ليستقرَّ ويخلدَ في العذابِ الأبدي فيها.

والذيخُ الذي يَمسَخُ الله والدَ إبراهيم عليه هو ذَكَرُ الضَّبُع، كثيفُ الشعر، هذا الذيخُ يكون مُتلطخاً برَجيعِه أَو أَوحاله أو قاذوراتِه، وهي صورةٌ منفرة مقزِّزة.

وهذه هي النهايةُ التي ينتهي إليها والدُ إبراهيم عليه السلام، وهو يستحقُّ هذه النهايةَ الفاجعة، وهذه الصورةَ المنفرة، لأنه كان في الدنيا في منزلةٍ أحطَّ من الحيوانات، لأنه أَلغى عقلَه فعبدَ الأصنام، وأغلقَ قلبه فلم يستجبْ لدعوةِ الهدى، وهذه هي حقيقةُ كلِّ كافر، في أيِّ زمانٍ أو مكان.

[٩]

إبراهيم يدعو قومه ويقيم الحجة عليهم

المحطة الثانية: دعوته لقومه:

كانت المحطةُ الثانيةُ لإِبراهيمَ عليه السلام بعد دعوته لأبيه، هي انتقاله إلى قومه، ليدعوهم إلى التخلي عن الكفر، وتركِ عبادة الأصنام، والإِيمانِ بالله وحده، وكان أبوه من جملةِ المدعوّين مع قومه.

وقد أشارتْ آياتٌ في بعض السورِ إلى هذه المحطة في دعوته،

منها آياتٌ في سور: الأنعام، والأنبياء، والشعراء، والعنكبوت، والصافات.

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [سورة الأنعام: ٧٤ ـ ٧٩].

هل كان يبحث عن إله؟:

وهناك إشكالٌ في فهم قولِ إبراهيمَ عن الكوكب والقمر والشمس: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾، فكيف يقولُ ذلك وهو نبي؟؟

ذهبَ بعضُ العلماء والمفسرين إلى أنَّ هذه الآياتِ تخبرُ عن مرحلةٍ متقدمةٍ من حياة إبراهيمَ عليه السلام، وهذه المرحلة كانت في شبابه، وقبلَ أن يأتيه الوحي، ويعرفَ الله عن طريقه ويكونَ نبياً.

وذهبوا إلى أنَّ إبراهيمَ في شبابه، كان يبحثُ عن إلهٍ يصلحُ أنْ يكون إلهاً، وفطرتُه وعقله يرفضان اعتبارَ ما يعبده قومُه آلهة.

قالوا: إن إبراهيمَ كان في مقام بحثٍ ونظر وتحليل، وكان قومُه يعبدون القمرَ والنجمَ والشمس، فأرادَ أن يَعرفَ هل هذه فعلاً آلهة، وهل قومُه على صوابٍ في عبادتها.

قال عن الكوكب ـ أوّلاً ـ ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ على احتمالِ أنْ يكون رباً، فهل هو ربٌّ فعلاً؟ لقد غاب، والربُّ لا يغيب عن الكون، إذن قادتْه فطرتُه إلى رفضِ أن يكونَ هذا الكوكبُ الآفلُ الغائبُ رباً.

فلْيبحثْ عن غيره. ها هو القمرُ بازغاً. فهل يصلحُ أنْ يكون رباً

فلْيجرب، فقال عنه: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، ليرى صحةَ احتمالِ كونه رباً، ولما غاب رفضتْ فطرتُه أنْ يكون هذا الآفلُ الغائبُ رباً.

والبديلُ الثالثُ الشمس، ها هي مشرقةٌ كبيرة، إذن هي رب، فلْيجرب، لقد غابت، والربُّ لا يغيب، إذن لا تصلحُ أن تكونَ رباً.

بعد ذلك عرفَ الله وحده، واهتدى إِليه، وآمن به، وهذا كلُّه كان قبلَ النبوة.

هذا قولُ بعضِ المفسرين، منهم الطبري من القدماء، وسيد قطب من المعاصرين.

ولكننا لسنا مع هؤلاء الأئمةِ الأعلام، مع إِجلالنا لهم، ولا نرى أنَّ هذا المشهدَ الذي تخبرُ عنه الآياتُ كان قبل نبوته، وأنه كان حائراً يبحثُ عن إله.

كان يدعو قومه ويجادلهم:

إننا مع جمهورِ العلماء والمفسرين من أنَّ هذا المشهدَ كان بعد نبوته، وأنه يسجلُ دعوةَ إبراهيم لقومه، وأنه كان في مقام مناظرةٍ وجدال وحجاج وبرهان، وأنه كان يبطلُ كونَ هذه الكواكب التي يعبدونها ـ الكوكب والشمس والقمر ـ آلهةً، وأنه كان يتوجَّهُ بهم بالتدريج إلى إِثباتِ ألوهيةِ الله وحده.

وقوله عن الكوكب والقمر والشمس ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ ليس من باب البحثِ والنظر، فهو قبلَ أن يقولَ ذلك نبي رسول، وهو يعلمُ أن اللَّهَ وحده هو ربُّ العالمين، ولكنه قال ذلك من بابِ جدالهم ونقاشهم.

وكأنه يقول: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، كما تقولون وتَدَّعون، فلأُسلِّمْ معكم جَدلاً أنه رب، وتعالوا ننظر معاً: هل هو رَبٌّ فعلاً، وهل يصلحُ أن يكون رباً. انظروا: لقد غاب، وهل الرَّبُّ يغيبُ عن ملكه؟ وعندما يغيبُ فمن يدبرُ الكونَ بعده؟ فكِّروا: إن الكوكبَ لا يصلحُ أن يكون رباً، لقد غاب والربُّ لا يغيب!.

ماذا تعبدون أيضاً؟ القمر. ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ سلَّمنا جدلاً أنه رب، لكن لقد غاب، والربُّ لا يَغيب.

ثم ماذا تعبدون أيضاً؟ الشمس، وتكَبِّرونها لأنها أكبر. ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾ من بابِ التسليم الجدلي. لكن لقد غابت، إذن لا تصلحُ أن تكونَ رباً.

لقد نجحَ إبراهيمُ عليه السلام في نقاشِ وجدالِ قومه، وإقامةِ الحجة عليهم، وكان في مقامِ مناظرةٍ ودعوة وبرهان، واستخدمَ معهم المنطق البرهاني، ووسائلَ الإيضاح، لقد خاطبَ قلوبهم وعقولَهم: هذه الكواكب غابت، والربُّ لا يغيب عن الكون.

إذن مَن هو الرب؟ إنه الله ربُّ العالمين، إنه ربُّ إبراهيم، ولذلك دعاهم إلى الإيمانِ به صراحةً في آخر آياتِ المشهد: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٧٩﴾.

ثناء الله على منطقه وحجته:

لقد كان إبراهيم مؤمناً بالله، ونبياً رسولاً، قبلَ أن يقول: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، ويدلُّ على هذا قولُه تعالى في بدايةِ آياتِ هذا المشهد: ﴿۞ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٧٤ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ۝٧٦﴾.

فهو قبلَ أن يقولَ ذلك، أنكرَ على أبيه جعْلَ غيرِ الله إلهاً، وقد أَراه الله ملكوتَ السماوات والأرض، وعرفَ الله بصفاته وأفعاله وملكه، وكان مؤمناً موقناً موحِّداً لله، وبعد ذلك قالَ لقومه ما قال، وقد علَّمه الله أن يقولَ ذلك.

ولهذا مدحَ الله إبراهيمَ لهذا الموقفِ الناجحِ في نقضِ ألوهيةِ

وربوبية الكواكب، وإثباتِ ألوهيةِ وربوبية الله وحده، وأخبرتْنا آياتُ سورة الأنعام أن اللَّهَ هو الذي علَّمه هذه الحجة، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٣].

وما دمنا معَ دعوةِ إبراهيم عليه السلام لقومه، وإقامةِ الحجةِ على بطلان عباداتهم الزائفة، فلْنذكرْ هذه الآيات، في نفس الموضوع:

قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنبياء: ٥١ ـ ٥٦].

قوله: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ دليلٌ آخر، يُضافُ إلى ما أوردْناه من أدلةٍ قبلَ قليل، لإثباتِ أنَّ إبراهيمَ كان في مناظرةٍ لقومه، عندما قال عن الكوكب: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾.

يخبرنا الله أنه قد آتى إبراهيمَ رشدَه وعلْمَه ومنطقَه وحجتَه، قبل أنْ يتوجَّه إلى قومه، ويدعوهم إلى الله، وكان الله عالماً به وبإيمانه وبقوله وبدعوته، وهو الذي يعلِّمه ماذا يقول لقومه.

إبراهيم يبطل عبادة الأصنام:

وأنكرَ إبراهيمُ على قومه عبادةَ الأصنام: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾.

ولا تناقضَ بين عبادةِ قومه للكواكب، وبين عبادتهم للأصنام والتماثيل، فقد عبدوا هذا وعبدوا هذا، وكثرتْ عندهم الآلهةُ والأربابُ المعبودة من دون الله.

وردَّ عليه قومُه بأنهم «ورثوا» عبادةَ الأصنام عن آبائهم، ولا يجوزُ لهم الشكُّ في دين آبائهم، ولا التخلي عن ما عبدوه، فهم على طريقهم سائرون.

وبما أنهم مُتابعون مقلِّدون لآبائهم، فلا بدَّ أن يهزَّهم إبراهيمُ هزةً قوية، وأنْ يُثيرَهم في خطابه لعلَّهم يستيقظون، ولهذا فاجأهم قائلاً: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

وفوجئوا بكلامِهِ واتهامِهِ لآبائهم، ولهذا ظنوه لاعباً هازلاً معهم، فليس من المعقولِ أن يتهمَ آباءهم: قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾؟.

ظنَّ هؤلاء أن موضوعَ الإِيمان والعقيدة، يمكنُ أن يكونَ خاضعاً للعب واللهو، ولهذا اعتبروا إبراهيم لاعباً في كلامه.

فأزالَ إبراهيمُ ظنهم، وقدَّمَ لهم الحقيقةَ واضحة، وعرَّفهم على طبيعة الإِيمان.. الرب لا بدَّ أنْ يكون خالقاً، ولا بدَّ أن يكون مالكاً: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٥٦)﴾.

وقد فصلتْ آياتُ سورةِ الشعراء قليلاً في هذا الجانبِ من دعوةِ إبراهيمَ لقومه. قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٧) ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ (٨٢)﴾ [الشعراء: ٦٩ ـ ٨٢].

في سورةِ الأنبياء يقولُ لهم إبراهيمُ عليه السلام: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾.

وفي سورة الشعراء يجيبونَه هم على سؤاله قائلين: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾.

ويريدُ إبراهيمُ عليه السلام بحججه القوية أنْ يبطلَ كونَ هذه الأصنامِ آلهة، ولهذا بيَّنَ لعابديها عجْزَها عن نفعهم، وطرحَ عليهم أسئلة، هم يعلمون جوابَها، ويريدُ منهم الانتباهَ والتيقظ: هل يسمعونكم عندما تدعونهم؟ الجواب البديهي: لا يسمعوننا، فكيف الربُّ لا يسمعُ عبادةَ عابديه؟ وهل ينفعونكم؟ وهل يضرونكم؟ لأنَّ الإِلٰه لا بد أن يكونَ قادراً على جلبِ النفعِ أو دفع الضر. والجواب البدهي: أنهم لا ينفعوننا ولا يضروننا، فكيفَ يكونُ إلٰهاً وهو عاجز عن النفعِ أو الضر؟ إنه منطقٌ واضح، وبرهان مقنع.

إذن: لماذا تعبدونها طالما أنها ليستْ آلهة؟

الجواب: نعبدُها متابعين مقلِّدين لآبائنا: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾.

ويواجه إبراهيم عليه السلام قومه بإعلان عداوته لآلهتهم الباطلة، وبراءته منها: «﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

ويعرف قومه على بعض أفعال الله:

إذا كانت معبوداتُهم الباطلة عاجزة عن فعلِ أي شيء، فعليه أن يبينَ لهم بعضَ صفاتِ الله رب العالمين. إن الله هو: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾.

الله هو الذي يخلق، والذي يهدي، والذي يطعم، والذي يسقي، والذي يبتلي بالمرض، والذي يشفي، والذي يميت، والذي يحيي، والذي يحاسبُ الناسَ يوم القيامة، والذي يغفرُ لمؤمنيهم ويدخلهم الجنة.

فهو وحده الإِلهُ الرب، وغيرُه لا يصلحُ لأن يكون إِلهاً أو رباً.

أما ما سجلَته آياتُ سورة العنكبوت عن دعوته لقومه، فهي في قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾ [العنكبوت: ١٦ ـ ١٨].

يأمرُ إبراهيمُ عليه السلام قومَه بعبادةِ الله وحده. ثم يبينُ لهم عجزَ آلهتهم عن فعلِ أيِّ شيء، ويوجِّههم إلى الله القوي القادر الفاعل المريد، وهو الخالقُ الرازق، الذي يجبُ أنْ يَعبدوه، وأن يشكروه، فإن رفضوا دعوتَه، وأصروا على التكذيب فإنَّ العذابَ قادمٌ إليهم، كما حلَّ بالكفار من قبلهم.

[١٠]

إبراهيم يدعو الملك إلى الله

الخطوة الثالثة: دعوته للملك في سورة البقرة:

الخطوةُ الثالثةُ التي لا بدَّ أنْ يَخطوها إبراهيمُ عليه السلام في دعوته إلى الله، هي دعوةُ الملك. وهي انتقال مرحليٌّ متدرج منظم: لقد بدأَ دعوتَه مع أبيه أقربِ الناسِ إليه، ثم انتقل يدعو قومَه، وهي الدائرةُ الأوسع، ثم الخطوة الثالثة، وهي دعوةُ الملك، رأسِ القوم.

ومن المفهوم المعروفِ أنه لما ناقشَ وجادلَ وحاجج قومَه، انتشرتْ دعوتُه بين الناس، واشتهرَ أمره، وذاعَ صيتُه، وعرفَ الناسُ من هو هذا الفتى، وما هي دعوته، وماذا يريد.

ومن المفهوم أن تكون دعوتُه قد وصلتْ بلاطَ الملك، وأن يكون

الملكُ قد سمِعَ به، ولذلك توجَّه إبراهيمُ عليه السلام إلى الملك داعياً ومحاججاً ومجادلاً.

وقد سجلتْ آيةٌ من سورة البقرة بعضَ الحوارِ الذي جرى بينه وبين الملك، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨].

مَن هو هذا الملكُ الذي جادلَه إبراهيم؟ وما هي مظاهرُ مُلكه؟ وما هي قصةُ ادعائه الألوهية؟ وما اسمُ مملكته وعاصمته؟ وكيف كانت نهايتُه؟.

هذه أسئلةٌ لا جوابَ عليها في القرآن، ولا في حديثِ رسول الله ﷺ، ونعتبرُها من «مبهمات القرآن» التي يجبُ إبقاؤُها على إبهامها، لأنها لم تبيَّن في النصوصِ الصحيحةِ المعتمدة!

نعلمُ أن هذه الأسئلةَ عليها إجاباتٌ مفصَّلةٌ في الإِسرائيليات، وأن هذه المبهمات مبيَّنة في الأساطير، فالإخباريون ورواةُ الإِسرائيليات يقولون: الملكُ اسمه «نمرود»، وكان ملكاً على «بابل»، وأن الله أهلكه بالبعوضة، دخلتْ من أنفِه إلى دماغه، وكانت «تطنُّ» في دماغه وتزعجُه، فيطلبُ ضرْبَه بالنعالِ ليذهبَ الألم.. إلى غير ذلك من الإِسرائيليات.

نتوقفُ في هذه التفاصيل، ولا نقولُ بها، ونتعاملُ مع الآية كما تعاملَ معها الصحابة، ونفهم قصةَ إبراهيمَ مع الملك كما فهمها الصحابة، ونسكتُ عن ما سكتوا عنه، ويسعُنا ما وسعَهم.

كلُّ ما نقول عن ذلك الملك: إنه كان ملكاً كافراً، ادَّعى الألوهية، وكان الناسُ يعبدونه من دون الله، فتوجَّهَ إبراهيمُ عليه السلام إليه، وحاجَّه وجادَلَه وناقشه، وأقامَ الحجة عليه، ثم أفحمه وغلَبه،

فكان الملكُ أمامَ إبراهيم مغلوباً مهزوماً مبهوتاً!

غرور الملك بملكه:

ونقفُ مع جُمل الآية وقفاتٍ سريعة:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾: الخطابُ للرسول ﷺ، ولكلِّ متدبرٍ معْتَبرٍ من أمته، يَدْعوه إلى الاستفادةِ والاعتبار من قصةِ إبراهيم مع الملك.

والآيةُ لا تذكرُ معلوماتٍ شخصيةً مفصلةً عن الملك، وتحرصُ على إبقاءِ هذه التفاصيل مبهمة، لأنها لا داعيَ ولا ضرورة لها في الاعتبار.

هذا الملك ﴿حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾: أي: رفضَ دعوةَ إبراهيم الموجَّهة له، كيْ يتخلّى عن ادعاءِ الربوبية، ويعلنَ خضوعَه لله رب العالمين، واستسلامَه له، واتخاذَه له رباً.

رفضَ هذا الملكُ دعوةَ إبراهيم لأنه اغترَّ بملكه: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾، وهذا المُلْكُ الذي يتمتعُ به، لم ينلْه لقوةٍ ذاتية فيه، ولا لأنه ربٌّ أو إلٰه، أو تَجري فيه دماء خاصة، إن هذا المُلك من الله، فالله هو الذي آتاه المُلك، ولكن اغترارَه بملكه أَعماه عن رؤيةِ هذه الحقيقة، فنسيَ الله وفضلَه عليه، واعتبره مُلْكاً شخصياً، وإِرْثاً ذاتياً له.

الحياة والموت بين الأسباب والمسببات:

كيفَ دعاه إبراهيمُ إلى الله؟ وكيف بيَّن له عجْزَه البشريَّ الذي لا يجعله إلٰهاً أو رباً؟

تناولَ إبراهيمُ مسألةَ الحياة والموت، وهي مسألةٌ ملحوظة مُعاشة، ففي كلِّ يوم وكلِّ ساعة يولَدُ أشخاصٌ ويحيون، وفي كل يوم وكل ساعة يموتُ أشخاص ويُدفنون.

والموتُ والحياةُ بيد الله، ولهذا قالَ إبراهيمُ لذلك الملك: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾.

مَن الذي يخلقُ الناس؟ إنه الله. من الذي يجعلُهم يولَدون ويحَيون ويَعيشون؟ إنه الله.

ثم مَن الذي يُميتُ الناس؟ إنه الله، مَن الذي يُنهي آجالَهم ويَقبضُ أرواحهم؟ إنه الله.

الله الذي يحيي ويميت، وهذا أمْرٌ بدهي فطري، يَعلمُه الناسُ جميعاً، مسلموهم وكافروهم على السواء.

لكن ذلك الملكَ المغرورَ لم يسلِّم بهذا، بل ادَّعى أنه هو أيضاً يُحيي ويميت: ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾.

إنه لم يفرقْ بين الأَسباب والمسببات، فاعتبر السبب مسبَّباً. هو مَلك، وهو يحكمُ ويأمر، وبهذه الصفة قد يكون سبباً مباشراً في الموت والحياة، صحيح، فقد يأمرُ بإعدامِ وقتْلِ شخص، فيموتُ ذلك الشخصُ بسبب أمره وحكمه، لكن مَن هو المسبِّبُ والمريدُ والمقدِّرُ في ذلك؟ ومن هو الذي أماتَه في الحقيقة؟ إنه الله ربُّ العالمين.

وإذا أمرَ الملكُ بقتلِ شخص، ثم أَصدرَ أَمره بالعفوِ عنه وإطلاقِ سراحه، فهو سببٌ مباشرٌ في استئنافِ حياته، لكن مَن هو المسبِّبُ والمقدِّرُ والمريد؟ إنه الله. مَن الذي ألهمه العفو؟ إنه الله. إذن: الذي أحياهُ في الحقيقة هو الله.

إبراهيم يتحدى الملك ويعجزه:

وأمامَ غفلةِ الملك عن التفريقِ بين الأَسباب والمسبَّبات، لم يشأْ إبراهيمُ عليه السلام، الاسترسالَ في جداله في هذه المسألة، وتعليمَه الفرقَ بين الموت والحياة، وإنما أرادَ الانتقالَ إلى مثالٍ آخر، أكثرَ وضوحاً على وحدانيةِ الله، وأوضحَ دلالةً على عجز الملك، إنه تغييرُ حركة الشمس: قال إبراهيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾.

مَنْ هو ذلك الشخصُ العاقلُ الذي يَدَّعي التحكمَ في مسارِ الكون، وتسييرِ أفلاكه كما يشاء، ولو كان مَلِكاً، ولو مهما ملكَ من أسبابِ ومظاهر القوة؟

لقد ساقَ إبراهيمُ عليه السلام هذا المثالَ أمامَ الملك ليُريه عجْزه، وطلبَ منه هذا الطلبَ لأنه يعلمُ أنه غيرُ قادرٍ على تحقيقِه.

إن هذا أبرزُ دليلٍ على وحدانية الله، وأعتى كافرٍ لم يدَّعِ السيطرةَ عليه.

هل يستطيعُ الكافرُ حتى لو كان ملكاً قوياً ـ تغييرَ حركةِ الشمس؟ هل يستطيعُ الإتيانَ بها من المغرب؟ وهل يَقدرُ على منع مغيبها؟ وهل يَقدرُ على إبقاءِ النهار، وعدمِ حلول الظلام؟

لا يَملكُ الملكُ الكافر أمامَ هذا الطلب العجيب من إبراهيم إلاّ أنْ يُبهت، ولا يملكُ أمام هذا التحدي الكبيرِ إلا الاعترافَ بالعجز.

وإذا عجزَ عن التحكم في الكون فليس إلٰهاً ولا رباً، لأن الله لا يَعجزُ عن شيء، ولا يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

ويهمّنا أنْ نستفيدَ من موقفِ إبراهيم عليه السلام أمامَ الملك، قوةَ حجته، ووضوح برهانه، وعظمةَ منطقه، وهذه هي سماتُ دعوةِ الحق دائماً.

ولقد غلبَ إبراهيمُ عليه السلام بالحقّ الذي معه، الملكَ المغرورَ والباطلَ الذي معه، وأظهرَه ضعيفاً عاجزاً، مغلوباً مبهوتاً.

ولقد تمتعَ إبراهيمُ عليه السلام في خطابه للملك الظالم بالجرأةِ والعزةِ والشجاعة، فلم يرهبْه، ولم يضعفْ أمامَه، ولم يجبنْ عن قول الحق، ولم يتلعثمْ أو يداهنْ أو يتراجع. وهذا درسٌ دعويٌّ للدعاةِ الحريصين على أداءِ واجب الدعوة، وإقامةِ الحجة.

[١١]

إبراهيم يحطم الأصنام

الخطوة التالية: تحطيمه الأصنام وهدفه منه:

تحطيمُ إبراهيمَ عليه السلام للأصنام هو الخطوةُ التاليةُ لخطواته السابقة، متسقةٌ معها ومبنيةٌ عليها.

فقد دعا أَباه إلى الإيمان، ولكنه رفضَ دعوتَه، لأنه يعبدُ الأَصنام.

وقد دعا قومَه إلى الإيمان، ولكنهم رفضوا دعوتَه بسببِ الأصنام.

وقد دعا الملكَ إلى الإيمان، ولكنه رفض دعوته بسبب الأصنام.

فالأصنامُ هي الحجابُ الحاجزُ الذي يحولُ بينهم وبين الإيمان، وهي السببُ في رفضهم دعوتَه.

فكَّرَ إبراهيمُ عليه السلام في هذه المسألة، فلا بدَّ أنْ يزيلَ ذلك السبب، وأنْ يقضيَ على ذلك الحجابِ المانع، لعلَّهم يفكِّرون بدعوته بعد تحطيمِ هذا السد، ولعلَّهم يؤمنون به بعد إزالةِ هذا الحاجز.

فكان تحطيمُه للأصنام بهذه النية، في هذه المرحلةِ المتأخرة من مراحلِ دعوتِه لقومه.

لقد أشارتْ آياتُ بعضِ السورِ إلى هذه الحادثة. آياتٌ من سورة الأنبياء، ومن سورة الصافات.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ

أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنبياء: ٥١ ـ ٦٠].

وقال تعالى: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الصافات: ٨٣ ـ ٩٤].

لقد بدأ إبراهيمُ عليه السلام كلامَه مع قومه بالدعوة، واستخدم منطقَ الإقناع العقلي، وخاطبَ قلوبَهم وعقولَهم وفطرهم وأرواحَهم، خطاباً دعوياً عقلياً مقنعاً: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾؟ ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾؟

ولكنهم رفضوا دعوتَه، وأغلقوا قلوبَهم وعقولَهم عن منطقِ دعوتِه، وأصروا على عبادةِ تلك الأصنام، التي فنَّدَ عبادتَها، وأبطلَ كونَها آلهةً بالمنطقِ والحجة والبرهان.

فلا بدَّ أنْ يتوجَّهَ إلى أصنامِهم ومعبوداتِهم ليحطمَها، لعلهم يؤمنون بعد ذلك.

لقد أخبرهم قبل تحطيمِه لأصنامِهم، وهدَدهم تهديداً صريحاً، وكشفَ لهم عن بعض ما يبيِّتُه لأصنامهم. قال تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

أقسمَ لهم بالله، وحلفَ لهم اليمين ﴿وَتَٱللَّهِ﴾، وذلك ليصدقوه في تهديدِه لأصنامهم: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾.

أخبرهم بعزمه على كيد أصنامهم:

أي: إنني أنوي إيقاعَ شيء بأصنامِكم، وأُريدُ فعْلَ شيء ضارٍّ بها،

وهذا الشيءُ ليس أمامكم، وإنما خفيةٌ عنكم، وذلك بعدَ أنْ تُدْبروا عنها، وبعد أنْ تخرجوا من البلد: ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ﴾.

لقد كان إبراهيمُ عليه السلام صريحاً في موقفه من قومه، وكان فعلُه معهم علنيّاً ومكشوفاً، حيث علمَ القومُ أنَّ إبراهيمَ سيفعل بأصنامهم فعلاً، ويوقعُ بها ضراً، لكن ما الذي سيفعلُه بها؟ ومتى سيفعلُه بها؟ وكيفَ سيفعلُه بها؟ لم يخبرهمْ عن هذه التفاصيل، حتى لا يستعدُّوا له، ولا يرتِّبوا حراسةً مشددةً لأصنامهم.

إنه فقط يريدُ منهم أنْ يتوجَّسوا خيفة، ويريدُ أنْ يبقيَهم في حالةِ ترقُّبٍ وانتباهٍ وانتظار، أما القرارُ في تحديدِ الزمان والمكانِ والكيفية، فهو له، إنه يملكُ زمامَ الموقف.

وهذا من إبراهيمَ عليه السلام حسنُ إدارةٍ للمعركة والمواجهةِ بينه وبين قومه، هو قائدُ المعركة وسيد الموقف، وعلى الدعاةِ أن يقتدوا بإبراهيمَ عليه السلام في هذا الجانب، وأنْ يملكوا هم الخطواتِ المدروسةَ الذكيةَ في مواجهتهم لأعدائهم، وأن لا تكون خطواتُهم مجردَ «ردودِ أَفعال» على قراراتِ الأعداء.

نظره في النجوم وقوله إني سقيم:

وحانَ موعدُ تنفيذِ إبراهيم لتهديده، وجاءَ الظرفُ المناسبُ لتحطيم الأصنام.

هذا الظرفُ المناسبُ في قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

لقد نظرَ إبراهيمُ عليه السلام في النجوم، ليعرفَ التوقيتَ والتاريخَ والحساب، فعرفَ من خلال نظرهِ في النجوم، قربَ حلول يوم عيدٍ لهم، يحتفلونَ به على طريقتهم الخاصة، ويمارسونَ فيه الفجورَ والمنكر والكفر والشرك، ويقدِّمون فيه الطعامَ والقرابين لأصنامهم وآلهتهم.

ولما تذكَّر إبراهيمُ ما سيفعلُه قومه من المنكرات والكفر يوم

عيدهم، أُصيبَ بالهمّ والغم، والضيقِ والحزن، وهذا هو السقمُ والمرضُ في قوله: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾.

أخبرَ إبراهيمُ قومَه أنه سقيم، ويبدو أنّ إخباره لهم بذلك جاءَ رداً على دعوتِهم له للخروج معهم إلى البرّ، للاحتفالِ بالعيد، ولذلك تركوه وحده، وخرجوا هم للاحتفال، ولهذا قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

لقد كان إبراهيمُ عليه السلام صادقاً في الحقيقةِ في قوله لقومه: إنه سقيم.

الحديث عن ثلاث كذبات لإبراهيم:

فلماذا اعتُبر قولُه هذا كذباً، كما في الحديثِ الصحيح؟ روى أَبو هريرةَ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذبْ إبراهيمُ إلا ثلاثَ كذبات. ثنتين منهنَّ في ذاتِ الله: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾. وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾.

وبينما هو ذاتَ يومٍ وسارة، إذْ أتى على جبارٍ من الجبابرة، فقيلَ له: إن هاهنا رجلاً، معه امرأةٌ من أحسنِ الناس. فأرسلَ إليه، فسأله عنها. فقال: مَن هذه؟ قال: أُختي.

فأتى سارة، فقال: يا سارة: ليس على وجهِ الأرض مؤمنٌ غيري وغيرُك، وإنَّ هذا سألَني، فأخبرتُه أنك أُختي، فلا تُكَذِّبيني فأرسلَ إليها. فلما دخلتْ عليه ذهبَ يتناولُها بيده، فأُخِذ.

فقال: اِدْعي الله لي، ولا أَضرُّك. فدعَتْ الله، فأُطْلِق.

ثم تناولها ثانية، فأُخِذَ مثلَها أو أشدّ.

فقال: اِدْعي الله لي، ولا أضرُّك، فدعَتْ، فأُطْلِق.

فدعا بعضَ حجبَتِه، فقال: إنكَ لم تأْتِني بإنسان. إنما أتيتَني بشيطان!

فأَخدَمَها هاجر. فأتته وهو قائمٌ يصلّي، فأومأَ بيده: مَهيم؟

قالت: ردَّ الله كيدَ الفاجر في نحره، وأَخْدَمَ هاجرَ.

قال أبو هريرة: فتلكَ أُمُّكم يا بني ماء السماء!!»[1].

هذا الحديثُ الصحيحُ الذي رواه الشيخان وغيرُهما، يَنسبُ فيه الرسولُ ﷺ إلى إبراهيمَ عليه السلام ثلاثَ كذبات: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾.. ولما سُئل عن تحطيم الأصنام قال: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾. وقولُه للملكِ الظالم عن زوجه سارة: إِنها أُخْتُه.

فكيف جازَ أنْ يقولَ إبراهيمُ ذلك، وهو نبي، والأنبياءُ معصومون من الكذب؟ هل كان كاذباً فيما قال؟ وإنْ لم يكن كاذباً فلماذا اعتُبر كلامُه كذباً؟.

قوله: إني سقيم من المعاريض:

نوجِّهُ في هذا المقام قولَه الأول ـ أو الكذبةَ الأول ـ أما القولان الآخران فنوجِّهُهما عندما نصلُ في كلامنا عن قصته إِليهما، إن شاء الله.

لم يكن إبراهيمُ كاذباً في قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، بل كان صادقاً في ذلك، ومعنى ﴿سَقِيمٌ﴾ مريض.

ومرضه ليس مرضاً عُضوياً جسميّاً ماديّاً، أي: لم يكن مرضُه في جسمه، في يديْه أو رجليْه مثلاً.

إنَّ سقمَه ومرضَه في نفسه، فهو سقمٌ نفسيٌّ معنوي، لأنه قَرُبَ حلولُ عيدِهم، ولأنهم يفجرون ويكفرُون في عيدِهم، فلما حلَّ العيدُ تألَّم إبراهيمُ وحزنَ مما سيفعلونه، وأُصيبتْ نفسُه بالهمِّ والغمّ، والضيق والألم، وهذا سقمٌ نفسي، أصابَ نفسه.

فهو إذن صادقٌ في قوله لهم: إني سقيم منكم، حزينٌ متألم مغمومٌ مما ستفعلون.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٢١٧. ومسلم برقم: ٢٣٧١، وغيرهما. انظر رسالة الأحاديث الصحيحة: رقم: ٨٦.

فلماذ اعتَبرَ الحديثُ هذا القولَ من إبراهيم كذباً.

لأنه يشبهُ الكذبَ في الظاهر، بينما هو يختلفُ عنه في الحقيقة. فعندما سمعَ القومُ من إبراهيم أنه سقيم، فَهموا منه السقَمَ الجسمي، والمرضَ المادي، وحملوه على المرضِ المعروف، بينما أرادَ هو المرضَ والسقَمَ النفسيَّ المتمثلَ في الهمِّ والحزن.

أي أنَّ إبراهيمَ عليه السلام استخدمَ طريقةَ «المعاريض»، والمعاريضُ مأخوذةٌ من التعريض، وهو أن تتكلمَ أنت بكلام، تريدُ به شيئاً، بينما يَفهمُ المخاطبُ منه شيئاً آخر.

والمعاريضُ تشبهُ الكذبَ، في الظاهر، لكنها ليستْ منه وإنما هي من الحقيقة، و «إنَّ في المعاريضِ لمندوحةً من الكذب»، فهي تُغْني عن الكذب، ومَن اضطرَّ إليها يستخدُمها وهو صادق، ولا يستخدمُ الكذب!

وهذا ما فعلَه إبراهيمُ عليه السلام، فقولُه من باب المعاريضِ وليس من باب الكذب. والله أعلم!

المهمُّ إنَّ إبراهيمَ عليه السلام قال لقومه: إني سقيم. وهو يقصدُ الحزنَ والغمَّ والهم، ففهموا منه سقمَ الجسمِ والبدن، فتركوه، وذهبوا إلى الاحتفالِ في عيدهم.

حان وقت تنفيذ خطته:

قالَ لهم كما أَخبرتْ سورةُ الأنبياء: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

وحانتْ فرصةُ تنفيذِ خطته، كما قالت سورة الصافات: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

ولاحِظْ معنا اتفاقَ سورتي الأنبياءِ والصافات على التعبيرِ عن الحقيقة: تولِّيهم عن إبراهيم، وإِدبارهم عنه، وكأنَّ سورةَ الأنبياء تقدمُ

الوعدَ بما سيحصل، وسورةَ الصافات ـ التي بعدها في ترتيب المصحف ـ تقدمُ تحقيقَ الوعد وحصولَه فعلاً.

ذهبَ إبراهيمُ عليه السلام إلى أصنامهم، وليس عندها أحدٌ من حراسِها أو عابديها، ويبدو أنهم كانوا قد وضَعوا طعامَهم عندها، وخرجوا للاحتفالِ بعيدِهم، وذلك لتباركَ لهم الطعام، ثم يأكلونَه بعد مباركتها له.

وهنا حانتْ فرصةُ إبراهيمَ المناسبة لتحطيم الأصنام، وتنفيذِ تهديده: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝٩٢﴾.

إن كلمة «راغ» لم تُذكَرْ في القرآن إلا ثلاث مرات فقط، ووردت كلُّها في قصةِ إبراهيم عليه السلام. مرتان في تحطيمهِ الأصنام في سورة الصافات: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝٩٢ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ۝٩٣﴾.

والمرةُ الثالثةُ في تقديمِه العجلَ السمينَ لضيوفه من الملائكة: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝٢٦﴾ [الذاريات: ٢٦].

و «راغ» فعل ماضٍ، مشتق من الروغ.

قال الإمامُ ابن فارس في معناه: «الرَّوْغُ: يدلُّ على ميلٍ وقلةِ استقرار.

يقال: راغَ الثعلب يروغ. وطريقٌ رائغ: مائل. وراغَ فلان إلى كذا: إذا مالَ سرّاً إليه»[1].

فلما قالت الآيةُ عن ذهابِ إبراهيمَ إلى الأصنام: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾: أرادتْ تقريرَ ذهابِه إليهم بسريةٍ دونَ أنْ يراه أَحد، وبسرعةٍ ليحقّقَ ما نواه.

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٢: ٤٦٠.

كلام إبراهيم مع الأصنام:

دخلَ إبراهيمُ إلىٰ الأَصنام ليحطِّمها، فوجدَ طعامَ القوم أمامها، وأراد أنْ يسخرَ منها ومن عابديها، وبدا له أنْ «ينكِّتَ» عليها، وهي جمادات، لا تسمعُ ولا تعي ولا تتكلم، ولا ترى، ولا تدري ما يجري أمامها. فقال لها: كلوا!!، وهو ما أَرادَ حقيقة دعوتها إلى الأكل، لأنه يعلم أنها جامدة لا تأكل ولا تشرب، وإنما أراد أن يسخر منها وأن يضحك عليها.

طبعاً لم تلبِّ الأصنامُ دعوتهُ، ولم تأكلْ من الطعام كما أنها لم تردّ عليه. ولم تكلِّمه، ولم تعتذر عن عدم تلبية الدعوة، فقال لها: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴿٩٢﴾﴾؟ لماذا لم تردّوا عليّ؟ لماذا لا تكلموني؟

والحوارُ بينه وبين الأصنام هو حوارٌ من طرفٍ واحد، فهو يتكلمُ ويسأل، وهي أصنامٌ جامدة لا تسمعُ ولا تفهم ولا تُجيب، وهو يعلمُ ذلك منها وهو يحاورها، لكنه أرادَ أنْ «يتسلّى» قبلَ أن يحطمَها، أراد أن يسخرَ منها، وأن يضحكَ عليها.

وهذا الكلامُ منه لها قبلَ تحطيمها يدلُّ على تمتُّعِه بهدوءِ الأعصاب، وصفاءِ النفس، وإشراق الروح، فهو ليس متسرعاً ولا قلقاً ولا متشنجاً ولا خائفاً ولا متوتراً!!

عند ذلك أقدمَ على خطوتِه التنفيذية الفعلية: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴿٩٣﴾﴾.

تحطيمه لها باليمين:

أقبلَ إبراهيمُ على الأصنام يحطمُها، ومالَ إليها يضربُها بأداةٍ قوية متينة، كان يحملُها بيده اليمنى. فمضى ﴿ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ ضربها بيده اليمنى، وحطمها بالأداةِ التي كان يحملُها بيده اليمنى.

ومعلوم أن غالب الناس يستخدم الواحد منهم يده اليمنى في

الحمل والاستعمال، واليدُ اليمنى عند غالب الناس أقوى من اليد اليسرى. ولهذا استعمل إبراهيم عليه السلام يده اليمنى في تحطيم الأصنام!.

وانتهتْ عمليةُ تحطيمِ الأصنام، حيث حطمها كلَّها إلاّ واحداً.

قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨﴾. والجُذاذُ هي المكسرةُ المحطمة.

قال الراغب: «الجَذُّ: كسرُ الشيء وتفتيتُه. يقال لحجارة الذهبِ المكسورةِ ولفتاتِ الذهب: جُذاذ. ومنه قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾»[1].

إنَّ إبراهيمَ عليه السلام يعرفُ ماذا يفعل، ويخططُ لما بعد فعله، وكلُّ تصرفٍ عنده مدروسٌ هادف، ويريدُ منه تحقيقَ شيء آخر.

فتحطيمُه الأصنام ليس بمجردِ تحطيمها والتخلص منها، وإنما ليزيل الحاجزَ المادي، الذي يحولُ بين قومه وبين الإيمان.

وقد أبقى كبيرَ الأصنام بدون تحطيم، وذلك لهدفٍ بيِّن: ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾.

أبقى الصنمَ الكبيرَ لعلهم يرجعون إليه، ويسألونَه عمن فعلَ ذلك! لأنهم عندما يعودون إلى آلهتهم سيجدونها محطمةً مفتّتَةً مكسَّرة، وسيفاجَؤون بذلك، ولا يَعرفون مَنْ حطَّمها.

وعندما يجدون الصنمَ الكبير سليماً فعليهم أنْ يَرجعوا إليه، وأنْ يسألوه! ألم يكن موجوداً؟ ألم يشاهِدْ تحطيمَ الآلهة الصغيرة؟ ألم يَرَ الشخصَ الذي حطمها؟ إذن عنده الخبرُ اليقيني، فلا بدَّ أنْ يسألوه! ألم نقلْ إن خطوات إبراهيم وأفعاله مدروسة؟ وإنه كان يعي ويعرف ماذا يفعل؟

---

(١) المفردات: ١٩٠.

لذلك ترك الصنم الكبير بدون تحطيم!

[١٢]

محاكمة إبراهيم عليه السلام

مفاجأة القوم أمام الآلهة المحطمة:

عادَ القومُ من احتفالِهم وعيدِهم، وذهبوا إلى أصنامهم، فوجدوها محطمة، إلا الصنمَ الكبير، ففوجئوا واستغربوا ودُهشوا، وسألوا عمن حطمها، فتذكَّروا التهديدَ الذي صدرَ عن إبراهيم عليه السلام، عندما سبق أنْ قالَ لهم: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

إذن إبراهيمُ هو الذي حطَّمها. ولا بد أنْ يُحاكم على فعلتِه أمام الناس، وأن يصدرَ عليه الحكمُ المناسب، وأن ينال جزاءَه وعقابه.

وقد أشارت آياتُ القرآن إلى محاكمة إبراهيم عليه السلام.

قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٥٩ ـ ٦٧].

وقال تعالى: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٤ ـ ٩٦].

القومُ لا يريدون أنْ ينتبهوا أو يستيقظوا، فهم مصرّون على عمَاهم وضلالهم.

إن الحادثَ الذي أمامهم كفيلٌ بإيقاظ القلوب، وإزالة الحجبِ والأغشية، لمن أرادَ أن يتذكرَ أو يستيقظ.

هل هذه الأخشابُ والأحجارُ المنحوتة آلهة؟ وهل ما زالتْ آلهةً رغم تحطيمها وتكسيرها؟

إذا كانت آلهةً فلماذا لم تدفعْ عن نفسها؟ لماذا لم تنتقم ممن أرادَ تحطيمها؟ لماذا لم تنتقم من فعلتِه؟.

ثم ما دورُ الصنم الكبير الذي بقي بدون تحطيم؟ لماذا لم يدافعْ عن الآلهةِ الصغار؟

اتهامهم لإبراهيم وتنقيصه:

هذه الأسئلةُ لم تدرْ في أذهانهم، لأنها مطموسةٌ قلوبهم! لما شاهدوها محطمةً تساءلوا عمن حطمها: ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩﴾.

هل الإنسانُ الضعيفُ العاجز قادرٌ على إيقاع الضر والأذى بالآلهة؟ إن الكفارَ بدون منطقِ عقلي، ولهذا قالوا: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾.

ورأساً أصدروا إدانةً له قبل معرفةِ هويته: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ظالمٌ للآلهة لأنه حطمها، وظالم لهم لأنه اعتدى على آلهتهم.

وتذكَّروا تهديدَ إبراهيم السابقَ لهم ولآلهتهم، فقالوا: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾.

لقد أرادوا تنقيصَ إبراهيم عليه السلام، والحطَّ من شأنه، وكلُّ كلمة في هذه العبارة توحي بذلك.

إن إبراهيمَ عليه السلام معروفٌ عندهم، وهو ملءُ السمع والبصر، وكم سمعوا كلامَه، وعرفوا قصتَه ودعوته حتى وصلتْ للملك.

أما بعدَ ما حطمَ الأصنام فهو ﴿فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥ إِبْرَٰهِيمُ﴾.

﴿فَتًى﴾: كلمةُ تحقيرٍ وتقليل. إنه فتى طائشٌ مندفع متهور، وليس رجلاً كبيراً، ناضجاً واعياً متعقلاً، ففعلتُه لا يُقدمُ عليها إلا فتى مندفع!!.

هذا الفتى المندفعُ المتهورُ كان ﴿يَذْكُرُهُمْ﴾ ويذمُّ عبادتَهم، ولا يعتبرهم آلهة، وقد هددَ بكيدِهم وإيذائهم.

فقد سمعناه وهو يقول لنا من قبل: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾.

وهذا الفتى المندفع: ﴿يُقَالُ لَهُۥ إِبْرَٰهِيمُ﴾. هكذا: ﴿يُقَالُ لَهُۥ﴾ بهذا الإهمالِ والتنقيصِ والازدراءِ والاحتقار. مع أنه علمٌ معروفٌ عندهم، ملءُ السمع والبصر فيهم.

محاكمة إبراهيم أمام الناس:

وأصدرَ الملأُ من القوم الحكمَ بإحضاره، ومحاكمته أمام الناس: ﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾.

أَحْضِروا إبراهيمَ وسوقوه، وأتُوا به، وأَوقِفوه، واجْمَعوا له الناس، لِيروه بأعينهم، وينظروا إليه، ولِيزدادوا له كرهاً، لأنه هو الذي حطمَ آلهتهم، ولِيشهدوا محاكمته، وليشاركوا في إصدار الحكم عليه.

إن الملأَ من قومه يريدون أن يُهيِّجوا الناسَ على إبراهيم عليه السلام، وأن يجنِّدوهم ضده، وأن يُشركوهم في إدانته وعقابه.

وكأنهم بقولهم: ﴿فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ يحاكمونه في «محكمة الشعب» ويُصدرون عليه «حكم الشعب»، وينفِّذون فيه «إرادة الشعب»، وكأن الشعبَ كلَّه يَكْرَهه ويحاكمه ويُدينه، وليسوا وحدهم في ذلك، فما هم إلا منفِّذون لحكم الشعب!

وجاؤوا بإبراهيمَ عليه السلام أمام الشعب، وبدؤوا بمحاكمته على أعينِ الناس، وشكّلوا له محكمةً قضائية.

وقبلَ النظر في آياتِ سورة الأنبياء التي سجلت مُحاكَمَتَهُ ننظرُ في آيات سورة الصافات!

قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾. إنَّ قولَه: ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ يصورُ الصورة المهتاجةَ المتشنجة التي عامَلوه بها، وواجَهوه على أساسها.

قال الإِمام الراغب في معنى ﴿يَزِفُّونَ﴾:

«يزفون: يُسرعون. و «يُزِفُون» بضم الياء: يَحملون أصحابهم على الزَّفيف، وهو الإِسراع.

وأصلُ الزفيف في هبوب الريح، وسرعةِ النَّعام التي تخلطُ الطيرانَ بالمشي. وزَفْزَفَ النعام: أسرع.

ومنه استعير: زَفُّ العروس. وهي استعارةُ ما يقتضي السرعة، لا من أجلِ مشيتها، ولكن للذهابِ بها على خفةٍ من السرور»[1].

لقد هجموا عليه مهتاجين صاخبين مسرعين، وهيَّجوا الآخرين معهم، وأسرعَ الجميعُ إليه يزفون.

إبراهيم يناقشهم بموضوعية:

ولما ناقشهم إبراهيمُ عليه السلام كان نقاشه معهم موضوعياً عقلياً منطقياً مقنعاً، لكن القومَ لا يريدون أن يقتنعوا، ولا ينفعُ معهم المنطق.

قال لهم: كيف تنحتون الأصنامَ نحتاً، وتجعلونها تماثيلَ جميلة، ثم تجعلونَها آلهة، وتعبدونها. إنكم أنتم الذين نحتُّموها وصنعتموها، وأنتم أَقوى منها، وهل يصنعُ الإِنسانُ ربَّه؟ ثم يعبدُه بعد ذلك، ويطلبُ

---

(١) المفردات للراغب: ٣٨٠.

منه كشفَ الضر أو جلبَ النفع؟

وقال لهم: إن الله خلقكم، وخلقَ ما تعملون وتنحتون من هذه الأصنام الآلهة، فعليكم أنْ تعبدوه وحده، لأنه وحدَه هو الخالق، فبما أنه لا خالقَ إلا الله، فيجب أن يكون: لا معبودَ إلا الله.

إن قوله: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ يُرادُ به الأصنام التي عملوها بأيديهم، فالله خلقهم وخلقَ أصنامَهم التي عملوها.

وليس مقصودُ الآية أنْ تبينَ أن الله يخلقُ الإنسان ويخلقُ عمله، وأن أعمال الإنسان مخلوقة من قبل الله. لا تبحثُ الآية في هذه المسألة وليس هذا موضوعها، ومن أراد البحثَ عن هذه المسألة في القرآن، فليبحثْ عن آياتٍ أخرى!!.

لم يستمع القومُ لمنطقهِ الموضوعي، وأصروا على محاكمته، وأرادوا اعترافَه بارتكابِ الفعل، ليُدينوه باعترافه، ويعاقِبوه على فعله. لكنَّ إبراهيمَ تغلبَ عليهم بمنطقهِ وحجته وبرهانه، وبدلَ أن يحاكموه حاكمهم هو، وبدلَ أنْ يُفحموه أَفحمهم هو، وبدلَ أن يضعفَ هو أمامهم، ضعفوا هم أمامه.

لقد صار هو القاضي، وصاروا متَّهمين أمامه، أدانَهم ووبَّخهم وأقامَ الحجةَ عليهم، وهذا هو منطقُ الحق دائماً، وهذَا هو موقف جنديِّ الحق دائماً عندما يواجِه جنودَ الباطل.

فطنته في جوابهم على سؤالهم:

قالوا له: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾.

سألوه إن كانَ هو الذي حطم آلهتهم، وهم ما أرادوا الاستعلام والاستخبار، وما أرادوا حقيقةَ السؤال!.

لأنهم يعلمون ويوقِنون أنه هو الذي فعل ذلك. فقد سبقَ أن أعلنَ لهم قائلاً: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾. وقد

صرحوا بأنه هو الذي فعلها: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

ورغم علْمِهم الجازمِ بذلك إلا أنهم سألوه، إنْ كانَ هو الذي فعل ذلك، وهدَفُهم من السؤال هو أخذُ اعترافٍ صريح من إبراهيم بأنه هو الذي فعلَها، وإسماعُ الناس المحتشدين اعترافَ إبراهيم، ليجعلوا هذا مادةَ إدانةٍ ضده وعقابٍ له.

وفطنَ إبراهيمُ عليه السلام إلى مقصدهم من سؤالهم، ففوَّتَ عليهم الفرصة، وكان بذلك أكثرَ فطنةً ووعياً منهم.

لذلك ردَّ على سؤالهم قائلاً: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾.

هل تهربَ إبراهيمُ من مسؤوليةِ ما فعل؟ وهل أنكرَ أنْ يكونَ قد فعل؟ وهل كذبَ فيما قاله لهم؟

إنه لم يَهرب، ولم يُنكر، ولم يَكذب. بل إنه لم يُجبهم على سؤالهم، لأنه يعرفُ أنهم ليسوا جادّين في توجيهِه له، ويعرفُ أنهم يعرفون أنه هو الذي حطمَ الأصنام.

لقد أَضربَ عن الجواب بحرف «بل» في الآية: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾. ومعروفٌ أن «بل» في اللغة حرفٌ للإضراب والانتقال. أي: إضرابٌ عن كلام سابق، وانتقالٌ إلى معنى آخر جديد.

لقد أهملَهم إبراهيم، وأهملَ سؤالَهم، ولم يحقق لهم هدفَهم من السؤال، ولم يسجلْ على نفسه إدانةً له، وإنما جرَّهم إليه، وأوقعهم في خطته.

قال لهم: ﴿فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ أي: حطمَ الأصنامَ هذا الصنمُ الكبيرُ السليم.

﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾: اسألوا الصنمَ الكبيرَ إن كان

ينطق: هل أنتَ حطمتَ الأصنام، واسألوا الأصنامَ المحطمةَ المكسرة إنْ كانتْ تنطق: مَن الذي حطمَكِ؟.

هذا ما كان يريدُ إبراهيم أنْ يصلَ إليه، عندما تركَ الصنمَ الكبير بدون تحطيم: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾.

والآن: فليرجعوا إلى الصنم الكبير، وليسألوه، وها هو إبراهيمُ عليه السلام يتحداهم أَنْ يسألوه.

لماذا لا يسألونَه؟ أليس إلٰهاً يعبدونه؟ والإِلٰه يعلم كلَّ شيء.

إنه لم ينكرْ أنه فعلَ ما فعل، ولو أرادَ أن ينكر لقال: إنني لم أفعلْ ذلك، وعندها يكون كاذباً.

أما إِضرابُه عن الجواب وانتقالُه إلى موضوع آخر، فليس كذباً ولا تهرباً، ولكنه ذكاءٌ وفطنة، وحسنُ إقامةِ للحجة.

والحديثُ الصحيح ـ الذي سبقَ أنْ أوردناه ـ اعتبر قولَ إبراهيم: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ كذباً، ولم يُرِدْ أنه كذبٌ في الحقيقة والواقع، وإنما هو وافقَه في الظاهر، مع أنه خالفَه في الحقيقة. ولموافقتهِ له في الظاهر اعتُبر كذباً. والله أعلم.

إبراهيم يصل إلى قلوبهم ويفحمهم:

لقد لمسَ إبراهيمُ بكلامه قلوبَهم لمسةً سريعة، ونجحَ في إقامةِ الحجة عليهم، وفي إفحامِهم وهزيمتهم. إنه داعيةٌ ناجح، ومجادلٌ موفق، وإن خطواتِه مدروسة ومقصودة وهادفة.

ومِن تأثُرهم بكلامه القوي أنهم رجعوا إلى أنفسهم فلاموها، واعترفوا بظلمهم وخطئهم: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٦٤)﴾.

أي: رَجعوا إلى أنفسهم لائمين. إذ كيف يحاكمونَ إبراهيم،

ويَعتبرونه مذنباً، وهم المذنبون المخطِئون، لأنهم يعبدون هذه التماثيلَ والأصنام، ويعتبرونها آلهة، وهي لا تصلحُ لذلك، وها هي لا تُجيبهُم ولا تكلمهم.

واعترفوا في داخِلهم أن إبراهيمَ على حق، وأنه ليس ظالماً في تحطيمه للأصنام، بل هم الظالمون في عبادتهم لها. ولهذا همسوا فيما بينَهم قائلين: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾.

وهم في هذا الكلام يُكَذِّبون أنفسَهم في كلامهم السابق عندما قالوا: ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

إنها لحظةُ صدقٍ يمرون بها، وإنها ومضةُ نورٍ نجحَ إبراهيمُ في إيصالها إلى قلوبهم، فأشرقَتْ بها لحظة، ثم أظلمتْ من جديد. وفي هذه الإشراقة النورانية الخاطفة، تكلموا بالحق قائلين: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾.

وبعد ذلك شعروا بالخزي. قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾: أَحسوا أنهم قد غُلبوا وهُزموا، وذاقوا مرارةَ الانتكاس والإخفاق والذل، وأرادوا محاكمةَ إبراهيم، فتحوَّلوا إلى متَّهمين مغلوبين.

ولهذا خاطبوا إبراهيم خطاباً كلُّه خزي وذل ومرارة، وقالوا له: يا إبراهيم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ فكيف تريدُ منّا أن نسألَهم؟ إنك تعلمُ أنهم لا يتكلمون؟.

إذن لماذا يعبدونَهم، مع أنهم بهذا العجزِ والضعف والهوان؟ وكيف اعتبروهم آلهةً مكان الله.

إبراهيم في قمة الانتصار في المحكمة:

وسجلَ إبراهيمُ عليه السلام قمةَ انتصاره عليهم، وظهر بمظهرِ

القاضي في المحكمة، الذي يُصدرُ حكمه على المجرم، ويذمُّه ويلومُه ويعنفه ويقرعُه.

ولذلك قال لهم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

كيف تعبدونَ هذه الأصنامَ الضعيفة العاجزة؟ وها هي أمامكم محطمةً مكسرة، فلو كانت آلهةً لدفعت عن نفسها. وإذا كانت عاجزةً عن جلبِ نفعٍ لها، أو دفعِ ضر عنها، فهل تقدرُ على جلبِ نفعٍ لكم، أو دفع ضر عنكم؟.

إنها أصنامٌ لا تنفعكم شيئاً ولا تضركم، فكيف تعبدونَها من دون الله؟.

إنه لا يُعْبَدُ إلا الله، لأنه وحدَه القويُّ القادرُ القاهر، هو وحده الذي يقدِّمُ لعباده وعابديه النفع، ويدفعُ عنهم الضر.

وناسبَ الموقفُ أن يهزَّ إبراهيمُ عليه السلام قومَه هزةً قوية، وأنْ يخاطبهم خطاباً عالياً، ولذلك قال لهم: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

و ﴿أُفٍّ﴾: كلمةُ إنكارٍ لما هم عليه من ضلال، وإعلانِ الرفض لباطلهم وكفرهم. أُفٌّ لهم، وأُفٌّ لأصنامهم، وأفٌّ لآلهتهم الباطلة، وأفٌّ لكل ما يعبدون من دون الله.

وختمَ إبراهيمُ عليه السلام بيانَه لقومه، وإفحامَه لهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ وهذا إنكارٌ آخر عليهم، وذمٌّ آخر لهم، وإقرارُ أنهم لا يعقلون.. لا يَستخدمون عقولَهم، ولا يؤثِّر فيهم المنطقُ العقلي، ولا الحجةُ المنطقية، لأنهم عطلوا عقولَهم بكفرهم وضلالهم!.

أرادوا محاكمةَ إبراهيم فحاكَمهم، وأرادوا إدانتَه فأدانَهم، وغلَبهم بمنطقِه الإيماني، وحجتِه العقلية، وانتصرَ بالحق الذي يمثله، والهدى الذي يحملُه، وهذا هو منطق الحق دائماً، وهكذا غلبةُ الحق دائماً!.

[١٣]

الله ينجي إبراهيم من النار

هزيمة القوم أمام حجة إبراهيم وانتقالهم إلى التعذيب

هُزِمَ القومُ الكفارُ أمامَ حجة ومنطق إبراهيم عليه السلام، واعترفوا بهزيمتهم، وأنّى للباطل أن يصمدَ أمامَ الحق، أو يقف أمام حقائقه؟.

وجنودُ الباطل مغلوبون دائماً أمام جنود الحق، لأنهم لا يملكون حجةً ولا برهاناً ولا إقناعاً. وهذا ما حصلَ من القوم أمامَ إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وبدلَ أنْ يستسلموا للحق، ويتَّبعوا الهدى، ويتخلّوا عن الباطل، فقد لجؤوا في مواجهة إبراهيم عليه السلام إلى أسلوبٍ آخر، هو أسلوبُ العنفِ والتعذيب والإِيذاء.

وهذا هو أسلوبُ الضعيف العاجزِ عن مواجهة الحق بالحجة، المهزومِ أمام المنطق العقلي الموضوعي، حيث يلجأُ إلى استعمال اليد والقوة والبطش، والعصا والسوط.

وهكذا هم أصحابُ الباطل الظالمون المجرمون دائماً، وهذا هو أسلوبُهم في كل زمان ومكان، إنهم لا يقفون أمام صوتِ الحق والعقل والمنطق الذي يقدمه جنودُ الحق، ويعجزون عن تفنيدِ براهينهم وحججهم، وينهزمون أمامهم في المواجهة الإِنسانية العقلية البرهانية، فيلجؤون إلى البطشِ والتعذيب، ويستعملون أيديهم وأرجلهم، وهذا هو منطقُ الحيوانات، التي لا تستخدمُ عقولَها ـ إذ لا عقولَ لها ـ فتلجأ إلى استخدامِ أرجلها وأسنانها وقرونها، لتصفية خلافاتها، وحلِّ نزاعاتها!!.

أصدرَ القومُ الكافرون الظالمون على إبراهيم عليه السلام حكْمَهم الجائرَ بحرقِه بالنار، ولكنَّ الله أنجاه منها، وجعلها برداً وسلاماً عليه، وجعلَهم أسفلين أخسرين مُخْفِقين مهزومين.

قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: ٦٨ ـ ٧٠].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الصافات: ٩٧ ـ ٩٨].

حشدَ الملأُ من القوم الناسَ ضد إبراهيم، وهيَّجوهم عليه، وقالوا لهم: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾.

﴿حَرِّقُوهُ﴾: حرِّقوه بالنار، لأنه حطم الأصنام.

«حرِّقوه أو اقتلوه» إما القتل، وإما الإحراقُ بالنار. وعلى هذا ورد قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [العنكبوت: ٢٤].

وضعوا خيارَيْن: إمّا قتلُه وإما إحراقُه بالنار، كما تشير آية سورة العنكبوت. ثم استقروا على إِحراقِهِ، وألغوا التفكيرِ بقتله، كما تشيرُ آيةُ سورة الأنبياء، وآية سورة الصافات.

أمرَ الملأُ من قومه الناسَ بنصرة آلهتهم التي حطمَها إبراهيم: ﴿وَانصُرُوا ءَالِهَتَكُمْ﴾.

وهذا كلامٌ سخيف مضحك، فما هي هذه الآلهةُ الضعيفة العاجزة، التي عجزتْ عن الدفاعِ عن نفسها أمام يمينِ إبراهيم القوية؟ ما هي هذه الآلهةُ التي تمكِّن إبراهيمُ الإِنسانُ المخلوقُ من تحطيمها وتكسيرها؟ ولو كانت آلهةً فعلاً فهل يقدرُ إبراهيمُ عليها؟

وما هي هذه الآلهةُ العاجزةُ التي تحتاج إلى نصرةِ عابديها؟ التي تنتظرُ من عابديها أن يُدافعوا عنها، وأن يَردوا العدوانَ عنها، وأنْ يحرقوا الإِنسانَ الذي تغلبَ عليها؟ هل هذه آلهة؟

هل فكّروا بعقولهم لما قالوا: ﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾؟ لا، ولو فكروا لما قالوا هذا الكلام السخيف المضحك.

ألقوا إبراهيم في جحيمهم:

وحتى يكونَ إحراقُه بالنار مؤثراً، فلا بدَّ أن يُبنىٰ له بناءٌ خاص، وأن يمتلىءَ ناراً، ثم يُلقى فيه، وهم فوقه على حافةِ البناء، يتفرجون عليه: ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾.

والجحيمُ الذي أعدّوه له هو النارُ المشتعلةُ في ذلك البنيان، وهو مشتقٌّ من «الجَحْم».

قال الإمام الراغب: الجَحْمُ: شدةُ تأجُّجِ النار. ومنه الجحيم. وجَحُمَ وجَهُه من شدة الغضب، استعارة من جحْمَة النار، وذلك من ثورانِ حرارةِ القلب»[1].

لكن أين جحيمُهم الذي أعدوه، ليحرقوا به إبراهيمَ عليه السلام خليلَ الله، من الجحيمِ الذي أعدّه الله لهم ليعذبَهم بناره الموقَدَة يوم القيامة؟.

لقد سلبَ الله نارَهم وجحيمهم خاصيةَ الإحراق، ونارُهم إلى انطفاءٍ وانتهاء وزوال، أما نارُ الله الموقدة، فلا تنطفئ ولا تنتهي ولا تزول!.

ولما اشتعلت النارُ في بنيانهم وجحيمهم، أخذوا إبراهيمَ عليه السلام، وألْقوه فيها!

كيف ألقوه فيها؟ وما هي الأداةُ والوسيلةُ التي استعملوها في ذلك؟ لا ندري لعدمِ وجودِ حديثٍ صحيح عن رسول الله ﷺ.

ولم يكن مع إبراهيم عليه السلام أحدٌ من البشر، لينصرَه ويساعدَه

---

(١) المفردات: ١٨٧.

ويدفعَ عنه، ولكنَّ الله كان معه، ناصراً ومؤيداً ومعيناً. ولم يستنجدْ إبراهيمُ عليه السلام بأحد من البشر، ولم يتوسَّلْ إلى الظالمين من قومه، ولم يتخلَّ عن الحق الذي معه.

لقد لجأَ إلى الله وحده، لأنه يعلمُ أنه القويُّ القادر القاهر، فدعاه واستنجدَ به، وفوَّضَ أمره إليه، وتوكلَّ عليه.

كلامه وسط النار وتعاطف الدواب معه:

روى الإمامُ البخاريُّ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم حين أُلقيَ في النار، وقالها محمد، حين قيل له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[1].

قولُ إبراهيم عليه السلام حين أُلقيَ في النار: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ هو قمَّةُ الإيمان واليقين والتوكل والتوحيد، وهذا هو الإيمانُ بالله، الإيمانُ الإيجابي الذي يوجِّهُ حركةَ المؤمن، وهذه هي العقيدة في الله، العقيدةُ التي تؤثرُ في حياة صاحبها.

وهذا الموقفُ الإيمانيُّ العظيم لإبراهيم عليه السلام، مَعْلَم بارز من معالمِ العقيدة والدعوة، وكلُّ مؤمن داعية يواجهُ قوى الباطل والظلم، ويقعُ عليه ضررهم وأذاهم، مطالبٌ بأن يقتديَ بإبراهيم عليه السلام في ذلك، ويُخلصَ توكلَه على الله، واستسلامَه له، ويقينَه به، وتفويضَ أمره كله إليه، وأن يعيش دائماً معاني وحقائقَ وآثارَ ونتائج قوله: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

وكان الله مع إبراهيم، فألقىٰ في قلوب الدواب والحيوانات الشفقةَ على إبراهيم، حين خلتْ قلوبُ البشر الظالمين منها، وحاولتْ هذه الدوابُّ إطفاءَ النار، إلا «الوَزَغ» الذي كان ينفخ عليها ليزيدَها اشتعالاً!!

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٥٦٣. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٧٩.

روى البخاري ومسلم عن أُمِّ شريك رضي الله عنها قالت: أمر رسولُ الله ﷺ بقتْل الوَزَغ، وقال: كان ينفخُ على إبراهيمَ عليه السلام»[1].

وروى ابن ماجه وأحمد عن عائشةَ رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ إبراهيمَ لما أُلقيَ في النار، لم يكن في الأرض دابةٌ إلا أطفأت النارَ عنه، غيرَ الوَزغ فإنها كانتْ تنفخُ عليه»[2].

والوَزَغُ دابةٌ ممسوخة، يسمى باسم «سَامْ أَبْرَص» وهو يعيشُ على الجدران والسقوف والشقوق، وحجمه أصغرُ من «الحَرْذون»، ويُسمى في بلاد الشام «أبو بريص».

الله مع إبراهيم والنار برد وسلام عليه:

وكان الله مع إبراهيم عليه السلام، فأحدثَ معجزةً باهرة، فتلك النارُ المتأججةُ كانت كفيلةً بإحراقِ كل شيء، بل صهرِ الحديد، ولكن الله سلبها خاصيةَ الإِحراق، وجعلها مجردَ نارٍ شكلية خارجية ظاهرية، لكنها لا تحرق.

فلما أُلقيَ إبراهيمُ في النار، أمرها الله قائلاً: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾. ونَفَّذت النارُ المطبقةُ أمْرَ ربها، فكانت برداً وسلاماً على إبراهيم، وكان إبراهيمُ وسطها منعَّماً سعيداً سالماً راضياً، لم يمسه سوء، ولم يصبْه أذى.

جمعت النارُ أمرينْ طيبيْن متلازمين: البرد والسلامة. ولو لم يقل الله لها كوني سلاماً عليه، لكانت عليه بَرْداً فقط. وعندها يُخشى أنْ يؤذيه بردُها، والله لا يريدُ أن يؤذيَه بردُها، بل يريدُ أن يكون بردُها

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٠٧. ومسلم برقم: ٢٢٣٧. وانظر الأحاديث الصحيحة. حديث رقم: ٨٠.

(٢) أخرجه ابن ماجه برقم: ٣٢٣١. وأحمد في المسند ٦: ٨٣. وانظر الأحاديث الصحيحة. حديث رقم: ٨١.

منعشاً ساراً لطيفاً، وأنْ يحقِّق لإبراهيمَ السلامة.

ولما منَّ الله على إبراهيم بفضله، وفتحَ له من رحمته، حَوَّل الضيقَ والكربَ إلى فرج وسعادة، حَوَّل النارَ الحارقة إلى برد وسلام، وفي ذلك يقول الله: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [فاطر: ٢].

لقد فتحَ الله على خليله إبراهيم وهو وسطَ النار المشتعلة باباً من رحمته، فوصلَتْه الرحمةُ الربانية، وحَوَّلت النارَ إلى برد وسلام عليه، وهل يستطيعُ الكافرون الظالمون إمساكَ تلك الرحمة وإيقافَها عن إبراهيم؟ مَنْ رحمةُ الله فلا يوقفُ تلك الرحمةَ أحد!

أَرادوا إحراقَه فأخفقوا، وأَرادوا إذلالَه فذُلّوا وغُلبوا، وخرجَ إبراهيمُ من النار سليماً مُعافى، وأَنجاه الله منها، بفضْلِ توكُّله عليه، وتفويضِ أمره إليه.

انتصر إبراهيمُ وربح وفاز، وهُزم الكفارُ وخَسروا: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠﴾.

كادوا ضدّه، وتآمَروا عليه، ولكنَّ الله معه، ولهذا أخفقوا وخسروا، ولم يكونوا خاسرين فقط، بل كانوا أَخسرين، والأَخسرُ أشدُّ خسارةً من الخاسر.

توجيه آيتي الأنبياء والصافات:

أخبرتْ آيتان عن إخفاقِهم وهزيمتهم وخسارتهم، مع اختلافِ في التعبير.

قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠﴾، وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ۝٩٨﴾.

فلماذا هذا الاختلافُ في التعبير؟ لماذا قال: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾، في سورة الأنبياء.

وقال: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ في سورة الصافات؟.

إن السياقَ هو الذي يحددُ الكلمةَ التي تتفقُ معه، وهو سرُّ هذا الاختلاف في التعبير.

في سورة الأنبياء قال القوم الكفار: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ﴾، فقد أرادوا نصْرَ آلهتِهم بإحراقه، ولكن الله نصر نبيه وخذلَ أعداءه، وأبطل كيدهم.

ما الذي يقابلُ النصر؟ إنه الهزيمةُ والخسارة، لقد أرادوا نصْرَ آلهتهم فهزمهم الله، وأرادوا الفوزَ والربح، فأوقعَ اللَّهُ بهم الخسارة.

كلمةُ ﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ﴾، تناسبها كلمةُ ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾.

«أما في سورة الصافات» فقد قال الكفار: ﴿قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾، حيث أَلقوه إلقاءً من أعلى إلى أَسفل، وطرحوه في الجحيم وسط البنيان، وكانوا هم على شفا البنيان، يتفرجونَ على إبراهيم، وكان إبراهيمُ أسفل منهم ـ من حيث المكان ـ ففي الاعتبارِ المادي كانوا هم أعلى يتفرجون، وكان إبراهيمُ أسفلَ منهم في الجحيم.

ولهذا ناسب أن تُسجِّلَ النتيجةَ الكلمةُ المقابلةُ للعلو والارتفاع المادي، ولهذا قالت: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾، فهم الأسفلون في المنزلة، وإن كانوا الأعلى في المكان، وإبراهيم هو الأعلى مكانة، وإن كان أسفلَ منهم في المكان!!!.

[١٤]

إبراهيم يتبرأ من قومه ويفارقهم

وصلت العلاقةُ بين إبراهيمَ عليه السلام وبين قومه إلى طريقٍ مسدود، ولم يعد هناك مجالٌ لإصلاحها. فإبراهيمُ رسولٌ داعية، قدمَ لهم الحق، ولكنهم رفضوا دعوتَه، وأصروا على كفرهم، وحاكموه بسبب تحطيمه أصنامهم، وحرقوه بالنار لولا أنَّ اللَّهَ أنجاه منها.

إبراهيم يتبرأ من قومه ويعتزلهم:

أمامَ إصرارِ القوم على كفرهم، لم يكن أمامَ إبراهيمَ عليه السلام إلا أنْ يتبرأَ منهم، وأن يفاصلَهم، وأن يُظهرَ لهم عداوتَه وبغضاءَه، مع أنهم أهله وأقاربُه وقومه، وفيهم أبوه أقربُ الناسِ إليه.

وقد سجلتْ آياتُ القرآن هذا الموقف الإِيمانيَّ العظيم له، وأثنتْ على ما قام به من البراءة والمفاصلة، ودعت الآياتُ المؤمنين إلى الاقتداءِ والاتِّساءِ بإبراهيم عليه السلام.

من هذه الآيات قولُ الله: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: ٤٦ ـ ٤٩].

أمامَ تهديدِ أبيه له، وإيذاءِ قومه له، أعلنَ إبراهيمُ لهم مفارقته واعتزالَه إياهم، لقد اعتزلَهم بعدما قدم لهم الدعوة، وأقامَ عليهم الحجة، وحرصَ على هدايتِهم وإنقاذهم، ولكنهم لم يستجيبوا له، فماذا يمكنُ أن يفعلَ لهم؟ لم يعد لبقائِه بينهم ووجودِه معهم من فائدة، إذن فلْيعتزلْهم ويتركْهم، ويهاجرْ إلى بلادٍ أخرى، يقوم فيها بواجبِ الدعوة إلى الله!

ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨].

إنها البراءةُ الإِيمانيةُ من الكفر والكفار، يعلنُها إبراهيمُ عليه السلام عالية واضحة، ويخاطبُ أباه وقومَه خطاباً صريحاً محدداً.

يقول لهم: إنني بَراءٌ منكم، وبَراءٌ مما تعبدون من دون الله، براءٌ منكم براءةً فاصلة حاسمة، إنني أفاصلكم، وأتبرأُ منكم، وأقطعُ كلَّ

صلة لي بكم، مع أنكم أقاربي وقومي، لكن لم تعدْ تربطني بكم رابطة، ولم تصِلْني بكم صلة، لأنني على الإِيمان، وأنتم على الكفر، واختلافُ الدين يوجد المفاصلةَ والبراءةَ التامة، بحيث لم تعد تنفع معه صلةٌ أو قرابة أو مصلحة.

إبراهيمُ عليه السلام بهذه البراءة والمفاصلة، يريدُ أن يقررَ مَعْلَماً هاماً، من معالمِ العقيدة ومعالم الدعوة ومعالم الطريق، ويريدُ أنْ يرسيَ هذا الأساس، ويقدمَ هذه الحقيقة، ويتركَها كلمةً باقيةً لعَقِبهِ وذريته الذين يأتون من بعده: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

جعلَ إبراهيمُ هذه الحقيقة الإِيمانية الدعوية كلمةً باقية في عَقِبِه وذريته، مستمرةً في حياتهم، واضحةً في تصورهم، وعندما يواجهون القومَ الكافرين يَرجعون إِلى أَبيهم إبراهيم، يقتدون ويأتسون به في هذه البراءةِ الإِيمانية، ويتعلّمونها منه.

وتبقى هذه الحقيقةُ الإِيمانيةُ باقيةً في عَقِبِ إبراهيمَ والمؤمنين حتى قيام الساعة، يَرجعون إليها ويستفيدون منها.

دعوة المؤمنين للاقتداء بإبراهيم في هذا الموقف:

ودعانا اللّهُ إلى الاقتداءِ والاتساءِ بإبراهيم عليه السلام وأَتباعه المؤمنين في براءتهم ومفاصلتهم لقومهم الكافرين.

قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾ [الممتحنة: ٤ ـ ٦].

لقد جاءتْ هذه الآياتُ من سورةِ الممتحنة، تعقيباً على حادثةِ

الصحابي «حاطِبِ بنِ أَبي بَلْتَعة» رضي الله عنه، في كتابه الذي كتبه إلى أقاربه في مكة، يخبرُهم فيه بتوجُّه الرسولِ ﷺ إلى مكة ليفتحها، وذلك لينجوا بأنفسهم. وقد شعر «حاطب» بخطئِه، وتابَ إلى ربه، فعفا عنه رسولُ الله ﷺ.

لقد كان «الولاءُ والبراء» واضحاً في تصوُّرِ حاطبِ بن أبي بلتعة، رضي الله عنه، كما كان واضحاً في تصَوُّر باقي الصحابة. ولم يكن فعلُه موالاةً منه لأقاربه الكفار في مكة، وإنما محاولةً لتقديمِ خدمةٍ لهم، مع براءته منهم لكفرهم.

ومع ذلك لامَهُ الرسولُ ﷺ، وأنزلَ اللَّهُ آياتٍ من سورة الممتحنة، تعقِّبُ تلك الآياتُ على فعل «حاطب»، وترسِّخُ مفهوم «الولاء والبراء» في تصوُّر المسلمين، وتستشهدُ بموقفِ إبراهيم عليه السلام وأَتْباعه المؤمنين، وبراءتِهم من أقاربهم الكافرين، وتدعو المسلمين إلى الاقتداءِ بهم في ذلك.

تقولُ الآياتُ للمسلمين: يجبُ أن تكونَ لكم أسوةٌ حسنة وقدوةٌ طيبة، في موقفِ إبراهيمَ والذين معه من المؤمنين، حيث أعلنوا فيه براءتهم من قومهم الكافرين.

قال إبراهيم وأَتْباعُه لقومهم: إنّا بُرَءاءُ منكم، وبُرَءاءُ مما تعبدون من دون الله. لقد كفرنا بكم، وكفرْنا بكل ما تعبدون من دون الله لأننا على الحق، وأنتم على الباطل، ولم يعد هناك لقاءٌ أو ارتباط بيننا وبينكم.

ورغم أنكم قومُنا وأقاربُنا من حيث النَّسَب، إلا أننا بعيدون عنكم، وأنتم بعيدون عنا، لاختلاف الدين.

لقد ظهرتْ بسبب ذلك بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاء، إننا الآن نُعاديكم لكفركم، وأنتم تعادوننا لإِيماننا، وإننا الآن نبغضكم لكفركم وأنتم تبغضوننا لإِيماننا، فها هي العداوةُ والبغضاءُ واضحةٌ بارزةٌ الآن بيننا وبينكم.

وستبقى البراءةُ قائمة، وتبقى المفاصلةُ مستمرة، وتبقى العداوة والبغضاء، لا تنتهي ولا تتوقفُ ولا تزول، ستبقى هكذا إلى الأبد.

تزولُ العداوة والبغضاء فقط في حالةٍ واحدة، هي أَن تتخلَّوا أنتم عن الباطلِ والكفر وعبادة الأصنام، وتؤمنوا بالله وحدَه، وتعبدوا اللَّهَ وحده، وتُخلصوا لله وحده، وتدخلوا معنا في ديننا.

إنْ فعلتُم ذلك أصبحتم إخوةً لنا، وحلَّت المحبةُ والمودة بيننا وبينكم محلَّ العداوة والبغضاء، وعَمَّقْنا معكم الولاء، بدلَ المفاصلة والبراء.

هذا هو الموقفُ الذي يجبُ أنْ يقفَه المسلمون من أقاربهم الكفار، أما موقفُ إبراهيم من أبيه، ووعْدُه له أن يستغفر له، فلا يقتدوا به فيه، لأن له ملابساتٍ وظروفاً خاصة، وقد نصَّت الآيةُ على ذلك، مستثنية له: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾.

وهذا الإِجمالُ هنا مفصَّلٌ نوعاً ما في سورة التوبة. قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٣ ـ ١١٤].

وقد تكلَّمْنا عن هذه الآياتِ من قبل، عندما بيّنّا موقفَ إبراهيم عليه السلام من أبية.

وسجلتْ آياتُ سورة الممتحنة دعاءَ إبراهيم والمؤمنين الذين معه، وذلك في قولهم: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾.

المفاصلة والبراءة بعد الدعوة والبلاغ:

ونحبّ أنْ نذكُرَ أنَّ إبراهيمَ ومَن معه من المؤمنين قد فاصَلوا

قومَهم الكفارَ وتبرؤوا منهم، بعد أنْ قاموا بواجبهم نحوهم، ودعَوْهم وذكَّروهم ونصحوهم، وخاطَبوهم بالحكمة والتعقل،، وقدموا لهم الحججَ والبراهين، وأقاموا عليهم الحجة. ولكن قومَهم رفضوا ما معهم من الحق، وأصرّوا على كفرهم وضلالهم. فماذا يفعلُ المؤمنون أمام هذا العناد؟ لم يبقَ لهم إلا البراءةُ والمفاصلة.

لقد أقامَ إبراهيمُ عليه السلام الحجةَ على قومه، أكثرَ من مرة، عندما أبطلَ كونَ الكواكب آلهةً لغيابِها وأفولها، وعندما أبطَل كونَ التماثيل آلهة، بعدما حطَّمها وكسَّرها.

إن إبراهيمَ عليه السلام مجادلٌ ومناقشٌ ومحاججٌ من الدرجة الأولى، ولقد وهبه الله أسلوباً ومنطقاً وبرهاناً، ينجحُ فيه في الاستدلال على ما معه من الحق، وتفنيدِ ما عليه خصمُه من الباطل.

على هذا الأساس نفهمُ هذه الآيات من سورة الأنعام، التي جاءت بعد جدالِ إبراهيم لقومه، وإبطالِه كونَ الكواكب آلهة.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٧٨ ـ ٨٣].

حاجَجَه قومُه وحاججهم، وجادلَه قومه وجادلَهم، فأفحمهم ودحضَ كلامَهم، وقال لهم: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ﴾. أي: أنا

على يقين أنني على الحق، وقد هداني ربي للحق، فكيف تحاجّونني في إيماني بالله؟ وكيف تريدون منّي أنْ أتركَ هذا الهدى، وأتبعَ ما أنتم عليه من الضلال!

إبراهيم يقرر قاعدة الأمن والخوف:

ولما رأى قومُه ثباتَه على الحق هدّدوه، وخوّفوه من آلهتهم، فإن أصرَّ على مهاجمتها فستؤذيه وتضرُّه، عندها صارحهم بقوله: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾.

وأخبرهم أن الأمرَ أَمْرُ الله، والقَدَرَ قَدَرُه، فإنْ أرادَ اللَّهُ أن يوقعَ به الأذى والضر عن طريقهم، فسيقعُ ذلك به لا محالة، لأنَّ اللَّهَ أراده، وما هم إلا سبب لذلك: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

وأمامَ تهديدِهم وتخويفهم له، وضع المسألةَ في إطارها الصحيح، مَنْ هو الأولى بالأمن، هل المسلمُ المؤمن بالله، أم الكافرُ المتمردُ على الله؟ ومَنْ هو الأَوْلى بالخوف؟ هل هو المؤمنُ الآمِنُ لإِيمانه بالله، أم هو الكافرُ القلقُ الذي حاربه الله؟

ولهذا قال لهم: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

إنَّ إبراهيمَ عليه السلام يريدُ لهم أنْ يَخافوا، لأنهم أشركوا بالله وكفروا به، ولا يجوزُ أنْ يشعرَ الكافرُ بالأمن. لأنَّ اللَّهَ سيأتيه بالعذابِ في أية لحظة! فهو دائماً فَزِعٌ قلقٌ مضطرب.

أما إبراهيم ومَنْ معه من المؤمنين، أما المؤمنون في كل زمان ومكان، فقد آمنوا بالله، وأخلصوا له، ولم يَخلطوا هذا الإِيمانَ بشركٍ أو كفر، ولذلك كانوا آمنين مطمئنين: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وهذه هي حجةُ إبراهيمَ الفائقةُ عليه السلام، التي علّمه اللّهُ إياها، فتغلّبَ بها على قومه الكافرين: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ . . .

وجّه الله إبراهيم إلى الأرض المقدسة:

بعد كلِّ هذه الأحداث بيْنَ إبراهيم وبينَ قومه في بلاد العراق، لم تبقَ فائدةٌ من بقائه بينهم، لقد قام بواجبه، وقدمَ لهم دعوتَه، ولكنهم رفضوا الحق، ووصلت الأمورُ معهم إلى نقطةِ اللاعودة، عند ذلك وجّهه اللّهُ إلى بلادٍ أخرى، ودعاه إلى مفارقةِ قومه، الذين عاش معهم فترةً من حياته، والهجرةِ إلى مواقعَ جديدة.

فنفَّذَ إبراهيمُ أمْرَ ربه، وفارقَ قومَه، وغادَر بلاد العراق، وهاجرَ إلى بلاد جديدة، إنها الأرضُ المباركة.

وقد سجلتْ آياتُ القرآن هجرةَ إبراهيم عليه السلام، وانتقالَه إلى فلسطين.

منها قوله تعالى: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [العنكبوت: ٢٦].

ومعنى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾: استسلم له لوط، وانقاد له وتبعه، لأن بين «آمن به» و «آمن له» فرقاً.

تقول: آمنتُ بالله. أي اعتقدتُ به، فهو يدلُّ على الاعتقادِ والتصديق.

وتقول: آمنتُ للنبي: أي: استسلمتُ وخضعت وانقدتُ له. فهو يدل على الانقياد والاتباع.

وهذه الجملة ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ تدلُّ على أن لوطاً عليه السلام قد صحبَ وتبعَ إبراهيمَ عليه السلام من العراق، وهاجرَ معه إلى الأرض المقدسة.

وأعلن إبراهيمُ الهجرةَ إلى الأرض المقدسة، وذلك في قوله: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء: ٧١].

تدلُّ الآيةُ على أن اللَّهَ هو الذي أمره هو ولوط بالهجرة إلى الأرض المقدسة، التي باركَ اللَّهُ فيها للعالمين، فنفَّذا أمْرَ الله، وهاجرا إليها.

وبهذه الهجرةِ إلى فلسطين انتهت المرحلةُ الأولى من قصة إبراهيم عليه السلام، لتبدأ المرحلةُ الثانيةُ من قصته، على ثرى وبقاعِ الأرض المقدسة، فلْننتقلْ نحن معه إلى هناك!!!...

[١٥]

المرحلة الثانية

مع إبراهيم عليه السلام في الأرض المقدسة

تبدأُ المرحلةُ الثانية من قصةِ إبراهيمَ عليه السلام، عندما غادر بلاد العراق، وهاجرَ منها بأمر الله، وتوجَّه غرباً نحو الأرض المقدسة، التي باركَ اللَّهُ فيها للعالمين، وكان معه لوطٌ عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

ولعلَّ إبراهيمَ عليه السلام كان أولَ مَنْ هاجرَ في سبيل الله، وفارق أهلَه وقومَه من أجل الله، وغادرَ موطنه إلى موطنٍ آخر، للدعوة إلى الله.

لقد كانت هجرةُ إبراهيم عليه السلام إلى الأرض المباركةِ المقدسة، ومن ذلك اليوم نالتْ ما نالتْ من الفضل والبركة والقداسة، وأصبحتْ تسمّى مُهاجَرَ إبراهيمَ عليه السلام.

وهذه الأرضُ هي فلسطين في المقام الأول، ثم تتوسعُ الدائرةُ لتشملَ بلادَ الشام كلَّها.

الرسول يأمرنا بالهجرة إليها:

وقد حثَّ رسولُنا محمدٌ ﷺ المسلمين على الهجرة إلى بلادِ الشام المباركة المقدسة، والبقاءِ فيها بنيةِ الرباط والجهاد.

روى أبو داود وأحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:

ستكون هجرةٌ بعدَ هجرة، فخيارُ أهلِ الأرض ألزمُهم مُهاجَرَ إبراهيم، ويبقى في الأرض شرارُ أهلِها، تلفظُهم أَرَضوهم، وتقذَرُهم نفسُ الله، وتحشُرهم النارُ مع القردة والخنازير»[1].

إنَّ مُهاجَرَ إبراهيم لها منزلةٌ عظيمة عند الله، منذ أيام إبراهيمَ عليه السلام، حيث أَرسى إبراهيمُ فيها أسس الإِيمان، فبقيت أرضَ الإِيمان والإِسلام حتى قيام الساعة.

ولما فتحها المسلمون زمن صحابة رسول الله ﷺ، رسختْ فيها معالمُ الإِيمان، وبقيتْ أرضَ الجهاد والرباط، وأرضَ الحسم والفصل، وأرضَ الإِسلام والحق، وستستمرُّ على هذا حتى قيام الساعة.

أقامَ إبراهيمُ عليه السلام في أرض فلسطين، وكان معه لوطٌ عليه السلام، وقد وجَّه اللَّهُ لوطاً عليه السلام نبياً إلى القوم الذين كانوا يسكنون شرقَ فلسطين، فأقامَ بينهم يدعوهم إلى الله.

أما إبراهيمُ عليه السلام فقد تنقلَ في بقاع فلسطين، وكان حينما حلَّ وأقامَ يدعو إلى الله عز وجل.

ولم يذكر القرآنُ الكريم تفاصيلَ لحياة إبراهيم في الأرض المباركة، ولا الأماكن والبقاع التي تنقلَ فيها، كما أن الرسولَ ﷺ لم يذكر شيئاً من ذلك.

---

(١) أخرجه أبو داود برقم: ٢٤٨٢. وأحمد ٢:١٩٩. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٨٢.

أما التوراةُ فقد ذكرتْ كثيراً من التفاصيل، وأخبرتْ عن أسماءِ المدن التي انتقلَ إليها وأقام فيها، مثل: شكيم «نابلس» والقدس والخليل «حبرون» وبئر السبع، وغير ذلك.

وقد نقلَ الإِخباريون والمؤرخون كثيراً من هذه التفاصيل، وبما أن التوراةَ قد حُرِّفت وبُدِّلت، فلم تعدْ مصدراً موثوقاً مأموناً، لهذا نتوقفُ في أَخبارها وتفصيلاتها، وبما أن مصادرنا اليقينية الموثوقَة سكتتْ عن تفاصيل قصة إبراهيم عليه السلام في الأرض المباركة المقدسة، فنحن نسكتُ عنها، ولا نخوضُ فيها، ولا نذهبُ إلى التوراة المحرفة وكتبِ التاريخِ والأخبار من أجلها.

وكان مع إبراهيم عليه السلام زوجُه «سارة»، وكانت امرأةً مؤمنة صالحة، كما أنها كانت وضيئةً جميلة، رضي الله عنها.

[١٦]

ذهاب إبراهيم وزوجه إلى مصر

زيارة إبراهيم مصر مع سارة:

أَثناءَ إقامة إبراهيم عليه السلام في الأرض المقدسة ـ فلسطين ـ قامَ بزيارة إلى مصر، لأسبابٍ لم تبيِّنْها النصوص، فلا نفترضُها، ولا نأخذُها من الإِسرائيليات.

وبما أنه رسولٌ داعية فكلُّ خطواته وحركاته للدعوة، ولتبليغ الرسالة للناس، فلماذا لا تصنَّفُ زيارته لمصر ضمنَ هذا الهدف الدعوي؟

لم يذكر القرآنُ شيئاً عن توجُّهِ إبراهيم عليه السلام إلى مصر، فما جرى له في هذه الزيارة مذكورٌ في حديثٍ صحيح عن رسول الله ﷺ، وقد سبق أنْ أوردْناه عند وقفتنا مع قولِ إبراهيم لقومه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

ونعيده هنا لارتباطه المباشر مع هذه المسألة.

روى البخاريُّ ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لم يكذبْ إبراهيمُ إلا ثلاثَ كذبات. ثنتيْن منهنَّ في ذاتِ الله: قولُه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقولُه ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾.

وبينما هو ذاتَ يومٍ وسارة، إذْ أتى على جبارٍ من الجبابرة، فقيل له: إنَّ هاهنا رجلًا، معَه امرأةٌ من أحسنِ الناس. فأرسلَ إليه، فسأله عنها، وقال: مَنْ هذه؟ قال: أُختي!

فأتى سارة، فقال: يا سارة، ليس على وجْهِ الأرض مؤمنٌ غيري وغيرك. وإنَّ هذا سألني، فأخبرْتُه أنك أختي، فلا تُكَذّبيني.

فأرسل إليها، فلما دخلتْ عليه، ذهبَ يتناولُها بيده، فأُخِذ!

فقال: اذعي اللَّهَ لي، ولا أضرُّك. فدعت الله، فأُطْلِق!

ثم تناولَها ثانية، فأُخِذَ مثلَها، أو أشدّ. فقال: ادْعي اللَّهَ لي، ولا أضرُّك، فدعتْ، فأُطْلق.

فدعا بعضَ حجبته، فقال: إنك لم تأتِني بإنسان، إنما أتَيْتَني بشيطان. فأَخْدَمها هاجر!

فأتَته وهو قائم يصلّي، فأومأَ بيده: مَهْيا؟

قالت: ردَّ اللَّهُ كيدَ الفاجر في نحره، وأَخْدَمَ هاجر.

قال أبو هريرة: فتلكَ أُمُّكم يا بني ماءِ السماء..»[1].

هذا الحديثُ الذي رواه البخاريُّ ومسلم وغيرهما، يذكر هذه الحادثةَ العجيبة التي جرتْ لإِبراهيمَ عليه السلام وزوجِه، عندما توجَّها إلى مصر، والكرامةَ التي أكرمَ اللَّهُ بها سارة، وعصمها من ذلك الملكِ الجبار الفاجر.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٢١٧، ومسلم برقم: ٢٣٧١. وانظر الأحاديث الصحيحة. حديث رقم: ٨٦.

الذمة والصهر والرحم لأهل مصر:

والذي يدلُّ على أن هذه الحادثةَ جرتْ لإِبراهيم وهو في مصر، وأن الملك الجبار الفاجر هو ملكُ مصر، حديثٌ آخر ينصُّ على أنَّ «هاجَر» مصرية.

فقد روى مسلمٌ وغيرُه عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنكم ستفتحون مصر، وهي أرضٌ يُسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأَحْسِنوا إلى أهلها، فإنَّ لهم ذمَّةٍ ورَحِماً ـ أو قال: ذِمَّةً وصِهراً ـ فإذا رأيتَ رجلين يختصمان فيها في موضعِ لَبِنَة، فاخرجَ منها!

قال أبو ذر: فرأيتُ عبدَ الرحمٰن بن شرحبيل بن حسنة وأخاه رَبيعة يختصمان في موضع لبنة، فخرجْتُ منها..»[1].

فهذا الحديثُ ينصُّ على أنَّ لأهلِ مصر ذمة ورحماً وصهراً للعرب، قال العلماء: القيراط: جزءٌ من أجزاءِ الدينار أو الدرهم، وأهلُ مصر يكثرون من استعماله والتكلم به.

والذمة: الحرمةُ والحق.

والرَّحِم: لكونِ هاجر أمّ إِسماعيل منهم، فأَهلُ مصر هم أخوالٌ لأهل مكة والحجاز.

والصِّهر: لأنَّ أهلَ مصر صاهَروا رسولَ الله ﷺ، لأنَّ حاكمَ مصر المقَوْقِس أهداه «مارية» القبطية، أمَّ ابنِه إبراهيم الذي ماتَ وهو صغير.

إن ملكَ مصرَ أهدى «هاجرَ» لإبراهيم، فأنجبتْ منه إسماعيل عليه السلام.

وإن حاكم مصر فيما بعد أهدى محمد ﷺ «مارية»، فأنجبت له ابنه إبراهيم.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٥٤٣. وانظر الأحاديث الصحيحة. حديث رقم: ٩٥.

ولهذا كان الرسولُ ﷺ يوصي الصحابةَ بالمصريين خيراً، ويَدْعوهم إلى مراعاةِ ذمَّتهم ورَحِمهم ومصاهرتهم.

من دلالات الحديث حول الزيارة:

وعندما ننظرُ في الحديث الذي سجلَ قصةَ إبراهيم وسارة مع ملك مصر، فإننا نخرجُ منه ببعض النتائج والفوائد:

ـ اسمُ زوجِ إبراهيم عليه السلام، هو سارة، كما وردَ مصرحاً به في الحديث.

ـ كانت سارةُ رضي الله عنها من أحسنِ النساء وأجملهن.

ـ كان ذلك الملكُ جباراً من الجبابرة، وكان فاجراً شهوانياً، وكان مرتكباً للفاحشة، ملاحِقاً للنساء.

ـ كانت له حاشيةٌ أو عصابة، مهمتُها البحثُ عن النساء الجميلات، وإحضارُهن إليه طوعاً أو كرهاً، ليفجُرَ بهنّ.

وتحويلُ مهمةِ الملك ليكون «زيرَ نساء» وصاحبَ شهوات وفجور، وفجورُه بنساء دولته بدلَ حمايتِه لهن، وتحويلُ رجاله وحاشيته ليكونوا «صائدي نساء»، هذا من سماتِ الأنظمةِ الجاهلية في كل زمان ومكان!

ـ أمرَ اللّهُ إبراهيم ليقولَ عن سارة إنها أُختي، ليأخذَها الملك، وهناك يقدِّمُ اللّهُ لذلك الملك آيةً ومعجزة، وليحقَّ قدرُه سبحانه، فيعصمَ سارةَ من فجوره، وتأخذَ هاجرَ معها.

توجيه قول إبراهيم عنها إنها أختي:

ـ كيف قالَ إبراهيمُ عن زوجه سارة إنها أختُه؟

لقد أوردَ الحديثُ هذا، وسجله كذبةً على إبراهيم، حيث قال: لم يكذبْ إبراهيمُ إلا ثلاثَ كذبات.

وقد وجَّهنا فيما مضى قولَه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾. وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وبيّنا أنه لم يَكذبْ فيهما، وإنما استعملَ «المعاريض»، والمعاريضُ تُشابهُ الكذبَ في الظاهر، وتخالفُه في الحقيقة.

وكلامُه هنا لا يخرجُ عن «المعاريض».

قال عن سارة إنها أُخته، وأرادَ الأُخُوَّة في الدين، فهو مسلم، وهي مسلمة، والإسلامُ جمعَ بينهما في أخوةٍ إيمانية، وإن كانا زوجين.

ولما سمعَها حاشيةُ الملك الفاجر منه، حملوها على الأخوةِ النَّسبية، وفهموا أنها أخته نَسَباً، وليستْ زوجةً له ولهذا قدَّموها إلى الملك.

ولقد كانَ إبراهيمُ صادقاً، عندما قال: إنها أُخته، وأرادَ بذلك الأخوةَ الإِيمانية.

وقد وضَّحَ إبراهيمُ عليه السلام هذا لسارة، وذلك في قولِه لها: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمنٌ غيري وغيرك.

ولأنَّ الحاشيَة فهموا من كلامه الأخوةَ في النسب، اعتُبر كلامُه كذباً ظاهرياً، لأنه شابَهَ الكذب في الظاهر، لكنه صدقٌ في الحقيقة!.

كيف رضي إبراهيم بتسليمها للملك؟:

ـ كيف رضيَ إبراهيمُ أنْ يسلِّمَ امرأتَه إلى الملك الفاجر، وهو يعلمُ ما ينتظرها هناك؟ ولماذا لم يقاتلْهم دفاعاً عن عِرْضه؟

إن إبراهيمَ عليه السلام نبي، وإن اللَّهَ هو الذي يوحي إليه ويوجِّهه، فاللَّهُ هو الذي أَمره بإرسالها وتسليمها، وعليه أنْ يطمئنَّ ولا يقلق، فستكونُ عند الملك في رعايةِ الله وحفظه، ولن ينالَ الملكُ منها شيئاً. وكان إبراهيمُ واثقاً بوعد الله، مسلِّماً أمْرَه إليه.

ـ لقد عصمَ الله سارةَ من فجور الملك، وقدّمَ لها كرامةً بارزة، وقدّمَ لذلك الفاجرِ الجبارِ آيةً على قوه اللَّهِ وقدرته، وعلى عجزِ ذلك

الجبار! فلما مدَّ يده لها أولَ مرة، قبضَها الله وعطَّلَها، فعجز الملكُ عن تحريكها أو التحكم فيها، فتعجَّب واستغربَ لأنها أولُ مرة تحصلُ معه.

طلبَ من سارة أن تدعوَ ربَّها ليطلقَ يدَه، ولن يؤذيها، ولما فعلتْ ذلكَ عاوَد الملكُ الكرةَ مرةً ثانية، ثم مرة ثالثة.

عند ذلك علم الملكُ أنه ممنوعٌ من الوصول إليها، وأيقنَ بعجزهِ عن مَسِّها، وأنَّ هناك قوةً أخرى تحفظُها وتعصمها وتحميها منه، وهذا هو المرادُ من الحادثة، وهذه هي الحكمة.

ـ أرادَ الملك إكرامَ هذه المرأة المحفوظة العفيفة، فقدّمَ لها إِحدى النساء لتكونَ خادمةً لها، وجاريةً عندها، وهي هاجر، وأعادها إلى إبراهيمَ معزَّزةً مكرَّمة، عفيفةً مصونة.

ـ كان إبراهيمُ عليه السلام أثناء غيابِ امرأته عند الملك ملتجئاً إلى الله، يصلّي له، ويدعوه، ويستنصرُه، ويطلبُ منه حفظَ وعصمة امرأته، وعادتْ إليه سارةُ وهو يصلي.

وهذه هي مهمةُ الصلاة الإِيجابية، وهكذا كان هديُ محمدٍ ﷺ، حيث كان إذا حَزَبَه أمر، أو وقعَ في ضيق، يفزعُ إلى الصلاة!

ـ إبراهيمُ عليه السلام فرحَ بعودةِ سارة، وهو متلهِّفٌ متسرِّعٌ ليعرفَ ماذا جرى لها، ولهذا لم ينتظرْ حتى يفرغ من الصلاة، بل أومأَ بيده أثناءَ الصلاة متسائلاً: مَهْيا؟

ومعنى «مهيا»: ما الخبر؟

ولم يتكلم بلسانِه لأنه كان في الصلاة، وإنما كانتْ إشارةُ يده توحي بهذا الاستفهام.

ـ يتجلّى من جواب سارة قوةُ إيمانها بالله، فقد أَسندت الحفظَ والرعايةَ إلى الله، وأعادت الفضلَ إلى مانِحِه سبحانه وتعالى، وذلك في قولها: ردَّ اللّهُ كيدَ الفاجر في نحره، وأَخدمَ هاجر.

ـ لقد قدمَ أبو هريرة راوي الحديث رضي الله عنه على الحادثةِ تعقيباً ذكياً لطيفاً، وذلك في قوله: فتلك أُمُّكم يا بني ماء السماء.

وهو بهذا يخاطبُ الصحابة، ويقولُ لهم: هاجرُ المصريةُ القبطية هي أمكم، لأنَّ إبراهيمَ جعلَها «سَرِيَّتَه» فيما بعد، وأنجبتْ له إسماعيل، وبما أنكم أبناءُ إسماعيل فهاجَرُ أُمُّكم.

ومعنى قوله «يا بني ماء السماء»: أن العربَ في بلادهم يعتمدون على ماءِ السماء ـ وهو المطر ـ في الزراعة والكلأ والعشب والرعي، ولذلك كأنهم صاروا أبناءَ المطر ماء السماء!.

هذه بعضُ الفرائدِ والدلالاتِ السريعة التي نخرجُ بها من هذا الحديث الصحيح.

[١٧]

إسماعيل ابن إبراهيم البكر

عادَ إبراهيمُ عليه السلام وزوجُه سارة من مصر إلى فلسطين، وأقام فيها، ومع سارة جاريتُها «هاجر».

وكانت سارةُ لا تُنجبُ ولا تَلد، وقد تقدَّمَ العمرُ بإبراهيم عليه السلام، وليس له أولاد.

ولاحظتْ سارةُ هذا، وعزَّ عليها أن لا يكون لزوجها أولاد، وبما أنها عقيم، فلماذا لا تهديه وتهبُه جاريتَها هاجر، لتكونَ جاريةً له، يتسَرّى بها، ويعاشرها، لعلَّها تحملُ منه؟

قدمت سارةُ جاريتَها هاجر هديةً إلى إبراهيم، ووهبتْها له، فأصبحتْ ملكَ يمينه، يتصرفُ فيها كما يشاء، يتسرّى بها ويعاشرها ـ وهكذا كان نظامُ الجواري والإِماء، وهو غيرُ موجودٍ ولا مطبقٍ في هذا الزمان ـ.

عاشرَ إبراهيمُ جاريتَه هاجر، وقدَّرَ اللّهُ أن تحملَ منه، فولدت له

ابنَه البكر، إسماعيل. الذي جعلَه اللَّهُ نبياً.

دلالة القرآن على أن إسماعيل هو البكر:

فإسماعيلُ هو المولودُ الأولُ البكر لإبراهيم، وأُمُّه هي هاجر.

وبعد ذلك رزقَ اللَّهُ إبراهيم ابنَه الثاني إسحاق عليه السلام.

وقد رزقه اللَّهُ بابنيْه بعدما كبر وصار شيخاً. ولهذا توجَّهَ إلى الله حامداً وشاكراً على هذه النعمة الربانية. قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم: ٣٩].

ومن الأدلةِ القرآنية على أنَّ إسماعيلَ وُلد قبل إسحاق آياتُ سورة الصافات. حيث سجلتْ دعاءَ إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات: ١٠٠].

فبينتْ أَنَّ اللَّهَ وهبه غلاماً حليماً: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات: ١٠١]. ثم ذكرتْ قصةَ رؤيا إبراهيم بذبحِ هذا الغلام الحليم، وكيف فداه الله بعد ذلك بذبح عظيم.

ثم قالت الآيات بعد ذلك: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات: ١١٢].

فهذا السياقُ في الآيات يدلُّ على أن الغلامَ الحليم الذي وُلد لإبراهيم أولاً هو إسماعيل، وهو الذبيح، لأن الكلامَ عن إسحاق جاء بعد ذلك. وسنعودُ لهذه المسألة عند كلامنا على الذبيح منهما إن شاء الله.

و «إسماعيل»: اسمُ علم أعجمي غيرُ عربي، فهو ممنوعٌ من الصرف للعلمية والعجمة. ولذلكَ لا نبحثُ له عن اشتقاق في العربية.

ونقفُ فيما يلي وقفةً سريعة مع حديثِ القرآن عن إسماعيل، ومواضعِ ذكره في كتاب الله.

مواضع ذكر إسماعيل في القرآن:

وردتْ كلمةُ إسماعيل في القرآن اثنتي عشرة مرة، في ثمان سور، هي: سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والأنعام، إبراهيم، والأنبياء، وصّ، ومريم.

ومعظمُ المرات التي ذُكر فيها، كان يُذكر فيها اسمُه فقط. ضمن ذكرِ أسماءِ مجموعة من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، جعلهم الله من ذريةِ إبراهيم عليه السلام: إسحاق ويعقوب، وداود وسليمان، وأيوب ويوسف، وموسى وهارون، وزكريا ويحيى، وعيسى وإلياس، وإسماعيل واليسع، ويونس ولوطاً، ومن قبلهم نوح، عليهم الصلاة والسلام. والمذكورون في هذه الآيات ثمانية عشر نبياً.

وفي سورة إبراهيم وردَ اسمُه مرةً في آية (٣٩)، التي تثبتُ شكرَ وحمدَ إبراهيم لربه، لأنه وهبه على الكبر إسماعيل وإسحاق، عليهم الصلاة والسلام.

وفي سورة مريم وردَ اسمه مرة، حيث أشادَ اللَّهُ به وأثنى عليه، لأنه كان صادق الوعد، وكان رسولاً نبياً، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة، وكان مرضياً عند الله.

قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: ٥٤ ـ ٥٥].

وفي سورة الأنبياء، وردَ اسمُه في آية (٨٥) مقروناً مع إدريس وذي الكفل. قال تعالى: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء: ٨٥ ـ ٨٦].

وفي سورة صّ وردَ اسمُه مع اليسع وذي الكفل، قال تعالى:

﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ۝٤٨﴾ [ص: ٤٨].

ومجموعُ الصفات التي وصفَ اللَّهُ بها إسماعيلَ عليه الصلاة والسلام في القرآن، والمقرونة باسمه المذكور صريحاً في الآيات هي: هو رسولٌ نبي، وهو صادقُ الوعد، وكان يأمرُ أهلَه بالصلاة والزكاة، وهو مرضيٌّ عند الله، وهو من الصابرين الصالحين المرحومين، كما أنه من الأَخيارِ الذين اختارهم الله واصطفاهم، عليهم الصلاة والسلام.

[١٨]

هاجر وإسماعيل في بلاد الحجاز

إبراهيم يذهب بهما بأمر الله ورفض الإسرائيليات:

بعدما أَنجبتْ هاجرُ إسماعيلَ في فلسطين، أمرَ الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أنْ يأخذَ ابنَه الرضيع وأمَّه من فلسطين إلى بلاد الحجاز، وأنْ يضعهما هناك في وادٍ غيرِ ذي زرع، لأمرٍ يريدُه الله سبحانه.

وإبراهيمُ منفذٌ لأوامر الله، ملتزمٌ بها، لا يخالفُها ولا يخرجُ عليها، كما أنه مستسلمٌ لله، متوكلٌ عليه، واثقٌ به، مفوضٌ أمره إليه.

لم يذهبْ إبراهيمُ بهاجر وإسماعيل إلى بلاد الحجاز تنفيذاً لأوامرِ زوجه سارة رضي الله عنها، كما يقولُ رواةُ الإِسرائيليات، وإنما فعلَ ذلك تنفيذاً لأمرِ الله سبحانه.

لا نقولُ بما تزعمُه الإِسرائيليات والأساطير من أنَّ سارةَ أصبحتْ تغارُ غيرةً شديدة من هاجر، بعدما أنجبت الأخيرةُ الولدَ لإِبراهيم، وأنَّ هاجر كانت تتيهُ عليها بعد أن كانت جاريتَها، فلم تُطقْ سارةُ رؤيةَ هاجر وابنها في البيت، فأمرتْ إبراهيمَ بإبعادِهما عنها، ووضعِهما في مكان بعيد بحيث لا تراهما، فنفذَ إبراهيمُ أمر سارة، وذهبَ بهما إلى الحجاز!!.

لا نقولُ بهذا، لأنه لم يَرِدْ في حديثٍ صحيح مرفوع عن رسول الله ﷺ، ولا نقبلُ في تفاصيل القصصِ القرآني أيَّ كلام لأيٍّ كان، إذا لم يُقدم الدليلَ على ذلك، إمّا من آيةٍ صريحة، أو حديثٍ متصل صحيح.

ثم إنَّ سارةَ أعظمُ إيماناً مما صوَّرها به رواةُ الإسرائيليات، فهي التي قَدمتْ هاجرَ لإبراهيم، وهي التي رجَتْ أن يكونَ له ولد، أما وقد جاءه الولد تريدُ التخلصَ منه والقضاءَ عليه! إنها لو فعلتْ ذلك لكانت ظالمة، وإبراهيمُ لو ذهبَ بهاجر وإسماعيل إلى الحجاز لهذا السبب لكان ظالماً، وحاشا لإبراهيم عليه السلام أنْ يظلم، وزوجُه المؤمنة سارة بريئةٌ من ذلك الظلم!!.

دعاء إبراهيم واستجابة الله له:

توجَّهَ إبراهيمُ عليه السلام بهاجرَ وإسماعيل، ووضَعَهما في بلاد الحجاز، في وادٍ غير ذي زرع، تنفيذاً لأمر الله، ولما غادرهما توجَّه إلى الله، ودعاه دعاءً خاشعاً منيباً.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥ ـ ٣٨].

الراجحُ أنَّ البيتَ الحرام لم يكن قد بُني، عندما وضعَ إبراهيمُ هاجرَ وإسماعيل في تلك البقعة، وأنَّ البلدَ لم يكن قد وجد ـ كما سنبحث هذا فيما بعد إن شاء الله ـ فكيف عرفَ أنه سيكونُ في تلك البقعة بلدٌ وبيت محرَّم لله؟.

لعلَّ الله هو الذي أخبره بما سيكونُ من أمرِ هذه البقعة في المستقبل، وأنها ستكونُ أفضلَ وأشرفَ مكان على وجه الأرض، وعند ذلك دعا الله بهذا الدعاء.

إبراهيمُ عليه السلام يسألُ ربَّه أنْ يجعلَ البلدَ الذي سينشأ في ذلك المكان آمناً، ولن يكون آمناً إلا إذا توجَّه ساكِنوه إلى الله وحده بالعبادة، ولم يعبدوا الأصنام، أما عبادةُ الأصنام فإنها تذهبُ بأمن البلد، وتجعله مضطرباً مهدَّداً، ولهذا قال: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾

هذه الأصنام أضلّتْ كثيراً من الناس، حيث عبدوها من دون الله، وجعلوها آلهة مع الله، أو من دون الله، وبذلك وقعوا في الضلال.

ويكل إبراهيمُ أمر العباد إلى الله، ولذلك يقول: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

ويدعو إبراهيمُ ربَّه الكريم أنْ يحفظَ هاجر وإسماعيل في هذا الوادي القفر: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾...

لقد كان وادياً قفراً، خالياً من الزرع، وخالياً من الماء، وخالياً من الأشجار المثمرة، وخالياً من الناس، ولم تكنْ به مظاهرُ الحياة.

ويطلبُ إبراهيمُ من ربه أنْ يحوِّلَه إلى وادٍ مثمر، فيه ماء، وفيه زرع، وفيه حياة، ويسكنه، أُناس ويقيمون فيه: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾.

واستجابَ الله دعاءَ إبراهيم عليه السلام، فتم بناءُ بيت الله الحرام في ذلك الوادي، وأُقيمتْ هناك مكةُ المكرمة، وسكنها الناس، وظهر الماءُ ونبتَ الزرع في الوادي، وعمَر بالحياة والأحياء، وصارَ البلد آمناً. ورزقَه الله من الثمرات أفضلها وأجودَها على مدار العام.

أما تفاصيلُ وضعِ هاجرَ وإسماعيلَ في ذلك الوادي، فإننا نأخذها من حديثٍ صحيح عن رسول الله ﷺ:

حديث البخاري المطول عن ذلك:

روى البخاريُّ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «أولُ ما اتخذَ النساءُ المَنْطِق[1] من قِبَلِ أُمِّ إسماعيل، اتخذتْ مَنْطِقاً لتعفي أَثرها على سارة!.

ثم جاءَ بها إبراهيم، وبابنها إسماعيل - وهي تُرضعه - حتى وضعَها عند البيت، عند دَوْحَة[2]، فوقَ زمزم، في أعلى المسجد، وليس بمكةَ يومئذ أحد، وليس بها ماء.

وضع هاجر وإسماعيل هناك والبحث عن مغيث:

فوضَعها هناك، ووضعَ عندهما جراباً فيه تمر، وسِقاءً فيه ماء. ثم قفّىٰ إبراهيمُ منطلقاً. فتبعَتْه أُمُّ إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم، أين تذهبُ وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنسيٌّ ولا شيء؟.

فقالت له ذلك مراراً، وجعلَ لا يلتفتُ إليها!.

فقالت له: آللَّهُ أمرك بهذا؟

قال: نعم.

قالت: إذن لا يضيعُنا!!.

ثم رجعَتْ.

فانطلقَ إبراهيم، حتى إذا كان عندَ الثَّنِيَّة، حيث لا يرونَه، استَقبلَ بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفعَ يديه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ۝٣٧﴾.

---

(١) المنطق: الحزام الذي تشد به المرأة ثوبها على وسطها.

(٢) الدوحة: شجرة صحراوية كبيرة.

وجعلتْ أمُّ إسماعيل ترضعُ إسماعيل، وتَشربُ من ذلك الماء. حتى إذا نفدَ ما في السقاء عطشت، وعطشَ ابنُها، وجعلت تنظرُ إليه يتلوى. فانطلقتْ كراهيةَ أنْ تنظرَ إليه، فوجدت الصفا أقربَ جبل في الأرض يليها، فقامَتْ عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر، هل ترى أحداً، فلم ترَ أحداً، فهبطتْ من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي رفعتْ طرفَ درعها، ثم سعتَ سعيَ الإنسانِ المجهود[1]، حتى جاوزت الوادي. ثم أَتت المَرْوة، فقامَتْ عليها، فنظرت: هل ترى أحداً، فلم تَرَ أحداً. ففعلتْ ذلك سبعَ مرات.

قال ابنُ عباس: قال النبي ﷺ: «فذلك سعْيُ الناس بينهما».

فلما أشرفتْ على المروة سمعتْ صوتاً، فقالت: صَهْ[2]، تريدُ نفسَها، ثم تسمَّعَتْ أيضاً، فقالت: قد أسمعْتَ إنْ كان عندك غواث!.

الملك ونبع ماء زمزم ومجيء جرهم:

فإذا هي بالمَلَكِ عند موضعِ زمزم، فبحثَ بعَقِبه[3] ـ أو بجناحه ـ حتى ظهرَ الماء، فجعلتْ تحوطُه بيدها هكذا، وجعلت تَغْرفُ من الماء في سقائها، وهو يغورُ بعدما تغرف!

قال ابنُ عباس: قال النبي ﷺ: يَرحم الله أمَّ إسماعيل، لو تركتْ زمزم ـ أو: لو لم تغرف من الماء ـ لكانتْ زمزمُ عيناً مَعيناً![4].

فشربَتْ، وأرضعتْ ولدها، فقال لها المَلَك: لا تخافوا الضَّيْعَة[5]، فإن هاهنا بيتُ الله، يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يُضيعُ أهلَه.

---

(١) الإنسان المجهود: الإنسان المتعب، الذي بذل جهداً شاقاً في أمر ما.
(٢) صه: كلمة تنبيه للانتباه والاستماع لمعرفة ماذا يحدث.
(٣) بحث بعقبه أو بجناحه: ضرب الأرض برجله أو بجناحه، فظهر ماء زمزم.
(٤) أي: لو أن هاجر لم تجمع ماء زمزم فيما يشبه الحوض، لكان زمزم عيناً جارية،
(٥) الضيعة: الهلاك والضياع والفناء.

وكان البيتُ مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول، فتأخذُ عن يمينه وشماله.

فكانت كذلك، حتى مرَّتْ بهم رفقةٌ من جُرْهُم، مُقبلين من طريق «كُداء»[(١)]، فنزلوا في أسفلَ مكة، فرأوا طائراً عائِقاً[(٢)]، فقالوا: إنَّ هذا الطائرَ ليدورُ على ماء، وعهْدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء!.

فأرسلوا جَرْياً أو جَرْيَيْن[(٣)]، فإذا هم بالماء، فرجَعوا فأخبروهم بالماء.

فأقبلوا وأُمُّ إسماعيل عند الماء. فقالوا: أتأْذَنين لنا أنْ ننزلَ عندك.

قالت: نعم. ولكن لا حَقَّ لكم بالماء.

قالوا: نعم.

قال ابن عباس: قال النبيُّ ﷺ: فألْفىٰ ذلك أُمَّ إسماعيل وهي تحبُّ الأُنْس[(٤)].

فنزلوا، وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى كان بها أهلُ أبيات منهم.

وشبَّ الغلام، وتعلَّمَ العربيةَ منهم، وأَنْفَسَهُم وأَعْجَبَهُم حين شب، فلما أَدرك[(٥)] زوَّجوه امرأةً منهم.

وماتَتْ أُمُّ إسماعيل.

---

(١) كداء: هو ثنية «كدي» التي في أعلى مكة.
(٢) الطير العائق: هو الذي يحوم فوق الماء.
(٣) الجري: هو الرسول الذي يستطلع لأصحابه.
(٤) أي: إن هاجر كانت تحب الاختلاط بالناس، ولا تحب العزلة والوحشة ففرحت بهم عندها.
(٥) لما أدرك: عندما كبر وبلغ مبلغ الرجال.

إبراهيم في زيارتيه لبيت إسماعيل:

فجاءَ إبراهيمُ بعدما تزوجَ إسماعيل يطالعُ تَرِكَتَه، فلم يجدْ إسماعيل، فسألَ امرأتَه عنه، فقالت: خرجَ يبتغي لنا[1].

ثم سألها عن عيشِهم وهيئتهم، فقالت: نحنُ بِشَرٍّ، نحن في ضيقٍ وشدة، فشكتْ إليه.

قال: فإذا جاءَ زوجُك فاقْرَئي عليه السلام، وقولي له يُغَيِّرْ عتبةَ بابه!!

فلما جاءَ إسماعيلُ كأنه آنسَ شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد؟

قالت: نعم. جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألَنا عنك فأخبرْتُه، وسألَني كيف عيشُنا، فأخبرتُه أنّا في جَهْد[2] ومشقة.

قال: فهل أوصاكِ بشيء؟

قالت: نعم، أَمرني أنْ أقرأَ عليك السلام، ويقول: غَيِّرْ عتبةَ بابك.

قال: ذاك أبي، وقد أَمرني أنْ أفارقَك! الحقي بأهلك. فطلَّقَها، وتزوَّجَ منهم أخرى.

فلبثَ عنهم إبراهيمُ ما شاء الله. ثم أَتاهم، فلم يجدْه فدخلَ على امرأتِه، فسألها عنه، فقالت: خرجَ يبتغي لنا.

قال: كيفَ أنتم؟ وسأَلَها عن عيشهم وهيئتهم.

فقالت: نحنُ بخيرٍ وسَعَة، وأثنتْ على الله.

فقال: ما طعامُكم؟

قالت: اللحم.

---

(١) يبتغي لنا: يطلب لنا الرزق.

(٢) الجهد: التعب والضيق والضنك.

قال: فما شرابكم؟

قالت: الماء.

قال: اللهمَّ باركْ لهم في اللحم والماء.

قال النبي ﷺ: ولم يكن لهم يومئذ حَبّ[1]، ولو كان لهم لدعا لهم فيه.

قال: فإذا جاءَ زوجُك فاقْرَئي عليه السلام، ومُريه يُثبتْ عتبةَ بابه!

فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟

قالت: نعم. أتانا شيخٌ حسنُ الهيئة ـ وأثنتْ عليه ـ فسألني عنك، فأخبرتُه، فسألني كيف عيشُنا، فأخبرتُه أنّا بخير.

قال: فهل أوصاكِ بشيء؟

قالت: نعم. هو يقرأُ عليك السلام، ويأمرك أنْ تثبِّتَ عتبةَ بابك.

قال: ذاكَ أبي، وأنتِ العتبة، أَمَرني أنْ أمسكَك. ثم لبثَ عنهم ما شاء الله.

التقاء إبراهيم وإسماعيل وبناء البيت:

ثم جاءَ بعد ذلك، وإسماعيلُ يَبري نَبلاً له، تحتَ دوحةٍ قريباً من زمزم. فلما رآه قامَ إليه، فصَنَعا كما يصنعُ الوالدُ بالولد، والولدُ بالوالد.

ثم قال: يا إسماعيل: إن الله أمرني بأمر.

قال: فاصنعْ ما أمرك ربُّك.

قال: وتعينُني؟

قال: وأُعينُك.

---

(١) الحب: هو القمح والشعير.

قال: فإن الله أمرني أنْ أبنيَ هاهنا بيتاً ـ وأشارَ إلى أَكَمَةٍ[1] مرتفعةٍ على ما حولها ـ.

فعندَ ذلك رفعا القواعدَ من البيت، فجعلَ إسماعيلُ يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفعَ البناء جاء بهذا الحجر، فوضعَه له، فقامَ عليه وهو يبني، وإسماعيلُ يناولُه الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

فجَعَلا يبنيان، حتى يدورا حول البيت، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[2].

هذا حديثٌ صحيحٌ مرفوعٌ للرسول ﷺ، ولو لم يصرحْ ابنُ عباس رضي الله عنهما برفعِه للنبي عليه الصلاة السلام في بداية الحديث، إلا أنه صرحَ في أثناء الحديث بنسبةِ بعضِ الجُمَل والعباراتِ فيه للرسول ﷺ، ونصَّ على أنها من كلامه.

وهذا يدلُّ على أن الحديثَ كلَّه مرفوع، وأنه من كلام رسول الله ﷺ.

وهذا الحديثُ الصحيحُ الطويلَ يتحدث عن مسائلَ ومشاهدَ ولقطاتٍ من قصة إبراهيم وهاجر وإسماعيل.

إنه يتحدثُ عن ذهابِ إبراهيمَ بهاجر وإسماعيل إلى بلاد الحجاز، ووضعِهما هناك تحت شجرةِ دَوْح مكان الكعبة، وتصريح إبراهيم بأن الله هو الذي أمره بذلك، وقوةِ إيمان هاجر، واستسلامِها لأمر الله، ودعاءِ إبراهيم لهما، وسعي هاجرَ بين الصفا والمروة بحثاً عن مغيث من البشر، ومجيء المَلك، وظهورِ ماء زمزم، وقدومِ وفد من جُرْهُم، وإقامتهم عند هاجر وإسماعيل، وزواج إسماعيل منهم عندما كبر،

(١) الأكمة المرتفعة: أرض مرتفعة كالتل.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٦٣. وانظر الأحاديث الصحيحة. برقم: ٩٠.

وموتِ أمه هاجر، وقدومِ إبراهيم في أول زيارة له إلى بيت ابنه، ولكنه لم يجده، ولما كانت زوجتُه شاكيةً ساخطة، أمَره أبوه بفراقها، ثم جاءَ بعدما تزوجَ إسماعيلُ ثانية، وقبلَ زوجته الشاكرة الراضية، ومجيء إبراهيم بعد ذلك، ومقابلته ابنه إسماعيل الذي تركَه قبل سنوات عديدة رضيعاً، وهو الآن رجل كبيرٌ عنده زوجة وأولاد وبيت، وقيامهما معاً ببناء بيت الله الحرام.

وهذا الحديثُ المطولُ يمكن أنْ تستخرجَ منه فوائدُ ودلالات عديدة، من مواقف أطرافِ القصة: إبراهيم وإسماعيل وهاجر، وقدرِ الله وحكمته وبناء الكعبة، وغير ذلك، وفي الحديث دروسٌ وعبر عديدة، في العقيدة والسلوك والنبوة والأسرة وغير ذلك.

وأدعو القارئَ الكريم إلى الوقفةِ الفاحصة المتأنيةِ أمام الحديث، والاستمتاعِ بتدبره، والانتفاعِ بدلالاته، والاستفادة من دروسه!!.

[١٩]

إسماعيل هو الذبيح

الآيات في قصة الذبيح:

أشارتْ آياتُ سورة الصافات إلى حادثةٍ عجيبة، ومشهدٍ مؤثر، بين إبراهيم وبين ابنه، حيث أمر الله إبراهيمَ في رؤياه بذبح ابنه، فنفذ الأبُ الأمر، وعَرَضَه على ابنه ليشركه معه أجر الاستسلام، وفي آخر لحظة فدى الله ذلك الابنَ المستسلمَ بذبحٍ عظيم.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ

نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات: ٩٩ ـ ١١٣].

تتحدثُ الآيات عن ابنيْن لإِبراهيم عليه السلام، الابن الأول لم تذكرْ اسمَه، وتصفُه بأنه غلامٌ حليم، وهو الذبيح، والابن الثاني الذي وُلد لإِبراهيم فيما بعد، وتنصُّ على أنه إسحاق، وهذا يدلُّ على أن الأولَ الذبيح وهو إسماعيل.

إبراهيمُ عليه السلام يطلبُ من الله أن يرزقَه ولداً صالحاً، لأنه أصبح شيخاً كبيراً، فاستجابَ الله دعاءَه، وبشَّره بغلامٍ حليم.

وهذا الغلامُ الحليمُ هو أولُ مولود يولَدُ له، وهو إسماعيلُ عليه السلام. ووصْفُه بالحلم مقصودٌ في هذا المقام، فاستسلامُه لأمر الله، وطاعتُه لأبيه، ورضاه أنْ يذبَحه أبوه تنفيذاً لأمر الله، ما كان ليتحققَ لو لم يكن حليماً.

ونعلمُ أن إبراهيمَ عليه السلام تركَ إسماعيلَ مع أمه هاجر مكان البيت الحرام، بينما كان إسماعيلُ صغيراً رضيعاً، ورجعَ إبراهيمُ إلى مكة بعد سنواتٍ عديدة، وبعدما ماتتْ هاجرُ رضي الله عنها، وفي المرتيْن الأوليْن لم يلتقِ مع إسماعيل، والتقى معه في المرة الثالثة، كما ذكرْنا في حديثِ البخاري السابق عن ابن عباس.

الرؤيا وبناء الكعبة في الزيارة الثالثة:

فهَل كانت هذه الرؤيا في زيارةِ إبراهيمَ الثالثة إلى مكة، والتي قابَلَ فيها إسماعيل، والتي بَنَيا فيها الكعبة المشرفة؟ أم كانت هذه الرؤيا ومشهدُ الذبحِ والفداء في زيارةٍ أخرى لاحقة فيما بعد؟

ليس عندنا من النصوصِ الصريحة ما يحددُ ذلك، فلا نستطيعُ التحديدَ والجزم، والله علم.

هناك روايةٌ موقوفةٌ غيرُ مرفوعة، فقدْ أخرجَ الفاكهيُّ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كان إبراهيمُ يزورُ هاجرَ كلَّ شهر، على البُراق، يغدو غدوة، فيأتي مكة، ثم يرجع، فيقيلُ في منزله بالشام[1].

وبما أن هذا الحديثَ موقوفٌ على علي رضي الله عنه، ولم يرفعْه إلى رسولِ الله ﷺ، فنتوقفُ فيه وفي القول به، لأننا نشترطُ أن يكونَ الحديثُ الذي يتحدثُ عن قصص السابقين في القرآن متصلاً صحيحاً، مرفوعاً للنبي ﷺ.

ولعلَّ الأمريْن ـ بناء الكعبة ورؤيا ذبح إسماعيل ـ كانا في الزيارةِ نفسِها، التي قابلَ فيها إبراهيمُ ابنَه إسماعيل عليهما السلام، بعد غياب سنوات عديدة، فبَنَيا البيت، وأذَّنَ إبراهيمُ بالحج، وكانت مناسك الحج، ورأى إبراهيمُ رؤيا بذبح إسماعيل، وكان الفداء، وكانت الأضحية، وكان عيد الأضحىٰ، وكانت مناسك الحج! لعلَّ هذا هو الراجح، والله أعلم.

معنى قوله ﴿فلما بلغ معه السعي﴾:

إن إسماعيلَ عليه السلام من الصالحين، وإنه رجلٌ حليم، وقد شاركَ أباه في بناء الكعبة المشرَّفة، ثم أخبره أبوه برؤياه.

وليس معنى قوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ أنه صارَ فتى نشيطاً، يسعى في مصالح أبيه، ويتحركُ في قضاء حاجاته، ويؤمِّنُ له طلباته، بحيث صار يُؤَمَّلُ ويُرْجى نفعُه، ليس هذا هو المراد من السعي في الجملة، لأن إبراهيمَ في فلسطين، وإسماعيلُ مقيمٌ في الحجاز، فكيف يسعى إسماعيلُ في مصالح أبيه الموجودة في فلسطين؟

لعلَّ المرادَ بقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ أنهما كانا يمشيان معاً،

---

(١) أخرجه الفاكهي بإسناد حسن كما قال ابن حجر في فتح الباري ٦: ٤٠٤. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٩١.

ويسعيان معاً، ويتحدثان معاً، الأبُ الشيخُ إبراهيم، وابنُه الشاب النبي إسماعيل عليهما السلام، فلما بلغَ الابنُ الشابُّ السعيَ مع أبيه الشيخ إلى نقطةٍ معينة أو مكان محدد، أخبرَ الأبُ ابنَه برؤياه.

نقول: لعل هذا هو المراد من الجملة، ولكننا لا نجزمُ به، لعدمِ وجود حديثٍ صحيح مرفوع، يحددُ المرادَ بالسعي وبلوغ السعي، ولو كان هناك نصٌّ معتمَدٌ لقُلْنا به، ولا نذهبُ إلى الروايات والأخبار غيرِ الثابتة، فما قلناه إنما هو فهمٌ واجتهاد، والله أعلم.

لما بلغَ إسماعيلُ السعيَ مع أبيه إبراهيم، قال له أبوه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾.

رؤيا إبراهيم بذبح ابنه:

لقد رأى إبراهيمُ في المنام أنه يذبحُ ابنَه وحيدَه، ورؤيا الأنبياء حق، لأن الشيطانَ لا يتمثلُ لهم فيها، ولا يُلَبِّسُ عليهم فيها، فرؤياهم عليهم الصلاة والسلام وحيٌ من الله، لكنه وحي عن طريقِ الرؤيا المنامية.

وفهمَ إبراهيمُ عليه السلام حقيقةَ الرؤيا والمقصودَ منها. إن اللَّهَ يأمره أن يذبحَ ابنه! ابنَه الوحيد إسماعيل! الذي وهبه الله له على الكِبَر! والذي سألَ ربَّه أن يجعلَه من الصالحين!

والآن، وبعدما كبرَ ابنُه وصار رجلاً، وحقق آمالَ أبيه الدنيوية، الآن يأمره الله بذبحه!!.

لكن أليس الأمرُ أمْرَ الله؟ أليس الآمر هو الله؟ أليس هو مستسلماً لأمر الله، مفوِّضاً أمره إليه، مسارعاً في تنفيذِ أوامره؟

إذن عليه أن ينفذَ أمْرَ الله، ولله حكمةٌ في ذلك الأمر، ومهما كان الأمر شاقاً صعباً مرهقاً، حيث سيذبحُ بيده ابنَه ورجاءَه، لكن عليه أن يتحملَ ما فيه من مشقة وصعوبة، إنه ابتلاءٌ وامتحان، وإعلانُ كامل العبودية والاستسلام لله وإبراهيمُ سبّاق في ذلك!

توجّهَ إبراهيمُ إلى تنفيذ الأمر، وهو راضٍ عن أمر الله، مستسلمٌ لقضائه، ولكنه أرادَ أن يشركَ معه ابنَه الصالحَ الحليم الصابر، لذةَ الاستسلام لله، والرضا بقضائه، والتحققَ بعبوديته. ولهذا عرض الموضوعَ عليه، وطلب منه رأيه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾.

إنه يعرفُ جوابَ ابنه، لأنه أنشأه على البرِّ والحلم، والاستسلامِ والعبودية لله. ولم يخيبْ إسماعيلُ ظنَّ أبيه عليهما السلام، وإنما قال له: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾.

إن الابنَ يعلمُ مقدار حبِّ أبيه له، واهتمامِه به، ويعلمُ أن ما رآه إنما هو أمْرٌ من الله، ولهذا ساعدَ أباه على الاستسلام والتنفيذ، وكان عوناً له في ذلك.

وأخبر أباه بصبره على مشقةِ التنفيذ، وصبره على ألم الذبح: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. وعلَّق الصبر على مشيئة الله، ليستمدَّ العونَ والصبر منه سبحانه.

استسلامهما لله:

واستسلمَ النبيان الصالحان الصابران، الأبُ الشيخ والابنُ الشاب لأمر الله، وبدأ مشهدُ التنفيذ والذبح: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾.

ما أروعَ التعبيرَ القرآني عن حالتهما الإيمانية في هذا المشهد المثير: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾! إنها قمةُ الاستسلام لله، والخضوعِ والعبودية له، وتنفيذِ أمره، هذا هو الإِسلامُ في حقيقته وروحه وغايته، هذا هو الإِسلامُ لله في بُعْدِه العملي، وأثره الخارجي، وغايتِه التربوية.

ونتجَ عن إسلامِهما أنْ تَلَّ الأبُ ابنَه للجبين، ليتمَّ الذبح.

معنى ﴿وَتَلَّهُۥ﴾ صَرَعَه، وألقاه على الأرض.

قال الإِمام الراغب: «أصلُ التّلّ: المكان المرتفع. والتليل: العنق

﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾: أسقطَه على التل. كقولك: تَرَّبَه: أسقطه على التراب»[1].

ماذا بقيَ بعدَ ذلك؟ لقد استسلمَ المؤمنان النبيان الصابران، ونفَّذا أمرَ الله، فها هو الابنُ على الأرض، وجبينُه نحو الأرض، وهو في غايةِ الخضوع والعبودية والاستسلام لله، والصبرِ لأمره، والرضا بقضائه!.

وها هو الأب الصابر المستسلم لله. واقف فوقه، يحمل سكينه، ويكاد يهوي بها على عنق ابنه، لا يصرفُه عن ذلك شيء، من الترددِ أو الشك أو التأخر!

لم يبقَ إلا لحظةٌ ويتمُّ الذبح، وهل الذبحُ الفعلي مقصودٌ لذاته؟ كلا.

إنَّ المقصودَ قد تحقق، وإن إبراهيمَ وإسماعيل قد حقَّقا الرؤيا وصدَّقاها، وقد أعلنا ـ عملياً ـ الإِسلامَ والاستسلامَ لله.

وفي آخر لحظة، وقبلَ أنْ يُمِرَّ إبراهيمُ السكين على عنق إسماعيل، ناداه الله، طالباً منه عدمَ الذبح، لأن المقصودَ قد تحقق.

الفداء بالذبح العظيم:

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾: قد حقَّقْتَها عملياً في الواقع، فكانتْ من قبلُ رؤيا نظرية، رأيْتَها في المنام، ولكنها تحتاج إلى تطبيقٍ وتنفيذ وتعبير، وتعبيرُها هو تحقيقُها في الواقع، وهذا هو تصديقُها، وقد فعلْتَ أنت المطلوب، ولم تبقَ إلا آخرُ لقطة في التنفيذ، وهي غيرُ مقصودة.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾: لقد أمر الله إبراهيمَ بذبحِ ابنه من

---

(١) المفرادت: ١٦٧.

باب الابتلاء والامتحان والاختبار، له ولابنه إسماعيل عليهما السلام. وقد نجحا في الامتحان نجاحاً باهراً، وأعطاهما الله هذه الشهادة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴿١٠٦﴾﴾.

وبعد ذلك الفداء: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴿١٠٧﴾﴾. فدى الله إسماعيلَ بذبحٍ عظيم، بأنْ قدَّمَ لإِبراهيم كبشاً عظيماً كبيراً، وطلب منه أنه يذبحه فداءً لإِسماعيل.

لكن متى جاء الفداء؟ ومتى قدم الله لإِبراهيم البديل؟ لقد كان ذلك بعد الاستسلامِ والتصديق، بعد التضحية والابتلاء، بعد النجاح في الامتحان.

وهذا الذبحُ العظيم الذي فدى الله به إسماعيلَ لا نعرف عنه شيئاً، سوى أنه ذبحٌ عظيم. فليس عندنا كلامٌ عنه غير هذه الآية، ولا يوجَدُ حديث صحيحٌ يضيف معلوماتٍ إليها، فلا نعرفُ من أينَ جاء، وما حجمه، وما نوعُه، وكيف ذَبَحه إبراهيم، ولا نخوضُ في تعيين هذه المبهمات!.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴿٧٨﴾﴾: تقررُ هذه الآية الفائدة والعبرة المستفادة من حادثة الذبح. فالله تركَ هذه العبرة، وأبقاها موجودة مؤثرة، تؤثرُ في الآخرين القادمين من الأجيالِ اللاحقة. و ﴿عَلَيْهِ﴾ على إبراهيم.

أي: أبقَيْنا الثناءَ الحسنَ الجميل على إبراهيم، وجعلناه قدوةً للمؤمنين القادمين من الآخرين.

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴿١٠٩﴾﴾: إخبارٌ من الله بأن الله منحَ إبراهيم عليه الصلاة والسلام سلاماً عظيماً مجزياً. لسلامةِ قلبه وتوجُّهِه إلى ربه.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: تقريرٌ من الله بأنَّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كانا من المحسنين، ولذلك جزاهما الله خيرَ الجزاء، وقَبلَ منهما الاستسلام، وفدى إسماعيلَ بذبحٍ عظيم.

وعندما نقفُ أمامَ الآيات التي عرضتْ لقطاتٍ وحلقاتٍ من قصة إبراهيم عليه السلام في سورة الصافات، نرى أنه كان موفقاً وناجحاً وصادقاً ومحسناً في هذه اللقطات، وظهرَ منها حسنُ إيمانِه بالله، وخضوعه واستسلامه له، وتصديقه بوعده، وتنفيذه لأمره.

السر في نجاح إبراهيم هو في القلب السليم:

ولكن ما هو السرُّ في هذا النجاح والتوفيق؟

بدايةُ قصةِ إبراهيم في السورة تشيرُ إلى هذا السر، قال تعالى: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: ٨٣ ـ ٨٤].

إبراهيمُ من شيعةِ نوح، وعلى طريقِه ومنهجه ودينه، وجاءَ إبراهيم ربَّه بقلبٍ سليم، ولهذا قال الله في آخر آيات القصة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [الصافات: ١٠٩ ـ ١١٠].

قلبُه سليم من كل ما يناقضُ التوحيدَ والإيمان والإخلاص، قلبه بريء من كل مظاهرِ أمراضِ القلوب الأخرى، قلبه خالصٌ لربه، وبهذا القلبِ السليم الخالصِ الصافي تحركَ في حياته، ونَشَرَ رسالَته، وواجه أعداءَه، وأقبلَ على ربه، فارتقى من نجاح إلى نجاح، ومن توفيقٍ إلى توفيق!!.

وبعدما أَنهت الآياتُ حديثَها عن مشهد الذبح والفداء والاستسلام، والثناء على إبراهيم وإسماعيل، انتقلتْ للحديثِ عن إسحاق، الابن الثاني لإِبراهيم عليهم الصلاة والسلام، فقالت: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

وذكْرُ البشارة بإسحاق بعد الكلام على الذبيح، دليلٌ على أن الذبيحَ هو إسماعيل وليس إسحاق. وأن البشارةَ بإسحاق وولادته كانت بعدَ مشهد الذبح والفداء لإِسماعيل.

ترجيح كون إسماعيل الذبيح وليس إسحاق:

وهذا الترتيبُ في الحديث عن ابنَيْ إبراهيم: إسماعيل ثم إسحاق ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لإظهارِ فضلِ الله على إبراهيم، فالله قد حفظ له ابنَه الوحيد إسماعيل من الذبح، وفداه بذبح عظيم، والله قد بشره بولدٍ آخر يولَدُ له، وهو إسحاق، والله قد بشره بأنه سيمدُّ عمره، ليرى حفيدَه يعقوب ابنَ إسحاق.

إن هذا الترتيبَ في آيات سورة الصافات يدلّ على أن الذبيحَ هو إسماعيل عليه السلام.

ولا نخوضُ في الخلاف الذي جرى بين المؤرخين والمفسرين حول تعيين الذبيح، وهل هو إسماعيلُ أو إسحاق، ولا في مغالطاتِ اليهودِ عندما نصّوا في التوراة المحرفة أنه إسحاق، فنرى أن سياقَ الآيات في سورة الصافات يكادُ ينصُّ نصاً على أنه إسماعيل.

ونكتفي بتسجيلِ هذه الخلاصة من كلام الإمامِ ابن كثير: «وهذا هو الظاهرُ من القرآن، بل كأنه نصَّ على أن الذبيحَ هو إسماعيل، لأنه ذكر قصةَ الذبيح، ثم قال بعده: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴿١١٢﴾﴾».

ومَنْ جعلَه حالاً فقد تكلَّف، ومستَنَدُه أنه إسحاق، إنما هو إسرائيليات، وكتابُهم فيه تحريف، ولا سيما هاهنا قطعاً لا محيدَ عنه، فإنَّ عندهم أنَّ الله أمرَ إبراهيم أن يذبحَ ابنَه ووحيده، وفي نسخةٍ من التوراة المعربة: بكرَه إسحاق، ولفظةُ إسحاق هاهنا مكذوبةٌ مفتراة، لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر، وإنما ذاك إسماعيل.

وإنما حملَهم على هذا حسدُ العرب، فإنَّ إسماعيلَ هو أبو العرب...

وقد قال بأنه إسحاق طائفةٌ كثيرةٌ من السلف وغيرهم، وإنما أخذوه ـ والله أعلم ـ من كعبِ الأحبار، أو من صحفِ أهل الكتاب.

وليس في ذلك حديثٌ صحيح عن المعصوم، حتى نتركَ لأجله

ظاهرَ الكتاب العزيز، ولا يُفهمُ هذا من القرآن، بل المفهومُ، بل المنطوق، بل النص ـ عند التأمل ـ على أنه إسماعيل.

وما أحسنَ ما استدلَّ به محمدُ به كعب القرظي على أنه إسماعيل وليس إسحاق، من قوله: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴿٧١﴾﴾ [هود: ٧١]. فكيف تقعُ البشارة بإسحاق، وأنه سيولدُ له يعقوب، ثم يؤمرُ بذبحِ إسحاقِ وهو صغير، قبلَ أنْ يولَدَ له؟ هذا لا يكون، لأنه يناقضُ البشارَةَ المتقدمة! والله أعلم!.

ولمّا ذكرَ ابنُ كعبِ القرظي هذا الدليلَ للخليفةِ عمرَ بن عبد العزيز، قال له عمر: إن هذا الشيءَ ما كنتُ أنظرُ فيه، وإني لأراه كما قلت!.

ثم أرسلَ عمرُ إلى رجل كان عنده بالشام، كان يهودياً فأسلم، وحسنَ إسلامُه، وكان يرى أنه من علمائهم، فسأله عمرُ بن عبد العزيز: أيُّ ابنَيْ إبراهيم أُمِرَ بذبحه؟.

فقال: إسماعيل، والله يا أميرَ المؤمنين. وإن اليهودَ لتعلمُ بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشرَ العرب على أن يكون أبوكم إسماعيل، فهم يجحدونَ ذلك، ويزعمون أنه إسحاق، لأنه أبوهم»[1].

ولا نرى إطالةَ الوقفةِ لتحديدِ مَنْ هو الذبيح، ونرى تجاوُزَ هذا، للاستفادة من الدروس والعبر من هذه الحادثة!!.

[٢٠]

إبراهيم وإسماعيل يبنيان البيت الحرام

أمر الله لهما ببناء الكعبة والآيات عن بنائها:

أَمرَ الله إبراهيمَ عليه السلام أنْ يبنيَ الكعبةَ المشرفة، بيتَ الله

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ـ طبعة دار الخير ١٤٤ ـ ١٤٧ باختصار.

الحرام، فتوجَّه إلى مكة، حيث يقيم ابنه إسماعيلُ عليه السلام، وقال له: «إن الله أمرني بأمر».

قال: إسماعيل: اصنعْ ما أمرك ربك.

قال: وتعينُني؟

قال إسماعيل: وأعينُك!

قال: إن الله أمرني أن أبنيَ هاهنا بيتاً ـ وأشارَ إلى أكَمَةٍ مرتفعة على ما حولها ـ.

فعند ذلك رفَعا القواعدَ من البيت، فجعل إسماعيلُ يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفعَ البناء جاء بهذا الحجر، فوضعه له، فقامَ عليه وهو يبني، وإسماعيلُ يناولُه الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1].

وقد أشارتْ آياتُ القرآن إلى بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لبيتِ الله الحرام.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٥ ـ ١٢٩].

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري برقم: ٣٣٦٣. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٩٠.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج: ٢٦ ـ ٢٩].

معنى «مكة» و «بكة» و «الكعبة»:

تخبرُ هذه الآياتُ أن إبراهيمَ ـ وإسماعيل عليهما السلام قد بنيا أشرفَ وأفضلَ وأولَ بيت لعبادة الله تعالى، في مكة المكرمة.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

البيتُ الحرامُ هو أول بيتٍ وُضعَ وبُني للناس، كي يعبدوا اللَّهَ فيه، كما تصرحُ الآية، حيث جعله الله مباركاً وهدى للعالمين.

واللامُ في قوله: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ لامُ المزحلقة التي انتقلت من اسم إنَّ ﴿أَوَّلَ﴾ إلى خبرها «الذي ببكة»، وتُستخدمُ لامُ المزحلقة للتوكيد. أي: أولُ بيت بُنِيَ هو البيتُ الذي في مكة.

و «بكة» اسمٌ آخر لمكة المكرمة، وسُميتْ مكةَ وبكةَ بعد بناء الكعبة، حيث نشأتْ حول الكعبة.

ومكة مشتقةٌ من «المَكّ».

قال ابن فارس: «المَكّ: انتقاءُ العظم وصفاؤه. يقال: تَمَكَّكْتُ العظم: أخرجْتُ مُخّه. وامْتَكَّ الفصيلُ ما في ضرع أمه: شربَ اللبن الذي فيه.

ويُقال: سُميتْ مكة لقلةِ الماء بها، كأنّ ماءَها قد امْتُكَّ، أي: امْتُصّ»[1].

المَكّ في اللغة بمعنى الامتصاص. وسُميت مكةُ بذلك لأنها تَمُكُّ وتمتصُّ ذنوبَ الحجاج، فعندما يحجُّ المسلم حجةً مبرورة، فإن الله يغفرُ له ذنوبه، ويخرجُ من ذنوبه كيومِ ولدته أمه. وكأن «مكة» مكَّتْ ذنوبَه، وقامتْ بشربِها وامتصاصِها وتذويبها والذهاب بها.

والاسمُ الثاني لمكة هو «بَكّة» كما تصرحُ بذلك الآية. و«بكة» مشتقة من «البَكّ».

قال ابن فارس في البَكّ: «البَكّ يجمع: التزاحمَ والمغالبَة. قال الخليل: البَكّ: دقُّ العنق. ويقال: سُميت بكة، لأنها كانت تبُكُّ أعناقَ الجبابرة وتدقُّها إذا ألحدوا فيها بظلم. ويقال أيضاً: بل سُميتْ بذلك لأن الناسَ يَبُكُّ ويدفعُ بعضهم بعضاً عند الطواف..»[2].

إذن هي بكة: لأنها تَبُكُّ وتدقُّ أعناقَ الكافرين والجبابرة، وتقضي عليهم.

ويتوفرُ في مكةَ المعنيان، معنى المك وهو الامتصاص، ومعنى البك وهو الدّك والدّق. فمن أتى مكة عابداً لله، طائفاً بكعبتها، فإنها تمكُّ ذنوبَه وتمتصها وتقضي عليها، أما من أتى مكة ظالماً باغياً معتدياً فإنها تتحولُ بالنسبة له إلى بكة، إذْ تبُكُّ وتدقّ عنقه، وتقضي عليه.

بنى إبراهيمُ وإسماعيلُ عليهما السلام بيتَ الله الحرام بمكة،

---

(١) مقاييس اللغة ٥: ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

(٢) مقاييس اللغة ١: ١٨٦.

والبناءُ الذي بنياه له اسم آخر، هو الكعبة.

قال تعالى: ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ [المائدة: ٩٧].

وجاء ﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ في الآية بدلاً منصوباً من ﴿ٱلْكَعْبَةَ﴾. أي: أن الكعبةَ هي البيتُ الحرام.

وجعلَ الله المذكورات في الآية ـ الكعبةَ البيتَ الحرام، والشهرَ الحرام، والهديَ، والقلائد ـ قياماً للناس، بها قِيامُ حياتهم، وقِوامُ حياتهم، وقِوامُ إيمانهم، وقوامُ قلوبهم.

والكعبةُ مشتقة من الكَعْب.

قال ابن فارس في معنى الكعب: «الكعبُ يدلُّ على: نُتُوٍّ وارتفاعٍ في الشيء. كعبُ الرجل: وهو عظمُ طرفي الساق، عند ملتقى القدم والساق.

والكعبة: بيتُ الله تعالى، سميَ بذلك لنتوِّه وتربيعِه.

وكَعِبَت المرأة فهي كاعِب: إذا نَتَأَ ثَدْيُها»[1].

فسميت الكعبةُ بذلك الاسم لأنها بناءٌ مربّع، ومرتفعٌ عما حوله، لأن إبراهيمَ وإسماعيلَ بنياها على أكمةٍ أو تلةٍ صغيرة، مرتفعةٍ عما حولها.

لكن هل بُنيت الكعبةُ قبلَ إبراهيم وإسماعيل؟ أم كانا هما أولَ من بنياها؟.

حجة من قال إنها بنيت قبل إبراهيم:

ذهبَ بعضُ العلماء إلى أن الكعبةَ قد بُنيتْ قبلَ إبراهيم عليه

---

(١) مقاييس اللغة ٥:١٨٦.

السلام، وكان فعلُ إبراهيم وإسماعيل هو تجديدَ بناء الكعبة، وليس إنشاءَه. لأن الكعبة قد هُدمتْ من قبل، لكن بقيتْ أساساتُها، فرفع إبراهيمُ وإسماعيل القواعدَ على تلك الأساسات.

وذهبَ علماء آخرون إلى أن الكعبةَ لم تُبْنَ قبلَ إبراهيم وإسماعيل، وما كان أحدٌ قبلهما يعلم أن في مكانِها كعبة، وأنها كانت مبنيةً ثم هُدمت. ولو كانت مبنيةً ثم هُدمتْ لَعَلِمَ العربُ ذلك، وتناقَلوه في بلادهم في الحجاز واليمن ونجد، وبما أنهم لم يتناقلوا ذلك، فهو دليلٌ على أن الكعبةَ لم تكن مبنيةً من قبل. وإبراهيم وإسماعيل هما أولُ مَنْ بَنَيا الكعبة.

لا توجَدُ أحاديثُ صحيحة تتحدثُ عن بناء الكعبة قبل إبراهيم، وكلُّ ما يعتمدُ عليه أنصارُ القول الأول إنما هو أخبارٌ وروايات لم تَثبت ولم تصحَّ حديثياً، ولذلك لا تُعتمد، ولا تدلُّ على ما يُراد بها في موضوعِ النزاعِ.

ومَن أرادَ معرفةَ ملابسات بناء الكعبة فعليه بالوقوفِ أمامَ الآيات القرآنية التي تحدثت عن ذلك.

اعتمدَ أنصارُ القول الأول على ظاهرِ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦].

وعلى ظاهر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ١٢٧].

فقالوا: إنَّ مكان البيتِ كان موجوداً قبل إبراهيم، ولكنه كان مخفياً مطموراً، لأن البيت كان مهدوماً، وبَوَّأَ الله لإبراهيم مكان البيت، ودلَّه عليه، وأرشده إليه، وعَرَّفه على أساساته، فقام هو وإسماعيلُ برفع القواعدِ على تلك الأساسات.

الراجح أن إبراهيم وإسماعيل أول من بنياها:

ولا نرى الآيتين تدلاّن على ما يقولون. فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ يدلُّ على أنَّ الله دلَّ إبراهيم على هذه المنطقة، التي سيبنى عليها البيت، وهيَّأها له، وأمره ببناءِ البيت في ذلك المكان الذي حدَّده له سبحانه، والذي يعلمُ منذ الأزل أنه سيكون فيه بيتُه المحرم، والذي جعله أقدس وأشرفَ بقعة.

ولما بوَّأَ الله لإبراهيم مكان البيت، وأمَرَه ببنائه، نفَّذَ إبراهيمُ أمر ربه، فأرسل مع إسماعيلَ أساساتِ البيت، وبعد ذلك قاما برفْع قواعده، فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)﴾. يتحدثُ عن المرحلةِ الثانية من مراحل بناء الكعبة، ويسكتُ عن المرحلة الأولى، ولا يُستنبط منه أن الأساساتِ قد بُنيت قبلَهما.

ونظراً لعدم وجودِ أحاديث صحيحة حول بناءِ البيت قبل إبراهيم، فإننا نَبقى مع ظاهرِ الآيات، ونقول: إبراهيم وإسماعيل هما أولُ مَن بنيا الكعبة، وأن الكعبة لم تُبن قبلهما ـ والله أعلم ـ.

وحول هذا المعنى يقول الإمامُ ابن كثير: «أمرَ الله إبراهيمَ عليه السلام أنَ يبني له بيتاً، يكونُ لأهل الأرض، كتلك المعابدِ لملائكة السماوات. وأرشده الله إلى مكان البيتِ المهيأ له، المعينِ لذلك، منذ خلق السماوات والأرض، كما ثبت في الصحيحين: «إن هذا البلدَ حرَّمه الله، يومَ خلق الله السماوات والأرض، فهو حرامٌ بحرمةِ الله إلى يوم القيامة».

ولم يجئ في خبرٍ صحيحٍ عن المعصوم أن البيت كان مبنياً قبلَ الخليل عليه السلام، ومنْ تمسَّك في هذا بقوله: ﴿مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ فليس بناهضٍ ولا ظاهر، لأن المرادَ مكانَه المقدرَ في علم الله، المقررِ في قَدَره، المعظمِ عند الأنبياء موضعُه، من لدن آدم إلى زمانِ إبراهيم.

وقد ذكرْنا أنَّ آدمَ نَصَبَ عليه قبة، وأن الملائكةَ قالوا له: قد طُفْنا قبلك بهذا البيت، وأن السفينةَ طافَتْ به أربعين يوماً، أو نحو ذلك.

ولكن كلَّ هذه الأخبار عن بني إسرائيل. وقد قرَّرْنا أنها لا تُصَدَّق ولا تُكذَّب، فلا يُحتج بها. فأمّا إنْ ردَّها الحقُّ فهي مردودة..»[1].

إبراهيم وإسماعيل يدعوان أثناء البناء:

إذن: قامَ إبراهيمُ وإسماعيل عليهما السلام ببناء الكعبة، وكانا أثناءَ البناء يتوجَّهان إلى الله بالدعاء، ويطلبان منه سبحانه أن يتقبل منهما عملهما وعبادتَهما وبناءهما، وأنْ يجعلَهما مسلميْن له، وأن يهبَهما من ذريتهما أمةً مسلمة له، وأن يبعثَ لذريتهما رسولاً منهم يدعوهم إلى الله، ويعلمهم ويزكيهم!

وقد عرضت الآياتُ هذا الموقفَ الإيماني الخاشع المنيب لهما، في مشهدٍ حَيٍّ مؤثِّر. قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١٢٩)﴾ [البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩]

وقد استجابَ اللّهُ دعاءهما، فبعث من بني إسماعيل رسولاً، هو محمدٌ خاتم النبيين ﷺ.

روى أحمد عن العرباض بن سارية رضي الله عنه، أنه سمعَ رسولَ الله ﷺ يقول: «إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين، وإن آدم لمُنْجَدلٌ في طينته، وسأنبئكم بتأويل ذلك: دعوةُ أبي إبراهيم، وبشارة عيسى..»[2].

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ١٥٢ ـ ١٥٣.

(٢) رواه أحمد في المسند ٤: ١٢٧، ١٢٨. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ١١٢.

وروى أحمد عن أبي أُمامة رضي الله عنه قال: (قلت: يا رسول الله، ما كان أولُ بدْءِ أمرك؟

قال: «أنا دعوةُ إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأتْ أُمي نوراً أضاءت منه قصورُ الشام»)[1].

ما هو مقام إبراهيم؟:

وقد أخبرَنا رسولُ الله ﷺ أن إبراهيمَ هو الذي كان يبني البيت، وإسماعيلَ كان يناولُه الحجارة: «.... فعند ذلك رَفَعا القواعدَ من البيت، فجعل إسماعيلُ يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفعَ البناءُ جاءَ بهذا الحجر، فوضعه له، فقام عليه وهو يبني، وإسماعيلُ يناوله الحجارة...».

والحجرُ الذي وضعه إسماعيلُ لإبراهيم هو ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾. وسمي «مقام إبراهيم» لأن إبراهيمَ كان يقومُ عليه، ويقف عليه، وهو يبني الكعبة.

قال تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]. والآياتُ البيناتُ التي في البيت الحرام من أهمها مقامُ إبراهيم. ولهذا جاء ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ في الآية، بدلاً مرفوعاً من ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾، وهو بدلُ بعضٍ من كل.

وقد أمرَ اللّهُ المسلمين أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، أي: أنْ يُصلوا فيه: قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

وقد كان عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه قد اقترحَ على رسولِ الله ﷺ أن يتخذَ المسلمون من مقام إبراهيم مصلى. فنزلت الآيةُ تأمرهم بذلك، وكانت هذه من «موافقات» عمر رضي الله عنه.

---

(١) رواه أحمد في المسند ٥: ٢٦٢. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ١١٣.

روى البخاري وغيره عن أنسٍ بن مالك رضي الله عنه قال: (قال عمرُ رضي الله عنه: وافقْتُ اللَّهَ في ثلاث ـ أو وافَقَني ربي في ثلاث:

قلت: يا رسول الله، لو اتخذتَ من مقام إبراهيم مصلى. فأنزلَ الله قوله: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾.

وقلت: يا رسولَ الله، يدخلُ عليك البَرُّ والفاجر، فلو أمرْتَ أمهاتِ المؤمنين بالحجاب. فأنزل اللَّهُ آيةَ الحجاب.

وبلغني معاتبةُ النبي ﷺ بعضَ نسائه. فدخلْتُ عليهن، فقلتُ: إن انتهيتُنَّ، أو ليبدلَنَّ اللَّهُ رسولَه خيراً منكن، حتى أتتْ إحدى نسائه، فقالت: يا عمر، أَما في رسول الله ﷺ ما يعظُ نساءه، حتى تعظهنَّ أنت. فأنزلَ الله الآية: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَـٰتٍ مُّؤْمِنَـٰتٍ﴾[1] [التحريم: ٥].

وقد كان مقامُ إبراهيمَ ـ الحجرُ الذي كان يقف عليه ـ ملتصقاً بجدارِ الكعبة، وبقي هكذا طيلة عهدِ رسول الله ﷺ، وخلافةِ أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فلما كانت خلافةُ عمر رضي الله عنه وقعَ الضيقُ على الطائفين عند البيت، لأن الناسَ كانوا يصلون عند مقام إبراهيم الملتصق بالكعبة، فقام عمرُ بتأخير مقام إبراهيم عن البيت قليلاً، ليسهلَ حركةَ الطواف.

وما زال ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ موجوداً قرب الكعبة، ومركبٌ عليه إطارٌ زجاجي، مقابلَ باب الكعبة، وما زال المصلّون من رواد البيتِ الحرام طائفين وعاكفين ومعتمرين يتخذونَه مصلّى.

وما زالتْ آثارُ قدميْ إبراهيم عليه السلام موجودةً على ذلك الحجر. وكأنها محفورة فيه حفراً. وما زالت الآياتُ البينات موجودةً في البيت الحرام، ومن أهمها مقامُ إبراهيم. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٤٨٣. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ١٠٩.

بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

أذان إبراهيم بالحج بعد بناء البيت:

وبعدما بنى إبراهيمُ وإسماعيلُ البيت، أذَّنَ إبراهيمُ بالحج، ودعا الناسَ إلى الحج إلى بيت الله الحرام. قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج: ٢٦ ـ ٢٧].

وأذانُ إبراهيمَ في الناس بالحج، هو دعوتُهم للحج وزيارةِ البيت الحرام، أفضلِ وأشرفِ وأقدسِ مكانٍ على وجه الأرض. وقد كلفَ اللَّهُ العربَ بعد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بالحج إلى البيت.

وقام المؤمنون الموحدون منهم بالحج إلى البيت، منهم مَن أَتى راجلاً ماشياً، ومنهم مَن أتى راكباً على راحلةٍ ضامرة، وقدِمتْ وفودُ الحجاج من الحجاز واليمن ونجد وغيرها.

وحتى بعدما طرأ الشركُ بالله على الأجيال اللاحقة من أولئك العرب، ظلَّ الحجُّ راسخاً فيهم، واستمروا يأتون إلى الكعبة للحج.

وبعدما بعث اللَّهُ محمداً رسولاً عليه الصلاة والسلام، أمر اللَّهُ المسلمين بالحج، وجعله ركناً من أركان الإِسلام.

وهذه الوفودُ القادمةُ للحج منذ إسماعيل عليه السلام، وحتى قيام الساعة، وهي تفسيرٌ عمليٌّ لقوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾.

إبراهيم يدعو لمكة والرسول يدعو للمدينة:

وبعدما أتمَّ إبراهيمُ بناءَ الكعبة، دعا اللَّهَ لها ولأهلها، وجعلَها حراماً يحرمُ القتال فيها. وحَرَّم صيدَها وشجرَها، وحددَ حدودَ الحرم، وكان هذا بوحي الله إليه.

وقد أخبرنا رسولُ الله ﷺ أن إبراهيمَ حرمَ مكة ودعا لها. وأن رسولَنا عليه الصلاة والسلام قد حرم المدينة ودعا لها.

روى الإِمامُ مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (خرجْنا مع نبيِّ الله ﷺ، حتى قدِمْنا عَسْفان، فأقامَ بها ليالي.

فقال الناس: واللّهِ ما نحنُ هنا في شيء، وإنَّ عيالنا لَخلُوف، ما نأمنُ عليهم!

فبلغَ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: «ما هذا الذي بلَغَني من حديثكم؟ والذي نفسي بيده، وإنْ شئتم لآمُرَنَّ بناقتي تُرَحَّل، ثم لا أحلُّ لها عقدة، حتى أقدمَ المدينة.

اللهمَّ إن إبراهيمَ حرمَ مكة، فجعلَها حرماً، وإني حرَّمتُ المدينة، ما بين مَأْزَمَيْها، وأنْ لا يُهراقَ فيها دم، ولا يُحملَ فيها سلاح لقتال، ولا يُخْبَطُ فيها شجرٌ إلا لَعَلَف..»)[1].

وروى الإِمامُ مسلم أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (كان الناسُ إذا رأوا أولَ الثمرِ جاؤوا به إلى النبي ﷺ، فإذا أخذه رسولُ الله ﷺ قال: «اللهمَّ باركْ لنا في ثَمَرنا، وباركْ لنا في مدينتنا، وباركْ لنا في صاعنا، وباركْ لنا في مُدِّنا. اللهمَّ إنْ إبراهيمَ عبدُك وخليلك ونبيك، وإني عبدُك ونبيك، وإنه دعاك لمكة، وإني أَدعوك للمدينة، بمثل ما دعاك لمكة..»)[2].

لقد امتنَّ اللّهُ على العرب الكافرين بأنه استجابَ دعوةَ إبراهيم للحرم وأهله، فجعلَ مكةَ بلداً آمناً مطمئناً، وعليهم أن يشكروا اللّهَ على هذه النعمة، فيؤمنوا به وحده، ويتبعوا رسولَه محمداً ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٣٧٤. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ١١٤.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ١٣٧٣. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ١١٥.

قـال تـعـالـى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [القصص: ٥٧].

وقـال تـعـالـى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [العنكبوت: ٦٧].

إبراهيمُ عليه السلام هو الذي بني الكعبة بنصِّ الآياتِ والأحاديث السابقة. ولما انتهى من البناء، ودعا الناسَ إلى الحج، عاد إلى مكانِ إقامته في فلسطين.

الأقصى بني بعد الكعبة بأربعين سنة على يد إبراهيم:

وبعد بنائِه الكعبةَ بفترة، قام ببناءِ المسجدِ الثاني المبارك المقدس، وهو المسجدُ الأقصى في بيت المقدس، فإبراهيمُ هو باني الكعبة، وإبراهيمُ هو باني الأقصى.

وقد أخبرَنا بذلك رسولُ الله ﷺ، فروى البخاريُّ ومسلم عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: (قلت: يا رسولَ الله، أيُّ مسجدٍ وُضِعَ في الأرض أولاً؟.

قال: «المسجدُ الحرام».

قلت: ثم أيّ؟.

قال: «المسجد الأقصى».

قلت: كم كان بينهما؟

قال: «أربعون سنة»...[1].

إن هذا الحديثَ الصحيحَ يدلُّ على إنَّ إبراهيمَ عليه السلام هو باني الكعبة والأقصى، ويحددُ المدةَ الزمنية بين بنائهما بأنها أربعون سنة.

---

(١) أخرجه البخاري برقم ٣٣٦٦. ومسلم برقم: ٥٢٠.

وهذا معناه أن الأقصى بُني في القدس، قبلَ وجود بني إسرائيل، وقبلَ دخولِهم فلسطين بعد موسى عليه السلام، وقبل ملْكِ داود وسليمان، وقبل بناءِ سليمان للهيكل كما يزعم اليهود.

فكونُ القدس بلداً إسلامياً هذا أمرٌ قديم، منذ إبراهيمَ عليه السلام على الأقل، وبناءُ الأقصى مسجداً لله تعالى، هذ قديم، قبل أنْ يوجَدَ اليهود، ويَدّعوا أن لهم حقاً في فلسطين بمئات السنين. فحق المسلمين في القدس سابقٌ لأي حقٍّ يهودي أو نصراني ـ إن كان لليهود أو النصارى حق فيها ـ. وهذا الحقُّ ثابتٌ لهم منذ أبيهم إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام.

ونعلمُ أن المسجدَ الأقصى الذي بناه إبراهيم عليه السلام قد عَدَتْ عليه العوادي، وأنه قد تهدَّم، ولكن مكانَه بقي معروفاً، وبقي «أقصى»، وبقي مقدساً والرسولُ ﷺ أَمَّ الأنبياءَ في الصلاة، على أطلال بناءِ الأقصى، في ليلةِ الإسراء والمعراج، ثم قام المسلمون ببناءِ الأقصى في عهد الأمويين، أو قاموا بتجديدِ بنائه ـ على الأصح! ـ.

ولما عادَ إبراهيمُ عليه السلام إلى بيت المقدس ـ بعد بنائه الكعبة ـ بقي ابنُه إسماعيلُ عليه السلام مقيماً في مكة حول البيت، مشرفاً على الطائفين والقائمين والعاكفين والحجاج.

إسماعيل نبي للعرب ومهارته في الرمي:

وقد بعث اللّهُ إسماعيلَ عليه السلام نبياً إلى العرب، يدعوهم إلى الله، ويأمرهم بالصلاة والزكاة. قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: ٥٤ ـ ٥٥].

ولم يبعث اللّهُ من نسلِ إسماعيل إلا نبياً واحداً هو أفضلُ وأشرفُ وخاتمُ الأنبياء والمرسلين، محمدٌ ﷺ، بينما بعثَ أنبياءَ كثيرين من نسل إسحاقَ عليه السلام، هم أنبياءُ بني إسرائيل.

روى مسلمٌ عن واثلةَ بن الأسقع رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل اصطفى من ولدِ إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم...»[1].

يخبرُنا رسولُ الله ﷺ في هذا الحديث عن أنَّ اللّهَ عز وجل قد اصطفى محمداً عليه الصلاة والسلام اصطفاءً خاصاً، من سلالةٍ طاهرة. من نسلِ إسماعيل عليه الصلاة والسلام: إسماعيل، ثم كنانة، ثم قريش، ثم هاشم، ثم محمد ﷺ، فهو خِيارٌ من خِيار من خيار.

وأخبرَنا في حديثٍ آخر عن مهارةِ إسماعيلَ عليه السلام في الرمي. فقد روى البخاري عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: (خرجَ رسولُ الله ﷺ على قوم من أَسْلَم يتناضلون بالسوق.

فقال عليه الصلاة والسلام: «ارْموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً، وأنا معَ بني فلان.

فأَمسكوا بأيديهم، فقال: «ما لَهم؟».

قالوا: كيفَ نرمي وأنتَ مع بني فلان؟

قال: «ارموا، وأنا معكُم كُلُّكُم»)[2]

إن الرسولَ ﷺ رأى فريقين من المسلمين يتباريان ويتسابقان في الرماية، والانتضالِ بالسهام، فشجَّعَهم ووقفَ يرمي معهم.

وأَخبرهم أن أَباهم إسماعيلَ كان ماهراً بالرماية، فقال لهم: «ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً».

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٧٧٦. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ١٠٢.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٢٨٩٩. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٩٩.

[٢١]

إبراهيم وإسحاق عليهما السلام

إسحاقُ عليه السلام هو الابنُ الثاني لإبراهيم، وقد بشَّره اللَّهُ به ووهبه له على كبر، وكان ابنُه الأول إسماعيلُ نبياً، وكان رجلاً متزوجاً، فبين إسماعيل وإسحاق سنواتٌ عديدة، الله أعلم بمقدارها.

ولما بُشر إبراهيمُ بإسحاق كان إبراهيمُ مقيماً في فلسطين، وكان شيخاً كبيراً، وامرأتُه سارة عجوزٌ عقيم.

وقد أرسلَ اللَّهُ لإبراهيم نفراً من الملائكة، في صورةِ رجال، وكانوا في طريقهم لتدمير قوم لوطٍ الشاذين، فلم يعرفْ إبراهيمُ حقيقتهم، وظنَّهم ضيوفاً، وقدَّم لهم طعاماً، فلم يأكلوا منه، وأخبروه عن مهمتهم، وبشَّروه بإسحاق نبياً من الصالحين.

وقد وردت قصةُ إبراهيم مع ضيوفه الملائكة في القرآن، في أكثر من سورة.

[٢٢]

١ ــ قصته مع الملائكة في سورة هود:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ

عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴿٧٦﴾ [هود: ٦٩ ـ ٧٦].

تخبرُ الآياتُ عن قدوم الملائكة لإبراهيم عليه السلام في صورة بشر، ولم يعرفهم، فظنَّهم رجالاً ضيوفاً، وقدمَ لهم طعاماً، فلم يأكلوا منه.

من دلالات قصته مع الملائكة:

وفي هذا عدةُ دلالات، منها:

ـ الملائكةُ تتحوَّلُ إلى صورة البشر، حيث أَقدرهم اللَّهُ على ذلك، فَهَا هُمُ الملائكةُ عند إبراهيم في صورة رجالٍ بشر، وجبريل عليه السلام لما أرسله اللَّهُ إلى مريم رضي الله عنها، تمثَّل لها بشراً سوياً. ونعلم أن جبريلَ كان يأتي للرسول ﷺ أحياناً في صورةِ رجلٍ غريب، وأحياناً في صورةِ الصحابي دِحْيَة الكَلْبي رضي الله عنه.

ـ إبراهيمُ عليه السلام لم يعرفْ أن هؤلاء الرجالَ الذين أمامه هم ملائكة، لأن اللَّهَ لم يخبره، والأنبياءُ لا يعلمون كل شيء، ولا يعلمون من الغيبِ إلا ما أعلمهم الله إياه، ولا يَضيرُهم ولا يَعيبُهم أن لا يعرفوا بعضَ الأشياء، التي لم يُعلِّمهم الله إياها.

ـ سرعةُ تقديم الطعام لهم دليلٌ على كرم إبراهيم عليه السلام، وإسراعِه في قِرى ضيوفه وتكريمهم، فهو أبو الضِيفان، وقد كان كرمه عليهم غامراً، حيث قدمَ لهم عجلاً مشوياً، مع أن عددهم قليل.

لم يأكل الملائكةُ من العجل المشوي، وفي هذا دلالة أن الملائكةَ لا يأكلون ولا يشربون، ولا يجوعون ولا يعطشون، ولا يبولون ولا يتغوطون، ولا يعتريهم ما يعتري بني آدم، ولا يحتاجون إلى ما يحتاجُه بنو آدم، فهم خَلْقٌ، خلقهم الله من النور.

ونُلقي على آيات سورة هود نظرات سريعة:

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾: أرسلنا رسلَنا من الملائكة

إلى إبراهيم في صورة بشر، ليبشّروه البشرى التي تسرُّه، وهي ولادةُ ابنه إسحاق له، من زوجه سارة العقيم.

وكلمة ﴿رُسُلُنَآ﴾ مبهمة غيرُ محددة، لم تحدِّدْ لنا عددَ هؤلاء الرسل الملائكة، ويجبُ أن نُبقيَ عددهم على إبهامه، فلا نحاول تحديدَه. وسماهم اللّهُ رسلاً، لأنهم مبعوثون في رسالةٍ ومهمة خاصة، لتحقيقِ قدَرِ الله وقضائه.

﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ﴾: قابل الملائكةُ إبراهيمَ وهم في صورة بشر، فحيُّوه قائلين: ﴿سَلَٰمٗاۖ﴾. أي: نسلمُ عليك سلاماً.

فردَّ على تحيتهم بتحيةٍ أحسن منها، حيث قال: ﴿سَلَٰمٞۖ﴾. أي: سلام عليكم. والعدولُ عن نصْبه ﴿سَلَٰمٗاۖ﴾ إلى رفعه ﴿سَلَٰمٞۖ﴾ في ردِّه، ليدلَّ على تمكنٍ ورسوخٍ وتحقيقٍ وثباتٍ أكثرَ للسلام من طرفه هو.

﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ﴿٦٩﴾﴾ أكـرَمَ إبـراهـيـمُ ضـيـوفَـه مباشرة، ثم سارعَ بذبح عجل سمين، وشواه شيّاً، وما هي إلا فترة قصيرة، حتى رأوا العجل مشوياً أمامهم.

والحنيذ هو: المشويُّ على الحجارة المحْماة بالنار، التي في «الطابون»، وتسمى «الرّضف».

قال ابن فارس: «الحَنْذُ: إنضاجُ الشيء. يقال: شواء حنيذ: منضَج. وذلك بأن تُحمى الحجارة، وتوضَع عليه حتى ينضج..»[(١)].

وتقديمُ إبراهيم عجلاً مشوياً ناضجاً لهم فورَ دخولهم عليه، دليلٌ على كرمه، ومبالغةٌ في إكرامه لهم. فكان يكفيه أن يقدمَ لهم شيئاً من اللحم، أو يقدمَ لهم خروفاً، أما أن يقدمَ لهم عجلاً، فهذا لا يصدرُ إلا عن رجلٍ كريم!

---

(١) مقاييس اللغة ٢: ١٠٩.

الملائكة يخبرونه بمهمتهم وفرح سارة:

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ لم يمدّ الضيوفُ أيديهم إلى العجل المشوي، ولم يأكلوا منه. فلما رأى إبراهيمُ ذلك من ضيوفه نَكِرَهم واستغربَ من أمرهم.

لماذ لا يأكلون من طعامِه الشهي؟ وهم مسافرون بحاجةٍ للطعام، وهم ضيوفُه، وقدمَ لهم طعاماً من أجودِ الطعام. إنَّ عدمَ أكلهم منه يدعو إلى الإنكار والاستغرابِ والعجب، وهو يوجِدُ التوجسَ والتخوف، فلعل هؤلاء الضيوف يريدون الشرَّ بإبراهيم، ولذلك لم يتناوَلوا طعامه، ولم «يمالحوه»!

﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ لاحظ الضيوفُ تخوُّف إبراهيمَ منهم، فأرادوا طمأنته، وأَخبروه عن طبيعتهم ليطمئن، إنهم لم يأكلوا عنده لأنهم ملائكة، والملائكةُ لا يأكلون الطعام، فلا يخفْ منهم.

﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ بعدما قدَّموا له أنفسهم باعتبارهم رسلاً من عندِ الله، أَخبروه عن مهمتهم. لقد أرسلَهم اللّهُ إلى قوم لوط الشاذين الكافرين، لإهلاكهم وتدميرِهم.

وقومُ لوط كانوا يسكنون إلى الشرقِ من فلسطين.

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾: كانت امرأةُ إبراهيمَ سارة رضي الله عنها واقفة، قائمةً على خدمةِ ضيوف زوجها والترحيبِ بهم، واطمأنت لما علمتْ أنهم ملائكة، ولما سمعت بمهمتهم في إهلاك قوم لوط ضحكتْ وفرحتْ وسُرَّت بذلك.

إنها تعلمُ مَنْ هم قومُ لوط، وتسمعُ عن كفرهم وضلالهم، وتسمعُ عن انحرافِهم وشذوذهم، وتسمعُ عن إتيانهم الرجال وارتكابهم اللواط، وكم ساءَها ذلك منهم، وكم تمنتْ تدميرَهم وتعذيبهم.

والآن حلَّ بهم أمرُ الله، وها هي الملائكةُ في طريقها إليهم

لإهلاكهم، وبعد قليل سيدمَّرون، لذلك ضحكتْ سارةُ العجوزُ العقيمُ المؤمنة، وفرحت وسرت بذلك.

فضحكُها ضحكٌ حقيقي يقومُ على الفرح والسرور. ولا نوردُ هنا الأقوالَ السخيفةَ التي تحملُ الضحكَ على الحيض، ولا نناقشُ القولَ المتهافت الذي يقول: إنَّ ضحكَ سارة هو حيضُها وهي واقفة، ومجيءُ العادة الشهرية لها بعدما بلغت سنَّ اليأس، فهذا لا يستحقُّ مناقشته، وإظهارَ بطلانه.

حمل العقيم بين السنن البشرية وإرادة الله:

﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾: لما رأى الملائكةُ ضحكَ سارة وسرورها، أرادوا المبالغةَ في تبشيرها لتزدادَ فرحاً وسروراً، فأخبروها بما قدَّره الله لها من النعمة، إنها ستلد ولداً، رغم بلوغها سنَ اليأس، وتُسميه إسحاق، وستبقى هي وزوجُها إبراهيم موجودَيْن، ليشاهدا حفيدَهما يعقوب!

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾: فوجئتْ سارةُ بهذه البشارة. فكيف ستلد؟ إن الأسبابَ المادية تجعلُ هذا مستحيلاً، إنها عجوزٌ عقيم، لقد بلغتْ سنَّ اليأس، وأصبحتْ عقيماً، وانقطعت دورتُها الشهرية، وتوقفَ المبيضُ عن إنتاج البويضةِ القابلة للإخصاب، فكيف ستلد؟ إن هذا لشيءٌ عجيبٌ غريب مدهش، يدعو إلى الدهشة والاستغراب، لأن المقاييسَ البشرية تأباه. فكيف سيحصلُ ذلك؟.

﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾: لعل سارةَ المؤمنةَ الصالحة، وقعتْ تحتَ تأثير المفاجأة والدهشة، فنسيتْ قدَر الله، وأنَّ اللّهَ فعالٌ لما يريد، فذكَّرتها الملائكةُ بهذا الأصلِ الإيماني، ولهذا ردوا على تعجبها قائلين: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾؟.

إنِ المقاييسَ والسنن البشرية في الحمل والإنجاب تحكمُ البشر، فلا يملكون مخالفتها أو الخروجَ عنها، لكنها لا تحكم اللَّهَ، ولا تُلزمه، لأن اللَّهَ هو الذي وضعها وقدَّرها، ويَخرقُها متى شاء، ويكون خرقُه لها معجزة.

أَتعجبينَ من أمرِ الله؟ والله هو الذي شاءَ أن تحملي رغم أنك عجوزٌ عقيم، وشاءَ اللَّهُ أنْ تلِدي إسحاقَ نبياً، وشاءَ اللَّهُ أن تستمر حياتُك أنت وإبراهيم حتى تُدركا حفيدَكما يعقوب! لقد شاءَ اللَّهُ ذلك وقدَّره، وما قدَّره الله فلا بدَّ أن يتحقق، لأن اللَّهَ فعالٌ لما يريد، ولا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء فلا تعَجَبي ولا تستغربي ولا تستبعِدي أمْرَ الله!

﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾: وهذا ثناءٌ من الملائكةِ الضيوفِ على إبراهيم وأهل بيته، لأنه بيتٌ مبارك صالح، وأهلُه مؤمنون صالحون، وقد أنزلَ اللَّهُ عليهم رحمتَه، وأحلَّ عليهم بركاته، واللَّهُ حميدٌ مجيد، مستحقٌّ للتحميد والتمجيد والثناء دائماً.

وبذلك أكرمَ اللَّهُ إبراهيمَ وزوجه سارة بابنهما إسحاق عليه السلام. ورزقهما إِياه على كبرٍ منهما!

[٢٣]

٢ ـ قصة إبراهيم مع الملائكة في سورة الحجر:

قال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر: ٥١ ـ ٥٦].

يأمرُ اللَّهُ رسولَه ﷺ أنْ ينبئ ويخبرَ قومَه عن ضيوف إبراهيمَ عليه

السلام، وإنباؤه عن قصتهم مع إبراهيم دليلٌ على أنَّ القرآن كلامُ الله، وليس من تأليفهِ هو، فمن أدراه بقصتهم مع إبراهيم، ومِن أين عرفَها وهو أُميّ؟ إنَّ إخبارهم بها دليلٌ على أن ما يسمعونه منه هو كلامُ الله.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾: سلَّموا على إبراهيم لما دخلوا عليه، فردَّ عليهم التحيةَ بأحسنَ منها، كما ذكرتْ آياتُ سورة هود.

﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ﴾: لما قدمَ لهم الطعامَ فلم يأكلوا منه، وجِلَ منهم، وأوجسَ منهم خيفة، وصارحهم بقوله: إنا منكم وَجِلون خائفون.

إسحاق غلام عليم والرد على استغراب إبراهيم:

فطمْأنوه بانْ عرَّفوه على طبيعتهم، وقالوا له: لا توجَلْ ولا تخف.

﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ﴾: بعد أن طمأنوه بما أزالَ وَجَلَه وخوفَه، قدموا له بشارةً سارة، وهي أن الله سيهبُ له غلاماً صالحاً، وهذا الغلامُ سيكون عليماً.

والغلامُ الذي بشروه به هو إسحاق عليه السلام، كما صرحتْ بذلك آيات سورةِ هود وغيرها. وقد وصفَه اللَّهُ بالعلم في أكثر من آية.

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾: تسجلُ هذه الآيةُ عجبَ ودهشة إبراهيم عليه السلام لما سمعَ البشارة، وقد سجلت آياتُ سورة هود دهشةَ وعجبَ زوجِه سارة، لما سمعت البشارة.

يقولُ إبراهيمُ لهم: أبشرتموني بالغلام بعدما مسَّني الكبر، وأصبحتُ شيخاً عجوزاً، وامرأتي عقيماً، فما هذه البشارة؟ وكيف سيكونُ ذلك؟

﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾: ردّوا على إبراهيمَ النبيَّ بما يزيلُ عجبه ودهشَتَه، وأخبروه بأنهم بشروه بالحق. أي أن هذه البشارةَ ليست

اجتهاداً منهم. وإنما هي من الله، واللَّهُ هو الذي أمرهم أن يُبشِّروه بها. فاللَّهُ قدَّرَ وأرادَ أنْ يهبَه الغلامَ العليم، وهو شيخٌ كبير، وزوجُه عجوز عقيم، ولا رادَّ لأمْرِ الله. فهذا هو الحقُّ الذي لا بدَّ أن يقعَ ويحصلَ ويتحقق.

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾: ذكَّروه بأن لا يقنطَ من رحمةِ الله، وعليه أنْ يكلَ الأمرَ إليه!

صحيحٌ أن ولادةَ ولدٍ له بعد هذا العمر الطويل، وبعد أنْ صارت امرأتُه عقيماً، غيرُ ممكنٍ عادة، وفوقَ الأسبابِ المادية، وأنَّ مَنْ نظر إلى المسألة من زاويةِ الأسبابِ المادية يقنط، ولا يأملُ أنْ يأتيه الولد.

لكن عندما يُنظرُ إلى المسألة من زاوية القدرة الإلٰهية والإرادة الربانية، فإنه لا يقنطُ ولا ييأس من حصولِ الولد، لأن اللَّهَ فعّال لما يريد.

وعلى إبراهيمَ أن ينظرَ إلى هذه البشارة بالمنظارِ الثاني، فلا يقنطُ ولا ييأس.

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾: فهِمَ إبراهيمَ عليه السلام إشارةَ الملائكة وتذكيرَهم، وأزال عجبَه ودهشته، وصرحَ بأنه غيرُ قانط ولا يائسٍ من رحمة الله، لأنه لا يقنطُ من رحمةِ ربه إلا القوم الضالون الكافرون. أما المؤمنون فإنهم يتعاملونَ مع رحمةِ الله وقدره بإيمانٍ ويقين، وينظرون إلى الأقدارِ والأحداث القادمة بأملٍ وانشراح.

وبذلك أيقنَ إبراهيمُ عليه السلام أن اللَّهَ سيهبه غلاماً عليماً.

[٢٤]

٣ ـ قصة إبراهيم مع الملائكة في سورة الذاريات:

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ

﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ [الذاريات: ٢٤ ـ ٣٠].

ضيوفه قوم منكرون وسارع بإكرامهم:

يخبرُ اللّهُ في هذه الآيات رسول الله ﷺ عن قصة إبراهيم مع الملائكة، ويبدأ الخبرُ بصيغة ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾. أي: سنخبرك الآنَ بحديثِ ضيف إبراهيم.

ووصفهم اللّهُ بأنهم مكرمون: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾. لأنهم ملائكة، والملائكةُ مكرمون عند الله.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾: تحيةٌ متبادَلة بينه وبينهم، مع أن تحيتَه لهم آكدُ وأبلغ.

ثم قال لهم: أنتم ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾: أي: غيرُ معروفين عندي. فمن أنتم؟

لم يَعرفْ أنهم ملائكة، لأنهم رجالٌ بشَر، ولم يعرف من أين أتوا، وأيُّ نوع من الرجال هم، ومِن أي قبيلة هم. إنهم مُنكَرون عنده لأنه لم يحددْ هويتهم!

ومع ذلك فقدْ سارعَ بإكرامهم، لأنه كريم، وحقُّ الضيف الإكرامُ والإطعام، ولو لم يعرفْه صاحبُ البيت: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾.

وكلمة «راغ» تدلُّ على الذهاب بسرعةٍ وخفية وخفة، وبدون تلكُّؤ أو تأخير، فترَكَ ضيوفَه مسرعاً، وراغَ إلى أهله، وأمرهم بإعدادِ وتجهيزِ عجلٍ سمين، وشَيِّه على الحجارة، ليكون عجلاً حنيذاً.

وجهزَ أهلُه العجلَ المشوي، وقدمه إبراهيمُ لضيوفه: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴿٢٧﴾﴾.

ودعاهم إلى الأكلِ من الطعام، ولكنهم لم يأكلوا: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وخشيَ منهم الأذى والكيد، فقد يكون عدمُ أكلهم لأنهم يريدونَ به سوءاً، ويبيِّتون له شراً.

﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾. أزالوا خوفه، وقضوا على توجُّسِه، عندما كشفوا عن هويتهم، فهم ملائكةٌ رسلٌ من الله.

ثم بشروه بغلام عليم. والتقت آياتُ سورتي الحجر والذاريات على وصفِ إسحاقَ بالعلم.

ولادة العجوز العقيم بأمر الحكيم العليم:

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴿٢٩﴾﴾ لما سمعت سارةُ البشارةَ فوجئتْ ودُهشتْ واستغربت: كيف سيكون هذا؟ بعلُها شيخٌ طاعن في السن، وهي عجوز عقيم لا تلد! فكيف ستلد غلاماً عليماً؟

وبحركةٍ عفوية غيرِ مقصودة، وبدون وعي أو شعورٍ أو انتباه، ضربتْ وجْهَها بيدها ﴿فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾، وهذه حركةٌ تصدرُ عن الإِنسان عندما يكون في غايةِ التأثر أو الدهشة أو الانفعال.

ضربتْ وجهها بيدها، وقالت لهم مستغربة: أنا عجوزٌ عقيم.

والعقيمُ هي التي لا تلد، ولم يسبقْ لها أنْ ولدتْ أو أنجبت، فكيف ستلدُ بعد ذلك؟

وقد جمعتْ في قولها: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ بين مانِعَيْن من موانعِ الولادة، وهما: العجزُ والعُقم. فلو كانت شابةً عقيماً فلن تلد، فكيفَ إذا بلغت سنّ اليأس وصارت عجوزاً؟ إن المرأةَ التي سبقَ أنْ ولدت، لن تلدَ عندما تصبحُ عجوزاً، فكيف التي لم تلدْ في شبابها ستلدُ في عجزها وشيخوختها؟

﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾. أحالوها على إرادةِ الله، ليزولَ استغرابُها وتعجبُها، إنها إرادةُ الله، أن تلدَ وهي عجوزٌ عقيم، وإرادةُ الله نافذة، والله حكيمٌ عليم، فعالٌ لما يريد.

[٢٥]

حديث القرآن عن إسحاق عليه السلام

مواضع ذكر اسم إسحاق في القرآن:

ذُكرَ إسحاقُ في القرآن سبعَ عشرة مرة. في سور: البقرة وآل عمران والنساء والأنعام وهود ويوسف وإبراهيم ومريم والأنبياء والعنكبوت والصافات وص.

ففي سورة البقرة ذُكر اسمُه ثلاثَ مرات، ضمن ذكر مجموعةٍ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والآيات التي ذكر فيها هي: ١٣٣، ١٣٦، ١٤٠.

وفي سورة آل عمران ذُكر اسمه مرةً واحدة. في سياق ذكر مجموعة من الأنبياء أيضاً، جاء هذا في آية: ٨٤.

وفي سورة النساء أيضاً ذُكر ضمن أسماء الأنبياء في آية: ١٦٣.

وفي سورة الأنعام مرةً واحدة في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ [الأنعام: ٨٤].

أي: وهبَ اللّهُ لإبراهيم ابنَه إسحاق، وحفيدَه يعقوب، وهداهما وجعلهما نبيَّيْن.

وفي سورة هود ذُكر مرتيْن في سياق بشارة سارة بإسحاق ثم يعقوب: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾.

وفي سورة يوسف ذُكر مرتين:

في المرة الأولى: عند حديثِ يعقوبَ لابنه يوسف الصغير عندما

رأى الرؤيا: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ...﴾.

وفي المرة الثانية: أثناءَ بيانِ يوسف عليه السلام دعوتَه وعقيدتَه للسجينيْن اللذيْن كانا معه في السجن، حيث قال لهما: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ...﴾.

وفي سورة إبراهيم وردَ اسمه في دعاء إبراهيم لربه شاكراً له، لأنه وهب له ولديه أثناء كبره وشيخوخته: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾.

وفي سورة مريم: ذُكر أثناءَ الحديث عن اعتزالِ إبراهيم لقومه الكافرين، فكافأه اللّهُ على ذلك الولاء والبراء، بأنْ وهبَ له إسحاق ويعقوب: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾.

وفي سورة الأنبياء: أخبرنا اللّهُ أنه وهبَ لإبراهيم إسحاق، ووهبَ له بعده يعقوب. قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

وتشيرُ هذه الآياتُ إلى أن اللّهَ وهبَ لإبراهيم ابنَه إسحاق بعد هجرته إلى الأرض المقدسة.

وقوله: ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾: بشرناه بيعقوبَ زيادةً على تبشيره بإسحاق. وقلْنا له: سيولَدُ لك إسحاق، وستبقى حياً حتى يكبرَ ويتزوج، ثم ينجبَ ابنه يعقوب، وترى أنت حفيدَك يعقوب.

وفي سورة العنكبوت: أخبر اللّهُ أنه وهبَ لإبراهيم إسحاق ويعقوب، وجعلَ النبوة في ذريته: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى

ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٢٧)﴾.

وفي سورة الصافات: أخبرنا الله أنه بشرَ إبراهيمَ بإسحاق، بعد قصته مع إسماعيل في الذبح والفداء: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١١٢) وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ (١١٣)﴾.

وفي سورةِ صَ ذُكر في آية [٤٥] ضمن مجموعةٍ من الأنبياء، عليهم السلام.

مبهمات في قصة إسحاق:

ولا نعرفُ من قصة إسحاق عليه السلام إلا ما أخبرَنا اللّهُ به في القرآن، ولا نبحثُ عن إِضافاتٍ أو تفصيلات في المصادرِ غيرِ المأمونة، كالإِسرائيليات وغيرها.

وهناك مبهماتٌ كثيرةٌ في قصة إسحاق عليه السلام، من حيث تفاصيلُ ولادته، وشبابه وأماكنُ إقامته، وصِلتُه بأبيه إبراهيم، وزواجُه وأولاده، ونبوتُه ودعوته، وحياته ووفاته!

وهذه المبهماتُ نُبقيها على إبهامها، ولا نخوضُ في تحديدها وتبيينها، وَنَكِلُ العلمَ بها إلى الله.

[٢٦]

من مواقف إبراهيم عليه السلام

أثنى اللّهُ على إبراهيم عليه السلام الثناءَ الجميل، في أكثرَ من موضعٍ في القرآن، وأشادَ بمواقفهِ الإيمانية والدعوية العظيمة، وأشارَ إلى آثارِه ونتائج دعوته في الحياة.

ونَعرضُ فيما يلي بعضَ الآيات وبعضَ الأحاديث الصحيحة التي تشيرُ إلى ذلك، إضافةً إلى ما سبق إيرادُه في المسائلِ والمباحث

السابقة، وما سبق ذكْرُه لا نعيدُه منعاً للتكرار.

١ ـ إبراهيم حليم أواه منيب:

وردتْ آيةٌ في قصة إبراهيم عليه السلام في سورة هود، أثناءَ الحديثِ عن جدال إبراهيم في قوم لوط. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾.

«حليم أواه منيب»: هو مفتاحُ شخصية إبراهيمَ عليه السلام، وقد أكدتْ على هذا المفتاح آيةٌ في سورة التوبة. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿حليم﴾ من الحلمِ وسَعة الصدرِ والأناة.

و﴿أَوَّٰهٌ﴾: كثير التأوُهِ والتحزُنِ والتخشُعِ من ذكره لله.

قال الإمام الراغب: «الأوّاه: الذي يكثرُ التأوُه. وهو أن يقول: أُوه، أُوه. وكلُّ كلام يدلُّ على حزن يقال له التأوّه. ويُعبَّر بالأوّاه عمن يُظهر خشيةَ الله...»[1].

و﴿مُّنِيبٌ﴾ من الإنابة، وهي الرجوعُ الدائمُ المستمرُّ إلى الله.

قال الإمام الراغب: «النوب: رجوعُ الشيء مرةً بعد أخرى.. والإنابةُ إلى الله تعالى: الرجوعُ إليه بالتوبة وإخلاص العمل..»[2].

إنها صفاتٌ ثلاثٌ لإبراهيم عليه السلام: الحلمُ والتأوُه والإنابة. إنه حليمٌ مع الناس، وأوّاه متحزّن متخشّع مع نفسه، ومنيبٌ دائمُ الإنابة والعودة إلى الله.

---

(١) المفردات: ١٠١.

(٢) المفردات: ٨٢٧.

هدوء إبراهيم وحلمه في قصته:

وهذا الظلُّ الكريمُ هو الذي يظلِّلُ كلَّ مشاهدِ ولقطاتِ قصته في القرآن. إنه حليمٌ هادئ متسامح، لا يحتدُّ ولا يغضب، ولا يسبُّ ولا يشتم.

هادئٌ حليم مع أبيه، كما بينتْ آياتُ سورة مريم.

وهادئٌ حليم مع قومه، عندما أبطلَ كونَ الكواكب آلهة، كما بينت آياتُ سورة الأنعام.

وهادئ حليم في جدالِه مع الملك الكافر الظالم، كما ذكرتْ آيةُ سورة البقرة.

وهادئٌ حليم حتى عندما حطمَ الأصنام، فما حطمها عنفاً ولا تطرفاً، ولكن حطمها من بابِ الحلم، لأنه مشفقٌ على قومه، حريصٌ على إزالة الحواجز أمامهم، ليفتح لهم الطريقَ للإيمان.

وهادئٌ حليم، عندما أَلقوه في النار، فلجأَ إلى الله، وأنابَ إليه.

وهادئٌ حليم عندما أخذ ابنَه وزوجَه إلى بلاد الحجاز، ودعا اللّهَ دعاءً خاشعاً منيباً، كما عرضَتْ آياتُ سورة إبراهيم.

ويتجلى حلمُه وهدوءُه في هذا الدعاء: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥ ـ ٣٦].

إنه نموذجٌ ومثالٌ للحِلم والهدوء والإنابة والتسامح، وهو قدوةٌ في هذا لمن بعده من الصالحين.

٢ ـ ثناء الله عليه لأنه وفى توفية عامة:

قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى

وَفَّىٰٓ (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ (٤٢) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ (٤٧) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٨) وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ (٤٩) وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ (٥٢) وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٥) هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ (٥٦)﴾ [النجم: ٣٦ ـ ٥٦].

يُثني اللّهُ على نبيه إبراهيمَ عليه السلام، ويصفه بأنه ﴿وَفَّىٰٓ﴾. و«وَفَّىٰ» من التوفية، وأداءِ المطلوب كاملاً، وعدمِ إنقاص شيء منه.

والكلمة عامة: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ (٣٧)﴾. وذلك لتشملَ كل صورِ وحالاتِ التوفية والوفاء والإتمام.

وقد ذكرَ بعضُ العلماء نماذجَ وأمثلةً لهذه التوفية من إبراهيم عليه السلام، وذِكْرُهم لها من باب التمثيل، وليس من باب الحصرِ والتحديد.

إن إبراهيمَ قد وفَّى بكل ما عهدَ اللّهُ إليه، وأوجبه عليه، فقامَ به على أحسنِ وأفضلِ وأتمِّ صورة، سواء في العقيدة أو العبادة أو الدعوة.

كما أنه وفَّى بكل ما نهاه اللّهُ عنه، فوقفَ عند حده، لم يتجاوزه، ولم يرتكب شيئاً مما نهاه الله عنه.

وبعدما أثنت الآيةُ على إبراهيم لوفائه وتوفيته، ذَكرتْ بعضَ ما في صحف إبراهيم، وهي مما في صحف موسى أيضاً: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ (٣٧)﴾.

والأمثلةُ المذكورةُ في صحف إبراهيم وموسى توجيهاتٌ أخلاقية، وحثٌّ على فضائلَ سلوكيةٍ اجتماعية، وحقائقَ إيمانيةٍ اعتقادية، وعرضُ

بعضِ صفات الله وأفعاله سبحانه، وتذكيرٌ بالبعث والنشأة الأخرى، وإشارة إلى مصارع بعض الكفار السابقين، كعاد وثمود وقوم نوح وقوم لوط.

ويدل قوله: ﴿صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ على أن اللّهَ قد أنزلَ على إبراهيم وموسى صُحُفاً، كلها مواعظُ وعبرٌ وتوجيهات، وتقرير لحقائقَ ومبادئَ اعتقادية وإيمانية.

وقد عَرضتْ آياتٌ من سورة الأعلى لبعض ما في صحف إبراهيم وموسى. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

وقريبٌ من شهادة الله لإبراهيم عليه السلام بأنه وفّى، شهادتُه له بأنه قد نجحَ في الابتلاء الذي ابتلاه الله به، وأتمَّ الكلماتِ موضوعَ الابتلاء. وجاءَ هذا في قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤].

وسنعودُ إلى هذه الآية فيما بعد إن شاء الله.

٣ ـ إبراهيم خليل الله:

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥].

تقررُ الآية ـ عن طريقِ الاستفهام التقريري ـ أنه لا يوجَدُ عند الله مَن هو أحسنُ ديناً من ذلك المؤمن الصالح، الذي أسلمَ وجهه لله، وخضعَ لشرع الله، واستسلمَ لحكم الله، وكان محسناً في إيمانه وإسلامه، وفي استسلامِه وعبادته، وقد اتبعَ ملةَ إبراهيم عليه السلام، واقتدى به في دينه وإيمانه. وكان إبراهيمُ عليه السلام حنيفاً مسلماً.

﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾: تقريرٌ صريحٌ في هذه الآية بأن اللّهَ قد اتخذَ إبراهيمَ خليلاً.

معنى الخليل والخلة:

والخليلُ من الخُلَّة.

قال الإمام الراغب: «الخَلل: فرجةٌ بين الشيئين.

والخُلَّة: المودة. إما لأنها تَتَخَلَّلُ النفس، أي: تتوسَّطُها. وإما لأنها تُخلُّ النفس، فتؤثرُ فيها تأثيرَ السهم في الرمية. وإما لفرطِ الحاجةِ إليها.

يقال منه: خالَلْتُه مَخالّة وخَلالاً، فهو خَليل.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾.

قيل: سماهُ بذلك لافتقارِه إليه سبحانه في كل حال، وهو الافتقارُ المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] وعلى هذا الوجه قيل: اللهمَّ اغْنِني بالافتقارِ إليك، ولا تُفقرني بالاستغناءِ عنك.

وقيل: خليلٌ من الخَلَّة، واستعمالُها فيه كاستعمال المحبة فيه.

قال أبو القاسم البلخي[1]: هو من الخَلَّة، لا من الخُلَّة[2]، ومَنْ قاسَه بالحَبيبِ فقد أخطأ، لأن اللّهَ يجوزُ أنْ يُحبَّ عبدَه، فإنَّ المحبةَ منه الثناء، ولا يجوز أن يُخالَّه.

وهذا منه اشتباه. فإن الخُلَّةَ من تَخَلُّلِ الوُدِّ نفْسَه ومخالطتِه. قال الشاعر:

قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرّوحِ مني ... وبِهِ سُمِّيَ الخَليلُ خَليلا

(١) أبو القاسم هو: عبد الله بن أحمد البلخي الكعبي، من رؤوس المعتزلة.

(٢) الخَلّة بالفتح: الحاجة، والخُلّة بالضم: المحبة.

ولهذا يقال: تمازَجَ روحانا.

والمحبة: البلوغُ بالودِّ إلى حَبّةِ القلب. من قولهم: حَبَبْتُه: إذا أصبتُ حبةَ قلبه.

لكن إذا استُعملت المحبةُ في الله، فالمرادُ بها مجردُ الإِحسان. وكذا الخُلّة. فإنْ جازَ في أحد اللفظين جازَ في الآخر.

فأَمّا أنْ يُرادَ بالحب حَبَّةُ القلب، والخُلّةِ التخلُّلَ، فحاشا لَه سبحانه أنْ يُرادَ فيه ذلك..»[1].

الخليلُ إذن من الخُلَّة، والخلةُ هي المودةُ والمحبة. وخُلَّةُ اللّهِ للعبد ومحبتُه له هي إحسانُه إليه وإنعامُه عليه.

ونقاشُ الراغبِ للبلخي الكعبي المعتزلي في معنى الخُلة والمحبة طيبٌ وجيدٌ ولطيف، ويدلُّ على تبحُّرِه في فقه اللغة، والتزامِه مذهبَ أهلِ السنة في العقيدة.

وعلى ضوءِ هذا البيان لمعنى الخليل في اللغة، يكون معنى قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ أنَّ اللّهَ أنعمَ على إبراهيم عليه السلام إنعاماً خاصاً، وأحسنَ إليه إحساناً غامراً، واصطفاه وجعلَه إماماً، وخصَّه بمزيدٍ من الفضل، وجعلَ في ذريته النبوةَ والكتاب، وجعلَه أبا الأنبياء وإمامَ الصالحين.

إبراهيم خليل الله ومحمد خليل الله:

ولأنَّ اللّهَ اتخذه خليلاً. صارَ يسمّى «خليل الله». ولهذا سُميت مدينةُ «الخليل» بهذا الاسم، لأنه يقال: إنَّ إبراهيمَ عليه السلام مدفونٌ فيها.

وقد سماه رسولُنا ﷺ «خليلَ الله». جاءَ ذلك في معرض ثنائِه على يوسف عليه الصلاة والسلام.

---

(١) المفردات: ٢٩٠ ـ ٢٩١ بتحقيق صفوان داوودي.

روى البخاريُّ ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قيل: يا رسولَ الله: مَن أكرمُ الناس؟ قال: «أكرمُهم أتقاهم».

فقالوا: ليس عن هذا نسألُك.

قال: «فأكرمُ الناس: يوسفُ نبيُّ الله، ابنُ نبيِّ الله، ابنِ نبيِّ الله، ابنِ خليل الله».

قالوا: نعم.

قال: «فخيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام، إذا فَقُهوا..»)[١].

وإذا كان إبراهيمُ عليه السلام قد أكرمه الله بلقب «الخليل»، واتخذه خليلاً، فإنَّ هذا ليس خاصّاً به، فقد شاركَه في هذا الفضل نبيُّنا محمدﷺ، حيث اتخذَه اللّهُ أيضاً خليلاً.

روى البخاريُّ ومسلم عن جندب رضي الله عنه قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ قبلَ أن يموتَ بخمس، وهو يقول: «إني أبرأُ إلى اللّهِ أن يكونَ لي منكم خليل، فإنَّ اللّهَ قد اتخذني خليلاً، كما اتخذَ إبراهيمَ خليلاً. ولو كنتُ متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً. وإنَّ مَن كان قبلكم كانوا يتخذون قبورَ أنبيائِهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبورَ مساجد، إني أنهاكُم عن ذلك»[٢].

إبراهيمُ خليلُ الله، ومحمد أيضاً خليلُ الله، عليهما الصلاة والسلام.

٤ ـ معنى كون إبراهيم أمة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٥٣. ومسلم برقم: ٢٣٧٨. وانظر الأحاديث الصحيحة: ٨٨.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ١٩٠٤. ومسلم برقم: ٥٣٢. وانظر الأحاديث الصحيحة: ١٢٢.

ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٣].

يُثني اللّهُ في هذه الآيات على نبيِّه وخليلِهِ إبراهيمَ عليه السلام، ويصفُه بصفات المدح.

إنه «أُمَّةٌ»: يعلِّمُ الناسَ الخير، ويؤُمُّهم في الهدى، ويأتمّونَ به في الطاعة، ويقتدونَ به في الدعوةِ والعبادة.

وهو «قانت»: مطيعٌ لله، خاشعٌ منيب، عابدٌ ذاكر.

وهو «حنيف»: مؤمِنٌ موحد، تاركٌ للشرك، ملتزمٌ بالتوحيد.

وهو «شاكرٌ لأنعم الله»: فنِعَمُ الله عليه كثيرة، وعطاياه غامرة، وهو يقابلُ هذه النعمَ الجليلة بشكر المنعم سبحانه.

واللّهُ قد ﴿ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: اصطفاهُ اللّهُ وجعلَه نبياً وإماماً، وهداه إلى صراطه المستقيم، ودينِه القويم.

وقد مَنَّ اللّهُ على إبراهيم مقابلَ إخلاصِه وشكره فآتاه في الدنيا حسنة، وهي الحياةُ الطيبة، وأعدَّ له الثوابَ الجزيل والأجرَ الكثيرَ في الآخرة.

وأمرَ اللّهُ نبيه محمداً ﷺ باتباع ملة إبراهيم: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

لماذا وصفَ اللّهُ إبراهيمَ بأنه أمة؟ وما هو معنى الأمة؟

قال الإمامُ الراغب في معنى «الأمة»:

يُقالُ لكلِّ ما كان أصلاً لوجودِ شيء، أو تربيتِه، أو إصلاحِه، أو مبدئِه: أمّ.

وقال الخليل: كلُّ شيء ضُمَّ إليه سائرُ ما يليه يُسمى أُمّاً.

والأمة: كلُّ جماعة يجمعُهم أمْرٌ ما. إمّا دينٌ واحد، أو زمانٌ واحد، أو مكانٌ واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيراً أو اختياراً.

وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أي: قائماً مقامَ جماعةٍ في عبادةِ الله. وهذا نحو قولهم: فلانٌ في نفسه قبيلة.

وروي أن الرسولَ ﷺ قال: «إنه يُحشرُ زيدُ بن عمرو بن نفيل أمة وحده»[1].

كلام من تفسير الطبري في معنى أمة:

ويَطيبُ لي أن أوردَ بعضَ الروايات المأثورة، التي أوردَها الإِمامُ الطبريُّ في تفسيره، عن معنى «أمة»، وعن كيفيةِ كونِ إبراهيم أمة.

قال الطبري: إنَّ إبراهيمَ خليلَ الله كان معلِّمَ خير، يأتمُّ به أهلُ الهدى، وكان قانتاً مُطيعاً لله، وكان حنيفاً مستقيماً على دين الإِسلام.

وجاءَ أبو العبيدين إلى عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه فقال له: مَن نسألُ إذا لم نسألك؟ فرَقَّ له ابنُ مسعود، وقال: اسأل.

فقال له: أَخبرني عن الأمة.

قال ابن مسعود: هو الذي يعلمُ الناسَ الخير.

وعن فروةَ بن نوفلِ الأشجعي قال: «قال ابن مسعود: إنَّ معاذاً كان أمةً قانتاً للّهِ حنيفاً.

فقلتُ في نفسي: غلطَ أبو عبد الرحمٰن: إنما قال الله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾.

فقال ابنُ مسعود: تدري ما الأمة؟ وما القانت؟

---

(١) المفردات: ٨٦. وقال صفوان داوودي محقق الكتاب عن الحديث: أخرجه الطيالسي وأبو يعلى وإسناده حسن. قال سعيد بن زيد للنبي ﷺ: إن أبي كما رأيت وكما بلغك، فاستغفر له. قال: نعم، فإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده.

قلتُ: اللّهُ أعلم.

قال: الأمة: الذي يعلِّمُ الخير. والقانت: المطيعُ لله ورسوله. وكذلك كان معاذُ بن جبل يعلمُ الخير، وكان مطيعاً لله ورسوله.

وقال مجاهد: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾: كان على حِدة.

وقال قتادة: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾: كان إمامَ هدى مطيعاً، تُتَّبَعُ سنته وملته»[1].

إبراهيمُ أمةٌ عليه السلام، هو فرد واحد ولكن فعله كان فعلَ أمة، وكأنه اجتمعتْ في شخصه أمةٌ كاملة، وبقي أثره حياً في الأمة حتى قيامِ الساعة.

٥ ـ إبراهيم إمام عليه السلام:

قال تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤].

هذه الآيةُ ثناءٌ آخرَ من الله على إبراهيمَ عليه السلام، وفيها إخبارٌ بأن إبراهيمَ قد نجحَ في الابتلاء، وأتمَّ الكلماتِ التي أمره الله بها، فأكرمه اللّهُ بأن جعلَه إماماً وقصَرَ الإمامةَ في المؤمنين من ذريته، دون الظالمين منهم.

وهذه الآيةُ تمهيدٌ لآياتٍ تالية تتحدثُ عن المسجد الحرام وكونِه مثابةً وأمناً للناس، والأمرِ باتخاذ مقامِ إبراهيم فيه مصلى، ودعاءِ إبراهيمَ للبيت وأهله، وبناءِ إبراهيم وإسماعيل للبيت، ودعائهما أثناءَ البناء، وعن ملةِ إبراهيم ودينه، وأنه كان حنيفاً مسلماً، ولم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا مشركاً، وعن وصيتِه لبنيه بالإسلام، وإسلامِ الأنبياء الذين جاؤوا بعده.

---

(١) انظر تفسير الطبري ١٤: ١٩٠ ـ ١٩٢.

وهذه الآيات هي: ١٢٥ ـ ١٤١ من سورة البقرة. وقد تحدثْنا عن بعضها فيما سبق من مباحثِ قصة إبراهيم عليه السلام.

والهدفُ من هذه الآيات تكذيبُ اليهود والنصارى والمشركين في زعمهم الانتسابَ لإِبراهيم عليه السلام، وبيانُ حقيقة الدينِ الذي كان عليه إبراهيم، وأن المسلمين هم أولى الناسِ به.

وفي الآية التي أمامَنا يُذكِّر اللّهُ رسولَه محمداً ﷺ بموقف إبراهيمَ عليه السلام الملتزم بكلمات الله، وما نتج عن ذلك من إمامته: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾.

«إذ»: ظرفٌ للزمان الماضي، يدلُّ على استحضارِ صورةٍ أو لقطةٍ من الأحداثِ الماضية.

وتقديرُ الجملة: أُذكرْ يا محمد ابتلاءَ الله لإبراهيم بكلمات..

الكلمات التي ابتلاه الله بها مبهمة:

والابتلاءُ من الله لإبراهيم. و﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ في الجملة مفعولٌ به مقدَّم منصوب. و﴿رَبُّهُ﴾ فاعل مؤخر مرفوع.

وقد ابتلى اللّهُ إبراهيمَ بالتكاليفِ الشرعية، وما فيها من أوامرَ ونَواهٍ وأحكام. وهذا هو المرادُ بالكلماتِ في الآية.

والكلماتُ التي ابتلى اللّهُ إبراهيمَ بها مبهمةٌ، غيرُ محددةٍ ولا مبينة في الآية. وقد جاءت ﴿بِكَلِمَاتٍ﴾ نكرة، والتنكيرُ مع التنوين يدلُّ هنا على الإِبهام.

فلم تُحدد الآيةُ هذه الكلمات. كما لم يحدِّدْها رسولُ الله ﷺ في حديثٍ صحيحٍ مرفوع.

ومنهجُنا أن نُبقيَ المبهمات في القصصِ القرآني على إبهامها. طالما أنها لم تبيَّن في الآياتِ والأحاديث الصحيحة.

ولسنا مع مَنْ ذهبوا إلى تحديدِ تلك الكلماتِ التشريعية بأمثلةٍ

ونماذج، لأن أقوالَهم اجتهادية ليس عليها دليلٌ نصي.

كلُّ ما نقوله: هذه الكلمات هي التكاليفُ التي كلفَ اللّهُ إبراهيمَ بها، وما تشملُه هذه التكاليف من أوامرَ ونَواهٍ، وأحكامٍ وواجبات، سواء ما يتعلقُ منها بالعقيدةِ أو العبادةِ أو الدعوةِ أو الأخْلاقِ أو غير ذلك.

وتنصُّ الآيةُ على أن التكاليفَ الشرعية ابتلاءٌ واختبارٌ وامتحان من الله، يبتلي اللّهُ بها عبادَه، فمنهم مَن يقومُ بها ويؤدّيها على أحسنِ وجه، ويُتمُّ الالتزام بها، كإبراهيمَ وباقي الأنبياء عليهم السلام، فيفوزُ وينجحُ ويفلح، ومنهم مَنْ يفرط فيها ويقصِّر ويتهاون، فيرسبُ في الاختبار، ويخفقُ في الامتحان، ويسقطُ في الابتلاء، وبهذا يكون خاسراً نادماً، هالكاً معذَّباً.

لقد كان الابتلاءُ ظاهراً في قصةِ إبراهيم عليه السلام، وكان التكليفُ بارزاً فيها أيضاً، وكان فوزُ إبراهيم في الابتلاء وإتمامُه للتكاليف بارزاً ظاهراً ملموساً أيضاً.

نماذج من ابتلاءات إبراهيم وسر نجاحه فيها:

نجحَ إبراهيمُ عليه السلام في ابتلاء الدعوة، عندما دعا أباه وقومَه وحاكمَ قومه، ونجح في ابتلاءِ المواجهة، عندما واجَهَ الكفار وثبتَ على الحق، ونجحَ في ابتلاء الهجرة، عندما هاجرَ للأرض المقدسة، ونجحَ في ابتلاء الفراق، عندما وضع زوجَه وابنه في وادٍ غيرِ ذي زرع، ونجحَ في ابتلاء التضحية، عندما نفَّذ رؤياه بذبحِ ابنه، لولا أنَّ اللّهَ فداه، ونجحَ في ابتلاءِ الكرم والضيافة، ونجحَ في ابتلاءِ بناء البيت، ونجحَ في ابتلاءِ العبادة والذكر والشكر والتوبة وسنن الفطرة والاختتان والدعاء، ونجحَ في ابتلاءِ الولاءِ والبراء والمفاصلة للأعداء، ونجح في ابتلاءِ الإِمامة والريادة والقدوة.

وبهذا شهدَ اللّهُ له بأنه أتمَّ الالتزامَ بالكلمات، وأتمَّ أداءَ التكاليفِ

والواجبات: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾.

ولعلَّ السببَ في نجاح إبراهيم في الابتلاء، والباعثَ له على أداءِ وإتمامِ الكلمات والواجبات، هو قوةُ صلته بالله، وسلامةُ قلبه من الآفاتِ والنقائص، وامتلاؤه بالإيمان والإحسان. حيث أثنى اللّهُ على إبراهيم بقوله: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: ٨٣ ـ ٨٤].

لما نجحَ إبراهيمُ في ابتلاء الله، وأتمَّ الكلمات، أكرمه اللّهُ بأنْ جعله إماماً: ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

أئمة هدى وأئمة ضلال:

والإمامُ هو الذي يأتمُّ به الناس، ويقتدونَ به في الخير، ويتأثّرون به، ويتخلّقون بأخلاقه، ويهتدون بهديه.

قال الإمام الراغب: «الإمامُ هو: المؤتَمُّ به، إنساناً: كأن يقتدىٰ بفعلهِ أو قوله، أو كتاباً، أو غيرَ ذلك، سواء كان مُحِقّاً أو مبطلاً، وجمعُه أئِمّة»[1].

والإنسانُ الصالح إمامٌ وقدوة في الخير. قال تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

والمهتدونَ الصالحون أئمةٌ في الخير. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وقادةُ الضلال أئمةٌ في الباطل، وقدواتٌ في الشر، يقودونَ الناسَ إلى النار. قال تعالى عن فرعون وجنوده: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [القصص: ٤١].

جعلَ اللّهُ إبراهيمَ عليه السلام إمامَ هدى للناس، كلِّ الناس، على اختلافِ الزمان والمكان. ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

---

(١) المفردات: ٨٧.

وبقيَ إبراهيمُ إماماً لمن بعدَه من المؤمنين، كان إماماً لمؤمني بني إسرائيل، وإماماً لمؤمني النصارى، وصار إماماً للمسلمين أتباعِ محمد ﷺ، وما زال إماماً لهذه الأمة، وسيبقى إماماً لها، ما دامتْ هذه الأمةُ باقية.

إنَّ إبراهيم إمامُ دعوة، ومنارُ هدى، ومعلمُ عقيدة، ونورُ طريق، منذ وجوده، وحتى قيامِ الساعة.

وجعْلُه إماماً بعد نجاحه في الابتلاء، وإتمامه للكلمات، دليلٌ على أنَّ الإمامَة لا تأتي إلا بعد النجاحِ في العمل، وأداءِ الواجبات، فطريقُ الإمامةِ ليس سهلاً، ولكنه شاقٌ، يحتاجُ إلى جهدٍ ومجاهدة، وصبرٍ ومصابرة، وتحمُّلِ المشقةِ والتعب.

إنَّ مَن يعيشُ على هامش الحياة لن يكون إماماً، وإنّ مَن يعيشُ مع توافِهِ الحياة لن يكون إماماً، وإنّ مَنْ يعيشُ كسولاً أنانياً لا مبالياً لن يكونَ إماماً، فللإمامةِ رجالُها الأشداء، وروادُها الأولياء، وصالحوها الأوفياء، وإمامُهم إبراهيم أبو الأنبياء، عليه الصلاة والسلام.

ولما أخبرَ اللّهُ إبراهيمَ عليه السلام بأنَّه جعله للناس إماماً، سأل عن الأئمة من ذريته: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾؟.

الإمامة في ذريته مشروطة بالصالحين:

وسؤالُه عن الأئمةِ من ذريته مظهرٌ من مظاهرِ مفتاحِ شخصيته الحليمةِ المنيبة، ذلكَ المفتاحُ المتمثلُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥)﴾.

وقد أجابهُ الله على سؤالِه عن الأئمة من ذريته بتقريرِ سنةٍ ربانيةٍ مُطَّردة: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

عهْدُ اللّهِ لإبراهيمَ بجعله إماماً خليفةً ينالُ ويصيبُ ويصلُ إلى المؤمنين الصالحين من ذريته، لأنهم يقتدون بأبيهم إبراهيم حقاً، ولذلك ينالُهم ويصيبهم عهدُ الله له.

أما الظالمون من ذريته فَهُم محرومون من عهدِ الله له، هؤلاء الظالمون هم الكافرونَ المعتدون، الذين كفروا باللّهِ وكتبه ورسله، سواء كانوا من ذريةِ إبراهيم من اليهود أو النصارى أو العرب المشركين.

هؤلاء لا ينالُهم عهدُ الله لأبيهم إبراهيم، ولا يَصلُهم ولا يُصيبهم، فلا يصلحون ليكونوا أئمةً للناس.

ويمكنُ أن نخرجَ من قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بهذه الدلالات والإِشارات:

ـ ذريةُ إبراهيمَ عليه السلام نوعان: فمنهم المؤمنون الصالحون المهتدون، وهم الذين ساروا على طريقه، واقتدوا به، وهم المؤمنون المتَّبعون لأنبيائِهم حقاً، وانتهى هؤلاء إلى أمةِ محمدٍ ﷺ.

ومنهم الظالمون الكافرون، وهم الذين كذَّبوا رسلَهم، أو أنكروا نبوةَ رسُلٍ آخرين، وهم اليهودُ والنصارى والمشركون العرب.

ـ الإمامةُ لا تكون لمجردِ الانتسابِ لإبراهيمَ عليه السلام، فلا تُمنحُ لذريتِه لأنهم من نسله، وإنما تُمنحُ على أَساسِ الانتسابِ الإِيماني، فتكون لمن كانَ على منهاجِه وطريقِه ودينِه وإسلامِه.

ـ وفي هذا إلغاءٌ للنظرةِ اليهودية والنصرانية للوراثة، حيث يَدّعي اليهودُ والنصارى أنهم على حقٍّ لمجردِ كونِهم من ذرية إبراهيم عليه السلام.

وفي هذا تقريرٌ للنظرةِ الإِسلاميةِ للوراثة وترسيخٌ لها، التي تقومُ على اعتمادِ الوراثة في الإِيمان والدين، وليس في الجنس والنسب.

الظالمون الكافرون لا يصلحون للإمامة، ولا يجوزُ أن يكونوا أَئمة، لأن الظلمَ والكفرَ مانعٌ يمنعُ من الإِمامة، وحاجبٌ يحجبُ صاحبَه عنها، فالظالمُ لا يكونُ إماماً أبداً، وهذا ما قررَه علماءُ الأمة السابقون.

إنَّ شرطَ الإِمامة هو الإِيمانُ والصلاح والتقوى، لأن هذا ما توفَّرَ وتحققَ في قصةِ إبراهيمَ عليه السلام.

ـ بما أنَّ اليهودَ قد فقدوا الإمامة لظلمِهم وكفرِهم، وفقدوا حقيقةَ الانتسابِ لدين إبراهيم عليه السلام، فقد فقدوا أيَّ حقٍ لهم في فلسطين والأرضِ المقدسة، التي كان يقيمُ فيها إبراهيمُ عليه السلام، فهذه الأرضُ وغيرُها لا تكونُ حكراً على ذريةِ إبراهيمَ لأنهم من نسله، وإنما تكونُ للمؤمنين الصالحين: ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

ـ تقررُ هذه الآية ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عزلَ اليهودِ والنصارى عن الإمامة لظلمهم وكفرهم، رغمَ أنهم من ذريةِ إبراهيم عليه السلام.

وتقررُ اعتمادَ أمةِ محمد ﷺ للإمامةِ والخلافة، فإمامةُ الناس مقصورةٌ على هذه الأمة، والخلافةُ محصورة في هذه الأمة، لأنها هي الأمةُ الوارثةُ لإبراهيمَ عليه السلام، وراثةً إيمانية صادقة.

[٢٧]

طلب إبراهيم رؤية كيفية إحياء الموتى

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٦٠﴾ [البقرة: ٢٦٠].

تسجلُ هذه الآيةُ طلبَ إبراهيم من ربه أن يريهُ كيفَ يحيي الموتى، وتقررُ أنَّ الباعثَ له على هذا الطلب هو زيادةُ طمأنينةِ القلب، وليس إزالةَ الشكِّ والريب.

يقولُ إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾. أي: يُريدُ أنْ يَرىٰ بعينيه كيفيةَ إحياءِ الله للموتى، وأنْ يشاهدَ على ذلك نموذجاً عملياً، وتجربةً حقيقية، ومثالاً واقعياً.

لماذا أراد رؤية كيفية إحياء الموتى؟

ولم يكنْ إبراهيمُ عليه السلام شاكّاً في قدرةِ الله على إحياءِ الموتى، ولم يكن طلبُه إزالةً للشك، أو إيجاداً وإنشاءً للإيمان.

ولو لم يكن مؤمناً بقدرةِ اللّه على إحياء الموتى، أو لو كان شاكّاً بذلك لما قال: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ ولكان قوله: ربِّ هل تقدرُ على إحياء الموتى؟ أو: ربِّ هل تستطيعُ إحياءَ الموتى؟

إن قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ ليس سؤالاً عن إمكانيةِ إحياءِ الموتى، أو عن ماهيةِ إحياءِ الموتى. ولكنه سؤالٌ عن كيفيةِ إحياء الموتى.

وقولُه يدلُّ على أنَّ إحياءَ الله للموتى أمْرٌ مسلَّمٌ مفروغٌ منه عند إبراهيم، يؤمنُ به إيماناً جازماً قاطعاً.

وقد أزالتْ بقيةُ الآية الاحتمالَ الذي لا يليقُ بإبراهيم ولا يتفقُ مع إيمانه: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

يسألُه الله: لماذا طلبتَ ذلك؟ هل أنتَ شاكٌّ في القدرةِ على إحياءِ الموتى؟ أَوَ لَمْ تؤمنْ بقدرةِ الله على إحياءِ الموتى؟

ويأتي الجوابُ واضحاً صريحاً من إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ بَلَىٰ﴾. أي: بلى. أنا مؤمنٌ بالقدرةِ على إحياء الموتى، ولستُ شاكاً بذلك.

ويستدركُ ليبينَ هدفَه من السؤال: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾. أي مشاهدتُه لتجربةٍ عملية حول إحياءِ الله للموتى، لا توجِدُ ولا تنشئُ الإِيمان في قلبه، ولكنها تزيدُه وتؤكدُه وتقوّيه، وهذه الزيادةُ لإِيمانه زيادةٌ للطمأنينة في قلبه.

أثر التجربة العملية عند صاحبها:

معلومٌ أن مشاهدةَ حادثةٍ عملية بالعين، أو القيامَ بتجربةٍ واقعيةٍ

بالفعل يقودُ إلى زيادةِ الإِيمانِ والتصديقِ واليقين، ويزيدُ في تأكيد الحقيقةِ النظرية وترسيخها وتثبيتها.

ولهذا نرى أصحابَ المناهجِ والنظريات العلمية والتربوية حريصين على قيام الدارسين بتجاربَ ميدانية عملية، يُطبقون فيها عملياً ما أخذوه نظرياً.

إنَّ الطبيبَ مثلاً لن يكون طبيباً مهما درسَ في الكتبِ عن الطب والتشخيصِ والعلاج، ولن يتعرفَ حقاً على جسمِ الإِنسان مهما قرأ عن علم التشريح، لن يكونَ طبيباً إلا إذا ذهب إلى «المختبر»، وقام بنفسه عملياً بتشريح الجسم أمامه، والتعرفِ على أجهزتِه المختلفة، وملاحظةِ التغيرات المختلفة التي تطرأُ عليه.

إنَّ التدريبَ العمليَّ الميدانيَّ له في المختبرات والمعامل، هو الذي رسَّخَ معلوماتِه النظرية في نفسه، وأكسبَها بُعْداً واقعياً، ناتجاً عن التجاربِ العملية.

وعندما نتذكرُ هذا النموذجَ نحاولُ أن نفهمَ الباعثَ الذي حملَ إبراهيمَ عليه السلام على أن يطلبَ من ربه أنْ يريَه كيفَ يحيي الموتى، وتعليلَه ذلك بأنه ليطمئنَّ قلبُه.

إنَّ إبراهيمَ عليه السلام يريدُ أنْ يجمعَ التجربةَ العملية إلى الإِيمانِ النظري، إنه يريدُ أنْ يرى بعينيه كيفيةَ إحياءِ الله للموتى، ليزدادَ يقيناً، ويريدُ أنْ يقومَ بتجربةٍ عملية، تجري على يديه، ليعرفَ كيفية إحياءِ الله للموتى.

وإبراهيمُ عليه السلام يُكْثِرُ من استخدام «وسائل الإِيضاح» لتأكيد الحقائقِ النظرية، ويؤدي التجاربَ العملية لترسيخِ القناعة النظرية. رأيْنا هذا عندما أبطلَ كونَ الكواكب آلهة أمامَ قومه، وعندما طلبَ من الملكِ الكافر تغييرَ حركة ومسارِ الشمس، وعندما حطمَ أصنامَ قومه، وتركَ الصنمَ الكبير ليسأله قومُه ويعجزَ عن الجواب!

إننا نرى الآيةَ صريحةً في نفي الشكِّ عن إبراهيم، فلماذا يقول بعضُهم: إنَّ إبراهيمَ كان شاكاً، ولهذا أرادَ إزالةَ شكه؟ إنهم يقولون عكسَ ما تصرحُ به الآية: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِىۖ﴾.

الرسول ينفي الشك عن إبراهيم:

وقد كانَ الرسولُ ﷺ حريصاً على تبرئةِ إبراهيم عليه السلام من شبهةِ الشك عندما طلبَ ما طلب.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «نحن أحقُّ بالشك من إبراهيم، ويرحمُ اللَّهُ لوطاً لقد كان يأوي إلى ركنٍ شديد، ولو لبثتُ في السجن ما لبثَ يوسف لأجبتُ الداعي»[1].

إن الرسولَ ﷺ يوضحُ حقيقةَ ثلاثةِ مواقف لثلاثةٍ من الأنبياء.

إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰۖ﴾ وينفي الرسولُ عنه الشك، فيقولُ: نحن أولى بالشك من إبراهيم.

ولوطٌ عليه السلام يقول لقومه الشاذين عندما أَرادوا اقتحامَ بيتِه ومهاجمةَ ضيوفه: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ فيعتذرُ الرسولُ ﷺ عنه قائلاً: يرحمُ الله لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركنٍ شديد. وهو ركنُ الله.

ويوسفُ عليه السلام ردَّ على الداعي الذي أتاه إلى السجنِ يدعوه لزيارةِ الملك، فقال له: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّۚ﴾ فيُثني عليه الرسولُ عليه السلام، بأنه لو كانَ مكانَه لأجابَ الدعوةَ مباشرة، وبعد ذلك يطالبُ بالتحقيق.

وسنتحدثُ عن كلامِ الرسول عليه السلام عن لوطٍ ويوسف عليهما

---

(١) أخرجه البخاري: ٣٣٧٢. ومسلم برقم: ١٥١. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ١٤٠.

السلام، عند الكلامِ عن قصةِ كلٍّ منهما إنْ شاءَ الله.

ما معنى قوله عن إبراهيم: «نحن أولى بالشك من إبراهيم»؟

إن الرسولَ عليه الصلاة والسلام يقدم شهادةً لإبراهيم عليه السلام، ويُثني عليه، ويَشيدُ بقوةِ إيمانه، ويُخبرُ أنه لم يشكّ، ولم يطلبْ ما طلبَ بسببِ الشك.

يقول الرسولُ عليه الصلاةُ والسلام: لو جازَ الشكُّ على إبراهيمَ لكنتُ أنا أَولى بالشكِّ منه!

فهل شكَّ رسولُنا محمدٌ ﷺ؟ الجوابُ بالنفي. إنه لم يشكّ في قدرةِ الله لحظةً واحدة.

وكأنه يقولُ: وبما أَنني لم أشكّ، فإبراهيمُ لم يشكُّ من بابِ أَوْلى.

لماذا إبراهيمُ لم يشكَّ مِن بابِ أَوْلى؟

لأنَّ إبراهيمَ عليه السلام شاهَدَ بعينيه أمثلةً ونماذجَ عمليةً لقدرةِ الله، أَبرزُها إنجاءُ اللّهِ له من النار، حيثُ أمرَ النار أن تكونَ برداً وسلاماً عليه، ومشاهدتُه لهذه النماذجِ ملأتْ قلْبَه إيماناً ويقيناً، فلم يَبقَ فيه أيُّ احتمالِ للشك.

ولا يَعني هذا أنَّ إبراهيمَ أعظمُ إيماناً من رسولِ الله، أو أفضلُ منه، فمعلومٌ أنَّ رسولَنا محمداً ﷺ هو أفضل الأنبياء والمرسلين، وهو أعظمُهم إيماناً.

الله يريه كيفية إحياء الموتى بإحياء الطيور الأربعة:

استجابَ اللّهُ لطلبِ إبراهيم عليه السلام، وأَرشدَه إلى طريقةٍ عملية، يرى منها كيفيةَ إحياءِ الموتى. قال تعالى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

معنى ﴿فَصُرْهُنَّ﴾: أَمِلْهُنَ. لأنّ الصَّوْرَ هو المَيْل.

قال الإمام الراغب: «﴿فَصُرْهُنَّ﴾: أي أَمِلْهُنّ. من: الصَّوْر: أي: الميل. وقيل: قطِّعهنّ صورةً صورةً»[1].

أمرَ اللَّهُ إبراهيمَ أَنْ يأخذَ أربعةً من الطيور، وأنْ يذبَحهن، ويخلطهن، بحيث يتداخَلْن بعضُهن في بعض، ثم يختارُ مجموعةً من الجبال، ويضعُ على كلِّ جبلٍ منهن جزءاً، بحيث يكونُ على كل جبلٍ جزءٌ من لحمِ كلِّ طيرٍ من الطيور الأربعة.

ثم يقفُ بين الجبال، ويدعو أجزاءَ الطيور المتفرقة على الجبال، فسوف يرى أن الله قد جمع لحمَ كلِّ طيرٍ من الجبال، ونفخ فيه الروح، فدبّتْ فيه الحياة، وسوفَ يأتيه كلُّ طيرٍ من الطيور الأربعة سعياً طائراً حياً، وستلتقي تلكَ الطيورُ الأربعة عنده، وكأنها لم تُذبحْ، ولم تُخْلَطْ لحومُها.

وعندما قامَ إبراهيمُ عليه السلام بهذه التجربة العملية المثيرة، ازدادَ الإيمانُ عنده، واطمأنَّ قلبُه، وحققَ هدفَه، وأيقنَ أن اللَّهَ عزيزٌ حكيم، وأنه على كل شيء قدير.

[٢٨]

تنازع الطوائف في إبراهيم عليه السلام

ثلاث طوائف تدّعي الانتساب إليه وجدال القرآن لها:

تنازعت الطوائفُ الدينيةُ في إبراهيمَ عليه السلام، وكلُّ واحدةٍ ادعتْ انتسابَها إليه، وسيْرَها على طريقه، وما ذلك إلا لمنزلةِ إبراهيم عليه السلام في التاريخ والدين والحياة، فهو أُمَّة، وجعلهُ اللَّهُ إماماً، وجعلَ في ذريته النبوة والكتاب.

---

(١) المفردات: ٤٩٨.

وأشهرُ الطوائف التي ادعتْ انتسابَها إليه ثلاث: اليهود، والنصارى، والعرب المشركون، مع أنَّ هذه الطوائف الثلاث بعيدة عن دينِ إبراهيم.

يَدَّعي اليهودُ الانتسابَ لإبراهيم لأنهم أبناءُ إسحاق، ويَدّعي النصارى الانتسابَ إليه لأنهم يزعمون أنهم على دينه. ويَدّعي العربُ الانتسابَ إليه لأنهم أبناءَ إسماعيل، ويحجّونَ البيتَ الذي بناهُ إبراهيمُ عليه السلام.

وقد تحدثتْ آياتُ القرآنِ عن هذا الموضوع، وسجلتْ بعضَ مزاعمِ اليهود والنصارى والمشركين، ثم نقضَتْها وردّتْ عليها، وبينَتْ حقيقةَ دينِ إبراهيم، والذينَ ينتسبون إليه حقاً، ويَسيرون على طريقهِ فعلاً.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٣٤) وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ (١٣٨) قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ (١٣٩)

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٤٠].

تخبرُنا هذه الآياتُ أنه لا يرغبُ عن ملةِ إبراهيم، ولا يتركُ دينَه إلى غيره، إلا السفيه، وبما أنَّ اليهودَ والنصارى والمشركين رغبوا عن دينه، فهم سفهاءُ وليسوا علماء.

كان إبراهيم على الإسلام وأوصى بنيه به:

ولقد اصطفى اللَّهُ إبراهيمَ في الدنيا واختاره رسولاً، وجعلَه إماماً للمتقين، وقدوةً للمسلمين، وجعلَ في ذريته النبوةَ والكتاب، وهو في الآخرةِ من الصالحين.

أما الدينُ الذي كان عليه إبراهيمُ عليه السلام فهو الإسلام، حيث قال له ربُّه أَسْلِم، فاستجابَ فوراً لأمرِ الله، وقال: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

فهل اليهودُ والنصارى والعرب المشركون ـ الذين يزعمون أنهم على دين إبراهيم ـ مسلمونَ فعلاً لله؟ إنْ كانوا مسلمين فلا بدَّ أنْ يدخلوا في دينِ محمد ﷺ.

ولما حضرتْ إبراهيمَ عليه السلام الوفاة، وصَّى أولادَه بهذه الوصية، وأَمَرَهم بالمحافظةِ على الإسلام، والثباتِ عليه، وقال لهم: يا أبنائي إنَّ اللَّهَ اصطفى لكم الدين، واختارَ لكم الإسلام، ورضيَه لكم ديناً، فلا تموتُنَّ إلاّ وأنتم مسلمون، وإيّاكم أنْ تتخلّوا عنه.

وقد التزم أبناء إبراهيم وأحفاده بوصيته، والتزموا بالإسلام وعاشوا وماتوا عليه.

وها هو حفيدُه يعقوب يسيرُ على خطاه، فلما حضرهُ الموتُ قال لأولاده: ما تعبدونَ من عبدي؟ وأي دينٍ تختارون؟ فقالوا: نعبدُ اللَّهَ ربَّ العالمين، وربَّ آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، ونبرأُ من عبادةِ

غيره ونختارُ الإسلَام ديناً، ونسلمُ ونخضعُ لله ربِّ العالمين.

هذا هو دينُ إبراهيمَ وأبنائه، فقد كانوا جميعاً مسلمين، وليسوا كما ادَّعى اليهودُ والنصارى فيما بعد، أنهم كانوا يهوداً أو كانوا نصارى! لقد كذَبَ اليهودُ عندما قالوا للناس: كونوا يَهوداً تهتدوا، وكذبَ النصارى عندما قالوا للناس، كونوا نصارى تهتدوا!

تكذيب اليهود في انتسابهم له:

وقدْ أمرَ اللَّهُ رسولَه محمداً ﷺ أنْ يُكذِّبَ اليهودَ والنصارى في كلامِهم السابق، وطلبَ منه أن يقولَ لهم: لن تهتدوا إن كنتم يهوداً، ولن تهتدوا إنْ كنتم نصارى، لن تهتدوا إلاّ أن تكونوا على ملةِ إبراهيم ودينه، وهو الإِسلام، لأنه كان حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين.

أُطلبْ من اليهودِ والنصارى والمشركين أنْ يتَّبعوا إبراهيمَ والأنبياءَ من ذريته، وأنْ يقولوا: آمنا بالله، وما أنزلَه اللَّهُ إلينا، وما أنزله إلى أنبيائِه السابقين، كإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، وأنبياءَ أسباط وقبائلِ بني إسرائيل، كموسى وعيسى، وآمنا بكلِّ ما آتاهُ الله لأنبيائه من شرع، وآمنا بكلِّ أنبياءِ الله، لا نفرقُ بين أحدٍ منهم، ونحن نُسْلمُ لكلِّ نبي منهم.

إنْ فعلوا ذلك، وآمَنوا بجميعِ أنبياءِ الله، فسيؤمنون بأن محمداً رسولُ الله ﷺ، وسيدخلون في دينه، وهذا هو المطلوب.

فإنْ أَبوا الاستجابَة لهذه الدعوة، وأَصرّوا على يهوديتِهم أو نصرانيتهم، وأصرّوا على الزعم بأنَّ إبراهيمَ وأبناءَه الأنبياءَ كانوا يهوداً أو نصارى. فلْيَدَع الرسولُ مزاعمَهم، ولْيَقُلْ لهم: أتقولون إن هؤلاء الأنبياءَ كانوا يهوداً أو نصارى؟ أأنتم أعلمُ أم الله؟ ومَنْ أظلمُ ممن كتَم شهادةً عنده من الله؟

إن اللَّهَ يقول إنهم لم يكونوا يهوداً ولا نصارى. وأنتم تقولون إنهم كانوا يهوداً أو نصارى. فكيف تقولون غيرَ ما يقولُه الله؟ وكيفَ تناقضون وتخالفون كلامَ الله؟ أأنتم أعلم من الله بحقيقةِ الدين الذي كانوا عليه؟.

والخلاصةُ التي نخرجُ بها من هذه الآيات أنَّ الطوائفَ الدينيةَ السابقة تتنازع في إبراهيم عليه السلام، وتَدَّعي كلٌّ واحدة أنَّ إبراهيمَ كان منها وعلى دينها. وكلُّهم كاذبون في ذلك.

فإبراهيمُ وأبناؤه الأنبياء لم يكونوا يهوداً، ولم يكونوا نصارى، ولم يكونوا مشركين، وإنما كانوا مسلمين حنفاء، وكلٌّ منهم كان يوصي أولادَه وهو على فراشِ الموتِ بالإسلام، وكلُّ مَنْ لا يكون على دينهم، وكلُّ مَنْ يرغبُ عن ملتِهم فهو سفيه، فاليهودُ والنصارى والمشركون ما هم إلا سفهاء، ولن يزولَ عنهم السفهُ إلا بالدخولِ في دينِ محمدٍ ﷺ.

آيات من سورة آل عمران في جدال اليهود والنصارى:

وقال اللَّهُ في سورة آل عمران: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾ [سورة آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤].

يخبرُنا اللَّهُ أنه اصطفى واختارَ المذكورين هنا على العاليمن.

اصطفى آدَم لأنه أبو البشر، واصطفى نوحاً لأنه أبو البشريةِ الثاني، حيثُ أغرق اللَّهُ الكافرين جميعاً بالطوفان، ولم يبقَ على وجهِ الأرض من البشر إلا نوحٌ والذين آمنوا معه، فنوح استأنفَ الحياةَ من جديدٍ بعدَ الطوفان.

واصطفى إبراهيمَ وآلَه، لأنَّ إبراهيمَ أبو الأنبياء، الإمامُ الأُمة، ومعظمُ الأنبياءِ المذكورين في القرآن بعدَه من ذريته. وآلُ إبراهيمَ هم

الأنبياءُ من ذريته الذين انتهوا إلى محمدٍ ﷺ، خاتم الأنبياء، والصالحونَ المؤمنونَ من الناس بعده، الذين انتهوا إلى أمةِ محمدٍ ﷺ، أمةِ الشهادة والخلافةِ حتى قيامِ الساعة.

واصطفى اللَّهُ آلَ عمران. وعمران المذكور هنا والدُ مريم رضي الله عنها وعنه، وليس عمرانَ والدَ موسى عليه الصلاة والسلام.

وآلُ عمران هي ابنتُه مريم التي ذكرت الآياتُ التاليةُ من سورة آل عمران قصة ولادتِها وكفالتِها. هذه البنتُ الصالحةُ مريم البتولُ التي اصطفاها الله، وجعلَها مظهراً لإرادتِه النافذة، في خلقِ إنسانٍ من امرأةٍ بدون رجل، فحملَتْ بعيسى عليه السلام، وهي الفتاةُ العذراءُ البتول!

وجاءت آياتٌ أُخرى في سورة آل عمران، في جدالِ ومحاجةِ اليهود والنصارى، الذين زعموا أنهم على طريقِ إبراهيم عليه السلام ودينِه، وأَبطلت الآياتُ هذا الزعم، وبينتْ مَن هم أَوْلى الناسِ بإبراهيم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ (٦٥) هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (٦٨)﴾ [آل عمران: ٦٥ ـ ٦٨].

تنكرُ هذه الآياتُ على أهلِ الكتاب من اليهود والنصارى جدالهم بشأنِ إبراهيمَ عليه السلام، وتبطلُ انتسابَهم إليه، وتكذِّبُهم في زعمِ أنَّ إبراهيمَ منهم.

دلالة إنزال التوراة والإنجيل من بعده:

التوراةُ أُنزلتْ على موسى عليه السلام، وموسى جاء بعدَ إبراهيم بعشراتِ السنين ـ إن لم تكنْ مئاتِ السنين ـ، فكيفَ يزعمُ اليهودُ أنَّ إبراهيمَ كان يهودياً وإبراهيمُ قبلَهم بمئات السنين؟

والإنجيلُ أنزلَه الله على عيسى عليه السلام، وعيسى جاءَ بعد موسى، وبين عيسى وبين إبراهيم مئاتُ السنين، فكيف يزعمُ النصارى أن إبراهيم كان نصرانياً، مع أنه كان قبلَهم بمئات السنين؟

أفلا يَعقلُ اليهود ويتخلَّوْن عن هذا الزعم الذي يكذِّبه التاريخ؟ وألا يعقلُ النصارى أيضاً ويتخلّوْن عن هذا الزعم: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

ويقررُ القرآنُ أن اليهودَ والنصارى لا علمَ عندهم، وأنهم يتبعون الجهلَ والهوى، ومن جهلِهم زعْمُهم أنهم على دينِ إبراهيم، أو أنَّ إبراهيمَ منهم، ويدلُّهم على طريقِ إزالةِ الجهل، بأخْذِ العلم عن الرسولِ محمدٍ ﷺ، الذي علَّمه اللّهُ عن طريق الوحي: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

وتصرحُ الآياتُ بتكذيبِ اليهودِ والنصارى في مزاعِمِهم، ونفيِ كونِ إبراهيمَ مِن أيٍّ من الطوائفِ الثلاث الكافرة، اليهود والنصارى والعرب المشركين. وتقررُ بصراحة أنه كان حنيفاً مسلماً، وأنَّ دينَه هو الإسلام: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

من هم أتباعه الحقيقيون:

وبعد أنْ تجردَ الآياتُ الطوائف الثلاث ـ اليهود والنصارى والمشركين ـ من الانتسابِ إلى إبراهيم، وأنهم ليسوا معه ولا على طريقه، ولا متَّبعين لدينه، وأنهم كافرون ضالون. بعد هذا تُبيِّنُ مَن هم أَتباعُه الحقيقيون، المنتسبون إليه فعلاً، الذين على دينه الحنيف، وتحصرهم بأنهم ثلاثةُ أصناف: ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

أَوْلى الناسِ بإبراهيمَ عليه السلام هم الذين اتَّبعوه. أي هم المؤمنون الصالحون الذين عاصَروه، وعاشوا معه، واستجابوا لدعوته، ودخلوا في دينه، سواءَ كانوا في المرحلةِ الأُولى من دعوتِه في العراق، أو في المرحلةِ الثانيةِ من دعوته في فلسطين.

واللامُ في قوله: ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ هي لامُ المزحلقة، التي انتقلَتْ من اسم ﴿إِنَّ﴾ إلى خبرِها: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ وأصلُ الجملة هكذا: لأَوْلى الناس بإبراهيم الذين اتبعوه، فدخلتْ لامُ التوكيد على المبتدأ ﴿أَوْلَى﴾.

لكنْ لما دخلتْ ﴿إِنَّ﴾ على الجملة، دخلتْ على المبتدأ ﴿أَوْلَى﴾، و ﴿إِنَّ﴾ تدلُّ على التوكيد، واجتماعُ حَرفيْن للتوكيد في محلٍّ واحد غير ممكن، فلا بدَّ أَنْ ينتقلَ الحرفُ الأضعفُ إلى مكانٍ آخر، ليحلَّ محلَّه الحرفُ الأقوى، وبهذا تَنتقلُ اللام - أو تُزَحْلَق - من المبتدأ إلى الخبر، وبهذا تسمّى «لام المزحلقة».

وقوله: ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ تركيز على موضوع الاتباعِ الصحيح الصادق للنبي، فلا يكفي مجردَ الانتسابِ الجنسيِّ الوراثي، بل لا بدَّ من حسنِ الاتباع.

والصنفُ الثاني الأَوْلى بإبراهيم هو: ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ والمرادُ به رسولُ الله محمد ﷺ.

واعتبره القرآنُ أَوْلى الناسِ بإبراهيم، رغمَ وجودِ فترةٍ زمنية بينهما، تُقدَّرُ بمئاتِ السنين، لأنه على دينه، ولأنه جاءَ بدينه وهو الإِسلام، ولأَنَّ رسالتَه استكمالٌ لرسالة إبراهيم.

والصنفُ الثالثُ الأَوْلى بإبراهيم هم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾. والمرادُ بهم المؤمنون الصالحون أَتباعُ محمد ﷺ، إنهم هذه الأمةُ الإِسلامية، أمةُ الشهادةِ والرسالةِ والخلافةِ والدعوة حتى قيام الساعة.

وهم أَوْلى الناسِ بإبراهيم لأنهم على دينه، فهم مسلمون حنفاء، وإبراهيمُ حنيفٌ مسلم، وهم متَّبعون لخاتمِ النبيين محمد ﷺ، الرسولِ الذي بَشَّرَ به إبراهيمُ عليه السلام.

بعد هذا البيانِ القرآني الحاسم لا يجوزُ لليهود أو النصارى الادعاءُ بأنهم على دينِ إبراهيم، أو أنهم متبعون له، فإبراهيمُ بريءٌ منهم، وطريقهم غيرُ طريقه. إنهم كافرون وإبراهيمُ موحِّدٌ حنيفٌ مسلم، وهم مكذِّبون لخاتمِ النبيين محمد ﷺ، الذي بَشَّرَ به إبراهيم، وهم محاربون للمسلمين الذين أحبَّهم إبراهيم، وسمّاهم المسلمين من قبل.

المنتسبون لإبراهيمَ حقاً هم محمد ﷺ وأمتُه وحدهم، لا يشاركُهم في ذلك أحدٌ من الأصنافِ والأمم الأخرى.

بهذا يبطلُ القرآنُ انتسابَ الطوائفِ الثلاث: اليهود والنصارى والمشركين، لإِبراهيم عليه السلام، ويفندُ مزاعمُهم بذلك.

ويحصرُ القرآنُ الانتساب لإبراهيم بهذه الأمة المسلمة. وهو الانتسابُ الدينيُّ الإِيماني الإِسلامي، وليس الانتسابَ النسبيَّ الجنسيَّ الوراثي..

[٢٩]

إبراهيم المسلم الحنيف والحنيفية دينه

تقررُ آياتُ القرآن الصريحةُ الكثيرةُ أن إبراهيمَ عليه السلام كان حنيفاً مسلماً، ولم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا مشركاً.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠].

قال تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٩].

معنى الحنف والأحنف والحنيف:

والحنيفُ هو المؤمنُ بالله الموحِّدُ له، الذي اختارَ طريقَ الإيمانِ والإِسلام والخضوعِ لله، ومالَ إِليها، وتَرَكَ طريقَ الشركِ والكفرِ، ولم يخترْها.

قال ابن فارس: «الحَنَفُ هو المَيْل. ويقال للذي يَمشي على ظهورِ قدَمْيه أحنف. فالرجلُ الأَحنف: مائلُ الرجلَيْن.

والحنيف: المائلُ إلى الدينِ المستقيم.. ويقال: هو يتحنَّف: أي: يتحرّى أقومَ طريق»[1].

وقال الراغبُ في المفردات: «الحَنَف: هو ميلٌ عن الضلالِ إلى الاستقامة. والجَنَفَ: ميلٌ عن الاستقامةِ إلى الضلال. والحنيفُ هو المائلُ إلى الاستقامة.

وتحنَّفَ فلان: تحرى طريقَ الاستقامة. وسَمّت العربُ كلَّ مَنْ حجَّ أو اختتنَ حنيفاً، تنبيهاً أنه على دينِ إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

والأحنفُ مَنْ في رجْلِه ميل. وقيل سُميَ بذلك على التفاؤل. وقيل: بل استُعيرَ للميلِ المجرد»[2].

واعتبرَ القرآنُ أنَّ أحسنَ الناس ديناً، هو ذلك الذي أسلمَ وجهه لله، وأحسنَ العبادة لله، واتبعَ ملةَ إبراهيمَ عليه السلام، وكان حنيفاً مثله. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

ورفضَ القرآنُ كونَ الهداية في اتِّباع اليهود أو النصارى، واعتبرَها

---

(١) مقاييس اللغة ٢: ١١٠ ـ ١١١.

(٢) المفردات: ٢٦٠.

في اتباع إبراهيمَ عليه السلام. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٣٥﴾ [البقرة: ١٣٥].

الأمر باتباع ملة إبراهيم حنيفاً:

وقد جاءَ الأمْرُ صريحاً في القرآنِ لليهود والنصارى باتباع مِلةِ إبراهيمَ الحنيف، والدخولِ في دينه: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٥﴾ [آل عمران: ٩٥].

وأَمَرَ اللَّهُ نبيَّه محمداً ﷺ باتباعِ ملةِ إبراهيمَ الحنيف.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٣﴾ [النحل: ١٢٣].

وأَمرَ اللَّهُ نبيَّه عليه الصلاة والسلام أنْ يعلنَها بصراحة: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٦١﴾ [الأنعام: ١٦١].

ونرى أنَّ الآياتِ التي وصفتْ إبراهيمَ بالحنيفية، كانت حريصةً على اتْباعِ ذلك بنفي الشرك عنه، حيث ورد ذلك في معظم الآيات: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

ومع أن قولَه ﴿حَنِيفًا﴾. يتضمن قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، لأن الحنيفَ هو المائلُ عن الشركِ إلى التوحيد، وعن الباطلِ إلى الحق، إلا أنَّ الآياتِ نصَّتْ على ذلك بالذكر: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لأهميةِ ذلك، ولبيانِ خطورة الشرك، ووجوبِ الحذرِ منه، حتى ولو كان خفياً، ثم للردِّ على العربِ الكافرين المشركين، الذين كانوا يزعمون أَنهم حنفاء وأَنهم متبعون للحنيفية دينِ إبراهيم عليه السلام، ومع ذلك كانوا يعبدون مع اللَّهِ الأوثانَ والأصنام.

فتقول لهم: أنتم لستم حنفاء، ولستم على دينِ إبراهيم، لأنكم مشركون، أما إبراهيمُ فقد كان حنيفاً مسلماً، وما كانَ من المشركين.

وفَسرت الآياتُ الحنيفيةَ بالإِسلام، ولهذا قالَتْ عن إبراهيم: «ولكن كان حنيفاً مسلماً». وهذا دليلٌ على أن الحنيفيةَ دينَه هي الإِسلام، وليس غيره.

وبما أنَّ إبراهيمَ حنيفٌ مسلم، وبما أن المسلمين من أمة محمدٍ ﷺ مؤمنون حنفاء، فهم أَوْلى الناس به، وأقربُ الناس إليه، وبينَهم مودةٌ ومحبة خاصة.

إبراهيم أبو المسلمين أبوة إيمانية:

فإبراهيم أبوهم، وهو سماهم المسلمين من قبل، قبل أن يوجدهم الله في عالم الواقع.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج: ٧٧ ـ ٧٨].

تصرح الآيةُ بأنَّ المسلمين أتباعَ محمد ﷺ هم الذين يَدينون للَّهِ على ملةِ إبراهيم ودينِه عليه السلام، وتصرحُ أيضاً بأن إبراهيمَ هو أبوهم.

والمرادُ بالأبوة هنا الأبوةُ المعنوية، وليست الأبوةَ النسليةَ النَّسَبية، صحيحٌ أنَّ بعضَ المسلمين ينتسبُ لإبراهيم حقيقة، حيث ينتهي نَسَبَه إليه، لأنَّ بعضَ العرب من نسلِ إسماعيل عليه السلام، لكن ليس كلُّ المسلمين هكذا، فبعضُ العربِ ليسوا من نسل إسماعيل، كعربِ اليمن ونجد وعمان. وبعضُ المسلمين ليسوا من العرب أصلاً.

لكن كلُّ المسلمين يقتدونَ بإبراهيم عليه السلام ويتبعونه، ويسيرون على طريقه، فأبوَّته لهم أبوَّةٌ معنويةٌ إيمانية، وليستْ نَسْلِية مادية!

ومن محبة إبراهيم عليه السلام للمسلمين، أنه اختارَ لهم اسمهم من قبل: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾، إن اسمَهم أصيلٌ عريق، ممتدٌّ في التاريخ، ضاربٌ في جذوره، وليس اسماً عارضاً حادثاً. هم مسلمون، والأنبياءُ قبلَهم كلُّهم مسلمون، وأتباعُ الأنبياءِ الذين قبلَهم مسلمون، وإبراهيم هو الذي سماهم المسلمين من قبل.

إبراهيم يرغّبنا بالجنة ومعنى صلاتنا عليه:

ومن محبةِ إبراهيمَ عليه السلام لأمةِ محمد ﷺ أنه بلَّغهم السلام، ورغَّبهم في الجنة.

روى الترمذيُّ والطبرانيُّ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «رأيتُ إبراهيمَ ﷺ ليلةَ أُسريَ بي، فقال: يا محمد، أَقرِئ أمتَك منّي السلام، وأخبرهم أن الجنةَ طيبةُ التربة، عذبةُ الماء، وأنها قيعان، وغراسُها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله»(١).

إن إبراهيمَ عليه السلام يطلبُ من محمدٍ ﷺ أنْ يقرئَ السلامَ منه على أمته، وسلامُه عليهم لمحبتِه لهم، وشوقِه إليهم.

ويُرغّبهم في الجنة، ويَدعوهم إلى طلبها، ويخبرُهم أن تربتَها طيبة، وأن ماءَها عذب، وهي قيعانٌ وسهولٌ واسعة شاسعة فسيحة. ويرشدُهم إلى غراسِها، ليغرسوها وهم في الدنيا. إنَّ غراسَها بذكر الله، فمن يقول: سبحانَ الله يغرسُ فيها شجرة. ومَن يقول: الحمدُ لله، يغرسُ فيها شجرة. ومَن يقول: لا إله لا الله، يغرسُ فيها شجرة. ومَن يقول: الله أكبر، يغرسُ فيها شجرة.. وهكذا.

ومِن مظاهر الصلةِ والمحبة بين إبراهيم عليه السلام وبين هذه الأمة، أنَّ المسلمَ يصلي على محمد وعلى إبراهيمَ عليهما الصلاة

---

(١) أخرجه الترمذي برقم: ٣٤٦٢. والطبراني في الكبير برقم؛ ١٠٣٦٣. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ١٣٠.

السلام، في الجلوسِ الأخير، تلك الصلاةَ المعروفةَ باسم الصلاة الإبراهيمية.

روى مسلمٌ وغيرُه عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه، قال: (أتانا رسولُ الله ﷺ، ونحنُ في مجلسِ سعدِ بن عبادة، فقال له بشير بن سعد: يا رسولَ الله، أمَرَنا اللَّهُ أنْ نصليَ عليك، فكيف نصلّي عليك؟ فسكتَ رسولُ الله ﷺ، حتى تمنينا أنه لم يسألْه.

ثم قال رسولُ الله ﷺ: «قولوا: اللهمَّ صلِّ على محمد، وعلى آل محمد، كما صليتَ على آلِ إبراهيم. وبارِكْ على محمد، وعلى آلِ محمد، كما باركْتَ على آلِ إبراهيم في العالمين، إنك حميدٌ مجيد. والسلامُ كما قد عُلِّمْتُم»)[1].

وفي حديثٍ آخر عند البخاري ومسلم عن ابن أبي ليلى قال: (لَقيني كعبُ ابنُ عَجْرة، رضي الله عنه، فقال: ألا أهدي لكَ هدية؟

خرجَ علينا رسولُ الله ﷺ، فقلْنا: قد عرَفْنا كيف نسلِّمُ عليك، فكيف نصلّي عليك؟

قال: «قولوا: اللهمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليتَ على آلِ إبراهيم، إنك حميدٌ مجيد. اللهمَّ باركَ على محمد وعلى آل محمد، كما باركْتَ على آلِ إبراهيم، إنكَ حميد مجيد»)[2].

شهادة من علماء أهل الكتاب بحنيفية إبراهيم وقصة زيد بن عمرو:

إبراهيمُ عليه السلام حنيفٌ مسلم، ودينُه هو الحنيفية. وقد كان الموحِّدون الصادقون من أهلِ الكتاب قبل البعثة يعْلَمون ذلك.

روى البخاري عن عبدِ الله بن عمر رضي الله عنهما: (أن زيدَ بن عمرو بن نفيل خرجَ إلى الشام، يسألُ عن الدينِ ليتبعه.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٤٠٥، وانظر الصحيحة. رقم: ١١٨.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٧. ومسلم برقم: ٤٠٦. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ١١٧.

فلقي عالماً من اليهود، فسألَه عن دينهِم، وقال له: إني لعلى أنْ أدينَ دينكم، فأخبِرْني.

فقال له: لا تكونُ على دينِنا حتى تأخذَ بنصيبك من غضب الله!

قال زيد: ما أفِرُّ إلاّ من غضبِ الله، ولا أحملُ من غضبِ الله شيئاً وإني أستطيعه، فهل تدلُّني على غيره؟

قال: ما أعلَمه إلاّ أنْ يكونَ حنيفاً!

قال زيد: وما الحنيف؟

قال: دينُ إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولم يعبدْ إلا الله. فخرجَ زيد، فلقيَ عالماً من النصارى، فذكَرَ مثلَه.

فقال له: لن تكونَ على دينِنا حتى تأخذَ بنصيبك من لعنةِ الله!

قال: ما أفِرُّ إلاّ من لعنةِ الله، ولا أحملُ مِن لعنةِ الله ولا من غضبه شيئاً وإني أستطيع، فهل تدلُّني على غيره؟

قال: ما أعلمه إلاّ أنْ يكونَ حنيفاً.

قال: وما الحنيف؟

قال: دينُ إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبدُ إلا الله.

فلما رأى زيدٌ قولَهم في إبراهيم عليه السلام خرج. فلما برزَ رفعَ يديه فقال: اللهمَّ إني أشهدُ أني على دينِ إبراهيم)[١].

إنَّ هذا الحديثَ يخبرُنا أنَّ المحققين الصادقين من علماءِ اليهودِ والنصارى، يعلمون حقيقة دين إبراهيم عليه السلام، وأنه الحنيفية، وليس اليهوديةَ أو النصرانية، ويعلمون أنَّ اليهودَ والنصارى بعيدون جداً عن دينِ إبراهيم الحنيف المسلم، وأنهم على انحرافٍ وضلال، ولذلك يَنالون نصيبهم من غضبِ الله ولعنته. ولذلكَ ينصحون الباحثين عن

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٨٢٧. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٧٥.

الحقيقةِ بصدق، بعدمِ الدخولِ في دينهم، كما فعلَ اليهوديُّ والنصرانيُّ مع زيد بن عمرو.

وقد استفادَ زيدُ بن عمرو من نصيحةِ اليهوديِّ والنصراني، وأَعلنَ أنه حنيفٌ مسلم، على دين إبراهيم عليه السلام.

ومعلومٌ أن زيدَ بن عمرو كان من الحنفاءِ الموحِّدين في بلاد العرب، الذين صَرَّحوا بأنهم على دين إبراهيم، والذين عاشوا قبلَ بعثةِ محمد عليه الصلاة والسلام. وزيدٌ هذا هو والدُ الصحابيِّ سعيدِ بن زيد رضي الله عنه!.

كان إبراهيمُ عليه السلام حنيفاً مسلماً، ودينُه هو الحنيفيةُ السمحة: الإِسلام، وهذا هو دينُ ابنِه إسماعيل أيضاً عليه السلام.

وقد بعث اللّهُ إسماعيل نبياً إلى العرب، ودَعاهم إلى الإِسلام، وطلبَ منهم أنْ يكونوا مسلمين حنفاءَ لله.

واستجابَ أهلُ مكة المقيمين حول البيتِ الحرام لدعوةِ إسماعيل، وكانوا على دينِه ودين أبيه إبراهيم، مسلمين حنفاء لله.

واستمرّوا على هذا فترةً من الزمن، إلى ما بعد وفاة إبراهيم، ثم وفاةِ إسماعيل عليهما السلام.

ثم طرأَ عليهم الشركُ وعبادةُ الأصنام بعد ذلك. عندما أتتْ قبيلةُ «خُزاعة» وأقامتْ حول البيت الحرام، وسكنتْ في مكة.

عمرو بن لحي أول من أدخل الأصنام إلى الكعبة:

وكان زعيمُ خزاعة «عمرو بن لحي». فخرجَ في زيارةٍ له من مكة إلى «البلقاء» في بلادِ الشام. ورأى في البلقاءِ قوماً يعبدون الأصنام، وشاهدَ تماثيلَ جميلةً جذابةً معبودة، يعتبرها الناسُ آلهة، فأُعجبَ بها، واشترى مجموعةً من هذه «الآلهة» الجميلة، وعادَ بها إلى مكة،

ووضَعَها في الكعبة، وطلبَ من قومه أنْ يعبدوها باعتبارها آلهة، كما يفعلُ أهلُ البلقاء!.

وبذلك كان عمرو بن لُحَيّ الخزاعي هو أولَ من غَيَّرَ وبَدَّلَ دينَ إبراهيم عليه السلام. وهو أوَّلُ مَنْ أدخلَ الأصنام إلى الكعبة.

روى الطبراني عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «أوَّلُ مَن غَيَّرَ دينَ إبراهيم هو عَمْرُو بن لُحَيّ بن قُمَعَة بن خَنْدَف، أبو خزاعة»[1].

وروى الحاكمُ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ لأكثَمَ بنِ الجُون الخُزاعي: «يا أكثم، رأيتُ عمروَ بن لحي بن قمعة بن خندف يجرُّ قصْبَه في النار.

فما رأيتُ رجلاً أشبهَ برجل منكَ به ولا به منك!»

فقال أكثم: عسى أنْ يضرَّني شبَهُه يا رسولَ الله؟

«قال: لا. إنكَ مؤمن، وهو كافر.

إنه كانَ أوَّلَ مَنْ غَيَّرَ دينَ إسماعيل، فنصَّبَ الأوثان، وبَحَّرَ البحيرة، وسيَّبَ السائبة، ووَصلَ الوصيلة، وحَمى الحامي»)[2].

يخبرُ أبو هريرة رضي الله عنه أن الصحابيَّ أكثَم بن الجونِ الخزاعي رضي الله عنه قابلَ رسولَ الله ﷺ، فقال له رسولُ الله ﷺ إنه أكثرُ الناس شَبَهاً بأولِ مشركٍ في مكة، وهو عمرو بن لحي الخزاعي، فخشيَ أكثمُ أنْ يكونَ شبهه بعمرو بن لحي ضارّاً به، مؤثِّراً عليه، وسبباً في تعذيبه يومَ القيامة. فطمأنه رسولُ الله ﷺ أنَّ ذلك لنْ يضرَّه، لأنَ أكثَمَ الخزاعي مسلم صالح، وعمرو الخزاعي كافرٌ مشرك!

ثم أخبرَ الرسولُ عليه الصلاة والسلام أكثَمَ بن الجون أنه رأى

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير برقم: ١٠٨٠٨. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٧٨.

(٢) أخرجه الحاكم ٦٠٥٤ وغيره. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٧٧.

عمروَ بن لحي يجرُّ أَمعاءَه وقَصْبَه في النار، لأنه أولُ مشرك كافر. فقد كان أهلُ مكة حتى عهده كلُّهم مؤمنين مسلمين حنفاء، على دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

عمرو بن لحي استورد الأصنام من البلقاء:

فلما جاءَ عمرُو بن لحي، وصارَ زعيماً لأهل مكة، غيَّرَ دينَ إسماعيل، واستوردَ الأصنامَ من بلادِ الشام، واشترى الآلهةَ من البلقاء، ووضعَها في الكعبة.

وجعلَ لهذه الأصنام أنواعاً من الأنعام من الإبل والغنم، بشروطٍ خاصة، وهي البَحِيرَةُ والسائبةُ والوصيلةُ والحامي، والتزمَ أبناؤه بهذا التشريع من بعده!

وقد كذَّبهم اللَّهُ جميعاً في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴿١٠٣﴾﴾ [المائدة: ١٠٣].

فهذه الكلماتُ الأربع: البَحيرةُ والسائبة والوصيلةُ والحامي، هي أوصافٌ للنِّياق والغنم، بشروط خاصة. فالناقةُ إذا ولدتْ عدداً خاصاً من الإبل، بشروطٍ خاصة، شُقتْ أذنُها، وأصبحتْ وقفاً على الأصنام، ومُنع شربُ لبنها أو ركوبُ ظهرها أو أكلُ لحمها، وسُمِّيت بَحيرة.

والسائبةُ هو وصفٌ آخر لناقةٍ أخرى، إذا ولدتْ عدداً خاصاً من الإبل، بشروط خاصة، فإنها تُسمّى سائبة، وتُسَيَّبُ وتُتركُ للأصنام.

والوصيلةُ هو وصفٌ لناقةٍ ثالثة، إذا ولدتْ عدداً خاصاً من الإبل بمواصفات خاصة، فتسمّى وصيلة، وتُتركُ للأصنام.

والحامي هو الفحلُ الذي ينتجُ منه عددٌ خاصٌ بشروطٍ خاصةٍ، فيقال حمى نفسه من الذبح، ويُسمى حامي، ويُتركُ للأصنام.

وأولُ مَنْ سنَّ هذا التشريعَ الجاهلي، وعطلَ الاستفادةَ من هذه الإبل، هو عمروُ بن لحي الخزاعي، وتوارثَه المشركون، والتزموا به من بعده.

زعم الكفار استقسام إبراهيم وإسماعيل بالأزلام:

ومن افتراءاتِ وأكاذيبِ المشركين الجاهليين أيضاً، أنهم زعموا أنَّ إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلام كانا يستقسمان بالأزلام، وعلَّقوا صورةً لهما في الكعبة، وهما يستقسمانِ بالأزلام، فأزالَها رسولُ الله ﷺ لما فتحَ مكة.

روى البخاريُّ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (إنَّ رسولَ الله ﷺ لما قدمَ مكة، أبى أنْ يَدخلَ البيت، وفيه الآلهة، فأَمر بها فأُخرجتْ، فأَخرجوا صورةَ إبراهيم وإسماعيلَ في أيديهما الأزلام.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: «قاتَلَهم الله، أما والله لقد علموا أنهم لم يستقسموا بهما قط. فدخلَ البيت، فكبَّرَ في نواصيه، ولم يُصَلِّ فيه..»)[1].

والأزلام: هي القِداحُ التي كان العربُ الجاهليون يتفاءلون أو يتشاءمون بها.

وقد حرمَ اللّهُ على المسلمين الاستقسام بالأزلام، فقال تعالى: ﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ﴾ [المائدة: ٣].

قال السمينُ الحلبي: «الأزلام: قِداحٌ كانت العرب تتشاءمُ بها وتتفاءل، كانوا يضعونَها عند سدَنةِ الأصنام، فإنْ أرادوا أمراً، أتوا السادن، فأجالَ الخريطة، فإنْ خرجَ السهمُ الذي فيه الأمر، مضى، وإنْ خرجَ ما فيه النهي، أمسك. قال تعالى: ﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ﴾ أي: وحرم عليكم ما قسم لكم بهذه القداح»[2].

لقد بنى العربُ الجاهليون حركتَهم وسعيَهم ونشاطَهم على الحظِّ والنصيب، وتَرَكَ الواحدُ منهم للقداح أنْ تحددَ له حركتَه وسعيه، وأن تؤمِّنَ له مستقبلَه، بالنجاحِ أو الإخفاق، والربحِ أو الخسارة.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ١٦٠١. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ١٠٨.

(٢) عمدة الحفاظ ٢:١٦٦.

كان يطلبُ من خادم الكعبة أنْ يحركَ الكيس الذي بَداخله القداح، وأنْ يُخرجَ واحداً منها بطريقةٍ عشوائية، فيحددَ خطوتَه على الكلام المكتوب على ذلك القدح، فإنْ قالَ له: أُخرج، خَرج. وإن قال له: لا تخرج، توَقَّف. هكذا بسذاجةٍ وغباءٍ وجهل كبير.

وزعموا أن النبييْن الكريميْن إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلام كانا هكذا، ورسما صورةً لهما في الكعبة بذلك، وقد حطمَ الرسولُ ﷺ تلكَ الصورةَ لما فتح مكة، وبرّأَ النبييْن الكريميْن من تلك التهمةِ الشنيعة!.

ونرى في الحديث حرصَ رسولِ الله ﷺ على تبرئةِ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام من كلِّ سوءٍ وزورٍ وبهتان، وإثباتِ ما يستحقانه من فضلٍ وتكريم.

إبراهيم خير البرية:

ومن الأمثلةِ الأُخرى على ذلك، التي تُضاف إلى ما ذُكرَ. ما رواه مسلم عن أنسِ بن مالك رضي الله عنه قال: (جاءَ رجلٌ إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا خيرَ البرية.

فقال رسولُ الله ﷺ: «ذاكَ إبراهيمُ ﷺ»[1]).

وهذا الحديثُ يدلُّ على تواضعِ رسولِ الله ﷺ، وعلى حرصه على بيانِ فضلِ وكرامةِ إبراهيمَ عليه السلام، فاعتبرَ أَنَّ إبراهيمَ هو خيرُ البرية بعد الرسولِ عليه الصلاة والسلام.

وليس معنى الحديث أن إبراهيم أفضلُ من محمد ﷺ، أو أنه خير منه، فإننا نعلم أن محمداً ﷺ هو خير الخلقِ أجمعين، فهو أفضل حتى من إبراهيم عليه السلام.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٣٦٩. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ١٢١.

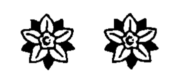
إبراهيم أول من يكسى يوم القيامة:

ومن الأمثلةِ الأخرى على ذلك أيضاً، ما رواه، البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (قام فينا رسولُ الله ﷺ خطيباً بموعظة، فقال: «يا أَيها الناس: إنكم تُحشرون إلى اللَّهِ حفاةً عُراةً غُرْلاً ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[1]. ألا وإِنَّ أولَ الخلائق يُكسى يومَ القيامة إبراهيمُ عليه السلام..»)[2].

فالحديثُ يخبرُ أن أولَ مَن يُكسىٰ هو إبراهيمُ عليه السلام، ثم يُكسىٰ الخلقُ من بعده.

وهذه منقبةٌ خاصةٌ لإبراهيم عليه السلام، ولعلَّ اللَّهَ يخصُّه بها يومَ القيامة، لأن الكفارَ ألقوه في النار، فأنجاهُ الله منها، ولعلَّه النبيُّ الوحيد الذي حاولَ أعداؤه إحراقَه بالنار.

هذه بعضُ فضائلِ إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وبها نُنهي كلامَنا عن قصته، التي وقَفْنا فيها مع آياتِ القرآن، وما صحَّ من حديثِ رسول الله ﷺ، ولم نتجاوزَ هذيْن المصدريْن إلى غيرهما.



(١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٤.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٤٩. ومسلم برقم: ٢٨٦٠. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ١٢٥.

قصة لوط

عليه الصلاة والسلام



[١]

ذكر لوط في القرآن

مرات ذكره في كل سورة ورد فيها:

ورد ذِكْرُ لوطٍ عليه السلام سبعاً وعشرين مرة، وفيما يلي قائمةٌ بالسور التي ذُكر فيها، ومراتُ ذكره فيها:

١ ـ سورة الأنعام: مرة واحدة.

٢ ـ سورة الأعراف: مرة واحدة.

٣ ـ سورة هود: خمس مرات.

٤ ـ سورة الحجر: مرتان.

٥ ـ سورة الأنبياء: مرتان.

٦ ـ سورة الحج: مرة واحدة.

٧ ـ سورة الشعراء: ثلاث مرات.

٨ ـ سورة النحل: مرتان.

٩ ـ سورة العنكبوت: أربع مرات.

١٠ ـ سورة الصافات: مرة واحدة.

١١ ـ سورة صَ: مرة واحدة.

١٢ ـ سورة قَ: مرة واحدة.

١٣ ـ سورة القمر: مرتان.

١٤ ـ سورة التحريم: مرة واحدة.

وكان ذِكْرُ قصة لوطٍ في القرآن على ثلاثِ حالات:

الحالة الأولى: ذكْرُ بعضِ التفاصيل لقصته مع قومه، من خلال بيانِ انحرافاتهم وشذوذهم، ودعوةِ لوط لهم للعفة والطهارة، ورفضهم لدعوته، ثم إيقاعِ العقابِ والعذاب بهم.

الحالة الثانية: ذكْرُ بعضِ الإِشاراتِ السريعة عن قصته.

الحالة الثالثة: ذكْرُ اسمِ لوط عليه السلام ضمن أسماءِ بعض الأنبياء.

أما تفاصيلُ هذه الحالات الثلاث، ومواضعُ ذكرِ قصته في كل سورة، فهو كما يلي:

ما ذكرته كل سورة من قصته:

١ ـ ما ذكرتْه سورةُ الأعراف من قصته:

وردتْ قصتُه في خمس آيات من السورة: ٧٩ ـ ٨٤.

وقد تحدثت الآياتُ عن إنكار لوط على قومه إتيانَهم الذكران من دون النساء، وردِّ قومه عليه بأنْ طالَبوا بإخراج آل لوط من بينهم، لأنهم يتطهرون، ثم نجاةُ لوط وآله المؤمنين، وتدميرُ القوم المسرفين.

٢ ـ ما ذكرتْه سورةُ هود من قصته:

تداخلتْ قصةُ لوط في سورة هود مع قصة إبراهيم، والآيات التي ذكرتْ قصتيْهما معاً أربع عشرة آية: ٦٩ ـ ٨٣.

والآياتُ التي تحدثتْ عن قصةِ لوط مع الملائكة ومع قومه سبعُ آيات: ٧٧ ـ ٨٣. .

وتحدثت الآياتُ أولاً عن حلولِ الملائكة ضيوفاً على إبراهيم وهو لا يعرفُهم، وإِخبارهم له أنهم ذاهبون لتدميرِ قومِ لوط، وجدال إبراهيم معهم لتأخيرِ التدمير لعل قوم لوطٍ يؤمنون.

ثم أخبرت الآياتُ عن مجيء الملائكة إلى لوطٍ في صورة رجال حسان، وضيقِه بهم، لما يعلمه من شذوذِ قومه، ومجيء قومه إليه

لأخْذِ ضيوفه، ومواجهةِ لوط لهم ودفاعه عن ضيوفه، وطلبِ الملائكة منه أن يسريَ بأهله المؤمنين ليلاً، لأن العذابَ والدمارَ واقعٌ بهم مع الفجر. وتدميرهم بقلبِ قُراهم ورميهم بحجارةٍ من سجيل.

٣ ـ ما ذكرته سورة الحجر من قصته: اتصلتْ قصةُ لوط في سورة الحجر مع قصة إبراهيم، وجاءتْ قصتُه في إحدى وعشرين آية: ٥٧ ـ ٧٧.

بدأتْ قصتُه في السورة من الحوار بين الملائكة وبين إبراهيم، حيثُ سألهم إبراهيم عن مهمتهم، فأخبروه بأن الله أرسلَهم لتدميرِ قوم لوط المجرمين، ثم تحدثت الآياتُ عن وصولِ الملائكة إلى لوط، وطلبهم منه أن يسريَ بأهله ليلاً لأن الدمار واقع بقومه عند الصباح، وأخبرتْ عن هجومِ قومه ليفجُروا بضيوفه، ودفاعِ لوط عنهم، ثم وقوعِ الصيحة بهم مع الشروق، وتدميرِهم مع بيوتهم، وتركِ مواقعهم وآثارهم آياتٍ وعبراً للمؤمنين والمتوسمين.

٤ ـ ما ذكرتُه سورةُ الشعراء من قصته:

وردتْ قصتُه في ست عشرة آية من آيات السورة: ١٦٠ ـ ١٧٥.

تحدثت الآياتُ عن دعوة لوط لقومه إلى التقوى والطاعة، والتخلي عن الشذوذِ والفاحشة، ورفضِهم لدعوته، وتهديدِهم له، ثم استنصار لوط بالله، وطلبِه منه أن ينجيَه ويدمرهم، واستجابةِ الله له، وتدميرِ القوم الكافرين، وتركِ آيةٍ واضحة لمن بعدهم.

٥ ـ ما ذكرته سورةُ النمل من قصته:

وردتْ قصتُه في خمسِ آيات من السورة: ٥٤ ـ ٥٨.

تحدثت الآياتُ عن إنكارِ لوط على قومه الشذوذ، وإتيانِ الذكران، وردِّ قومه على دعوتِه بطلب إخراجه وآله من القرية، لأنهم يتطهرون، ونجاتِه مع أهله المؤمنين، وتدميرِ القوم الكافرين.

٦ ـ ما ذكرتْه سورةُ العنكبوت من قصته:

تداخلتْ قصةُ لوط في سورة العنكبوت مع قصة إبراهيم، وجاءت قصتُه في ثماني آيات: ٢٨ ـ ٣٥.

تحدثت الآياتُ عن إنكارِ لوط عل قومه فاحشة اللواط، التي اخترعوها ولم يسبقْهم أحدٌ إليها، وإنكارِه بعضَ جرائمهم الأخرى، وردِّهم على ذلك بتكذيبهم له وطلبهم العذاب، واستنصارِ لوطٍ بربه.

ثم تحدثت الآياتُ عن مجيء الملائكة إلى إبراهيم، وإخباره بمهمتهم في إهلاكِ قوم لوط، وطمأنته بنجاةِ لوط مع أهله المؤمنين. وأخبرت الآياتُ عن ضيقِ لوط بضيوفه لما يعلمه من شذوذِ قومه، ونجاتِه مع أتباعه، وتدميرِ القوم الكافرين، بسبب فسقهم، وإبقاءِ آثارهم آيةً لمن يعقلون ويتعظون من بعدهم.

٧ ـ ما ذكرتْه سورةُ الصافات من قصته:

وردتْ قصتُه في ستِّ آيات من السورة: ١٣٣ ـ ١٣٨.

تحدثت الآياتُ عن إنجاءِ الله للوط وأهله المؤمنين، وتدميرِ قومه الكافرين، ولفتِ نظرِ العرب الذين يمرون على ديارهم أثناء سفرهم للتجارة، ودعوتِهم للاعتبار مما جرى لقوم لوط.

٨ ـ ما ذكرتْه سورةُ القمر من قصته:

وردتْ قصتُه في ثماني آيات من آيات السورة: ٣٣ ـ ٤٠.

تحدثت الآياتُ عن تكذيبِ قوم لوط، وتعذيبِ الله لهم، وإنجائِه لوطاً وأتباعه، وعن مراودةِ قومه له عن ضيوفه، وإيقاعِ العذاب بهم.

هذه السورُ الثمانيةُ التي ذكرتْ قصةَ لوط عليه السلام.

إشارات سريعة لقصته في سور أخرى:

وهناك سورٌ أخرى أوردتْ إشاراتٍ سريعةً إلى قصته، وهي:

١ ـ **سورةُ التوبة**: أشارتْ إلى تدميرِ قرى قوم لوط، في الآية رقم: (٧٠)، حيث أطلقت عليها اسمَ المؤتفكات.

٢ ـ **سورةُ الفرقان**: أشارت الآيةُ رقم: (٤٠) إلى قريتهم، التي أُمطرتْ مطرَ السوء، ولامت العربَ الكفارَ الذين لم يتعظوا مما جرى بها.

٣ ـ **سورةُ الأنبياء**: أشارت الآيةُ رقم: (٧٤) إلى لوط، ونجاته من القرية التي كانت تعمل الخبائث.

٤ ـ **سورةُ الذاريات**: أشارت الآيات: ٣١ ـ ٣٧ إلى لوطٍ وقومه دون أن تسميهم، وتوجُّه الملائكة من عند إبراهيم إليهم لتدميرهم، وجعل مواقعهم آيةً وعبرة.

٥ ـ **سورة النجم**: أشارت الآيتان: ٥٣ ـ ٥٤ إلى المؤتفكةِ التي أَهوى الله بها، وأوقع العذاب بها، وهي القريةُ التي كان قوط لوط يسكنون فيها.

٦ ـ **سورة التحريم**: أشار الآية رقم: (١٠) إلى ضرب المثلِ للكفار بامرأةِ نوح وامرأة لوط الكافرتيْن، وتعذيبهما لكونهما كافرتين.

أما السور التي ذكرتْ اسمَ لوط عليه السلام مجردَ ذكر مع بعض الأنبياء، أو ذكرت قومَ لوط، مضافين إليه إضافة، فهي أربع سور:

١ ـ **سورة الأنعام**: في الآية رقم: ٨٦.

٢ ـ **سورة الحج**: ذكر قوم لوط في آية: ٤٣.

٣ ـ **سورة صَ**: ذكر قوم لوط في آية: ١٣.

٤ ـ **سورة قَ**: ذكر قوم لوط في آية: ١٣.

[٢]

التعريف بلوط عليه الصلاة والسلام

صلة لوط بإبراهيم عليهما السلام:

لوطٌ عليه الصلاة والسلام نبيٌّ من أنبياءِ الله، ورسولٌ من رسله. وقد أخبرَنا القرآنُ أنه آمن بإبراهيم عليه الصلاة والسلام، لما كانَ إبراهيمُ يدعو قومَه إلى الله، في بلادِ العراق.

ولا يذكر القرآنُ الصلةَ بين إبراهيم وبين لوط، ولا درجةَ القرابةِ بينهما، ولم يحددْ ذلك أيضاً رسولُ الله ﷺ في حديثٍ صحيح له.

بينما ذكرت الإسرائيلياتُ أخباراً وكلاماً ورواياتٍ عن هذه الصلة والقرابة بينهما، وعن نسبِ لوطٍ عليه السلام.

ولكننا نبقى مع الآياتِ والأحاديث الصحيحة، ولا نأخذُ شيئاً من أي مصدرٍ آخر غيرهما، ونسكتُ عن ما سكتا عليه.

فلا نعرفُ عن لوطٍ إلا اسمَه هو، ولا نعرفُ شيئاً يقينياً عن صلته بإبراهيم، ولا عن نسبه، ولا عن نشأتِه وطفولته.

كلُّ ما نعرفه أنه استجابَ لدعوة إبراهيم، وسار معه، وآمن له. ولما هاجرَ إبراهيمُ من العراق إلى فلسطين كان لوطٌ معه. وهذا ما ذكره القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء: ٧١].

ولما وصلَ إبراهيمُ ولوطٌ عليهما السلام إلى فلسطين، أرسلَ اللَّهُ لوطاً نبياً رسولاً إلى قومٍ كانوا يسكنون في الجنوب الشرقي منها، في عدةِ قرى مجتمعة.

مبهمات في أصل قوم لوط:

ولا نعرفُ من أين جاءَ هؤلاء القوم، ولا اسمَهم، ولا أصلَهم، ولا أسماءَ القرى التي سكنوها، ولا اسم المنطقة التي كانوا فيها، لعدمِ وجود أحاديث صحيحة تخبرُ عن ذلك.

ولا نذهبُ من أجلِ ذلك إلى الإِسرائيليات أو كتب الأَخبارِ والتاريخ والأساطير، لعدم اليقين فيما عندها من روايات.

كلُّ ما نعرفه من خلال حديث القرآن عن هؤلاء القوم، أنهم كانوا يرتكبونَ فواحش كثيرة، من أسوئها وأشنعِها وأقبحها فاحشةُ إتيان الرجال شهوة من دون النساء، ولم تكن هذه الفاحشة موجودة في من كانوا قبلهم!

هذه الفاحشة التي عُرفتْ فيما بعد باسم «اللّواط». ويُعبَّرُ عنها في هذا العصر باسم «الشذوذ الجنسي».

وقد يَقرنُ بعضُهم بين اسم «لوط» عليه السلام، وبين فاحشة «اللواط»، ويظنُّ أن هذا الاسمَ مشتقٌّ من اسمِ لوط، لأن الفاحشةَ ظهرتْ في قوم لوط.

فرق بين اسم لوط واللواط:

وهذا الربط غير سليم، فنرى أن الكلمتين ليستا من أصل واحد.

إن «لوط» اسمُ علم أجنبي غيرُ عربي، سميَ به ذلك النبيُّ الكريمُ عليه الصلاة والسلام، فهو اسمٌ غيرُ مشتق، ولا نبحثُ عن مادةِ اشتقاقه في العربية، ولا عن جذره الثلاثي.

هو أعجمي مثل: نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، وغيرهم، عليهما الصلاة والسلام.

فهي أسماءُ أنبياءٍ من غيرِ العرب، بُعثوا إلى أَقوام من غير العرب، كانوا يتكلمونَ بغير العربية. وهي أسماءٌ أعجمية رغْم ورودِها

في القرآن، ولا تتعارضُ عربيةُ لغة القرآن مع وجودِ أسماء أعلامٍ أعجمية فيه، مترجمةٍ إلى العربية، ومكتوبةٍ بالحروف العربية.

«ولوطٌ» مصروف وليس ممنوعاً من الصرف كباقي أسماءِ الأعلام الأجنبية، لأنه ثلاثيٌّ ساكنُ الوسط، مثل: نوح.

أما «اللِّواط» فهو كلمةٌ عربية مشتقة، لها صورةٌ فعليةٌ ومصدرية، تقول: لاطَ، يلوط، لَوْطاً، ولِواطاً.

قال ابنُ فارس في مقاييس اللغة: «اللَّوْط: كلمةٌ تدلُّ على اللصوق، يقال: لاطَ الشيءُ بقلبي. إذا لصق. وفي الحديث: «الولدُ أَلْوَطُ بالقلب» أي: ألصقُ بالقلب. وتقول: لُطتُ الحوضَ لوطاً. إذا طيَّنتَه بالطين»[1].

ويبدو أن العربَ عندما سمّوا الفاحشةَ القبيحة لواطاً، ما أرادوا أخذَ الاسم من لوط عليه السلام، وإنما أخذوه من معنى الكلمة في اللغة.

فإذا كان اللَّوْطُ يدلُّ على اللصوق، فقد سمّوا إتيانَ الرجلِ للرجل لواطاً، لأَنهما يلتصقان معاً عند ارتكابهما تلكَ الفاحشة.

ولستُ مع الإِمام الراغِب في هذا الموضع، وذلك في قوله: «لوط: اسمُ علم. واشتقاقُه من: لاطَ الشيءُ بقلبي يَلوط لَوْطاً.

.. وقولهم: لَوَّطَ فُلان: إذا تعاطى فعلَ قومِ لوط فمن طريق الاشتقاق. فإنه اشتُقَّ من لفظِ لوط، الناهي عن ذلك، لا من لفظِ المتعاطين له..»[2].

لستُ معه في ذهابِه إلى أنَّ اسمَ «لوط» مشتق، لأنَّ الراجحَ أنه اسمُ علم أجنبي أعجمي، ولوطٌ عليه السلام لم يكن عربياً ولم يتكلم العربية.

---

(١) مقاييس اللغة ٥: ٢٢١.

(٢) المفردات: ٧٥ ـ ٧٥١.

ولستُ معه في ذهابِه إلى أن اللواطَ مشتق من اسم لوط، لأن الراجحَ أنه مشتقٌ من الكلمة العربية «لاط» التي تدلُّ على الالتصاق!.

[٣]

دعوة لوط لقومه

أول ما ظهر اللواط في قوم لوط:

أرسلَ اللَّهُ لوطاً عليه السلام نبياً إلى قومه، ولم يكنْ واحداً منهم، كما أنه لم ينشأ بينهم، وإنما وجَّهه الله إليهم من مكانٍ آخر.

ووجدَ لوطٌ قومَه يرتكبون فاحشة إتيانِ الرجال شهوةً من دون النساء، فدعاهم إلى تركِ هذه الفاحشة، وأنكرَ عليهم هذا الشذوذَ إنكاراً شديداً. وقد سجلت آياتُ القرآن هذا الإنكار.

والذي يلفتُ النظرَ في دعوةِ لوط عليه السلام لقومه الشاذين المنحرفين، أنه بدأ معهم بدايةً خاصة لم يبدأها نبيٌّ مع قومه، وبدأ على غيرِ ما بدأه الأنبياءِ مع أقوامهم.

تخبرُنا آياتُ القرآن أن كلَّ نبي كان يبدأُ دعوتَه لقومه بدعوتهم إلى عبادةِ الله وحده، وعدم عبادةِ إلٰهٍ آخر معه، كان يقول لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾.

لماذا لم يبدأ لوط معهم بالعقيدة:

هكذا كانتْ بدايةُ دعوةِ نوح، ودعوةِ هود، ودعوةِ صالح، ودعوة شعيب، وغيرهم من الأنبياء عليه الصلاة والسلام.

وهذه البدايةُ الدعويةُ مفهومة، لأن كلَّ نبي كان يبدأُ بنقطةِ البدءِ في كل دعوة، وهي البدءُ بالعقيدة والإِيمان، والتربيةُ على العقيدة والإِيمان، وصياغةُ الأَتباع عليها، وبعد ذلك يكونون رجالاً ربانيين صالحين.

فلماذا لم يبدأ لوطٌ مع قومِه هذه البدايةَ العقيدية؟ لماذا لم يقل لهم أوّلاً: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ ثم يقولُ لهم بعد ذلك: أُتركوا فاحشةَ إتيانِ الرجال!!

إنَّ السرَّ في هذه البداية الخاصة في دعوة لوطٍ هو في الانِحرافِ الذي حصلَ عند قومه.

الفرق بين الانحراف الفكري والسلوكي:

كان الانحرافُ عند الأقوام الآخرين انحرافاً فكريّاً تصوريّاً عقليّاً، حيث كانوا يعبدون مع اللّهِ الأصنامَ والأوثان، ويعتبرونها آلهةً أخرى. فكان كلُّ نبيٍّ يبدأُ بمعالجة هذا الانحراف الفكري العقلي عند قومه، لتصحو عقولهم، وتوحِّدَ الله، وتُفردَه بالعبادة، وبعد ذلك يقدمُ لهم التوجيهاتِ الأخلاقية والأحكامَ التشريعية.

أما الانحراف الذي واجَهه لوطٌ عليه السلام عند قومه، فهو انحرافٌ من نوع آخر، انحرافٌ خاص بهم، لم يكن عند أَقوام آخرين. إنه لم يكن انحرافاً فكرياً عقلياً، يقومُ على الشركِ بالله، ليبدَأ معهم بنفي الشرك وتقرير التوحيد، صحيحٌ أنهم كانوا مشركين بالله، لكن المشكلةَ الأهمَّ عندهم كانت في الانحراف الآخر.

وَجد لوطٌ عليه السلام عند قومِه انحرافاً سلوكياً، وجدَ عندهم ممارساتٍ شاذة، وإغراقاً في الشهوةِ، في كيفيةٍ تتنافى مع الفطرة الإِنسانية، حيث كانوا يأتونَ الرجالَ شهوةً من دون النساء، وما فعلَ قومٌ قبلَهم مثل فعلهم، ولا شذُّوا مثل شذوذهم.

فكيف يبدأُ مع هؤلاء القومِ المنحرفين الشاذين الشهوانيين بالدعوة إلى عبادةِ الله، وتخليصِ أفكارِهم وعقولِهم من عِبادة غيره، مع أنهم مشغولون في شذوذِهم وانحرافهم وشهواتهم؟ ولو خاطبهم خطاباً عقلياً هل سيسمعونَه ويَفهمون عليه؟ وهم بهذا الانحرافِ الشاذ؟

لقد أراد لوطٌ عليه السلام تطهيرَ أجسامِهم من هذه اللوثةِ

الشهوانية الشاذة، ليسموَ بهم إلى العِفَّة والطهارة ويُعدَّهم للخطاب العقليِّ التوحيدي.

إنَّ دعوتَه لهم للإقلاعِ عن فاحشةِ الشذوذ، وتركِ إتيانِ الذكران من العالمين، هي تهيئةٌ لهم لعبادةِ الله والتخلي عن الشرك؟ لأن الدعوةَ إلى التوحيد لا تنفعُ مع قومٍ ملوثين شاذِّين شهوانيين.

كأنه يقول لهم: طهِّروا أجسامَكم وأبدانَكم أوَّلاً، وعودوا إلى الفطرةِ التي فطر اللَّهُ الناسَ عليها في موضوع الشهوة، وتوجّهوا في قضاءِ الشهوةِ للنساء، ثم تعالوا بعد هذا لنوحِّدَ اللَّهَ في العبادة!

[٤]
بداية فاحشة اللواط فيهم

كيف بدأ اللواط فيهم؟:

أخبرتْنا آياتُ القرآن أنَّ فاحشةَ اللواط أولَ ما ظهرت، كان ظهورُها في قومِ لوط.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف: ٨٠ ـ ٨١].

ولا تخبرُنا الآياتُ عن كيفيةِ بدء هذه الفاحشةِ فيهم، ولا عن أولِ مَنْ بدأَها فيهم، ولا كيفَ خطرَ له خاطرُ التوجُّهِ إلى رجل من جنسه، ولا كيف رضيَ المفعولُ فيه أن يكون هكذا، ولا كيف رضي الفاعلُ أن يكونَ هكذا.

لا نعرفُ كيفية بدايةِ هذه الفاحشةِ الشاذة، ولا نريدُ أنْ نذهبَ في ذلكَ إلى الإسرائيليات، التي تورد تفصيلات في ذلك غيرَ موثوقة ولا صادقة!

المهمُّ أن هذه الفاحشةَ الشاذةَ بدأتْ قليلاً فيهم، ثم انتشرتْ في

مجتمعاتهم ونواديهم شيئاً فشيئاً. حتى عمتْ تلك المجتمعاتِ والنوادي، وأصبحتْ ظاهرةً عامة، لم يسلَمْ منها إلا القليل.

شذوذهم فواحش متتابعة متلاحقة:

ونتجَ عن إتيانهم هذه الفاحشة الشاذة فواحشُ أُخرى متصلةٌ بها، مذكورةٌ في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٨ ـ ٢٩].

كانوا يأتونَ الرجال، ويقطعونَ السبيل، ويأتونَ في ناديهم المنكر. ونرى أن هذه الجرائمَ الثلاث مرتبطةٌ بالفاحشة الشاذة: فقد كانوا يأتون الرجالَ شهوةً من دون النساء، وكانوا يقطعون السبيلَ طلَباً لشذوذهم، فيجلسون على الطريق، ومنْ يمرُّ بهم من الرجال يأخذونَه ليفجُروا به، ويُرضوا بذلك نفسياتِهم المنحرفة.

وكانوا يأتونَ في ناديهم المنكر، والمنكرُ هو الممارساتُ والتصرفاتُ الشاذة المرتبطةُ بذلك الشذوذ.

ولذلك قال لهم لوطٌ عليه السلام في موضع آخر: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النمل: ٥٤ ـ ٥٥].

كانوا مجاهرين معلنين بالشذوذ:

لقد كان قومُ لوطٍ مُجاهرين بانحرافِهم وشذوذِهم، مُعلنين له، لا يتورَّعون ولا يتحرَّجون ولا يستحون. وهذا دليلٌ على أنَّ انحرافَهم وفسادَهم وشذوذَهم لم يكن فرديّاً، ولاَ جزئياً، وإنما استشرى هذا المرضُ ليصبحَ وباءً عاماً، وأدى هذا الانحرافُ إلى تلويثِ وإفسادِ الأذواقِ والأعراف والعادات والأوضاع، وإلى استقرار هذا الفسادِ والشذوذِ في مجتمعاتهم ليصبحَ هو الأصل، وتكونَ العفةُ والطهارة هي الشذوذ!

إن الإنسانَ قد ينحرف، وقد يصابُ بالشذوذِ الجنسي، ويبحثُ عن ممارساتٍ شاذة، ولكنه يبقى يتحرجُ من ذلك، ويقومُ به في خفاءٍ عن الآخرين، هذا إذا كانتْ فيه بقيةٌ من حياءٍ أو إنسانية.

أمّا أنْ يجاهرَ هذا المنحرفُ بشذوذه، ويعلنَ به، ويتبجحَ في ذلك، فلا يفعلُه إلا مَن فقدَ كلَّ معاني الحياءِ والإِنسانية.

ويهونُ الأمرُ عندما تبقى هذه المجاهرةُ والمعالَنةُ محصورةً في نماذجَ فردية شاذةٍ هنا أو هناك.

ولكنَّ المصيبة الكبيرة هي أن يتحولَ هذا الشذوذُ والانحرافُ إلى ظاهرةٍ عامة، ووباءٍ عريض، يُقره المجتمعُ ويلتقي عليه، ويصدرُ عنه.

كان قومُ لوطٍ يأتون الرجالَ شهوةً من دون النساء، وهم يُبصرون، ويعلو مجموعةٌ من الرجال رجالاً آخرين، على مرأى ومنظرٍ من الجميع!

وكانوا يأتون في ناديهم المنكر. أي: كانوا يمارسون هذا الشذوذ في نواديهم، والنوادي هي أماكنُ اجتماعاتهم العامة، فإذا ما التقوا واجتمعوا فيها يأتون المنكرَ أثناءَ ذلك، ويأتي بعضُهم بعضاً شهوة من دون النساء!!

[٥]

اللواط شذوذ نفسي وجنسي!

آيات في إنكار لوط على قومه الشذوذ:

قال لوطٌ عليه السلام لقومه المنحرفين: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف: ٨٠ ـ ٨١].

وقال لهم: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم

﴿مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥ ـ ١٦٦].

وقال لهم: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ۝٥٤ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ۝٥٥﴾ [النمل: ٥٤ ـ ٥٥].

وقال لهم: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٨ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٩﴾ [العنكبوت: ٢٨ ـ ٢٩].

تُسجلُ هذه الآياتُ إنكارَ لوطٍ عليه السلام على قومِه انحرافَهم وشذوذَهم، وإتيانَهم الرجالَ شهوةً من دون النساء.

انحراف وشذوذ الفاعل والمفعول فيه النفسي والجسمي:

إنَّ إتيانَ الرجلِ لرجل، وممارسةَ الفاحشة معه، شذوذٌ ومخالفةٌ للفطرة الإنسانية، وانحرافٌ في نفسية الفاعلِ والمفعولِ فيه.

المفعولُ فيه منحرفٌ شاذٌ مخالف للفطرة، فقد خلقه اللّٰهُ رجلاً ذكراً، ليكونَ طالِباً للأنثى طلباً فطرياً مُباحاً، يَقضي شهوتَه عندها، وجهَّزَه اللّٰهُ تجهيزاً نفسياً وجسمياً لهذه الغاية، وجهَّزَ اللّٰهُ المرأة تجهيزاً نفسياً وجسمياً لهذه الغاية، لتستقبلَ زوْجَها نفسياً وشعورياً وجسمياً، لتحققَ له رغباتِه النفسيةِ والجسمية، ويحققَ لها رغباتِها النفسية والجسمية.

وقد امتنَّ اللّٰهُ على الناس بهذه النعمةِ الفطرية لتوجُّهِ الرجالِ للنساء فقال: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ﴾ [الروم: ٢١]

ودعا الأزواجَ إلى طلبِ حاجاتِهم وتلبيةِ رغباتهم عند زوجاتهم، فقال: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ

وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴿٢٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢٢٣].

هذا هو السلوكُ السوي، والتوجُّهُ الفطريُّ من الرجال للنساء، الذي حصره الإسلامُ بالزواج الشرعي، وحظرَ أيَّ اتصالٍ للرجال بالنساءِ عن غير هذا الطريق.

فهذا الرجلُ الذي هيأه اللَّهُ نفسياً وجسمياً لطلب المرأة، كيفَ يرضى أنْ يحلَّ محلَّ المرأة، وأنْ يكون مخنَّثاً. وأنْ يكونَ مطلوباً من قبل رجل آخر، بدلَ أن يكونَ هو طالباً للمرأة، كيف يرضى أنْ يأتيهُ رجلٌ آخر في دبره، ليقضيَ شهوتَه عنده؟

لهذا كان الرجلُ المفعولُ فيه شاذاً منحرفاً، مريضاً نفسياً وشعورياً وشهوانياً، مخالِفاً للفطرة، حالاً محلَّ المرأة.

والرجلُ الفاعلُ الذي يقضي شهوتَه عند الرجالِ الآخرين شاذٌ منحرفٌ مريض أيضاً، مخالِفٌ للفطرِ الإنسانية.

لقد غرسَ اللَّهُ في فطرتِه وشعورِه ونفسيتِه الشهوة، وجعلَ فيه التوجُّهَ للمرأة والشوقَ إليها، وهيأها لاستقباله نفسياً وجسمياً، وعندما يعاشُرها ويجامعُها يلبي بذلك شهوتَه وأشواقَه، وحاجاته النفسية والشعورية والفطرية.

أما عندما يبحثُ عن رجلٍ آخر، ليمارسَ شذوذَه معه ويأتيه في دبره، فهذا هو الانحرافُ النفسي، والشذوذُ الفطري والجسمي، لأن اللَّهَ لم يجعل الدبرَ محلاً لقضاءِ الشهوة، والإنسانُ السويُّ المستقيمُ تأنفُ نفسه وتتقززُ من ذلك.

وينتج عنهما انحرافات اجتماعية شاملة:

هذا هو أساسُ المسألة، وسرُّ الانحراف في إتيانِ الرجال للرجال، ثم يتفرعُ عن ذلك مفاسدُ وأضرارٌ ونتائجُ أخرى خطيرةٌ مدمرة، لها أبعادٌ نفسيةٌ واجتماعيةٌ وإنسانية، وصحيةٌ وخلقية وسلوكية، ودينيةٌ ودنيوية وأخروية.

ماذا يحصلُ لمجتمعٍ يأتي الرجالُ فيه الرجال، ويكتفي فيه الرجالُ بالرجال؟ ماذا سيحصلُ للفاعلين الشاذّين المنحرفين؟ كيف ستكونُ نفوسُهم وأفكارهم؟ وما مدى خطورتِهم على أطفالِ وأولادِ المجتمع، حيث سيحرصون على إغوائِهم وممارسةِ شذوذهم معهم؟ وماذا سيكون مستقبلُ هؤلاءِ الأطفالِ بعد الانحرافِ والإغواء؟.

ماذا سيحصلُ للرجال المفعولِ فيهم؟ كيف سيكون مستقبلُهم ومصيرهم؟ ألا يتحولُ بعضُهم إلى كيانٍ محطم مدمَّر، جسمياً ونفسياً وشعورياً، يكونون مخنّثين يؤدّون وظائفَ النساء؟ وكيف سيكون أداؤُهم الاجتماعيُّ والوظيفي في المجتمع؟

ألا يتحولُ آخَرون منهم إلى وحوش ضارية، وذئابٍ مفترسة، لينتقموا ممن أغواهم واعتدى عليهم، وسيبحثونَ عن أطفالٍ آخَرين يفعلون فيهم نفسَ الدور؟ وبهذا يتحوَّلون إلى مدمِّرين مخرِّبين مفسدين.

وماذا سينتجُ عن هذه الفواحشِ والممارساتِ الشاذة المنحرفة من أضرارٍ وأمراضٍ وأوبئةٍ في طبقات المجتمع؟ ألا يعاقبُ اللّٰهُ طوابيرَ المنحرفين الشاذين بأمراضٍ تكلفُ المجتمعَ كثيراً لعلاجها، وأمراضٍ أُخرى لا علاجَ لها ولا شفاءَ منها، إلا بموتِ أصحابها؟

وما «الإيدز» عن شاذي هذا العصر ببعيد!:

وكلُّنا يعلمُ الوباءَ المعاصر الذي يصيب الشاذّين المنحرفين، والذي ظهرَ في نواديهم وحاناتهم، إنه «الإيدز» حصادُ الشذوذ، الذي يُودي كلَّ عام بحياةِ الآلاف في العالم، والذي لا علاجَ له ولا شفاءَ منه، رغمَ رصْدِ الميزانيات العالمية التي تقدَّرُ بالملايين لتطوير أبحاث العلاج منه. والذي يبدو أنه لا علاج له في المستقبلِ القريب على الأقل!

ولا علاجَ له إلاّ بالعفّةِ والطهارة، وتوجُّهِ الرجالِ للنساء، توجُّهاً شرعياً إسلامياً، عن طريق الزواجِ الشرعي فقط.

[٦]

لوط ينكر على قومه شذوذهم

كيف يأتون الرجال شهوة من دون النساء؟:

أنكرَ لوطٌ على قومِه شذوذَهم فقال لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف: ٨١].

سبقوا غيرَهم في فاحشةِ اللواط، فلم يسبقْهم إليها أحدٌ من العالمين، ويَكفيهم هذا سوءاً وقبحاً وشذوذاً، أنْ يكونوا أولَ مَنْ شذّوا وأتوا الرجالَ في التاريخ، وبذلك كانوا قدوةً سيئةً لمن بعدهم.

وأنكرَ لوطٌ عليهم هذا السبقَ الشاذ، كما أنكرَ عليهم إتيانَ الرجالِ شهوةً من دون النساء، فكيف يكونُ الرجالُ موضعَ شهوة؟ وكيف يكتفونَ بهم عن النساء؟ وكيف يحلُّ المخنَّثون من رجالِهم محلَّ النساء؟

قال الإمامُ الراغب عن معنى الشهوة: «أصْلُ الشهوة: نزوعُ النفسِ إلى ما تريدُه.

وذلك في الدنيا ضربان: صادقة وكاذبة.

فالصادقة: ما يختلُّ البدنُ من دونه، كشهوةِ الطعام عند الجوع.

والكاذبة: ما لا يختلُّ من دونه.

وقد يُسمّى المشتَهىٰ شهوة. وقد يقالُ للقوة التي تَشتهي الشيءَ شهوة..»[١].

إذا كانت الشهوةُ نزوعَ الإنسان إلى ما يُريده، فكيف يريدُ هؤلاء الرجالُ الشاذون أمثالَهم من الرجال؟ وكيف تنزعُ نفوسُهم إلى ممارسةِ الشذوذِ مع أولئك؟ وكيف تشتهي نفوسُهم ذلك الفعلَ الشاذَّ معهم؟.

وبعدما أنكرَ عليهم لوط عليه السلام ذلك الشذوذ، حكمَ عليهم

---

(١) المفردات: ٤٦٨ ـ ٤٦٩.

بالإِسراف، فقال: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

كانوا مسرفين عادين جاهلين:

إنهم مسرفون في الاستمتاعِ بالشهوة، مُبالغونَ فيها، متجاوزونَ الفطرةَ إلى الشذوذ، والمباحَ إلى الحرام.

هناك وسيلتان في ممارسةِ الشهوة:

الوسيلةُ المقتصدة: التي تقومُ على توجُّهِ الرجل إلى المرأة، ليتزوجَها ثم يمارسَ الشهوة معها، وهذا هو التوسطُ والاعتدالُ والاتزان، وتلبيةُ نداءِ الفطرة.

والوسيلةُ المسرفة: التي تقوم على توجُّهِ الرجلِ إلى رجلٍ من جنسه، ليُمَارِسَ الشهوةَ معه، وهذا هو الإِسرافُ وتجاوزُ الحد، والخروجُ عن الاعتدال والتوسط والاتزان، إلى الانحرافِ والشذوذ والعدوان.

وبعدَ أنْ حكمَ عليهم لوطٌ عليه السلام بالإسراف، حكمَ عليهم بالتعدي والتجاوز، فقال لهم: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦٥ - ١٦٦].

هم عادُون معتدونَ متجاوِزون للفطرة، مختارون للحرام على الحلال. مفضِّلون للشذوذِ على الاستقامة. لأنهم آثروا الرجالَ الذكرانَ على النساء، حيث تركوا ما خلقَ لهم ربّهم من أزواجِهم من النساء، وجعلَ في فِطَرِهم الرغبةَ في أزواجِهم النساء، لكنهم طَمسوا رغبة الفطرة، ونزعوا لِداعي الشذوذِ والانحراف. وهذا هو العدوانُ بنفسه.

وعبرَ عن الرجال في قوله: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ وقال: ﴿الذُّكْرَانَ﴾ ولم يقل: الذكور. وذلك للمبالغةِ في ذمهم والإنكارِ عليهم، ولتأكيدِ عدوانهم وتجاوزِهم للفطرة.

إن الألفَ والنونَ في ﴿ٱلذُّكۡرَانَ﴾ للمبالغة، للإشارة إلى المبالغةِ في الذكورية، فهؤلاء الذين يأتونَهم من دون النساء، ليسوا إناثاً ولا نساءً، وليسوا موضعاً لقضاءِ الشهوة، إنهم «ذُكْران» كامِلوا الذكورية، متمكِّنون منها، ممتلئون بها، فكيف يُحَوِّلون هؤلاء الذكرانَ إلى نسوان؟؟

ومعلومٌ أن الألفَ والنون في الكلمة تدلُّ على الامتلاء والمبالغة: فالإنسانُ هو الممتلئ إنسانية، والشبعانُ هو الممتلئ طعاماً، والغضبانُ هو الممتلئ غضباً، والعطشانُ هو الممتلئ عطشاً وحاجة للماء، والذكرانُ هم الممتلئون رجولةً وذكورية، فكيف يأتونَهم شهوة من دون النساء؟ هذا هو العدوان!

وبعدَ وصفهم بالعدوان، وصَفَهم بوصفٍ ثالث، وذلك في قوله: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ۝٥٤ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ تَجۡهَلُونَ ۝٥٥﴾ [النمل: ٥٤ ـ ٥٥].

إنهم قوم يجهلون. يجهلونَ طريقَ تصريفِ الشهوة، يجهلونَ وسيلةَ الاستمتاع الفطري الإنساني، يَجهلون كيفية الرغبة، والنزوعَ إلى اللذة، يجهلون التصرفَ الإنسانيَّ السويَّ السليمَ المستقيم.

إنَّ الطريقَ الصحيحَ هو التوجُّهُ إلى النساء، لكنهم عَدلوا عنهنّ وتركوهن، وعَدلوا إلى الرجال، ومالوا إلى أمثالِهم من الذكور. وهذا هو الجهلُ الذي انطبقَ عليهم.

والجهلُ الذي وُصفوا به في ممارساتهم الشاذة، قد لا يلزمُ منه الجهلُ بمعنى عدمِ العلم والمعرفة، فهم قد يعرفونَ أن المرأةَ هي طريقُ تصريفِ الشهوة، ويعلمون أن الرجلَ لم يخْلقه اللّهُ ولم يعدّه لهذا. ومع هذا العلم والمعرفة، تركوا النساءَ ومالوا للرجال.

هذا الجهلُ الصادرُ منهم هو جهلُ خِفَّةٍ وطيش. جهلٌ في الممارسةِ والسلوك، وجهلٌ في التصرف يقودُ إلى الشذوذ والانحراف، جهلٌ في سوء الاختيار.

بعضُ الناسِ قد يعرفونَ أن هذا الفعلَ حرام، ومع ذلك يفعلونَه، مع علمهم بحُكْمه، وعند ذلك يوصَفون بالجاهلين، وجهلُهم هنا ليسَ بعدمِ العلم، ولكنه جهلُ خفةٍ وطيش.

ومن هذا البابِ وَصفَ لوطٌ قومَه الشاذين بقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

لقد أنكرَ لوطٌ عليه السلام على قومه شذوذَهم بأنْ وصفَهم بصفاتٍ ثلاث مجتمعة: إنهم قومٌ مسرفون، وقوم عادون، وقومٌ يجهلون.

[٧]
بماذا ردوا على لوط عليه السلام؟

كذبوا لوطاً وطلبوا العذاب وهددوه بالإخراج:

بماذا ردَّ القومُ الشاذون على لوط؟ وماذا قالوا له؟

ردّوا عليه أوّلاً بتكذيبهِ في دعوته، والإصرارِ على شذوذهم وانحرافهم، وطلبوا إيقاع العذاب بهم: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠)﴾ [العنكبوت: ٢٩ ـ ٣٠].

أي: إن كنتَ يا لوطُ صادقاً في كلامك، وكنتَ جادّاً في نهيِنا عن أفعالنا، فإننا لنْ نستجيبَ لك، ولن نُقلعَ عن أفعالنا، وما عليك إلاَّ أنْ تأتينا بعذابِ الله الذي تهددُنا به، وتطلب من ربك أنْ يدمِّرَنا ويقضيَ علينا.

وهم قالوا له ذلك سخريةً واستهزاءً به وبدعوته، واستخفافاً به، ورفضاً لدعوته، ولهذا طلبَ لوطٌ من ربه أنْ ينصرَه عليهم باعتبارِهم قوماً مفسدين.

ثم ردوا عليه بعد ذلك رداً في غايةِ العجب والاستغراب، وذلك فيما وردَ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴿٨٢﴾﴾ [الأعراف: ٨٢].

وما وردَ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴿١٦٧﴾﴾ [الشعراء: ١٦٧].

لقد هددوا لوطاً عليه السلام بإخراجه هو وآلِه وأهلِه الصالحين وأَتْباعِه المؤمنين من قريتهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾.

أي: إن لم تتوقَّفْ يا لوطُ عن كلامك فسنعاقبُك، وإنْ أصررتَ على الاستمرار في لومِنا وتقريعنا فسنخرجُك من بيننا.

واستمرَّ لوطٌ في دعوته، ومضى في الإنكارِ عليهم، ولم يأبَه لتهديدهم ووعيدِهم، فما كان من الملأ من قومِه إلاّ أنْ أَصدروا أَوامرهم لأَتْباعهم فقالوا لهم: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ﴾.

أَخرِجوا لوطاً وآلَه المؤمنين من قريتكم، فهذه القريةُ قريتُكم أنتم وليستْ قريتَهم هم. إنها قريتُكم تتصرفون فيها كما شئتم، وتُحَقِّقون فيها رغباتكم، وتفعلونَ فيها ما يحلو لكم، ومَن هو الذي يشارككُم فيها؟ أَمّا لوطٌ وأتباعُه فلا حقَّ لهم في قريتكم، إنهم غرباءُ عنكم، ولا بدَّ أنْ يَخرجوا من بينكم.

هل الطهارة والعفة جريمة يعاقب صاحبها؟:

حكْمُ الملأ هو إخراجُ لوطٍ وآلِه، أما تعليلُهم للحكمِ فهو الغريبُ العجيب: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾!.

لوطٌ عفيفٌ طاهر، يترفعُ عن الشذوذ، ويرفضُ الانحراف، ويأبى أنْ يقومَ بالممارسات الشاذة، ويتطهرُ عن الدنس، وأتباعُه المؤمنون يقتدونَ به في هذه الفضائل، فهم يتطهَّرون مثلَه.

لقد اختاروا لأنفسهم طريقاً غيرَ طريقكم، وسلوكاً غير سلوككم، فبينما تفعلونَ أنتم في قريتكم ما تشاؤون، وتأتونَ الرجالَ شهوةً من دون النساء، فقد اعتَبَروا هم هذا السلوكَ منكم شذوذاً وإسرافاً، وعدواناً وجهلاً.

لقد فضَّلَ لوط وأتباعُه المؤمنون البقاءَ مع الطهارة والعفة، وتطهَّروا عن أفعالِكم وممارساتكم، ولذلك لا يجوزُ أنْ يَبقوا بينكم، حتى لا يؤثِّروا فيكم في طهارتهم، وحتى لا يُعديكُم تطهُّرُهم، وحتى لا يستجيبَ لهم بعضُ أفرادكم، فيتطهَّروا مثلَهم؟ لذلك سارِعوا بإخراجهم من قريتكم، لهذه الجريمة، جريمةِ العفةِ والتطهر، قبلَ أنْ ينشروا طهارتَهم بينكم!!

لقد أصبحَ التطهُّرُ عند هؤلاء القوم الشاذين جريمة، يستحقُّ صاحبُها العقابَ والطردَ والإخراج، بدلَ التكريم والتشجيع والاستحسان.

وما زال الموقفُ هو هو، عند كلِّ قومٍ مجرمين أو شاذّين منحرفين، ونرى في المجتمعاتِ الشاذة المعاصِرة، نماذجَ صارخة، يعاقَبُ فيها صالحون، لأنهم أناسٌ يتطهَّرون، فيُعْتَبرون خارجين على الأوضاعِ والأعرافِ والعادات الاجتماعية، وهي شاذةٌ منكرة، لكنَّ الشاذين لا يطيقون وجودَ المتطهِّرين بينهم!!.

[٨]

الملائكة عند إبراهيم ولوط عليهما السلام

المحطة الأخيرة في قصة لوط مع قومه:

وصلتْ قصةُ لوطٍ عليه السلام مع قومِه إلى نهايتِها، حيث طلبوا منه أنْ يأتيهم بعذابِ الله إنْ كان من الصادقين، وأصدروا أمرهم بإخراجِ لوطٍ وأتباعِه من قريتهم، لأنهم أناسٌ يتطهَّرون. فماذا بقي بعد ذلك؟

استنصرَ لوطٌ عليه السلام ربَّه، وطلبَ منه أنْ ينصرَه على القوم

المفسدين: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٣٠﴾.

وصارحَ لوطٌ قومَه بأنه من القالِين لهم ولشذوذِهم: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ١٦٨ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ ١٦٩﴾.

و «القالُون» جمعُ مذكر سالم، مفرده: قال، من القِلىٰ، وهو البغضُ والهجر، يقال: قَلى فلانٌ الآخرَ قِلى، فهو له قالٍ، أي: أبغضه فهو له مُبغض.

وبعد وصولِ قصةِ لوطٍ عليه السلام مع قومِه إلى هذه النهاية، بقيَ أنْ تتحققَ سنةُ الله، في إيقاعِ العذابِ والهلاك بالكافرين، ونجاةِ لوطٍ ومَنْ معه من المؤمنين.

إنزال الملائكة لتدميرهم ومرورهم على إبراهيم:

أمرَ اللَّهُ الملائكةَ أنْ تتوجَّه إلى قرى قومِ لوط لتدمرهم، وعليهم أنْ يمرّوا بإبراهيمَ عليه السلام قبلَ ذهابهم إلى لوط عليه السلام، ليبشّروه بشارتَين: البشارةَ بابنه إسحاق، والبشارةَ بتدميرِ قوم لوط.

وقد أخبرتْ آياتٌ من القرآن بما حصلَ للملائكة عند إبراهيم، وما حصلَ لهم عند لوطٍ عليهما السلام.

فقد أَتوهما في صورةِ أفرادِ رجالٍ من البشر، ولم يعرفْ إبراهيمُ أنهم ملائكة، وقدمَ لهم العجلَ المشوي، ولما نَكِرهم وخافَ منهم لعدم أكلهم، أخبروه بتوجُّههم لتدميرِ قرى قومِ لوط، وأخبروه هو وزوجُه سارة بما قَدَّرَه اللَّهُ لهما من الولد، وبشَّروهما بإسحاق نبياً من الصالحين، ثم توجَّهوا إلى لوط، والتقوا به في صورة رجالٍ حِسان، وهو لا يعرفُ أنهم ملائكة، فتدافعَ قومُهُ إليه، ليخطفوا منه ضيوفه، ليفجُروا بهم، ووقفَ لوطٌ أمامَهم وحيداً، يدافعُ عن ضيوفه، ويستثيرُ رشدَهم أو عقلَهم، ويوجِّههم إلى المنفذِ الفطري للشهوة، عن طريقِ النساء والزواج، فلم يستجيبوا له، وأمامَ محاولاتهم الدخولَ إليه عنوة، لخطفِ الضيوف، كشفَ الضيوفُ عن هويتهم الحقيقية، وأخبروه أنهم

ملائكة، لن يَصلوا إليهم، وأن العذابَ قادمٌ إليهم عند الصبح....

حديث القرآن عن ذلك:

ونوردُ فيما يلي الآيات التي تحدثتْ عن قدومِ الملائكة إلى إبراهيم ثم إلى لوط، عليهما الصلاة والسلام.

قال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ [هود: ٦٩ ـ ٨١].

وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾

﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: ٥١ ـ ٧٢].

وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [العنكبوت: ٣١ ـ ٣٤].

ولن نتكلمَ عن قصةِ هؤلاء الملائكة مع إبراهيمَ عليه السلام، وعن تبشيرِهم له بإسحاق، وعن الحوار الذي جرى بينهم وبينه، وبينَهم وبين زوجِه سارة، لأننا وقفْنا أمامَ ذلك أثناءَ حديثنا عن قصةِ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق عليهم الصلاة والسلام.

إنما نتكلمُ عن حوارِ إبراهيمَ معهم بشأنِ لوطٍ وقومه، ثم نتابعُهم في رحلتهم إلى لوطٍ عليه السلام!

لماذا جادل إبراهيم في قوم لوط؟:

لما علم إبراهيمُ عليه السلام أنَّ هؤلاء الملائكةَ متوجهون إلى قوم لوطٍ لإهلاكهم جادَلهم بشأنهم: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ [هود: ٧٤ ـ ٧٦].

وجدالُه مع الملائكةِ بشأن قومِ لوط ليس محبةً منه لأولئك القوم،

ولا دفاعاً عنهم، لأنه يكرهُ ما هم عليه من شذوذٍ وانحراف، وهو نبيٌّ رسولٌ، حبُّه وبغضُه لله.

ولكنه كان يجادلُ فيهم من بابِ حلمه وشفقته ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴿٧٥﴾﴾. كان يريدُ إعطاءهم فرصةَ أخرى، ووقتاً آخر، لعلَّهم يتخلَّون عن شذوذهم، ويتَّبعون لوطاً عليه السلام.

لكن الملائكةَ أخبروا إبراهيمَ عليه السلام بأنه لا فائدةَ ولا جدوى من طلبِ مهلةٍ أُخرى لهم، وعليه أن يتوقفَ عن ذلك، وأنْ يُعرِضَ عنه، فقد جاءهم أمْرُ الله وعذابه، وقد وجَّه اللَّهُ الملائكةَ لتدميرِ قراهم وإهلاكهم، وبما أن اللَّهَ أمر الملائكةَ ووجَّههم إلى قُراهم، فلا عودةَ عن ذلك، لأنه لا رادَّ لقضاءِ الله، فعذابُ الله آتيهم، لا يردُّه عنهم أحد، ولا توقِفُه شفاعةُ شفيع!

فلما علمَ إبراهيمُ بتحقيقِ وقوع الدمارِ والهلاكِ فيهم، خشيَ على لوط عليه السلام، فذكَّرَ الملائكةَ به: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴿٣٢﴾﴾ [العنكبوت: ٣٢].

أَخبروه بأنهم أَعلمُ بمن في تلك القرى، وأنهم أَحسنوا فرْزَ المؤمنين ومعرفتَهم، وإن اللَّهَ أخبرَهم بذلك، وأَمرهم أن يُنجوا لوطاً ومَن معه من المؤمنين، ولذلكَ عليه أنْ يطمئنَّ على نجاةِ لوط وأتباعه: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴿٦٠﴾﴾ [الحجر: ٥٧ ـ ٦٠].

لوط لم يعرف الملائكة مثل إبراهيم:

وتوجَّهَ الملائكةُ من عند إبراهيم، قاصدين لوطاً، وهم على الصورة البشرية الجميلة، التي تَحوَّلوا إليها، مبالغةً في فتنةِ قوم لوط، وإقامةِ الحجةِ عليهم.

وكما أن إبراهيمَ عليه السلام لم يعرفْهم لما قدموا عليه، وظنَّهم

ضيوفاً بَشَراً حقيقيين، فإن لوطاً أيضاً لم يعرفْ أنهم ملائكةٌ في صورة بشر، وظنهم ضيوفاً بشراً عليه.

نظرَ إليهم فرآهم رجالاً حِساناً، على صُوَرٍ جميلة، وتذكَّرَ ما عليه قومُه من انحرافٍ وشذوذ، وخشيَ على ضيوفِه من قومه، ولذلك تضايقَ جداً من هذه الضيافة غيرِ المناسبة.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾ [هود: ٧٧].

أصابهُ السوءُ والهم ممّا ينتج عن استقباله لهؤلاء الضيوف، وعلم ما ينتظرهم من أذى على أيدي قومِه الشاذين، ولذلك ضاقَ بهم ذرعاً، ولم يعرفْ ماذا سيفعلُ لهم، إنه واحد، وقومُه كثيرو العدد، فهل يقدرُ على الدفاعِ عن ضيوفه؟ إنه يومٌ عصيب فعلاً!

ولقد صارحَ لوطٌ عليه السلام ضيوفَه بذلك: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الحجر: ٦١ ـ ٦٤].

هم قوم مُنْكَرون عنده لأنهم غرباء، ولا يعرفُ هويتَهم، ولا مهمتَهم، فلذلك نكرهم، واستاءَ من قدومهم، لأن قومَه لهم بالمرصاد.

[٩]

لوط يدافع عن ضيوفه أمام قومه

قومه يطلبون ضيوفه وهو يدفعهم:

حصلَ ما كان يحذرُ منه لوطٌ عليه السلام، فلما عرف قومُه الشاذون بوجودِ رجالٍ حِسانٍ في بيته، تحركتْ في نفوسهم شهواتُهم الشاذة، وتوجهوا إلى لوطٍ عليه السلام، مراوِدينَ له عن ضيوفه، راغبين في أخْذِهم ولو بالقوة، ليفجُروا بهم.

ووقفَ لوطٌ أمامَ قومِه بقوة، ودافعَ عن ضيوفه دفاعاً مَجيداً، وقامَ بواجبه خيرَ قيام، إلى أنْ كشفَ ضيوفُه عن هويتهم، وأخبروه أنهم ملائكة، قادمون بعذابِ الله، وأنَّ العذابَ واقعٌ بهم عند الصبح، وما عليه إلا أنْ يرحلَ بأهلِه المؤمنين ليلاً.

وقد سجلتْ آياتُ القرآن هذا المشهدَ المثير.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ٧٨].

وكلمة ﴿يُهۡرَعُونَ﴾ تُصوِّرُ الرغبةَ الشاذةَ المحمومة، التي حركتْهم ودفعتْهم للمجيء، لما علموا بوجودِ رجالٍ حسان عند لوط.

قال الإمامُ الراغب في الهَرْع: «يقال: هَرَع وأَهْرَع: ساقَه سَوْقاً بعنفٍ وتخويف، والهَرِع: السّريعُ المشيِ والبكاء»[1].

ويلاحَظُ أنْ فعلَ ﴿يُهۡرَعُونَ﴾ في الآية مسندٌ لغيرِ الفاعل ـ أي: مبنيٌّ للمجهول، ولهذا لفتة لطيفة. فالقومُ الشاذّون أتوا إلى بيتِ لوطٍ مسرعين، ولكن كان يحركهم شيءٌ آخر، ويسوقُهم سوقاً بعنف، فما هو هذا الشيء؟

إِنه الانحرافُ والشذوذ، الذي يَعميهم عن رؤيةِ الحقائق، فما أنْ شاهَدوا الرجالَ الحسانَ حتى أُصيبوا بحمّى وهستيريا الشذوذ، وتوجَّهوا إليهم ليمارسوا الشذوذَ معهم!

لقد استبشَروا وسُرّوا وفرحوا بما شاهَدوا: ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧﴾ [الحجر: ٦٧].

طلبوا من لوطٍ عليه السلام أنْ يُسْلمهم ضيوفَه ليفجُروا بهم، وراودوه على ذلك: ﴿وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ٣٦ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٧﴾ [القمر: ٣٦ ـ ٣٧].

والمراوَدة من الإِرادة.

---

(١) المفردات: ٨٤٠.

قال الراغب: «الإِرادةُ في الأصل؛ قوةٌ مركبةٌ من شهوةٍ وحاجةٍ وأمل. وجُعلَ اسماً لنزوعِ النفس إلى الشيء، مع الحكمِ فيه بأنه ينبغي أنْ يُفعل، أو لا يُفعل..».

«والمراودة: أنْ تنازعَ غيرَك في الإِرادة، فتريدُ غيرَ ما يُريد، أو تَرودُ غير ما يَرود، وراودْتُ فلاناً عن كذا...»[1].

والمراودةُ في القرآن ذُكرتْ في مراودةِ امرأةِ العزيز ونسوةِ المدينة ليوسف عليه السلام، حيث راودْنَه عن نفسه، ونازَعْنَه في إرادته، إذ أنَّ امرأةَ العزيز تريدُ منه ارتكابَ الفاحشةِ معها، وهو يُريدُ أنْ يتعففَ ويتطهرَ ويستعصم، وكانت نتيجةُ هذه المراودة هزيمةَ امرأةِ العزيز ونسوةِ المدينة في مراودتهن له، وتحطيمَ إرادتهن أمامَ إرادته، وانتصارَ يوسف في إرادته.

وذُكرت المراودةُ هنا في موقفِ قومِ لوط، فقد أرادَ لوطٌ عليه السلام الدفاعَ عن ضيوفه، وأرادَ قومُه أخذَ ضيوفه، وتنازعت الإِرادتان، فكانت المراودة: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾.

وكانت النتيجةُ هزيمةَ القومِ الشاذين في إرادتهم الشاذة، وانتصار لوطٍ عليه السلام في إرادته العاليةِ الكريمة.

لما طلبَ قومُه منه تسليمَ الرجال الحسان عنده قالَ لهم: ﴿يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الحجر: ٦٧ ـ ٧١].

ونستخرجُ من هذه الآيات ما جرى بين لوطٍ عليه السلام وبين قومِه المجرمين في هذا المشهد.

---

(١) المفردات: ٣٧١.

ليس في قومه رجل رشيد:

طلب قومُه منه أنْ يُسلمهم ضيوفَه، فأبى أنْ يفعلَ ذلك، ودافعَ عن الضيوف، وهذا موقفٌ كريم منه، يُذكِّرُنا بوجوبِ إكرام الضيف، ودفع الأذى عنه، وبذلِ أقصى الجهدِ والطاقة في ذلك، والاقتداءِ في ذلك بنبيِّ الله لوط عليه السلام.

بعد ذلك استجاشَ لوطٌ في قومِه تقوى الله، ولمسَ قلوبهم لمسةً خفيفة، فقال لهم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ﴾.

إِنه يعلمُ أنّ شذوذَ قومه يَعمي قلوبَهم عن الحق، ولكنه أرادَ أنْ يقيمَ عليهم الحجة، فذكَّرهم بتقوى الله، وهو يعلمُ أنهم لن يَستجيبوا له.

والتفت لوطٌ التفاتةً نفسيةً اجتماعية، فذكَّرهم أن هؤلاء الرجالَ الذين يطلبونهم هم ضيوفُه، والمضيفُ يجبُ عليه أن يكرمَ ضيفَه، وأنْ يدافعَ عنه، وجيرانُ وأقاربُ المضيفِ يجبُ أنْ يساعدوه في هذا الواجب، وأنْ يكونوا عوناً له، وأن لا يكونوا هم المنتهكين لهذه الحرمة، المعطِّلين لهذا الواجب.

إنَّ لوطاً عليه السلام يخاطبهم بمنطقِ المروءة إنْ كانت عندهم بقايا مروءة، ويثيرُ فيهم معاني الحياءِ والتجمُّل، إنْ بقيَ عندهم شيءٌ من ذلك: فالمروءةُ تقتضي أن لا يصلَ بهم الأمرُ إلى الاعتداءِ على ضيوفِ أحد سكان القريةِ عنوة، أين المروءةُ والتعقلُ والرشد؟ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾.

إِنهُ يبحثُ من بين قومه الكثيري العدد، عن رجلٍ رشيدٍ واحد، رجلٍ يستخدمُ عقلَه ورشدَه، فيساعدُه في الوقوفِ أمام الجنون الشهواني المسعورِ الذي يقودُ قومَه، ويدعوهم إلى الالتفاتِ إلى السلوكِ الفطريِّ السليم في التوجُّه نحو النساء!

يبحثُ من بينهم عن رجلٍ واحد رشيد، يخاطبهم بمنطقِ المروءة

والحياء والتجمل، والأدبِ الاجتماعي، لينصرفوا عن بابِ منزلِ لوط عليه السلام.

ولكنه لم يجدْ بغيتَه من بينهم، لم يجدْ فيهم رجلاً واحداً عاقلاً رشيداً. لقد قضى شذوذُهم وبحثُهم عن الذكران من العالمين على ما عندَهم من فطرة، ورشد، وعقل، ومنطق، ومروءة، وتجمُّل؛ ولذلك لم يجدْ لوطاً من بينهم رجلاً واحداً رشيداً!!!

ثم سلكَ لوطٌ عليه السلام اتجاهاً آخر، في محاولاتِه كبحَ جماحهم والدفاعَ عن ضيوفه، فقال لهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾.

لوط يرشدهم إلى بنات القرية:

ما معنى قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ﴾؟ ومَنْ هُنَّ البناتُ اللواتي دعاهم إليهن؟ وكيفَ دعاهم إليهن؟

لا نريدُ أنْ نذهبَ إلى الإسرائيلياتِ والأساطيرِ للإجابة على هذه الأسئلة، ولا أنْ نوردَ الأقوالَ الخلافية التي سجلَها بعضُ المؤرخين والمفسرين والإخباريين المسلمين حولَ ذلك.. إنما نقدمُ ما نراه صواباً، ومتفقاً مع فهمِ النصِّ القرآني؛ وشخصيةِ نبيِّ الله لوط عليه السلام.

قال لهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾. وقال: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾.

إنه يصفُ البناتِ بأنهنَّ أطهرُ لهم، ويَدعوهم للذهابِ إليهن إنْ كانوا فاعلين وراغبين في ممارسة الشهوة.

ولا داعي لأنْ نفهمَ من الإضافة: ﴿بَنَاتِىٓ﴾ أَنها إِضافةٌ حقيقية، وأَنه يريدُ بناته الحقيقيات، اللواتي من صُلبه.

إنَّ قوله: ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ هو القرينةُ الصارفةُ للبنات عن المعنى الحقيقي، إلى معنى آخر.

الراجحُ أنَّ لوطاً عليه السلام أرادَ بقوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ بنات القرية، باعتبارهن الجنسَ الآخرَ فيها. أي: دعاهم إلى التفكيرِ الفطريِّ السليمِ في تصريفِ الشهوة، بأنْ يتجهَ كلٌّ منهم إلى الجنس الآخر، إلى البنت الأنثى، التي فطرَ اللّٰهُ الرجلَ السويَّ المستقيمَ على التفكيرِ فيها، والتوجهِ إليها.

لقد دَعاهم إلى الإقلاعِ عن التفكير الشاذ، وطلبِ قضاء الشهوة عند الرجال، باعتبارهم من نفس الجنس، لأنَّ هذا انحرافٌ وشذوذ، طالما نَهاهم عنه وحذَّرهم منه!

واعتبرَ بناتِ القرية ونساءَها بناتٍ له: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ لأنه نبيُّ القرية ورسولُها، وهو شيخُ أهلِها وكبيرُهم وصالحُهم وإمامهم، فكأنه أبوهم أبوةً معنوية، وكأنَّ ذكورَها أولادٌ له بالمعنى المعنوي، وكأنَّ بناتِ القرية ونساءَها بناتٌ له بالمعنى المعنويِّ نفسه.

قد يخاطبُ الشيخُ الطاعنُ في السن طلابه بقوله: يا أبنائي، وقد يقولُ له طلابه من الذكور والإناث: نحنُ أبناؤك وبناتك!!

ولعلَّ هذا ما تصوره لوطٌ عليه السلام بقوله لهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾.

ولو أرادَ بقوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾ المعنى الحقيقي الذي ينصرفُ إلى بناتِه من صلبه، فكم بنتاً له؟ وهل عددُهنَّ القليل يكفي لعددِ رجالِ القرية الكثير؟؟.

وقوله: ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ يوحي بأنّه دعاهم إلى التوجُّه الفطريِ النفسيِّ السوي، الذي يحققُ الطهارة، حيث يفكرُ الرجل بزوجِه وامرأتِه، ويقضي شهوتَه عندها، وهذا أطهرُ له من ذلك السلوكِ الشاذ، بممارسةِ الشهوةِ عند رجلٍ من جنسه.

إن الشذوذَ الذي كان يمارسُه القومُ ما هو إلا رجسٌ ودنس، وقذارةٌ ودناءة، تتقززُ منه نفسيةُ الرجلِ السوي، وتتقذرُ منه شخصيةُ

الإِنسانِ المستقيم، فلا تفكرُ فيه، ولا تتجه له.

معاشرة الرجل لامرأته هي الطهارة المطلقة:

أما التوجهُ للمرأة فهو الطهارة، الطهارةُ النفسية، والطهارةُ الشعورية، والطهارةُ الفطرية، والطهارةُ الجسمية، والطهارةُ الصحية، والطهارةُ الأخلاقية، والطهارةُ الإِيمانية، والطهارةُ الاجتماعيةُ الحضارية.

ومعلومٌ أن هذه الطهارةَ العامةَ الشاملة، لا تنطبقُ على أيِّ توجُّهٍ للنساء، ولا على أيِّ اتصالٍ بالنساء، وإنما هي مقصورةٌ على التوجهِ الوحيدِ المباح، والاتصالِ الوحيدِ الحلال، وهو المحصورُ بالزواج الشرعي، الذي أباحه شرعُ الله.

أما الاتصالُ المحرمُ بالنساء، المتحققُ عن طريق الزنا، فلا تتحققُ فيه معاني الطهارة في قوله: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ﴾، فهو قريب من القذارةِ والدناءة، المتمثلةِ في التوجهِ الشاذِّ نحو نفسِ الجنس!!

دافعَ لوطٌ عليه السلام عن ضيوفه، ودعا قومَه إلى الكفِّ عن شذوذهم، بتذكيرِهم بتقوى الله أوَّلاً، والمروءةِ الاجتماعية ثانياً، والتوجّهِ الفطري السليم نحو النساء ثالثاً، وقصْرِالممارسةِ الشهوانية معهن على طريقِ الزواج الشرعي رابعاً.

فماذا كان جوابُ قومه؟ هل أثَّرتْ فيهم دعوتُه؟ وهل أَوقفت سُعارهم الشاذَّ المحموم؟

فقدوا رغبتهم في النساء لشذوذهم:

كلا.. ما زالَ أُوارُ سُعارِهم مشتعلاً في نفوسهم، وما زالَ شذوذُهم يسوقُهم للفاحشة، ويعميهم عن اليقظةِ والتعقلِ والرشد، لذلك ردّوا عليه قائلين: ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩]. وقالوا أيضاً: ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴿٧٠﴾﴾ [الحجر: ٧٠].

لقد ذكَّروه بنهيهم السابقِ له: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. لقد نهيْناكَ من قبلُ عن العالمين، نهيناكَ عن استقبالِ واستضافةِ أناسٍ غرباء عن القرية، وعن الاتصالِ بهم، وترك هذا لنا. فلماذا استضفتَ هؤلاء الرجالَ عندك؟ وخالفتَ نهينا لَك؟ لا بدَّ أن تسلمهم لنا؟

وصارَحوه بشذوذهم بوقاحةٍ مرذولة: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ لقد وجهتَنا أنتَ إلى بناتِ القرية ونسائِها للاتصال الشرعي بهم، وأنتَ تعلمُ أنه ليس لنا فيهن من حقّ، وأننا قد فقدْنا الرغبةَ إليهن، والتفكيرَ في الاتصالِ بهن، فلم يعدْ لنا عندهن أيُّ حقٍّ أو إرْبَةٍ أو حاجة!

وأنتَ تعلمُ رغبتَنا، التي حصَرْناها في طلب أمثالِنا من الرجال، وحِرْصِنا على الاتصالِ الشهواني بهم، وأنت عندك ضيوفٌ رجالٌ حسان، فرغبتُنا فيهم، وحاجتُنا عندهم! فلا بدَّ أن تُسلمهم لنا!

وأصرَّ لوطٌ عليه السلام على الدفاعِ عن ضيوفه، وأصرَّ قومُه على أخذِهم منه.

وأمامَ دفاعِه وثباته، أرادوا اقتحامَ بيته، وإخراجَ ضيوفه بالقوة، فصاحَ فيهم قائلاً: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠].

تمنى لوط لو كان يأوي إلى ركن بشري قوي:

إنَّ لوطاً عليه السلام وحيدٌ بينهم، ليس واحداً منهم، وليسَ له في القرية أقاربُ أو أهلٌ أو عشيرة أو أنصار، ليس معه أفرادٌ من البشر يَقفون معه، وينَصرونه، ولذلك تمنّى لو كان له بهم قوةٌ من البشر، تواجِهُهم وتحاربُهم، وتمنعُهم وتدفعهم.

وتمنّى لو كانَ يأوي إلى ﴿رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، وقصْدُه بالركنِ الشديد: القوة المادية البشرية، التي يركنُ إليها ويَستنصرُ بها، يأوي إليها ويحتمي بها.

لقد أرادَ لوطٌ عليه السلام قوةً ماديةً إيمانية، تقفُ أمامَ قوتهم المادية الجاهلية، وأرادَ أن يأويَ إلى ركنٍ ماديٍّ بشري، في مقابلِ ركنِهم الماديِّ البشري.

ولم ينسَ لوطٌ عليه السلام قوةَ الله، ولم ينسَ أنه كان يأوي إلى ركنِ الله القويِّ الشديدِ المتين، فهو نبي ورسول، لا يَغيبُ عنه هذا المعنى.

وعلى هذا الأساسِ نفهمُ ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «نحنُ أحقُّ بالشك من إبراهيم، ويرحمُ اللّهُ لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثْتُ في السجن ما لبثَ يوسفُ لأَجَبْتُ الداعي»[1].

إن الرسولَ ﷺ لا يُدينُ لوطاً عليه السلام في هذا الحديث، وكلامُه لا يدلُّ على أن لوطاً نسي أنه كان يأوي إلى ركنِ الله الشديد.

إنما أرادَ الرسولُ ﷺ أنْ يخبرَنا أنَّ لوطاً كان يعلمُ أنه يأوي إلى ركن الله، لأن اللّهَ أرسله، وأنَّ قولَه لقومه: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ لا يعني نسيانَه إيواءَه إلى ركن الله.

إنَّ يقينَ لوطٍ أنه كان يأوي إلى ركنِ الله، أمرٌ مفروغٌ منه، وكلامُ لوط لقومه بَحْثٌ عن قوةٍ بشرية، ومنعةٍ مادية، وركنٍ واقعي من عالمِ الواقع البشري ـ كما سبق أن قلنا ـ.

وقد أخبرَنا رسولُ الله ﷺ أن كلَّ نبي بعدَ لوط كان في منعةٍ من قومه. فروى الترمذيُّ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «رحمَ الله لوطاً، كان يأوي إلى ركنٍ شديد، وما بعثَ اللّهُ بعدَه نبياً، إلا وهو في ثروة من قومه»[2].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٧٢. ومسلم برقم: ١٥١. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٤٠.

(٢) أخرجه الترمذي برقم: ٣١١٦. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ١٣٩.

[١٠]

إن موعدهم الصبح

حدثَ المشهدُ السابقُ بلقطاتِه العديدة، ومناظرِه المثيرة، بين لوطٍ وبين قومه ـ على مرأى ومسمعٍ من ضيوفِه.

كلُّ هذا والضيوفُ ساكتون، مع أن المعركةَ بشأنهم، ولكنهم كانوا آمِنين مطمئنين.

لوطٌ لم يعرف هويتَهم، وقومُه الشاذون لا يعلمون مَن هم.

ولما وصلت المعركةُ بين لوطٍ وبين قومه إلى هذا المشهد، الذي ما بقيَ بعده ما يدعو للسكوتِ أو التفرجِ والانتظار.

عند ذلك كَشفوا للوط الحقيقة، وعَرَّفوه على أنفسهم ومهمتِهم، وطَمأنوه قائلين: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾!

الملائكة يعرفون لوطاً عليهم ويرشدونه إلى الخروج:

أخبروه أَنهم ملائكة، متحوِّلون في صورةِ بشر، أرسلَهم اللَّهُ على هذه الصورةِ لإِقامةِ الحجة على قومِ لوط، والإِشهادِ على جرائمهم، ثم إيقاع العذابِ والدمار بهم.

وطَمأنوه عليهم، فقومُه عاجزون عن الدخولِ إلى بيته، وعن الوصولِ إليه، وعن أَخذِ ضيوفه.

ويبدو أنَّ الحكمةَ في تأخُّرِ الملائكة في التعريفِ على أنفسهم، هي إقامةُ الحجة على القومِ الشاذين، والإِشهادُ عَليهم، ليكونَ هؤلاء الملائكة شهوداً عليهم، عندما عَلموا برغبتهم الشاذة، ومحاولاتِهم الآثمة.

كما أنَّ الحكمةَ هي تسجيلُ ذلك الموقف الكريم للوطٍ عليه السلام، في وعْظِه لقومه، ودفاعِه عن ضيوفه، وردِّ الأذى عنهم، ليكون قدوةً للمؤمنين من بعده، في ذلك الموقفِ الإِيمانيِّ الفريد.

وبعدما أَطلعَ الملائكةُ لوطاً على هويتهم، أَخْبَروه بمهمتهم: ﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الحجر: ٦٣ ـ ٦٤].

جئناك بما طلبوه منك من العذاب، عندما قالوا لك: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فها هو العذاب قادم إليهم.

وقالوا له: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [العنكبوت: ٣٣ ـ ٣٤].

وأَرشدوهُ إلى طريقةِ الخلاصِ والنجاةِ من الدمار والعذاب القادم إليهم، وقالوا له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

وقالوا له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الحجر: ٦٥].

﴿فَأَسْرِ﴾: فعْلُ أمْرٍ من السُّرى.

قال الراغب: «السُّرى: سيرُ الليل. يقال: سَرى وأَسرى. قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ [هود: ٨١] وقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]»[(١)].

و«قِطْعُ الليل»: الجزءُ والقطعةُ منه.

فمعنى قولِهم له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: انتظرْ حتى يأتيَ الليل، ويحلَّ الظلام، وعند ذلك خذْ أهلك المؤمنين الصالحين، واخْرُجْ بهم من هذه القرية، واستغلّ الليلَ والظلامَ للخروج، لئلا يعلمَ بكم أحد.

---

(١) المفردات: ٤٠٨.

أُخرجوا من القرية قبلَ أنْ يقعَ بها الدمارُ والعذاب، ولا يلتفتْ أحدٌ من أهلك الناجين إلى ما سيحلُّ بالقرية من الدمار، ولا ينظرْ إليها وهي تُدمَّر: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾.

وهناك احتمالان في معنى الالتفاتِ المنهيِّ عنه:

عدم التفاتهم واتباع أدبارهم:

الأول: الالتفاتُ الماديُّ الحسي، القائمُ على نظرِ العين، نُهوا عن الالتفاتِ وراءَهم، والنظرِ إلى الدمار الذي سيقع بالقوم، لئلا تُخطفَ أبصارُهم من هولِ ما سيشاهدون.

الثاني: الالتفاتُ المعنوي. حيثُ نُهوا عن التأخُّرِ في القرية، والالتفاتِ إلى الأَغراضِ والأشياء والمتاع، والحرصِ على جمعه والحصولِ عليه وأخذه، لأن ذلك الالتفاتَ يؤدي إلى التأخيرِ في اللبثِ في القرية، والتعوُّقِ في جمع الأشياء، وبهذا يكونون عرضةً للعذاب الذي سيقعُ بالقوم.

فعليهم أنْ يسارِعوا في الخروج، ويباشروا في السُّرى والنجاةِ بقِطْعٍ من الليل، وأنْ لا يلتفتوا إلى أيِّ شيء آخر، وأن لا ينشغلوا به.

ومع احتمالِ الجملة ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ للاحتمالَيْن، فإنني أميلُ إلى ترجيح الاحتمال الثاني، الذي هو أكثرُ اتفاقاً مع الحكمةِ من النهي.

وأمرَ الملائكةُ لوطاً قائلين: ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ﴾. والكلامُ عن القوم المؤمنين الناجين، أي: عليهِ أنْ يخرجَ ويَسْرِيَ بهم أثناءَ الليل، في غايةِ السرعة، وأنْ لا يلتفتَ أو يتأخرَ أحدٌ منهم، ثم عليه أنْ يجعلَهم يسيرون أمامه، متوجهين إلى مكانِ النجاة، وهو يسيرُ خلْفَهم، ويتبعُ أدبارَهم.

والحكمةُ من اتِّباعه أَدبارَهم: المبالغةُ في الحرص عليهم وتفقدهم، بحيث لا يتأخرُ أو يلتفتُ أحدٌ منهم، والمبالغةُ في حثهم

على الإِسراعِ في السير، وعدمِ الانشغال عن ذلك بأيِّ شاغل.

وفي هذا إشارةٌ إلى وظيفةِ القائد في العنايةِ بالجند، وواجبِ الراعي في المحافظةِ على الرعية، إن لوطاً عليه السلام راعي أهلِه المؤمنين، ولا بدَّ أنْ يتبعَ أدبارهم، وأنْ يسيرَ خلفهم، ليكونوا في مأمن.

ونَهوهُ عن اصطحابِ امرأته العجوزِ الكافرة الهالكة معهم، وطلبوا منه إبقاءَها مع قومها، لتهلكَ بهلاكهم، ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ﴾.

وأَمروهُ بالتوجُّه مع الناجين مسرعين، إلى حيثُ الأمان: ﴿وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾.

والمضيُّ هو السيرُ السريع، وذلك ليبتعدوا عن دائرةِ العذاب، ويصلوا إِلى مكانِ الأمان.

المكان الذي ذهبوا إليه مبهم غير مبين:

والجملة ﴿وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾ مبهمةٌ غيرُ محدَّدة ولا مبيَّنة، وكلُّ ما يُؤْخَذُ منها أن لوطاً وأهلَه المؤمنين خرَجوا من القرية، قبلَ تدميرِها، وتوجَّهوا إلى المكانِ الآمنِ الذي وجههم اللَّهُ إليه.

أما تحديدُ موقعِ ذلك المكان الذي مضوا إليه، وتبيينُ اسمه وجهتِه، وهل هو واقعٌ شرقَ القرية التي ستدمَّرُ أم غربُها، أم شمالُها أم جنوبها، فهذا مبهمٌ غيرُ محدد في الآية، ولم يبيِّنه رسولُ الله ﷺ.

فلا نعرف ذلك المكانَ الذي أنجاهم اللَّهُ إليه، ولا يضرُّنا عدمُ العلم به، ونبقى مع إيحاءاتِ الآية، كما فعلَ أصحابُ الرسولِ ﷺ.

وأخبرَ الملائكةُ لوطاً بقربِ وقوعِ العذاب بهم، فلم يبقَ من حياتِهم إلا جزءٌ من ليلة: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾...

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

ودابرُ القوم هو آخرُ القوم، الذي يدبرُهم ويكونُ وراءهم، وهذا إشارةٌ إلى شمولِهم جميعاً بالعذاب. فإذا كان القومُ طابوراً يمرُّون على العذاب، أو يمرُّ بهم العذاب، ووصلَ العذابُ إلى دابرِ الطابور الواقف في آخره، فمعناه أنَّ العذاب وقَع بكلِّ مَنْ في الطابور.

إنهم سيعذَّبون مصبحين، وإنّ الدمارَ واقعٌ بهم عند الصباح، والصبحُ قريب. وأَخبروه بقربِ حلولِ الصبح، الذي يحملُ معه الدمارَ والعذاب، من بابِ المبالغة في تبشيرِه وتطمينه، لأنه كان يتشوقُ طويلاً لساعةِ دمارهم!

[١١]

امرأة لوط: عجوز غابرة هالكة

لما أخبرت الملائكةُ لوطاً عليه السلام بنجاتِه هو وأهله المؤمنين، استثنوا امرأتَه الكافرة، لأنها ستكونُ مع القومِ المعذَّبين.

قالوا للوط عليه السلام: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾.

وقالوا له: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

لقد اختارت امرأةُ لوطِ النبي ـ عليه السلام ـ الكفرَ بالله عز وجل، ولم تتأثرْ بإيمانِ ونبوةِ زوجها، ولم تدخُلْ في دينه، وآثرتْ أنْ تكونَ على دينِ قومِها الكافرين الشاذين.

مع أنَّ لوطاً عليه السلام دعا امرأتَه عدةَ مراتٍ إلى الله واستخدمَ معها أحسنَ الأساليب والوسائل، لكنها أغلقتْ قلبَها، وأَصَمَّت أُذنيْها، ورفضتْ تلك الدعوةَ الإِيمانية.

امرأة لوط كافرة خائنة هالكة:

وضربَ اللَّهُ لنا المثلَ بامرأةِ لوط، وقبلَها امرأةِ نوح، هاتان المرأتان تزوّجتا نبييْن رسوليْن، ودعا كلٌّ منهما امرأته إلى الإِيمانِ بالله، ولكن كلُّ امرأةٍ منهما كفرتْ بزوجها النبي.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: ١٠].

كانت امرأةُ لوطٍ تحتَ عصمةِ زوجها النبيِّ عليه السلام، فخانتْ زوجَها، وخيانتها له المذكورةُ في الآية ليست الخيانةَ في عِرْضِها وشرفِها، أي أنها لم تكنْ زانية، وإنما خيانتُها له خيانةٌ في الدين، لأنها رفضتْ دينَه الحق، واختارت الدينَ الباطل، وهو الكفر.

ورفضُها لدين زوجها اعتُبر خيانةً منها، لأَنها تركت الحقَّ إلى الباطل، والإِيمانَ إلى الكفر، ولم تتبع زوجَها وهو نبيٌّ كريمٌ عليه السلام.

ولأنها كفرتْ بالله، لم ينفعْها كونُها امرأةَ نبي، ولم يدفعْ ذلك عنها العذاب، فكانتْ مع الغابرين الهالكين، وفي الآخرة لا يشفعُ لها زوجُها، ولا يمنعُها ذلك من دخولِها النارَ مع الداخلين، وخلودِها فيها مع الخالدين.

وقد نصتْ آياتُ قصةِ لوطٍ عليه السلام على هلاكِ امرأتِهِ مع القوم الهالكين الغابرين.

قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأعراف: ٨٣].

وقال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الحجر: ٥٨ ـ ٦٠].

وقال تعالى: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [الشعراء: ١٦٩ ـ ١٧١].

وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [النمل: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الصافات: ١٣٣ ـ ١٣٥].

في هذه المواضع الستةِ من هذه السورةِ الستِّ يخبرُ الله أن امرأةَ لوطٍ عليه السلام كانت عجوزاً في الغابرين، وقدَّرَ اللَّهُ أن تكونَ في الغابرين، وأنْ تبقى مع الغابرين، وأنْ تهلكَ مع الغابرين..

و «الغابرون» جمعُ غابِر، والمرادُ بهم قومُ لوطِ المعذَّبون الهالكون، واعتُبروا غابِرين، لأنهم غَبروا وبَقوا منتظرين للعذاب.

قال الراغبُ في معنى غابر: «الغابر: الماكِثُ بعدَ مضيِّ ما هو مَعه، قال تعالى: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾: يعني في من طالَ أعمارهم، وقيل: فيمنْ بقي ولم يَسِرْ مع لوط..»[١].

والراجحُ أَنهم غابرون من البَقاء، أي: الذين بَقوا في قريتهم ينتظرون وقوعَ العذاب بهم. وامرأةُ لوطٍ عجوزٌ في الغابرين، لأنها تخلفتْ مع القومِ الهالكين، ولم تسِرْ مع أهلِ لوط المؤمنين الناجين.

لقد قعد بها كفرها، ولم تملكْ إيماناً ينهضُ بها لتسيرَ مع الذين نهضَ بهم إيمانُهم من أهلِ لوط عليه السلام.

---

(١) المفردات: ٦٠١.

كل أهله مؤمنون إلا امرأته العجوز:

ولما غبرتْ تلكَ العجوزُ مع الغابرين، هلكتْ مع الهالكين المعذَّبين.

وتخبر الآياتُ عن نجاةِ أهل لوط أجمعين، إلا عجوزَه الهالكة، وفي هذا دلالةٌ على أنَّ كلَّ أهلِه كانوا مؤمنين صالحين، إلا تلكَ العجوزَ الكافرة.

وكلمةُ ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾ مبهمة في الآيات، ولا نملكُ دليلاً على تعيينها أو تبيينها، فلا نعرفُ عددَ أهله المؤمنين، ولا درجةَ قرابتهم له، ولا تصنيفَ هؤلاء بين ذكورٍ وإناث، بنين وبنات، وإخوان وأخوات.

وكلُّ ما نعرفُه أنَّ أهله لم يكونوا إلاّ بيتاً واحداً من بيوت القريةِ الكثيرة، بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات: ٣٥ ـ ٣٦].

كلُّ هؤلاء المؤمنين لم يكونوا إلا أهلَ بيتٍ واحد فقط.

وقد فرقتْ هذه الآياتُ بين المؤمنين والمسلمين حسبَ الظاهر، ولكن الكلامَ في الحقيقة عن نفسِ الصنف، حيث أعطتْهم الآياتُ صفتيْن: فهم أوّلاً مؤمنون، وهم أنفسُهم سكانُ بيتٍ من المسلمين، فأعطتْهم الآياتُ صفة الإيمان، ثم أعطتْهم صفَةَ الإسلام، فالمؤمنون المذكورون هنا، هم أنفُسهم المذكورون في الآيات، فلا فرقَ في الآياتِ بين المؤمنين والمسلمين!

وهذا يدلُّنا على قلةِ القوم الذين اتبعوا لوطاً عليه السلام، لأنَّ قومَه أطبقوا وأجمعوا على الكفرِ والشذوذِ، حتى إنَّ امرأتَه نفسَها رفضت الاستجابةَ له، وكلُّ حصيلةِ دعوته أهلُ بيتٍ واحدٍ فقط!!!

[١٢]

المؤتفكات: جعلنا عاليها سافلها

أوقعَ اللّهُ بقومِ لوطٍ عذاباً خاصاً عجيباً، لم يوقِعْ مثلَه في أقوامِ

كافرين آخرين، وهذا العذابُ يتناسبُ مع جرائمهم التي ارتكبوها، ومع شذوذِهم الذي ارتكسوا فيه.

الآيات في تعذيب قوم لوط:

ونقفُ مع الآيات التي تحدثتْ عن عذابهم ودمارهم:

قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأعراف: ٨٤].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ٨٢ ـ ٨٣].

وقال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر: ٧٢ ـ ٧٤].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الشعراء: ١٧٢ ـ ١٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [النمل: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [العنكبوت: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الذاريات: ٣٢ ـ ٣٤].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي

﴿وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾ [القمر: ٣٣ ـ ٣٨].

كان تعذيبهم على مرحلتين:

توحي آياتُ سورةِ القمر أنَّ العذابَ وقعَ بهم على مرحلتَيْن:

المرحلة الأولى: إن اللَّهَ طمسَ أعينهم فأعماهم، وكان هذا في الليل، عندما راوَدوا لوطاً عن ضيوفه الملائكة، فأمرتْه الملائكةُ أنْ يسيرَ مع أهله المؤمنين وقتَ السحر، وطمسوا أعينَ القومِ الشاذين المتجمهرين على باب منزلِ لوط، فأُصيبوا بالعمى، فعادوا عمياناً لا يرونَ شيئاً، ولا يلوون على شيء!

المرحلةُ الثانية: إيقاعُ الدمارِ بهم، وكان هذا عندَ صباحِ اليوم التالي: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾.

أخبرت الملائكةُ لوطاً عليه السلام أنَّ العذابَ واقعٌ بالقوم في الصباح، عندما يكونون مُصبحين: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾.

ولما جاءَ الصباح، وأَشرقتِ الشمس، أخذتْهم الصيحة: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

والصيحةُ التي أخذتْهم صيحةٌ خاصة، انشقت بها الأرض، وأحدثَتْ صوتاً عالياً مفزعاً، وكان هذا وقتَ شروقِ الشمس. ومعنى ﴿مُشْرِقِينَ﴾: عندما حلَّ بهم وقتُ الشروق.

هذه الصيحةُ العجيبةُ مبهمة، غيرُ مفصلة ولا محدَّدة ولا مبيَّنة. فلا نقولُ عنها إلا أنها صيحةٌ قوية، نتجَ عنها صوتٌ مفزع، وأعقبها التدميرُ والمطرُ والحجارة وقلبُ عالي القرية سافلها.

وبعد الصيحةِ قلبَ اللَّهُ القريةَ قلباً، فجعلَ عاليها سافلَها: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾.

وعالي بيوتِ القرية هو سقوفُها، وسافلُها هو أساساتُها وأرضيتُها،

فلما دمرَ اللّهُ تلك القرية قلبَ بيوتَها قلباً، فصارتْ أرضيتُها وأسَاساتُها إلى الأعلىٰ، صارتْ سقوفُها إلى الأسفل، وقُضيَ على أهل تلك البيوت.

وأعقبَ اللهُ قلبَ البيوت بأنْ أمطرَ عليها مطراً خاصاً، ليس ماءً عذباً، ولا غَيثاً مغيثاً، ولكنه مطرٌ من حجارة من سجيل.

والمطرُ في القرآن لم يردْ إلا في سياقِ الأذى أو العقابِ والعذاب، بل إنَّ اشتقاقاتِ وتعريفاتِ المطر في القرآن، معظمها في ذلك المطرِ الخاص المكونِ من حجارةِ السجيل، الذي أوقعه اللّهُ بقومِ لوط.

المطر حجارة من سجيل منضود وهي مسومة محددة:

ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴿٨٢﴾﴾.

والسّجّيل: هو الحجرُ المكوَّنُ من طين. قال الإمام الراغب: «السّجّيل: حجرٌ وطينٌ مختلِط»[1].

وقد سمّى اللّهُ هذه الحجارة هنا سجّيلاً، بينما ذكرتْ آيةٌ أخرى أنها حجارةٌ من طين: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴿٣٣﴾﴾.

وحجارةُ السجّيل هي حجارةُ الطين، لكن اختلافَ التعبيرِ في الآيات عنهما حسبَ الحالة.

فكانت هذه الحجارةُ تمرُّ بحالتين:

الحالة الأولى: صناعتها من طين: وذلك قبلَ يُبْسِها ونُضجِها، حيث قال عنها: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴿٣٣﴾﴾.

والحالة الثانية: يبسُ ونضجُ هذه الحجارةِ الطينية، حيث قال عنها: ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾.

---

(١) المفردات: ٣٩٨.

ولذلك وصفَ هذه الحجارةَ من سجيل بقوله: ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾.

و﴿مَّنضُودٍ﴾ اسمُ مفعول، من التَّنضيد، وهو بمعنى الترتيبِ والتنسيق والتراكم. تقول: نضدتُ المتاع: إذا رتبتُه بعضَه على بعض. وتقول: سَحابٌ منضود: متراكمٌ بعضُه فوق بعض[1].

وهذه الحجارة ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ أي أنها معدةٌ إعداداً خاصاً عند الله لهؤلاء القوم، وهي معلَّمةٌ بعلاماتٍ خاصة لهم، وكأن كلَّ واحدٍ من القوم أعدَّ اللهُ حجراً خاصاً به، وعلَّمه له بعلاماتٍ خاصة، لا يخطئه، ولا يتعدّاه إلى غيره، فهو له خاصة[2].

وتَصوَّرْ منظرَ المطرِ الخاصِّ من الحجارة، يعقبُ قلبَ بيوتِ القرية، ويُصيبُ كلَّ واحد من أهلها حجرُه الخاصُّ به، المعَدُّ لَه وحده، ويكون به هلاكُه والقضاءُ عليه.

وما هي إلا لحظاتٌ حتى دمرَ اللّهُ قريةَ قومِ لوط الكبيرة، ودمَّرَ قراهم الأُخرى المحيطة بها، وقضى على هؤلاء القومِ الكافرين الشاذين، الذين ملؤوا المنطقةَ شذوذاً وفساداً، وعُهراً وفُجوراً، ورِجساً وقذارة، فزالوا عن وجهِ الأرض، وذهبوا إلى لعنةِ الله وعذابه.

ورأى لوطٌ وأهلُه المؤمنون ما حلَّ بالقومِ الكافرين الشاذين من هلاك، وما وقعَ بقُراهم من دمار، فحمدوا نعمةَ اللّهِ على الإِيمان والإِسلام، وعلى الطهارةِ والعفاف، وفرحوا بالقضاءِ على أولئك الشاذين المفسدين!!

ولا يهمُّنا تعليلُ ما جرى لقرى قوم لوطٍ من الدمار، وتصنيفُه في خانةِ البراكينِ المدمِّرة، والزلازلِ العنيفَة، فقد يكونُ هذا وقد يكونُ غيره.

---

(١) انظر المفردات: ٨١٠.

(٢) المرجع السابق: ٤٣٨.

كلُّ ما يهمُّنا معرفتُه هو أنَّ ما وقعَ بهم ـ مهما كان تعليلُه العلمي ـ فهو بأمْرِ الله وإرادتِه ومشيئتِه، وأنه كان عقاباً لهم على كُفرهم، وعلى شُذوذهم وإتيانِهم الذكرانَ من العالمين، فعذَّبهم اللّهُ بهذا العذاب الخاص، الذي قلبَ فيه بيوتَهم ومساكنَهم وقُراهم.

المؤتفكة والمؤتفكات وسبب قلب بيوتهم:

وسمّى اللّهُ قريتَهم الكبيرةَ المدمَّرة «المؤتفكة»، فقال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾ [النجم: ٥٣ ـ ٥٤].

وسمّى اللّهُ ما حولَها من القرى «المؤتفكات» فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ [التوبة: ٧٠].

وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ [الحاقة: ٩].

فما معنى «مؤتفكة»؟ ولماذ سُميت بذلك؟

إنَّ «مُؤْتَفِكَة» مفرد «مؤتفكات»، وهي اسمُ فاعل من الإِفْك.

قال الإمام الراغب في معنى الإِفك: «الإِفْكُ: كلُّ مصروفٍ عن وجهه، الذي يحقُّ أنْ يكونَ عليه».

. . . ورجلٌ مأفوك: مصروفٌ عن الحقِّ إلى الباطل»[1].

وإذا كان الإِفكُ هو صرفَ الشيء عن وجهه الذي يحقُّ أنْ يكونَ عليه، فقد سمّى قرى قومَ لوطٍ بالمؤتفكات، لأنها مصروفاتٌ مقلوبات.

إنَّ الإِفكَ هو قلبُ الحقائق، وتحويلُ الحقِّ إلى باطل، وتحويلُ الصدقِ إلى كذب، والكذب إلى صدق.

ولقد قلبَ اللهُ بيوتَ قوم لوط لما دمَّرها قلْباً، فجعلَ عاليَها سافلَها، فصارت «مؤتفكات» أي: مصروفات مقلوبات.

---

(١) المفردات: ٧٩ ـ ٨٠.

فما الحكمةُ من ذلك؟ ولماذا عَذَّبهم بهذا العذاب الخاص بهم؟

إنه عذابٌ يتناسبُ مع جرائمهم وشذوذهم، والعذابُ والعقابُ والجزاءُ من جنس العمل.

لقد تركَ أولئك الشاذون النساءَ إلى الرجال، وقضوا شهواتهم عندَ أمثالِهم من نفسِ الجنس، وبذلك قلَبوا الحقائقَ والقيم، وقلبوا الفطرةَ والمنطق، وحَوَّلوا الرجلَ الذكر الذي خلقه الله ليطلبَ النساء، ويكون فاعلاً في امرأته، وجعلوهُ مطلوباً مِن قِبَلِ الرجالِ الشاذين، مفعولاً فيه، مركوباً لهم! وهذا هو الإِفكُ بعينه، وهذا هو قلبُ الحقائق، وهذا هو الصرفُ عن الفطرةِ إلى الشذوذ!

ولذلك ناسبَ أن يقلبَ اللّهُ بيوتَهم بعد أنْ قلبوا فطرتَهم ورجولتَهم، فجعلَ عاليها سافلها، لأنهم كانوا يركبونَ الرجالَ من العالمين، والأصلُ أن يكونَ هؤلاء الرجالُ راكبين، طالبين للنساء!!

[١٣]

قراهم آية: وما هي من الظالمين ببعيد

أبقى الله المؤتفكات آية للاعتبار بها:

بعدَ أنْ دمّرَ اللّهُ قرى قومِ لوط، وصارتْ مؤتفكات أَبقاها اللّهُ آيةً وعبرةً لمن بعدَهم، لتبقى شاهدةً على تدميرِ وإهلاكِ كلِّ مَنْ فعلَ فعلَهم، وشذَّ شذوذهم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت: ٣٥].

أي: أبقى اللّهُ من مكانِ تلك القرى المدمرة آيةً وعبرةً وعظة، لكلِّ مَن أَرادوا أَنْ يَعقلوا ويَعتبروا ويَتَّعظوا.

وقال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ [الذاريات: ٣٧].

وهذا يوحي أنَّ الذين يَعتبرون ويَتَّعظون، ويَستفيدون من هذه الآياتِ الباقيةِ من قُرى قوم لوط، هم القومُ المؤمنون الصالحون، الذين يفكرونَ في الآخرة، وفي الوقوفِ بين يدي الله، ويَخافون أنْ يوقِعَ بهم العذابَ الأليم، سواءً في الدنيا، أو في الآخرة.

وقد ذمَّ الله الكافرين من العرب الذين يمرّون على ديارِ القوم المعذبين، ومع ذلك كانوا لا يعتبرون بما جَرى لأهلها.

فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠)﴾ [الفرقان: ٤٠].

والقريةُ المذكورةُ هنا هي «المؤتفكة» التي كان يقيمُ فيها قومُ لوط، ومطرُ السوء الذي وقعَ بها هو: الحجارةُ من سجيلٍ منضود، التي ألقاها الله على هؤلاء القومِ فأهلكَهم.

وكانَ العربُ يمرّونَ على هذه القرية، ويأتونَ عليها في رحلاتِهم وتجاراتِهم إلى الشام، وكانوا يرونَها، ومع ذلك كانوا لا يَتَّعظون، ولا يَعتبرون، لأنهم كانوا لا يؤمِنونَ بالبعث، ولا يَرجون النشور.

وقال تعالى في الموضوع نفسه: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾ [الصافات: ١٣٧ ـ ١٣٨].

كانت في طريق العرب التجاري للشام:

يقولُ لكفارِ العرب المتاجِرينَ في الشام: إنكم عندما تسافرون إلى الشام، وعندما تعودون من الشام، تمرّونَ على ديارِ قومِ لوط المعذَّبين، وتشاهدون الدمارَ الذي حلَّ بها.

تَمرون عليهم مصبحين وقتَ الصبح أحياناً، وتَمرون عليهم بالليل أحياناً أُخرى، سواءٌ عند ذهابكم إلى الشام، أو عند عودتكم منه.

وتلومُهم الآية، لأنَّ مشاهدتَهم لهذه القرى المدمَّرة، لا تدعوهم إلى التفكيرِ في سبب ما حلَّ بها وبأهلها، والاعتبارِ والاتعاظِ لذلك: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

إنَّ مشاهدةَ ما حلَّ بهذه القرى عند العاقلِ المتفكِرِ البصير، تَدْعوه إلى الاعتبارِ والتساؤل: ماذا فعلَ أَهْلُها الذين كانوا فيها حتى أهلكَهم الله؟ وذلك ليتجنَّبَ أفعالهم، ويحذرَ فسادَهم، لئلا يصيبَه ما أصابَهم!

وتشيرُ هذه الآياتُ إلى حقيقةٍ أخرى، وهي جغرافيةٌ تجارية، تتعلقُ بخطِّ سير الرحلةِ التجارية لقريش، والطريقِ التي كانوا يسلكونَها في الذهابِ إلى الشام والعودةِ منه. فإذا كانت «المؤتفكة» هي التي حلَّتْ محلَّها البحيرةُ المالحةُ المنتنة، المسماةُ ببحرِ لوط، وهو المعروفُ الآن بالبحرِ الميت، وإذا كان تجارُ قريش يمرّون على ديارِهم في منطقةِ البحر الميت في الصباحِ والمساء، فإن هذا معناه أنَّ طريقَ التجارة كانت تمرُّ من العقبة ووادي عربة والبحر الميت والأغوار، ثم السير شمالاً نحو دمشق الشام.

وتدعو آياتُ القرآن إلى النظرِ والاعتبار بما جرى لأولئك القوم. قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴿٨٤﴾﴾ [الأعراف: ٨٤].

إننا مأمورون بالنظرِ والاعتبار في هذه الآية، وليس المرادُ بهذا النظر نظرَ العين فقط، بل هو نظرُ العين الذي يوصِلُ إلى العقل والقلب، فيجعلُ العقلَ ينظرُ ويتفكر، ويجعلُ القلبَ ينظرُ ويتدبر، وهذا النظرُ يقودُ إلى الالتزامِ بالطاعةِ والخير، والإقلاع عن الفساد والشر.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾: كان قومُ لوطٍ شاذين مجرمين، فكيف كانت عاقبتُهم ونهايتُهم؟ ولماذا كانت هذه هي النهاية لهم؟ وماذا يُستفادُ من ذلك؟

إنها أسئلةٌ يطرحُها عليه كلُّ عاقلٍ بصير، ليرى هذه العاقبةَ المؤلمة، والنهايةَ الفاجعة، لكلِّ مجرمين مسرفين، شاذّين معتدين.

وقد جاءَ هذا المعنى أيضاً صريحاً منصوصاً عليه، في التعقيب على قصةِ قوم لوطٍ في سورة الحجر. قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الحجر: ٧٣ ـ ٧٧].

قرى قوم لوط المدمرةُ موجودةٌ بسبيل مقيم. والسبيلُ هي الطريقُ المسلوك، الذي كان يسلكُه ويسيرُ فيه التجارُ العرب.

ولم يكونوا يَتَّعظون بها، لأنهم لم يكونوا مؤمنين، والآياتُ التي فيها للمؤمنين والمتوسمين، والمعاني التي تطلقُها لا يأخذُها إلا المؤمنون المتوسمون، والعبرُ والدروسُ والدلالاتُ التي فيها، لا يلتفتُ لها إلا المؤمنون المتوسمون.

من هم المتوسمون؟ وما هو التوسم؟:

فمن هم المتوسِّمون المذكورون في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

المتوسِّمون: جمع «المتوسِّم»، وهو اسمُ فاعل مِن «تَوسَّم».

قال الإمامُ الراغبُ عن التوسم: «الوَسْم: التأثير. والسِّمَة: الأثَر. يقال: وَسَمْتُ الشيءَ وَسْماً: إذا أثرَّتُ فيه بِسِمَة، قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: للمعْتَبِرين العارفين المتَّعظين. وهذا التوسُّمُ هو الذي سَمّاه قومٌ: الزكانة، وقومٌ الفراسة، وقومٌ الفطنة. قال عليه الصلاة والسلام: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله»...

وتوسَّمْتُ: تعرَّفْتُ بالسِّمة.. وفلانٌ وسيمُ الوجه حَسَنُه»[١].

---

(١) المفردات: ٨٧١ ـ ٨٧٢.

وقالَ السمينُ الحلبي عن التوسُّم والمتوسمين: «المتوسِّمون: المعتبرون، الذين يتوسَّمون الأمور. أي: يتبيَّنونها تَبَيُّنَ مَنْ يتوسَّمُ الشيءَ، أي يتعرَّفُه بوَسْمِه.

وتقول: توسمتُ فيه خيراً: تعرَّفْتُ وَسْمَةً فيه.

والتوسُّم: يقربُ من الفراسة. وهذا التوسُّمُ هو الذي سمّاه قومٌ الزكانة، وقومٌ الفطنة، وقومٌ الفراسة»[1].

المتوسِّمون هم المؤمنون، لأنهم هم الذين يتمتّعون بالذكاء والفطنةِ والفراسة والبصيرة، ويتوسَّمون الأُمورَ التي يشاهدونها، ويتبيَّنونها، ويُمعنون النظرَ فيها، ويتعاملون معها بأَنوارِ بصائِرهم الحية، وقلوبهم المبصرة، فيتعرَّفون على حقائِقها، ويستفيدون من عبرِها ودروسها ودلالاتِها.

والمتوسِّمون لم يُذكروا في القرآن إلا في هذا الموضع، في التعقيبِ على تدميرِ قُرى قومِ لوط، لأنَّ شذوذَ وانحرافَ قومِ لوط، الذي أَدّى إلى هلاكِهم، يَحتاجُ إلى فراسةٍ وفطنة وبصيرة، ويحتاجُ إلى تبيُّنٍ وتوسُّم، لئلا يَجريَ الإِنسانُ وراءَ شهواته، ويكونَ أسيرَ هواه وشذوذه، لأنه إنْ فعلَ ذلك وقعَ به العذابُ والهلاك، كما وقعَ بقوم لوطِ الشاذين!

إنَّ التوسُّمَ هو صمامُ الأمان الذي يحجزُ المتوسِّمين عن الانحرافِ والشذوذ. والاستجابةِ لنداء الشهوات الفاجرة.

أينَ المتوسِّمون في هذا العصر الذي فقدَ فيه معظمُ الناس توسُّمهم؟ واستسلموا لشهواتِهم الشاذة المحرمة؟ وصارَ الكثيرُ منهم يبحثُ عن شريكِه من الجنس نفسه، يمارسُ معه شذوذَه وانحرافَه؟

---

(١) عمدة الحفاظ للسمين ٤: ٣٥٩ ـ ٣٦٠.

فصار معظم الناس الكافرين يعيشون في إباحيةٍ حيوانية، ويتقلَّبون في مواخيرِ العهرِ والشهوات!

قرى قوم لوط قريبة من الكافرين والعقوبة قريبة من الشاذين:

لقد أشارتْ آياتُ القرآن إلى قربِ قرى قومِ لوط، وقربِ عقوبة قومِ لوط، من الظالمين الشاذّين، الذين يسيرونَ على طريقِ قومِ لوط في الشذوذ والانحراف، وممارسةِ اللواط. فقال تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣].

إنها قريبةٌ من الظالمين، وليستْ بعيدةً عنهم:

وضمير ﴿هي﴾ في الآية فيه احتمالان:

الأول: أنه يعودُ على قرى قوم لوطِ المدمَّرة، المذكورة من قبل: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝٨٣﴾.

أي: إنّ قُرى قومِ لوط ليستْ بعيدةً من الظالمين الكافرين، من أهلِ مكة وغيرها، فهم يمرّون على هذه القرى مُصْبحين وبالليل، وهي باقيةٌ مقيمةٌ في سبيلِهم وطريقهم، فلماذا لا يَعتبرون بها.

الثاني: أنَّ ﴿هي﴾ يعودُ على العقوبة التي أوقَعها اللّهُ على قوم لوط، حيثُ جعلَ عالي بيوتِهم سافلَها، وأمطرَ عليهم حجارةً من سجيل منضود، وهذه العقوبةُ ليستْ بعيدةً من الظالمين المجرمين الشاذّين، الذين يرتكبون ما كان يرتكبُ قومُ لوط من شذوذٍ وانحراف.

وعلى الاحتمال الثاني تَطلبُ الآيةُ قتلَ اللذيْن يمارسان اللواط كما قتلَ اللّهُ قومَ لوط الشاذِّين.

ومما يؤيدُ الاحتمالَ الثاني، عقوبةُ اللواطيِّين في الإِسلام، حيثُ أمرَ رسولُ الله ﷺ بقتْلِهم.

روى أبـو داود والـتـرمـذي وابـن مـاجـه عـن عـبـد الله بـن عـبـاس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ وجدتُموهُ يعملُ عملَ قومِ لوط، فاقتلوا الفاعلَ والمفعولَ فيه»[1].



(١) أخرجه أبو داود: ٤٤٦٢. والترمذي؛ ١٤٥٦. وابن ماجه: ٢٥٦١. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ١٣٩.



الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة